الدكتور محمد زغلول سلام

الأدب في العصر الأيوبي



الأدب في العصر الأيوبي

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

الدكتور محمد زغلول سلام

الأدبُ فى العصرِ الأيوّبى



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أقدم للقارئ العربى بين دفتى هذا الكتاب خلاصة لدراسة عصر من عصور الإفاقة العربية الإسلامية بدأه صلاح الدين الأيوبى فأرسى قواعده . ووضع أساس النضال العربى المجيد ضد الصليبيين ، وخلد فى التاريخ أمجاداً بطولية فى الكفاح ضد الغاصبين ، كفاحاً سجله التاريخ والأدب وسجلته المآثر الشعبية فى صور من القصص، وبقيت آثار هذا الكفاح تتردد فى جنبات الشرق العربى ومصر خاصة، وتتناقل الأجيال أنباءه فى اعتزاز .

وكان خلفاء صلاح الدين ممن تابعوا رسالته حريصين على السير فى الطريق الذى خطه لهم ، واستمرت دولتهم ما يقرب من قرن من الزمان لم تخمد به جذوة النضال ، وكان آخر ملوكهم فى مصر تورانشاه قائداً مناضلا ضد الصليبيين الذين هاجموا مصر عن طريق دمياط فى صورة حملة هوجاء قادها لويس التاسع ملك فرنسا ، فخاب وخابت وانتهى به الأمر إلى دار ابن لقمان بالمنصورة وبجند فرنسا إلى القتل أو الغرق أو الأسر . وكانت نهاية بالغة الدلالة على ماينال الباغين على الشعوب ، الطامعين فى السيطرة عليها واستغلالها بحجة حماية قبر المسيح .

ولئن تشابه ذاك العصر ، وهو من النصف الثانى للمائة السادسة إلى النصف الأول من المائة السابعة، بعصرنا هذا الذى نعيشه، فإننا حين نسترجع التاريخ والأدب الذى عاشه أسلافنا وخلدوه إنما نتخذ من الماضى مدداً للمستقبل . ومن الحاضر خطوة نحو الغد القوى .

ولئن امتاز عصر صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين بأنه كان عصر إفاقة من التهر والضعف الذى فرضته عليهم ظروف التخلف الاجتماعى والسياسى ، وكان صحوة ونبضة عارمة وتصميماً على درء الخطر ، فإننا كذلك الآن أشد إحساساً

بالقوى التى تترصدنا، لإزالة الكيان العربى الإسلامى وإذابته فى موجات من التغرب بطريق الاستعمار الذى يستخدم قوى مادية هائلة ، وقوى معنوية أشد هولاً .

و إذا كان أجدادنا قد استطاعوا وقف موجات التغلغل الصليبى فتكسرت على صخور صفهم الموحد ونضالهم المستميت ، فحافظوا بذلك على الكيان العربى الإسلامى وصانوه من الضياع ، فما أجدرنا اليوم بأن نراجع أنفسنا ونستعيد أمرنا ونصل بين الماضى والحاضر ، ونقف وقفة الآباء ، مصرين إصرارهم ، واعين لما يحدق بنا وعيهم، متمسكين فى الوقت نفسه بأصول تراثنا ومقوماته الروحية والإنسانية والفكرية، حتى لانضيع فى زحمة التيارات الغربية كما ضاعت كثير من الأمم وفقدت شخصياتها .

وقد كان لمصر دور قيادى فى التصدى لموجات الزحف الصليبى أيام الأيوبيين كما كان لها دور قيادى فى الحفاظ على تراث العرب والمسلمين فى العقيدة وفى الفكر والأدب . ونحاول فى هذه الصفحات أن نبرز هذا الدور ، وأن نقف المواطن على تراث أمتنا وصورة من صور كفاحنا الثقافى حتى لاتضيع عبر السنين وحتى يمكن كما أشرت أن نصل حاضرنا بماضينا ومستقبلنا. وحتى نستطيع أن نرسم أمام أبنائنا الطريق فيتخذون من الدرس الأدبى نبراساً يكشف لهم عن حقائق الماضى فنساعدهم على توجيه خطواتهم فى المستقبل . وحتى يمكن أن نتلمس من مقوماتنا التى نحرص عليها ما يدعم حياتنا الحاضرة ويؤمن زحفنا ، ويحصن أبناءنا ضد تيارات فكرية غريبة ومتباينة قد تعصف بمن لا يثبتون أقدامهم على قواعد متينة من الإيمان بأمجادهم ، وتبلبل قلوب من تزعزع إيمانهم بحضارتهم تحت ضغط الحضارة الغربية وإلحاحها الدائم ، وضعف سبل التعريف بحضارتنا وتراثها الداثر .

وكان رائدى فى هذا الكتاب أن أتعرض لجوانب الضعف والقوة فى مجتمعنا العربى الإسلامى فى القرنين السادس والسابع ، فى عصر بدا للناس أن مجد الأمة العربية الإسلامية إلى زوال ،وأن مغرب الحضارةالزاهرة قد آذن ،وشمسها مالت لمغيب ، فتعرضت للمشكلات السياسية التى واجهت الأمة العربية الإسلامية ، وضممت إلى البلاد العربية شقيقاتها الإسلامية ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت تمتد من الهند إلى الأندلس ، وتبادل العلم والعلماء قائم بين هذه الدول جميعاً وإن

تباعدت أصقاعها ، واختلفت ألوانها السياسية أو تعادى ملوكها وحكامها . فإن الثقافة العربية الإسلامية حينئذ لم تعترف بالحدود الإقليمية ولا السلطان والفوارق السياسية أو العنصرية . فيخرج العلماء من شتى بلاد المشرق أو المغرب ويجوبون هذا العالم العربى الإسلامى من حدود الهند وأذربيجان إلى أقصى حدود المغرب والأندلس .

وكان حماس الملوك والحكام للثقافة العربية والإسلامية كبيراً ، لايضنون عليها بغال . وربما كان « نظام الملك» الوزير السلجوقى مثالا طيباً لهذا ، فقد بنى عدداً من المدارس فى حواضر العالم الإسلامى سميت باسمه ، وكان من أبعدها صيتاً وأضخمها «نظامية » بغداد التى قامت بدور هام فى نشر الثقافة العربية الإسلامية طوال القرنين السادس والسابع . وقد علّم بها وتخرج جماعة من مشهورى هذين القرنين فى الفقه واللغة والحديث والأدب وعلوم الدين . كان بها الإمام الغزالى ، وابن الجوزى ، وعماد الدين الأصفهانى وغيرهم كالتبريزى وابن الخشاب ممن سنعرض لهم بعد قليل .

وكانت غيرة العلماء على العلم والحفاظ عليه من مميزات هذا العصر ، وكان تعبهم فى تحصيله وازدياد المعرفة أمراً ملحوظاً ، فكنت ترى العلماء يقطعون آلاف الأميال ، ويلاقون مشاق السفر وجهد الفاقة للتزود من المختصين المتبحرين أينما كانوا .

ويمثل عصر الأيوبيين من الناحية الفكرية ثورة الفكر السُّنِّى ، وإحياء للتراث العربى الإسلامى ، وحرصاً على الذود عنهما ضد تيارات الفكر الفارسى واليونانى أو الهيلينى ، كما يمثل استماتة فى الدفاع عن ذخائره ضد عوامل الضياع والأغلال والضعف ، والتى بدت فى صورة جمع للذخائر فى موسوعات كبيرة سواء فى الفقه أو اللغة والأدب .

ويحاول هذا الكتاب أن يبرز هذا الدور لنرى كيف كان علماء مصر والشام خاصة فى عصر الأيوبيين يبذلون الجهود ، وما هى ثمرات تلك الجهود من الرسائل والكتب التى خلفها لنا أولئك العلماء والأدباء، وماذا كانت آراؤهم وعواطفهم . وجدير بنا أن نعرف كل ذلك، وقد عرضنا له تفصيلا فى الحديث عن البيئات والمراكز الثقافية ، وعن الأدباء والشعراء .

ويمثل هذا الكتاب محاولة للربط بين البيئات الثقافية فى العالم العربى الإسلامى فى هذا العصر ، ولعلها — كما يبدو لى — أول محاولة من هذا النوع فى هذا العصر على الأقل تجمع فى صعيد واحد أحوال الثقافة فى المشرق والمغرب رابطة بينهما جميعاً ، كما كان العلماء والأدباء أنفسهم يربطون بينهما فى جولاتهم الطويلة . وانصب الاهتمام على الشام ومصر وبيئاتهما الثقافية ، وعلمائهما وأدبائهما وشعرائهما .

وتبرز هذه المحاولة كيف أن تيار الثقافة الإسلامية أخذ فى التحول التدريجى من المشرق والمغرب ليصب فى مصر والشام ، فى القاهرة والإسكندرية وقوص ، ودمشق وحلب ، وكان العلماء الأجلاء المبرزون يفدون من أصبهان ، أو همذان أو مرو ، أو خوارزم فى أقصى المشرق ، أو من الأندلس وبلاد المغرب فيحلون دمشق وحلب والإسكندرية والقاهرة وقوص وأسيوط . ويطمئنون إلى حياتهم بها تحت رعاية الحكام ، وأمن البلاد ، وإقبال الناس ، فينتجون ما شاءوا ويحفظون من التراث ما علقته أذهانهم . وقد أخذت هذه الحركة تزداد تحت ضغط التتار والمغول فى الشرق ، والمسيحيين فى إسبانيا ، فأصبح العلماء يهاجرون جماعات إلى مصر والشام ، وكأن الله قد اختارهما فى سرة العالم العربى الإسلامى للحفاظ على التراث الخالد ، فلم تتطاول إليه أيدى الخراب ، كما تطاولت إلى بلاد المشرق والأندلس بل ظلت كنوزه مختزنة إلى أن أراد الله الكشف عنها لتمد حركة البعث الجديدة للأمة العربية فى القرن العشرين .

وقد أغفلت دراسة هذه الفترة فى التاريخ الأدبى ، ولم توجه إليها العناية اللازمة الجديرة بها ، إنما كانت دراسة تاريخ الأدب عندنا منصبة على العصر الأموى والعصر العباسى فى مراحله المختلفة ، منصبة على جماعة من الأدباء والشعراء تتردد أسماؤهم وتتكرر ، وأغفلنا هذا العصر ، ومن عاش فيه ، مع أن كثيراً من الذخائر العلمية والأدبية قد خرجت منه أو من العصور التالية ، أى طوال أربعمائة سنة كاملة من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ، وتستطيع أن تقف على بعضها فى هذا الكتاب ، وعلى ما يجد من محاولات للعصور التالية إن شاء الله .

بقى أن نشير إلى أن الألوان الأدبية التى تعرضنا لها هنا ، قد لا تروق لكثير

من القارئين لكثرة ما أغرقت فيه من ضروب المحسنات والبديع ، ولكن استساغتها أو عدمها لا يتدخلان فى درس هذا الأدب ، فهو على ما كان يثقله من حُلى تخفى معالمه لا يعدم الجوانب الإنسانية التى نبحث عنها ونفتش ، ولا يعدم أيضاً أن ينقل لنا صوراً للعصر طريفة مشوقة ، كما يعكس لنا عواطف أولئك الناس وخبايا نفوسهم ، ونظراتهم للحياة ، والقيم التى بها يؤمنون . وهذا كله شيء ينبغى أن لا نهمله بحجة أن ذاك الأدب أدب صنعة أو تصنع أو أدب ضعف وتحلل .

فهذه محاولة منصفة لإبراز بعض معالم الأدب المجهول المنسى ، وإلقاء الأضواء عليه لنقف على جوانب ضعفه ، كما وقفنا على جوانب القوة فى أدب الأمويين والعباسيين .

وبعد ، فعلى أن أكون قد قدمت للقارئ العربى الإسلامى بعض ما يستطيع أن يتذكر به ماضيه ، ويقف على تراثه العريق فى طريقنا إلى بناء أمتنا الفتية الناهضة . . .

القاهرة فى يونيو سنة ١٩٦٧

محمد زغلول سلام

الباب الأول

الوطن الجغرافى والجو السياسى لدولة الأيوبيين

امتدت دولة الأيوبيين حتى سيطرت على منطقة من أخطر المناطق وأكثرها حيوية فى التاريخ ، وهى ما تسمى فى اصطلاح العصر « منطقة الشرق الأوسط » ، وتمتد حول شرقى البحر المتوسط أو بحر الروم كما كان يسمى حينذاك . وتشمل هذه المنطقة مصر والشام والعراق وجزءاً من بلاد آسيا الصغرى أو « هضبة الأناضول » والجزيرة العربية .

وتجد لهذه المنطقة معالمها الجغرافية الواضحة ، إذ يجرى فيها ثلاثة من أشهر أنهار العالم ومهد أقدم حضاراته ، فنهر النيل ثانى أنهار العالم طولاً ،وعلى ضفافه ظهرت أعرق حضارة وأطولها عمراً . وواديه فى مصر أكثر وديان الأنهار استقراراً وأبعدها عن الكوارث ، لأن النيل وديع فى جريانه منتظم فى فيضانه حدوب على رعيته ، ومن ثم فقد كان أهله من أقدم الناس استقراراً وأماناً من جانبه ، مما مهد لهم سبل العمل والإبداع حتى خلقوا الحضارة المصرية القديمة التى عاشت على ضفافه أكثر من خمسة آلاف سنة .

وفيها يجرى نهرا دجلة والفرات ، وعلى ضفافهما قامت حضارات عريقة تنافس حضارة وادى النيل فى القدم وما قدمته للإنسانية من أفضال . وقد اتصلت هذه الحضارات منذ قديم الأزل اتصالات بدأت آثارها فى كل منها . ونهرا دجلة والفرات إن كانا أقل استقراراً وانتظاماً من نهر النيل ، وأشد ثورة — وخاصة الفرات — فإن ثورة الفرات نفسها قد خلقت فى آداب تلك الأمم القديمة التى عاشت على الرافدين آثاراً خالدة لدى السومريين والبابليين والآشوريين .

وإذا ماتركنا وديان الأنهار إلى شاطئ البحر المتوسط ، لاحظنا أن هذا البحر قد ضم على شواطئه الشرقية حضارات أخرى ليست أقل عراقة هى حضارة الفينيقيين والأثينيين والرومان ثم حضارة البيزنطيين والعرب المسلمين . وقد ربط

البحر بينها جميعاً ، وكان عاملا من عوامل نهضتها وانتشارها وتسلسلها وتوارث بعضها بعضاً ، فقد اتصل المصريون القدماء بالفينيقيين على مياهه وعبره اليونان والرومان إلى الشرق والجنوب فنشروا حضاراتهم فى الشام ومصر . كذلك شهدت أمواجه الصراع بين العرب وبيزنطة ، وبين العرب والصليبيين طوال أكثر من سبعة قرون .

وتمتد فى هذه المنطقة صحراوات كبرى تكاد تميزهما عن غيرها من مناطق العالم الأخرى ، ففيها الصحراء الكبرى غربى وادى النيل ، وكان لها دورها فى تاريخ المنطقة وفى حضارتها ، إذ كانت حاجزاً طبيعيًّا لمصر من الغرب صدت غزوات الليبيين والبربر من سكان الصحراء زمناً طويلا ، وكانت ملاذاً لأبناء مصر بعد الموت يدفن بها ملوكها أجسادهم ويبنون لأنفسهم المقابر الخالدة لتحفظ أجسادهم وأرواحهم من البلى ويدفنون معها كنوزهم التى حفظتها الرمال فى باطنها حتى تكشفت عنها فبهرت الأنظار .

وامتدت فى شرق البحر الأحمر صحراء العرب ، وقد لعبت هى الأخرى أدواراً فى تاريخ المنطقة ، فآوت القبائل العربية وأعانتها على أن تحصن نفسها ضد عادية الأمم القوية التى تتربص بها من فرس فى الشرق أو يونان ورومان فى الشمال أو أحباش فى الجنوب . وخلعت هذه الصحراء من طبيعتها عليهم فأكسبتهم من وعورتها شدة عود وقوة مراس ، وقدرة على الاحتمال ، وعلمتهم فى أوقات جودها الجود والبذل ، لأنهم عرفوا فى أوقات شدتها الضيق والحرمان .

وجابها من قديم الأنبياء والرسل والصديقون ، وعرفوا الله فى وحشتها وسكونها ، وطالعوا فى مظاهرها آيات بينات لا تخفيها دور أو ظلال ، فتغلغل فى قلوبهم الإيمان وأيقنوا بقدرة الخالق وأحسوها بين أيديهم وتحت أبصارهم . وعلمتهم طبيعة حياتهم أن القوة فى التعاون والتجمع وضم الصف ، وأن الفرد ريشة فى مهب الحياة وأنوائها فعرفوا قوة الجماعة وقدسوها ، ومقتوا الفردية وطاردوها .

وعرفوا فى اتساعها وبسطتها معنى الحرية ، إذ كل ما عليها من حيوان طليق ، يجوب أرجاءها لا يحجزه مانع ولا يحبسه متسلط ، فعشقوا الحرية ولم يذعنوا لمستبد فكان أمرهم شورى .

وكان موقعها وصلة بين عالمين ، ومعبراً بين حضارتين إحداهما شرقية تستمد حياتها من الشرق القديم بعاداته ومعتقداته ، وتستقر أصولها فى الهند والصين و بلاد الفرس ، والأخرى غربية تمتد جذورها إلى المصريين والإغريق ، والرومان ، وما قبل الإغريق والرومان .

فكانت أرضها طريقاً للتجارة ، وللغزاة ، عبرتها تجارة الفرس والروم والهند والحبش واليمن ، وجاءتها جحافل الاسكندر ، وجيوش كسرى وقيصر وانبثقت منها موجات الثورة الكبرى فى عصر الإسلام فتدافع جند الله يصولون و يجولون ، ويفتحون البلاد للدين الجديد .

وقامت فى ربوعها حضارات ، فنى الجنوب كانت حضارة اليمن . وعاشت مملكة سبأ ودولة حمير بآثارهما وقصورهما وسدودهما ، ودياناتهما ، وتقاليدهما وبجناتهما وزروعهما .

وفى الشمال قامت سلاسل من الجبال تحدرت منهما أنهار دجلة والفرات وفروعهما ، وحاذت شاطئ البحر الأبيض من الشرق سلسلة جبال تكلل قممها الثلوج وتعلوها الأشجار الخضراء ، التى تجود بأصناف الفاكهة وتهتز سفوحها بأنواع العيش الوفير ، وقامت دولة البيزنطيين فى إقليم آسيا الصغرى .

وعرفت المنطقة كلها بالشام ، وقامت جنوبها مملكة أورشليم ، وحظيت بمقدسات أديان ثلاثة ، فلليهود هناك هيكلهم ، وللمسيحيين كنيسة القيامة ، وللمسلمين المسجد الأقصى ، واليهود يعتبرونها أرض ميعادهم التى لبثت عليها دولتهم وعاشت زمناً ، ثم تفرقوا ، وما زالت تهفو إليها قلوبهم ويتطلعون إليها بآمالهم ، والنصارى يقدسونها لأنها مبعث المسيح ؛ فيها ولد وقام يبشر الناس ، ويعتقدون أنه صلب بها ودفن .

وفى المسجد الأقصى الذى أسرى إليه الله بعبده ليلا الصخرة التى يعتقد المسلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم أم الأنبياء فيها وصعد منها إلى السماء ليلة المعراج . ثم هى قبلتهم الأولى قبل الكعبة ولها فى نفوسهم مكان التقديس والإجلال .

وفى الشرق وادى الرافدين ، العراق ، وقد تحدرا من الشمال إلى الجنوب مترافقين حتى إذا ماقاربا الخليج الفارسى انحدرا وصبا فيه ، وقد كان واديهما مسرحاً

لملوك الفرس ، بنوا إيوانهم على الجانب الشرقى من دجلة ومدوا سلطانهم على البلاد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وتفردوا فى حضارتهم بضروب من الحياة والديانة والعقائد ، فكانت لهم السنن والقوانين ، والشرائع ، وكانت لهم الديانات والآداب والتقاليد ، وكانت لهم الفنون والعلوم ، وضروب الزخرف فى القصور ، واللباس والشراب والطعام . وكانت لهم الجيوش يدفعونها فيرهبون بها الأعداء ويقاومون الهاجمين ، ويبسطون سلطانهم على ما جاورهم من أطراف الصحراء .

وكانت بينهم وبين العرب وقائع وأيام ، ومعاهدات ومحالفات ، كما كانت بينهم وبين الروم حروب ونضال ، فيوماً تكون لهم الغلبة ، ويوماً تكون عليهم .

تلك حال هذه المنطقة قبل فتوح الإسلام ، وسيطرة الدولة الإسلامية . فلما جاء الإسلام كانت الحكومة المركزية أولا فى المدينة ، وسيطرت عليها جميعاً وامتدت إلى ماوراءها ثم انتقلت الحكومة إلى دمشق ووسعت أملاكها شرقاً وغرباً . ثم انتقلت بعد إلى بغداد وهناك بلغت مداها .

وقد وحدت العروبة والإسلام بين أجزائها ، ولاءمت بين متنافرها . وتلون الإسلام والعروبة فى كل منطقة منها باللون الإقليمى ، وانطبع بعناصر البيئة المختلفة ولكن ساد مع ذلك بينها جميعاً الإسلام وشعائره ، ونطقت ألسنة أهلها بالعربية .

ففى مصر ورث الإسلام علوم المصريين القدماء والإغريق والرومان ، وعرف العرب الزراعة كما عرفها المصريون ، وتأثروا بتقاليدهم وعاداتهم .

وفى الشام خالط العرب الروم ، وعرفوا بعض ما ورثوه من علوم وقوانين وأخذوا مانقل عنهم النبط والسريان ، ولاءموا بين ما ورث أصحاب الديانات المسيحية واليهودية ممن يعيشون هناك من قصص وعقائد ، وبين ماجاء به القرآن .

وفى العراق وفارس اطلع العرب على علوم الفرس ، وأخذوا عنهم أساليب السياسة والحكم ، وطرق العيش ، وتأثروا بلباسهم وطعامهم وشرابهم ونهلوا كما نهلوا من علوم اليونان والهند ، فعرفوا الحساب والفلك والفلسفة .

وخرج من هذا كله مزاج عربى إسلامى ، له أصوله العامة المشتركة التى تطبع مظاهر الحضارة العربية الإسلامية جميعاً بطابعها المميز ، فى العقيدة ومذاهب

الفقه والشريعة ، وفى الفلسفة وطرق التفكير ، وفى نظم الدولة والحكم ، وفى العادات والتقاليد والسلوك ، وفى الآداب والفنون .

الجو السياسى :

خرج صلاح الدين إلى أفق العالم الاسلامى والعربى فى القرن السادس ، وكان هذا القرن قرن الحوادث العظام التى غيرت من ملامح الدولة الإسلامية . فهو مقترن بالحروب الصليبية ، وغارات التتار ، وزوال الدولة الفاطمية واضمحلال دولة المسلمين بالأندلس ، وقيام دولة الأيوبيين فى مصر والشام .

الجزر الإسلامى العربى والمد الصليبى :

ولهذا نستطيع أن نقول إن هذا القرن وأواخر القرن السابق له كان عصر الجزر الإسلامى العربى ، والمد الصليبى فى منطقة الشرق الأوسط فى مصر والشام والعراق ، ويرجع هذا الجزر إلى عدة عوامل كلها تمثل الضعف والتفكك والخلاف فى الصف الإسلامى . ونستطيع أن نستعرض ذلك استعراضاً عاجلا .

فقد كانت تسيطر على العالم الإسلامى والعربى عدة قوى : الدولة العباسية فى شيخوختها وضعفها ، والسلاجقة مع قوتهم إلا أن خلافهم قد بدد تلك القوة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة الغورية فى الشرق ، ودولة الخطا المناوئة لهما ، وقبائل التتار ، والقبائل التركية الأخرى التى أخذت فى الغارة على العالم الإسلامى واقتطاع أجزاء منه فى أقصى الشرق والشمال الشرقى ، وفى الغرب دولة الموحدين من بنى عبد المؤمن وفى مصر والشام الدولة الفاطمية .

أما الدولة العباسية فقد كان خلفاؤها ضعافاً لا يملكون سلطاناً ، إنما كانوا رمزاً للسلطة الدينية وكان السلطان الفعلى للسلاجقة ، وكان هذا السلطان لا يتعدى بغداد والبلاد القريبة من الشام ، وقد حاول خلفاء العباسيين فى بغداد أن يستغلوا نزاع السلاجقة فيما بينهم لاستعادة سلطانهم ، فقد قاتل الخليفة المكتفى بالله (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) السلطانين السلجوقيين محمد وأرسلان شاه ، وتمكن الخليفة من التغلب على السلطان محمد عند حصاره بغداد بمساعدة البغداديين والوزير

عون الدين بن هبيرة[١] .

واستغل الخلفاء نفوذهم الديني فى جمع الأعوان حولهم ، ولم يترك السلاجقة وسيلة لإضعاف العباسيين ودحرهم إلا اتبعوها ، اتبعوا ضدهم القوة المسلحة ، والمؤامرات فسلطوا عليهم الإسماعيلية لقتل الخلفاء ، وقتل الراشد العباسي على أيديهم بفعل السلاجقة سنة ٥٣٢ هـ [٢] .

ومع أن السلاجقة كانوا يعادون العباسيين ويقاتلونهم ويدسون لهم إلا أنهم لم يستطيعوا مقاومة نفوذهم الديني ، فيروى أن السلطان محمود السلجوقي طلب أن يحمل فى مرضه إلى قصر الخليفة — عدوه السياسي — للدعاء له بالشفاء [٣] .

أما السلاجقة فكانت دولتهم تنقسم إلى ثلاثة أقسام يسيطر على كل قسم منها سلطان . فسلاجقة المشرق ، يسيطرون على خراسان وبعض بلاد المشرق ، وسلاجقة العراق يسيطرون على العراق والجزيرة الفراتية وبعض أجزاء من الشام اقتطعوها من الدولة الفاطمية . ثم سلاجقة الروم ، وكانوا يسيطرون على الجزء الغربي من الجزيرة الفراتية وشمال الشام ثم شبه جزيرة آسيا الصغرى .

وكان سلاجقة المشرق فى صراع مع الدولة الخوارزمية ، وانتهز هؤلاء النزاع بين سلاطين السلاجقة والخلافة فى بغداد وحاولوا القضاء على السلاجقة والحلول محلهم فى الدولة العباسية وأملاكها ، وشجعهم على ذلك استنجاد الخليفة بهم سنة ٥٢٠ هـ ، وقد هزموا طغرل بك السلجوقي سنة ٥٩٠ ، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول للعراق وبسط نفوذهم به .

وقد بدأ ملك السلاجقة ينهار بعد موت ملكشاه آخر سلاطينهم العظام ، ومقتل وزيره العظيم نظام الملك ، فقد قامت بينهم عدة حروب ومنازعات فى سبيل السلطة ، كذلك قامت بينهم وبين الإمارات والقرى الملاصقة لهم عدة حروب وكان منها حروبهم فى المشرق مع الخوارزميين ، وفى الغرب مع الروم والصليبيين والفاطميين ، وكانت الشام خاضعة لثلاث قوى ، السلاجقة فى دمشق

---

(١) أخبار الدولة السلجوقية ص ١٤٠ .

(٢) أخبار الدولة السلجوقية ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٨ .

وحلب وبعض المدن الأخرى ، والصليبيين فى الولايات الأربع التى بالشام ، والفاطميين فى جنوبى الشام والجزء الساحلى الذى يضم عسقلان وغزة .

والدولة الفاطمية كانت فى مصر تلفظ أنفاسها ، قد دب فيها الضعف ، وعملت فيها عوامل الفساد ، فكان خلفاؤها يتوالون الخلافة صغار السن لا يملكون من أمرهم شيئاً ، فكان المتصرف فى دولتهم الوزراء ، والقواد ، وسيدات القصر ، والخدم . كذلك اضطربت الأحوال الاقتصادية والمعيشية نتيجة للإسراف البالغ والبذخ الذى كان فيه الخلفاء ورجال الدولة ، فأثر هذا فى قوة مصر وجيشها ولم يتمكن بطبيعة الحال من الصمود أمام هجمات الصليبيين ، وإن كانت مصر لم تتخل عن الكفاح رغم قوة الصليبيين وذلك الضعف المحيط بها من كل جانب ، ويسجل التاريخ فضلا لبعض رجالها أمثال الوزير اليازورى ، وابن زريك الوزير الشاعر ، فقد أديا دوراً إيجابياً فى التوسع الصليبى وصد الفرنج الغزاة عن حدود مصر .

ولعب الأسطول المصرى أدواراً تاريخية فى ذلك الوقت ، فقد فرض سيطرته على سواحل الشام ، كما حمى السواحل المصرية وخاض مع الفرنج معارك بحرية مريرة . ولكن الضغط المتواصل وخيانة بعض العناصر فى الداخل مكنت الصليبيين من اقتحام بيت المقدس ، ومحاولة السيطرة على مصر نفسها . وإن التاريخ ليذكر فى صفحاته السود أيام عباس وشاور وضرغام ونزاعهم المتواصل وتآمرهم على مصر ومصيرها .

وفى المغرب والأندلس كان الفرنج لا يزالون يزحفون من الشمال ، ويقطعون من أوصال الدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة الأندلسية ، كذلك كانت دولة الموحدين بنى عبد المؤمن قد بدأت تظهر فى المغرب فتعيد إلى نفوس المسلمين بعض الأمل الذى أخذ يتضاءل لضعف حكامهم ، وكان لقوة هذه الدولة أثرها فى وقف تقدم الفرنج فى المغرب ، كما كان لدولة نور الدين وصلاح الدين نفس الدور فى الشرق .

أثر الغزو الصليبى فى نفوس العرب والمسلمين :

بدأت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، وتمكنت حملتهم الأولى بقيادة بلدوين من هزيمة السلاجقة والاستيلاء على مدينة الرها وتكوين

إمارتهم الأولى بها ، وتولى عرشها بلدوين نفسه وكان ذلك سنة ١١٩٨ م . وكان أكثر سكانها من الأرمن والنصارى وتوغلت جماعة منهم جنوباً بقيادة بوهمند فاستولت على أنطاكية وأسست بها الإمارة الثانية وتولاها بوهمند . وقاد ريموند ده تولوز الفرنسى حملة على بعض مدن الشام وواصل عشرون ألفاً منهم التقدم نحو بيت المقدس فاستولوا عليه وأعملوا فى سكانه السيف ، وارتكبوا كثيراً من الفظائع مما كان له أعمق الأثر فى نفوس المسلمين والعرب . ونظراً لأهمية سقوط بيت المقدس فى تحول مجرى الحوادث ، وفى يقظة الروح القومية عند المسلمين والعرب سنستطرد فى وصف تلك الموقعة .

كانت المدينة فى أيدى الفاطميين ، وحاصرها الصليبيون ، وقاوم حماتها شهراً كاملا ، وضغط المحاصرون بشدة ، وهدموا الأسوار ، فاضطر المدافعون إلى التسليم تحت ضغط الحصار وانقطاع المدد ، واندفع الغزاة يهيج رءوسهم الغيظ وتضطرب نفوسهم بالحقد ، وتلعب بعقولهم نشوة الانتصار فذبحوا كل من لقوه من المسلمين نساء وأطفالا وشيوخاً ، فضلا عن المحاربين .

قال ابن الأثير : وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، وأضحى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه إليهم ، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً . منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف ، وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد صحبة القاضى أبى سعد الهروى ، فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا ، وذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسلب الحريم والأولاد ونهب الأموال(١) .

وذكر أنه شوهدت أكوام الرءوس والأيدى والأرجل فى شوارع المدينة وطرقاتها (٢) . وقد أنشد الأبيورى قصيدة يبكى فيها بيت المقدس وأهلها ، وتقطر

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/١٩٣ .

(٢) تاريخ العرب مطول لفيليب حتى ٣/٧٥٦ .

أسى ولوعة[1] قال :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضه ... إذا الحرب شُبَّت نارُها بالصوارم
فإيهاً بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقْنَ الذرى بالمناسِم
أتهويمةٌ فى ظل أَمنٍ وغبطةٍ ... وعيشٍ كنوَّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملءَ جفونِها ... على هفوات أَيقظت كل نائِمِ
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أَو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوانَ وأنتم ... تُجرُّون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دُمىً ... تُوارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمر العوالى داميات اللهاذِمِ
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ ... تظلُّ لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغبْ عن غمارها ... ليسلَم يقرع بعدها سنَّ نادم
سللن بأَيدى المشركين قواضباً ... ستغمد منهم فى الطُّلا والجماجم
يكاد لهن المستجنُّ بطيبةٍ ... ينادى بأَعلى الصوت يا آل هاشم
أَرى أمتى لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأَعاريب بالأَذى ... ويغضى على ذل كماة الأَعاجم

ومنها :

فليتهم إذ لم يذودوا حميةً ... عن الدين ضنُّوا غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا فى الأجر إذ حمُس الوغى ... فهلاَّ أَتوه رغبة فى الغنائم

---

(١) الكامل ١٠/١٩٣ .

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى فلا عطست إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحربُ تدعو ملحةً إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربيةً تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رمينا إلى أعدائنا بالحرائم

وتوالت انكسارات المسلمين أمام جيوش الصليبيين ؛ فبعد معركة بيت المقدس دارت معارك أخرى على الشواطئ الشامية ، واستولى الغزاة على مدن الساحل ولم يبق لمصر غير عسقلان وغزة فى الجنوب ، وكان ذلك بفضل الأسطول المصرى وبعض الوزراء المصريين الأقوياء كالجمالى ، واليازورى وابن زريك .

وكانت إمارة بيت المقدس أقوى الإمارات اللاتينية بالشام ، وكانت الإمارات الثلاث الأخرى تخضع لأمرها . وقد امتدت هذه الإمارة فأصبحت حدودها من العقبة على البحر الأحمر إلى بيروت ومن البحر المتوسط إلى نهر الأردن .

وأمن بلدوين حدود الإمارة ، وبنى القلاع القوية مثل الشوبك فى المنطقة الواقعة جنوب البحر الميت فسيطرت على طريق الصحراء الذى يربط دمشق بالحجاز ومصر .

وهكذا سيطر الصليبيون على الشام ، وخاصة الجزء الساحلى من آسيا الصغرى إلى خليج العقبة . وبذلك تحكموا فى منافذ العالم الإسلامى إلى المغرب ، ومن هذا يتضح الغرض الأصيل الذى كان يدفع جحافل الصليبيين نحو الشرق الإسلامى ، وهو التجارة ومحاولة إيجاد مواطن للرزق والكسب ، وكانت تصلهم أخبار الثراء والترف عن المشرق فأغرتهم تلك الأخبار . وحركت أطماعهم ، وخاصة أن أوربا فى ذلك الوقت كانت فى حال من الفوضى والفقر ، كما أن مدن إيطاليا التجارية وجدت فى الحركة الصليبية تحقيقاً لأغراضها التجارية فى السيطرة على الأسواق الشرقية . فعاونت أساطيل الصليبيين خير معاونة

ولم يستطع الصليبيون التوغل فيما وراء الإمارات التى استولوا عليها . بل لم يبذلوا محاولات جدية لذلك التوغل ، وكان جل همهم موجهاً إلى تأمين حدودهم

الشرقية ، بسلسلة من الغارات للإرهاب ، أو بعقد معاهدات مع حكام المدن القوية مثل دمشق ، أو بتدبير المؤامرات واستعمال الجواسيس والأعوان ، أو شراء الحشاشين والعلويين لإحداث الاضطراب ، والدعوة للهزيمة بين صفوف المسلمين .

المرحلة الثانية (التجمع ورد الفعل الإسلامى) :

بدأت هذه المرحلة بشعور المسلمين بالحسرة على تفلت أجزاء من العالم الإسلامى من أيديهم ، وبتلك الهزائم المتلاحقة التى نزلت بهم ، وتلك المجازر الدامية التى كانت تطيح برءوس المسلمين ، وبأولئك الشراذم الوافدين من كل بلد يستبيحون الأقوات والحرمات بلا رادع أو وازع ، ويستهينون بالمقدسات الدينية ويحولون المساجد إلى كنائس وصوامع .

وقد دفعتهم الحسرة ، والغيظ ، والشعور بالآلام إلى محاولة المقاومة والدفاع ورد المغتصبين ، وقامت دعوات للجهاد فى عواصم المسلمين كان عمادها الفقهاء والعلماء الذين أحسوا بخطر الصليبيين على العالم الإسلامى والقيم الإسلامية ، وكانت دعوتهم إلى التجمع ، ونسيان الخلافات والأطماع الدنيوية ، والنزاع الذى كان سبب الفرقة والضعف . وبلغ الحماس الدينى بالعامة مبلغه ، وكان الأمراء والقواد غير مستجيبين ، أول الأمر لذلك الحماس الدينى فكانوا يسيرون الجيوش لقتال الصليبيين ، فبينما هم فى حر المعركة إذا بجماعات الخونة والمرتشين ، وإذا بالخلافات الشخصية تنشب ، فيتفرق الجمع وتفتح الثغرات ، ويدخل الأعداء ويستولون على الحصون والقلاع .

حدث هذا فى معركة أنطاكية حيث دفع السلطان السلجوقى بقائده كربوقا صاحب الموصل ومعه جيوش حاشدة حاصرت الصليبيين داخل البلد ، وكادوا يقضون عليهم لولا أن دب بينهم الخلاف فولوا مخذولين .

قال ابن الأثير : لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام

تركها وعربها . . . فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم ، وسار المسلمون فنازلوهم عند أنطاكية ، وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال فأغضبهم وأضمروا له فى أنفسهم الغدر [١].

وهكذا كان سوء سيرة كربوقا سبباً فى هزيمة المسلمين أمام أنطاكية ، كما كان تفرق الكلمة وعدم الوحدة ومحاولة الانقسام دون مراعاة لظروف الحرب والأعداء من أسباب الوهن .

فالعالم الاسلامى إذاً كان فى حاجة إلى تغيير حال ، وإلى زعامة رشيدة واعية مدركة لما ينبغى أن تحمله من رسالة ، مخلصة تسعى إلى الهدف بروح وصبر ومثابرة ، وقد هيأ الله للمسلمين جماعة هبوا لنصرة الإسلام ، ومجاهدة العدو الغاصب . وساعد العلماء والفقهاء فى الدعوة لأولئك الزعماء ، والتمهيد لهم بين العامة . وهكذا بدأت حركة رد الفعل فى إظهار آثارها ، وكان من أبرزها غزوات عماد الدين زنكى للصليبيين التى كللت باستعادة مستعمرة الرها أولى المستعمرات الصليبية فى شمال الشام ، ثم توالت الانتصارات بعد ذلك على يدى خليفة زنكى نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى وخلفائه .

وقد بدأ الصراع بين الموصل والرها منذ بداية القرن السادس الهجرى ، حتى انتهى ذلك الصراع بظهور عماد الدين زنكى ، واستيلائه على الموصل ثم اندفاعه فى قوة نحو الغرب .

وبدأ ظهور زنكى على مسرح الحوادث فى سنة ٥٢١ هـ حين تولى شحنكية بغداد للسلطان محمود السلجوقى عقب قيامه بدور هام فى البصرة وواسط ، ثم تولى الموصل بعد وفاة واليها ، وجرد جنده ليوسع إمارته وليحمى حدودها ، وقد غرب متجهاً إلى حلب فامتلكها ، ثم استولى على حماة .

وكانت إمارة الرها الصليبية تسيطر على الخطوط الرئيسية بين العراق وشواطئ البحر المتوسط ، كما كانت الحاجز الذى يحمى المستعمرات اللاتينية الأخرى فى

---

(١) الكامل ١٠/١٨٩ .

الشام من هجمات المسلمين من الشرق .

وتوجه إليها عماد الدين زنكى ، وحاصرها أربعة أسابيع ثم انتزعها من جوسلين الثانى سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤م فكانت أولى المستعمرات الصليبية تأسيساً وسقوطاً .

وكان سقوط الرها ضربة عنيفة للصليبيين ، ونذيراً باضمحلال نفوذهم وتقلص ظلهم . كما كانت من ناحية أخرى حافزاً للمسلمين ، ومشجعاً لهم على كفاحهم أعداءهم وطردهم من أراضيهم .

وقد استن المسلمون منذ البداية سنة تختلف عما استنه الصليبيون فكانوا كلما فتحوا بلداً أمنوا أهله ، ولم يسبوا نساءه ولم يقتلوا أطفاله ؛ فعرفوا بالتسامح وحسن المعاملة للمنهزمين ، وعلموا أولئك الغربيين دروس الإنسانية فى القتال .

ذكر ابن واصل : « أنه عندما فتحت الرها رآها عماد الدين فأعجبته ، ورأى أنه لايجوز فى السياسة تخريب مثلها ، فنودى فى العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم ، وإعادة ما اغتنموا من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، ولم يفقد إلا النادر وعاد البلد إلى حاله » (١).

ولم يلبث عماد الدين بعد استيلائه على الرها كثيراً فقد اغتاله غلمان عند قلعة جَعْبَر ، وبذلك قضى أول أبطال التجمع الإسلامى وأعقبه ابنه البطل الثانى الأمير الأسمر الشجاع نور الدين محمود .

وكان لعماد الدين ولد آخر هو سيف الدين اقتسم مع أخيه ملك أبيه ، فاستولى على الجزء الشرقى (الموصل والجزيرة) ، فى حين احتفظ نور الدين بالجزء الغربى فى الشام وجعل قاعدته حلب . ومن حلب قاد حملاته المتتابعة ضد أعدائه . وبذلك صارت هذه المدينة الجليلة فى عصرها مركزاً هاماً لمناضلة أعداء العرب والإسلام بعد أن لعبت دورها المشهور فى القرن الرابع على يدى سيف الدولة الحمدانى فى دفع البيزنطيين وحماية الحدود الشمالية القريبة منهم .

والحق إن نور الدين لعب دوراً ممتازاً فى معارك رد الفعل الإسلامى ، وكانت لشخصيته الجذابة آثارها الكبيرة فى تجمع المسلمين حوله ، واستطاع أن يمثل رمز البطولة الإسلامية المنتظرة ، فهو شاب أسمر طويل القامة ، خفيف اللحية واسع

---

(١) مفرج الكروب ١/ ٩٤ .

الجبهة ، حسن الصورة ، متقد العينين ذكاء وفطنة ، زاهد فى الدنيا ، راغب فى الجهاد ، حريص على مال رعيته وأمنهم وطمأنينتهم ، راع لأحوال الدين ، آخذ بالشدة كل متهاون مفرط ، حازم صارم فى مواطن الجد ، رقيق ودود فى مواطن الرحمة والعطف .

وذكر ابن واصل أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فيما يخصه ، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فى أخذ ما يحل له فيأخذ ما يفتونه بحله ، ولا يتعداه إلى غيره ، ولم يلبس حريراً ولا ذهباً ولا فضة ، ومنع شرب الخمر فى جميع بلاده ، أو إدخالها إلى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعى ، وكان سالناس عنده فيه سواء ، واشتهر بعدله بين الرعية ، فلقب بالملك العادل ، وبنى داراً للقضاء بين الناس ورد المظالم سماها « دار العدل » ، وجلس نور الدين فيها بنفسه لفصل الخصومات ، وكان يجلس فى الأسبوع يومين وعنده القاضى والفقهاء [١] .

وكان إلى جانب ذلك الكمال فى الخلق والدين وسياسة الرعية بطلا مبرزاً فى الميدان ، قال ابن واصل : كان من أقوى الناس بدناً وقلباً ورأياً ومكيدة ، وذكر أنه لم ير على ظهر فرس أشد منه ، كأنما خلق عليه ، لايتحرك ولا يتزلزل [٢] . وكان يباشر القتال بنفسه ، ويقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها . وسمعه الفقيه قطب الدين النيسابورى يقول ذلك . فقال له : « بالله لاتخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم ، ولئن أصبت والعياذ بالله فى معركة لايبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، وأخذت البلاد والإسلام » .

فقال له : يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلى من حفظ البلاد والإسلام ؛ ذلك الله الذى لا إله إلا هو . .

وكان دائم الاستعداد للحرب ، وتقوية المسلمين ، كان ينفق الأموال الطائلة على السلاح ، ويبنى القلاع والحصون والأسوار القوية ، وكان يقول : نحن كل وقت فى النفير [٣] . وبنى أسوار بلاده جميعاً وقلاعها ، وبنى الأبراج على الطرق

---

(١) مفرج الكروب ١/٢٦٩ .

(٢) نفس المصدر ١/٢٧٩ .

(٣) مفرج الكروب ١/٢٨٠ .

بين المسلمين والفرنج ، و جعل فيها من يحفظها ، ومعهم الطيور الهوادى ، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم ، واحتاطوا لأنفسهم ، ولم يبلغ العدو منهم غرضاً .

وهكذا عبأ نور الدين قوى المسلمين للجهاد ضد الصليبيين ، ونجح فى قيادته فخاض عدة معارك ناجحة ، وأمكنه أن يبسط سلطانه على جزء كبير من الشام ، وأن يبث الرعب والهلع فى نفوس الصليبيين .

على أن مهمة نور الدين لم تكن سهلة ، فقد تعقدت الأمور عندما بدأت موجات الصليبيين تفد من جديد بعد أخذ الرها . وهى ماعرفت بالحروب الصليبية الثانية بقيادة كونراد الثانى الألمانى ولويس السابع الفرنسى ، وقد جمع جيشهما فرسان الداوية والاسبتارية الذين عرفوا بشدة بلائهم .

ولكن نور الدين تمكن بعد سلسلة من المعارك والغارات من انتزاع دمشق التى طمع فيها الصليبيون ولم يستحوزوا عليها ، وكان ذلك دون قتال بمساعدة نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، كما أسر جوسلين الثانى أمير الرها ، وفتح أقساماً من أمارة أنطاكية وقبض على صاحبها بوهمند الثالث ، وعلى حليفه ريموند الثالث صاحب طرابلس وأطلقهما بعد فدية كبيرة .

ولم يبق أمام نور الدين سوى مملكة بيت المقدس وصاحبها بالدوين الثالث وقد خاض نور الدين عدة معارك ضدها ، وكان أهمها معارك مصر التى جهز لها ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وانتهت بجلاء الصليبيين نهائيًّا عن مصر ، وتمكُّن شيركوه ثم صلاح الدين . وبذلك دخلت مصر المعركة بكل قوتها ضد الصليبيين وعندئذ بدأت المرحلة الحاسمة فى تاريخ تلك الحروب ، وكان صلاح الدين بطلها السياسى والحربى الذى تمكن بشخصيته الفذة أن يجمع حوله العالم الإسلامى ، وأن يحول الهزيمة والضعف إلى انتصار وقوة . والحقيقة أن شخصية صلاح الدين متممة لشخصية نور الدين ، كما أن الدولة الأيوبية أكملت رسالة الدولة الأتابكية وبلغت غايتها .

صلاح الدين

مؤسس الدولة الأيوبية

نشأة صلاح الدين :

نشأ صلاح الدين من أصل كردى ، قال ابن الأثير : إنه من الأكراد الروادية بينما ينسبه بعض المؤرخين إلى أصل عربى يرجع للأمويين أبناء عمومة الرسول ، وقد ذكر أن بعض بنى أيوب قال : إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم [١] . وقيل إن ذلك النسب – إلى الأمويين – أحضر إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى ، ابن الملك العادل وأسمعه ولده [٢] .

ومهما قيل فى ذلك النسب فإن والد صلاح الدين خرج وسط الأكراد شمالى العراق فى مدينة دوين – بلدة من بلاد العجم قرب أخلاط – ثم انتقل مع أخيه أسد الدين شيركوه إلى العراق حيث نزلا على الأمير مجاهد الدين بهروز أمير الشرطة فى بغداد من قبل سلاطين السلاجقة . وقد تقدما عند مجاهد الدين ، ووثق فيهما فولى نجم الدين والد صلاح الدين قلعة تكريت ، فأقاما بها مدة ، وولد صلاح الدين فى هذه الأثناء [٣] .

وكان نجم الدين وأخوه شيركوه يسعيان ليبلغا منزلة رفيعة لدى الأمراء والسلاطين فى عصرهما . وكانت لهما من نفسهما خصائص تمكنهما من الفوز بما يطمحان إليه ، ففيهما الشجاعة والإقدام ، ولا ينقصهما الدهاء والسياسة ، كما لا ينقصهما الإخلاص والمثابرة ، وهكذا تقدما فى خدمة الملوك ، وحظيا بمكانة عظيمة عند أتابك زنكى وابنه نور الدين محمود خاصة .

وأول لقاء نجم الدين بزنكى فى الوقعة التى حدثت بينه وبين الخليفة العباسى

---

(١) مفرج الكروب ١/٣ .

(٢) نفس المصدر ١/٥ .

(٣) النوادر السلطانية ص ٣ ط سنة ١٩٠٣ .

المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وكسر الخليفة عماد الدين ، فأعان نجم الدين فى فراره ، بأن أقام له السفن حتى عبر دجلة وأتبعه أصحابه وحفظ عماد الدين تلك اليد .

وبقى نجم الدين بقلعة تكريت مع أخيه بعد ذلك زمناً حتى إذا ما ضاقت به الحياة فيها غادرها إلى الموصل ، ويقال إن من أسباب ضيقهما بتكريت غضب مجاهد الدين عليهما لقتل شيركوه أحد الرعية ظلماً ، أو لأن نجم الدين نفسه رمى مملوكاً من مماليك مولاه بسهم فقتله فكان أن ثار عليه وعزله .

وارتحل الأخوان إلى الموصل حيث عماد الدين زنكى الأمير القوى ، فأحسن استقبالهما وأنزلهما منزلة تليق وما أدياه له من سابق جميل ، قال ابن واصل : « فأحسن إليهما وقربهما ورعى لهما خدمتهما له ، وبالغ فى إكرامهما ، وأقطعهما إقطاعات جليلة ، وحسنت أحوالهما عنده » .

وسارا فى ركب الفتح الذى قاده زنكى عبر الجزيرة إلى الغرب ، وبعد احتلاله بعلبك ولى نجم الدين عليها ، وكان صلاح الدين إذ ذاك صبياً يافعاً فى الثامنة أو التاسعة من عمره ، ولم يلبث نجم الدين على بعلبك طويلا إذ أن زنكى قتل وهو يحاصر قلعة جعبر ، فآذنت دولته بتصرم ، وحدث خلاف بين أبنائه لولا أن تداركه نور الدين بحكمته فحسمه ، وفى أثناء ذلك الخلاف اشتد الأمر بنجم الدين فى بعلبك ، وتحرج موقفه لتربص أعدائه من حوله فخشى أن يلحقه سوء ، وكان قد استنجد فلم ينجده أحد فلم يجد بداً من مفاوضة أقوى الأمراء الذين يهددونه وهو أمير دمشق ، فسلم البلد إليه ، ورعى الأمير ذلك لنجم الدين فأقطعه إقطاعاً حسناً ، وعاش نجم الدين أيامه بعد ذلك فى دمشق إلى أن التأمت دولة نور الدين .

وبعد أن أمسك نور الدين زمام الأمور بيده وبدأ يعيد نظام ملك أبيه رأى أن دمشق تعترض طريقه وتقف دون تحقيق آماله فى اكتساح الصليبيين بالشام ، وعرف أن صاحب والده نجم الدين فى دمشق ، وأن أخاه أسد الدين شيركوه على رأس جنده ، فأراد أن ينتفع من الأخوين ، وهكذا بعث أسد الدين ليحمل نجم الدين على المعاونة فى تسليم دمشق ، وتم الأمر كما أراد ، ولعب نجم الدين دوره بدهاء وحنكة ، وأصبح نور الدين سيد دمشق بلا حرب ولا قتال وتقدم نجم الدين فى صحبة نور الدين ، وحظى بمكانة لم يحظ بها أحد قبله عنده حتى قيل إنه

لم يجلس عنده أمير من غير أمره له بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وأما ما عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين ابن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقومون إلى أن يأمرهم بالقعود [١] .

وقدم نجم الدين ابنه صلاح الدين لنور الدين ، فرأى هذا فى الصبى ملامح ذكاء فقربه إليه وخصصه [٢] .

وبدأ نجم صلاح الدين يظهر ، واتضحت معالم النبوغ عليه منذ الصغر مما دعا الأمير نور الدين إلى إيثاره وتقريبه ، وإلى انتدابه للسفر إلى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه فى حملته الثانية .

وكانت الأحوال بمصر قد بلغت درجة من الاضطراب والفوضى اختل لها ميزان الحكم ، وصارت المنازعات المتتابعة بين وزيريها شاور وضرغام من أسباب سوء الحال واقتراب دولة الفاطميين من نهايتها . وكانت مصر فى تلك المرحلة الحرجة التى تمر بها مطمع دولة بيت المقدس الصليبية وصاحبها إمرى ، وحاول إمرى أن يستفيد من تلك الأوضاع الداخلية لحسابه ، فاتصل بالمتنازعين .

واتصل شاور بنور الدين ، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، إذ وصل إلى دمشق . « وشرط شاور لنور الدين أنه إن سير معه العسكر ليقوى بهم على خصمه ضرغام وينتزع الوزارة منه أن يكون لنور الدين حصة من البلاد ، ويكون شاور متصرفاً تحت أمره ونهيه واختياره ، فتردد نور الدين — رحمه الله — فى إجابته فتارة يقوى عزمه على ذلك طلباً للزيادة فى الملك وليقوى على عدو الدين ، وتارة يثنى عزمه خوفاً على العساكر من خطر الطريق بسبب توسط الفرنج بينه وبين الديار المصرية » [٣] .

ولكن حرص نور الدين على تطويق أعدائه الصليبيين ، وخوفه من سبقهم إلى مصر واحتلالها دونه ، وتمكنهم بذلك وتقويتهم ، جعله يسارع إلى إعداد العدة

(١) الدر الثمين فى سيرة نور الدين — مخطوط .
(٢) النوادر السلطانية ص ٤ .
(٣) مفرج الكروب ١/١٢٨ .

على الرغم مما كان يدركه من مخاطرة فى تلك المغامرة الجريئة .

وأعد الأمير الشجاع الداهية للأمر عدته ، واختار لقيادة عسكره رجلا حديديًّا يمتاز بالقوة والجرأة وسرعة التحرك والتنفيذ ، ذلك هو القائد أسد الدين شيركوه ، واختار لصحبته جماعة من الأمراء والقواد الممتازين، والجند المدربين.

كانت القوة التى يقودها أسد الدين غير كبيرة ،ولكنها تمتاز بخصائص وميزات هامة هى السرعة والقدرة على الضرب والانقضاض ثم الإنسحاب إذا لزم الأمر والمعاودة .

وتحركت الحملة من دمشق جنوباً ، مارة بمخافر الصليبيين ، وشرقى الكرك والشوبك القلعتين الحصينتين لهم ، وتخطى الحدود المصرية دون اشتباك مع الفرنج لعدم علمهم بأنباء الحملة ، أو لعدم استعدادهم للتعرض لها وهم فى حالة تجمع ولم شعث بعد ضربات نور الدين بحصن حارم وغيرها من قلاعهم بالشام .

ووصل عسكر نور الدين إلى القاهرة ، واشتبكوا مع ضرغام ، فهزم وقتل ، وتولى شاور الوزارة ، وكان عليه بعد ذلك أن يفى بما عاهد نور الدين عليه ، ولكنه ماطل . وطلب إليه أسد الدين أن يفى بالعهود ، فأبى ، فرابط أسد الدين بالجند فى بلبيس ، ولم يذهب عن مصر إلى الشام كما أراد منه شاور ليخلو له الجو ، وتحكم على الشرقية فغاظ ذلك شاور ، وأراد أن يضرب نور الدين بأعدائه ، فأرسل يستنجد بإمرى .

قال صاحب مفرج الكروب : « فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ، ويخوفهم من نور الدين إن ملك الديار المصرية ما يطيب لهم معه مقام ، وكان الفرنج لما سمعوا بتوجه عساكر نور الدين إلى الديار المصرية قد خافوا خوفاً شديداً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل ، فلما وصلتهم رسل شاور يدعوهم إلى مساعدتهم سروا بذلك وبادروا إليه » [١] .

وبدأ النزاع المسلح على مصر ، وأرسل إمرى حملة جهزها لأخذ مصر من أيدى شيركوه وكان قد اتفق مع شاور على أن يدفع الأخير إليه مالا كثيراً يحمله إلى الصليبيين بعد طرد شيركوه .

---

(١) مفرج الكروب ١ / ١٣٩ .

واتفق على عسكر نور الدين بمصر شاور وبعض من عاونه من جند المصريين ، وجند الصليبيين الآتين من الشمال ، وجمع جندهم فرق فرسان ومشاة من حجاج بيت المقدس ومن غيرهم ممن تطوعوا للجهاد ، وممن تدافعوا للشرق لتخليص أرض المسيح على زعمهم .

ووصل الصليبيون إلى حيث ينزل شيركوه وعسكره بمدينة بلبيس فحاصروه من الشمال .

وزحف رجال شاور فحاصروه من الجنوب . وأحس نور الدين بخطر إمرى ورجاله على شيركوه وجنده ، فتحرك ليناوش مخافر بيت المقدس المتطرفة حتى تخف وطأة إمرى على قائده .

وصمد شيركوه ومن معه ببلبيس ثلاثة أشهر ، مع أن سورها كان من الطين ولم يكن لها خندق — كغيرها من المدن الحصينة — يحميها . وبينما كان الإفرنج فى حصارهم دائبين إذ وافتهم الأنباء بحركات نور الدين فى بلادهم « فعظم ذلك عليهم ، وخافوا على البلاد فراسلوا أسد الدين فى الصلح وتسليم ما أخذه من البلاد إلى المصريين » .

دفع مركز شيركوه الحرج إلى قبول شروطهم للصلح ، ومغادرة البلاد وخرج من بلبيس .

ولم تنجح الجولة الأولى لنور الدين فى مصر ، فخرج شيركوه ، وخرج الصليبيون ، ولكنه كان عازماً على أن يعيد الكرة ، بعد أن يستعد للأمر ، ويجهز حملة يمكنها الصمود والتوغل ، بعد أن أدركته خيانة شاور ، ولم يعد فى إمكانه الاعتماد على جند المصريين .

وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة — أى بعد الحملة الأولى بأربع سنين — سير نور الدين حملته الثانية بقيادة شيركوه ، وجهز معه من الفرسان ألفى فارس والتحق صلاح الدين بهذه الحملة مع عمه ، وعمره إذ ذاك عشرون ربيعاً ، ووصلت الحملة إلى مصر وتوغل جنوباً وعبر النيل من الشرق للغرب عند إطفيح [1] جنوبى

(١) قرية من قرى مركز الصف بمديرية الجيزة .

القاهرة وسار فى أرض الصعيد جنوباً « وتصرف فى البلاد، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً »[١].

ولم يترك شاور وحلفاؤه من الفرنج أسد الدين فى الصعيد يمكن لنفسه بل جمعوا حشودهم وساروا إليه ، والتقت جنود الفريقين عند قرية البابين جنوب مدينة المنيا فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة .

وكان جند المصريين والفرنج مجتمعين يفوقون جند شيركوه ، فأدخل ذلك الخوف فى نفوس بعضهم ، ولكن بعض قوادهم الشجعان ، وقوة شخصية شيركوه وجرأته تغلبت على ما ساور تلك النفوس من ضعف . وكان صلاح الدين من بين من حبذوا لقاء الفرنج والمصريين وقتالهم فى شدة وعنف .

ولم يشأ شيركوه أن يبدأ بالهجوم ، بل أعد خطته بحيث يبقى فى مكانه ، ينتظرهم وقسم جيشه إلى قلب وجناحين ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين على القلب وترك به أثقال الجيش وعتاده ، ووصاهم أنهم سيكونون هدف هجوم الفرنج والمصريين ، وأنهم سيلقون الصدمة الأولى فى المعركة فعليهم الثبات ولكن إلى حين ثم التظاهر بالتراجع حتى إذا تمادى الفرنج فى تعقبهم كروا عليهم .

واختار هو جماعة من الفرسان الشجعان فرقة ضاربة تكمن فى الميمنة، وتنقض فى الوقت المناسب لتطوق المهاجمين .

والتقى الجمعان ، وهاجم الفرنج وشاور القلب ، « فقاتلهم من به قتالا يسيراً ثم تظاهروا بالهزيمة غير متفرقين وتبعهم الفرنج ، وحينئذ حمل أسد الدين بمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج — الفارس والراجل — فهزمهم ووضع السيف فيهم وأثخن وأكثر من القتل والأسر » [٢] .

وبعد هزيمة شاور وأنصاره من الفرنج اتجه شيركوه وجنوده شمالا فاستولى على الإسكندرية ، « وسلمها أهلها إليه لميلهم إلى مذهب السنة وكراهتهم لرأى المصريين » [٣] وترك بالمدينة حامية على رأسها ابن أخيه صلاح الدين ، وفصل

---

(١) مفرج الكروب ١/١٤٩ .
(٢) مفرج الكروب ١/١٥١ .
(٣) نفس المصدر ١/١٥١ .

هو وبقية الجند متجهاً للصعيد مرة أخرى .

وقد ظهرت براعة صلاح الدين السياسية والحربية لأول مرة بالإسكندرية فقد أحبه أهلها ، ونصروه ، وعندما جاء إليه الفرنج ليحصروه ، قاوموا معه وتحملوا ضيق الحصار ، وقلة الطعام إلى أن تم الصلح وخرج شيركوه وابن أخيه ومن معهما من جيوش نور الدين مرة ثانية من مصر ، وخرج الفرنج ولكنهم تركوا حامية صغيرة وبعض فرسانهم بالقاهرة ليحرسوا أبوابها وليكونوا عيوناً على المصريين وأداة نفوذ لملك بيت المقدس ، وليجبوا الأموال التى فرضوها على شاور للخروج .

ولم تستقر الأمور بعد ذلك الصلح المؤقت ، لأن كل فريق كاد يتحين الفرص ويتربص بالآخر ، واشتد ضغط الفرنج على المصريين ، وساروا فى القاهرة سيرة جور وعنت ، كما أنهم بيتوا الاستيلاء على البلد استيلاء كاملا ، وأحس نور الدين بذلك فحدثته نفسه بإعادة الكرة مرة ثالثة .

وكانت أنباء محاولات الفرنج وفرض سيطرتهم على مصر قد وصلت إليه عن طريق رسل بعث بهم شاور إلى نور الدين مستصرخاً ، وفى رسائله ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة ، إمعاناً فى طلب العون والنجدة ، وكان يقول له : « إن لم تبادر ذهبت البلاد » وأرسل الخليفة الفاطمى إليه كذلك بنفس المعنى مستغيثاً عارضاً عليه ثلث البلاد ، وأن يكون أسد الدين مقيماً عنده فى عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذى لنور الدين .

وأرسل — نور الدين وهو مقيم إذ ذاك فى حلب — إلى أسد الدين شيركوه يستدعيه فلقيته الرسل فى الطريق قاصداً حلب من حمص إقطاعه . وأمره نورالدين بتجهيز الحملة وإعدادها الإعداد اللائق ، والإسراع للسير إلى مصر ، وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة ، واختار من العسكر ألفى فارس ، ومن الترك ستة آلاف فارس فكان مجموع فرسانه ثمانية آلاف عدا المشاة والتابعين .

وبعث نور الدين إلى صلاح الدين يطلب إليه التجهيز للمضى مع عمه شيركوه، وكره صلاح الدين السير أول الأمر ، وذلك لما لاقوه فى الحملة الثانية من

مصاعب وأهوال وخاصة بالإسكندرية عند حصار الفرنج وشاور لها . روى عنه ابن شداد صاحب سيرته أنه قال : « كنت أكره الناس فى الخروج فى هذه الوقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى » .

وقال عز الدين بن الأثير : « أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعادته وملكه » .

ونزل صلاح الدين فى النهاية على طلب نور الدين ، وصحب عمه ، وسار الجيش إلى مصر ، وكانت بها بعض فصائل من الإفرنج فلما سمعوا باقتراب أسد الدين غادروها ، وكان نزول عسكر شيركوه بمصر سنة أربع وستين وخمسمائة وفرح به أهل مصر ، لأنه كان المنقذ لهم من الفرنج وعبثهم وقسوتهم ، وأعمال السلب والنهب التى كانوا يرتكبونها دون رادع يمنعهم أو يحد من غلوائهم .

واتصل شيركوه بالقصر فقربه الخليفة وأنعم عليه وأغدق فى إكرامه له ، وكان قد سئم تصرفات وزيره شاور ، ومؤامراته ضد مصر والقصر ، ليفوز هو من ورائها بمطامعه على حسابهما جميعاً ، وعلى حساب أقوات المصريين وسلامتهم وسلامة الشرق الإسلامى جميعاً ، فليس يخفى ضرر التجائه لصاحب بيت المقدس فهو مفتاح سيطرة الصليبيين على مصر ، ومن ثم تحكمهم فى هذه المنطقة الحيوية ، مما يكون خطراً داهماً يهدد البلاد الإسلامية ويخنق تجارتها ومواصلاتها ويتحكم فى منافذها . وقد أحس المسلمون بهذا كله ، وجزعوا منه ، ولهذا قام نور الدين بمغامراته الثلاث ، فى حملاته الفدائية بقيادة شيركوه عبر بلاد الفرنج ، ولهذا أيضاً قال نور الدين لصلاح الدين حين دعاه لمرافقة عمه يستحثه : « إن تأخرت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها . فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره »[1].

واعتبر المسلمون حماية مصر من الفرنج أجل الفتوح وأعظمها « إذ لو استولى العدو على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الاسلامية »[2] .

---

(١) مفرج الكروب ١/١٥٩ .

(٢) نفس المصدر ١/١٦٠ .

ولهذا كله كان شاور محل سخط الخليفة ، ونور الدين، وشيركوه ، وكان فى نفس كل واحد منهم أن يتخلص منه ، لأنه كان مثال الخداع والكيد والتضليل والتآمر ، حتى بعد استقرار الأمر لشيركوه فى مصر . قال ابن واصل : « وأقام شاور يتردد إلى أسد الدين شيركوه ، وكان قد وعده بمال فى مقابلة ماخسره من النفقة فلم يوصل إليه شيئاً ، وقيل إنه ماطل فى تقرير ما بذل له من المال والإقطاع للعساكر وإفراد ثلث البلاد لنور الدين » .

« وذكر أن شاور كان قد عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم » .

قال ابن واصل : « واجتمع أسد الدين وأصحابه على الفتك بشاور، لأنهم علموا أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن ترددهم إليها فى كل وقت لايفيد . وأن شاور يلعب بنا تارة وبالفرنج تارة أخرى ، وأنهم إن قتلوه ، واستولوا على البلاد حفظوها من عدو الدين » .

وانتدب صلاح الدين نفسه للخلاص من عدو الدين . واتفق هو وبعض القواد على التخلص من شاور ، فقتلوه ، وبذلك استراحوا من شره .

وجرت الأيام بالسعد لصلاح الدين ، وشاء القدر أن يدفع به لتسلم لواء القيادة فى معركة التحرير الإسلامى ضد قوى الغزو الصليبى والزحف الفرنجى البربرى على الشرق المتحضر .

وقد بهرتهم خيراته ومدنيته ، فراحوا يمنون نفوسهم بالأسلاب والغنائم ، وراح دعاتهم وأولو الأطماع يتدافعون ويدفعون بالأغرار باسم الصليب ليحاربوا وليكسبوا أرضاً ، وليوطدوا أقدامهم فى قواعد يستغلونها لأغراضهم .

ولكن صلاح الدين أمكنه أن يحسر موجة الطغيان ، وأن يرد عادية الصليبيين ويحطم آمالهم وأحلامهم بغنائم الشرق الإسلامى وأسلابه .

ولد صلاح الدين من أصل كردى أو عربى ، وكل منهما يمتاز بميزات خاصة ، فالأكراد رجال بأس وحرب ، وشجاعة وكفاح ، والعرب كذلك رجال إباء ومروءة وعزة . وكان أبوه رجلا مقداماً ، نبيلا ، قائداً ذكيًّا ، داهية ، سياسيًّا يعرف كيف يسوس ويقتنص الفرصة المناسبة ليعمل ، وولد ابنه يوسف صلاح

الدين كذلك ، وظهرت بوادر صفاته الممتازة مبكرة ، فقد دفعته الأحداث ليعمل شاباً صغيراً ، إذ صحب عمه وعمره لايتجاوز عشرين عاماً فى حملته الثانية على مصر ، وأجبرته الظروف على أن يتحمل حصاراً مروعاً بالإسكندرية ، وأن يتصرف وأن يصمد ، فصمد ، وخرج من المأزق ، وأحبه أهل الإسكندرية وقدروه لما لمسوه فيه من أخلاق كريمة وما لحظوه فى قيادته من حسن سياسة وبلاء .

وامتاز صلاح الدين بالحسم وسرعة العمل ، وتنفيذ ما يقتنع بصوابه وجدواه ، فهو الذى تقدم لقتل شاور ليحسم الأمر ويتخلص من مراوغ عنيد ، وهو الذى تحمل تبعة الوزارة ، وتصرف فى منصبه تصرف القادر على حداثة سنه ، وعلى وجود من يكبرونه ويزيدون عليه فى المكانة ، والقيادة .

وأخذ صلاح الدين إثر تملكه الوزارة بعد وفاة عمه يتصرف ليبسط يديه على مصر ويمكن لنفسه ويضع لبنات دولته ليصل إلى غرضه الأسمى الذى وقف له حياته وجهده وهو طرد الفرنج من ديار الإسلام والانتقام من الغاصبين والثأر لقتلى بيت المقدس ، والدماء الزكية التى سالت على أرضه وأرض الشام ومصر بأيدى الأفاقين المغتصبين .

وكان صلاح الدين يسير فى سياسته على نهج يتلخص فى الحزم من غير عنف وحسن السيرة فى غير ضعف ، كما أنه كان يسعى إلى توحيد الجهود نحو الهدف ، ولم يسمح لذلك بالفرقة فى أية صورة من الصور ، وحارب دعاة الهزيمة وتشتيت الجهود داخل البلاد حرباً لاهوادة فيها ولا تهاون حتى يحفظ للجبهة الداخلية تماسكها لتواجه الأعداء صفاً مرصوصاً متماسكاً لا منفذ فيه ولا ثغرة لمغرض أو مغامر أفاق ، ولا فرجة يستطيع الأعداء التسلل خلالها للطعن من الخلف .

وواجهته فى مبدأ حكمه مشكلة الفرقة فى قوى المسلمين ، فالدولة التى يتبعها ، والتى جاء فى عسكرها سنية ، والدولة التى يتولى الحكم فيها صاحب الأمر فيها علوى يضمر لأهل السنة الحقد ، وبينهما ثارات من قديم الزمان ، ويعرف أن الظروف إن كانت قد أرغمت صاحب مصر الفاطمى على المهادنة والخضوع ومسايرة الزمن ، فإنه لا يأمن أن يتغلب عليه متى سنحت فرصة ملائمة ، أو بدرت

بادرة تمكنه من عرضه ، لهذا كان يبيّت فى نفسه التخلص من صاحب الأمر فى مصر ، من الخليفة الفاطمى ومن أتباعه إذا لزم الأمر ليخلو له الجو ، وبدأ يدبر ويعد عدته ، ويتحين الوقت المناسب .

واستمال صلاح الدين قلوب المصريين بحسن سيرته ، وتصدق بالأموال ، فبذل منها ما كان قد جمعه عمه شيركوه ، وطلب من العاضد الخليفة الفاطمى أن يخرج من ماله جزءاً لإنفاقه فقبل ، وركز جهده حول القصر ، وأحب أن يتتبع الأعوان فيقضى عليهم واحداً واحداً ليعزل الخليفة فيسهل بعد ذلك إقصاؤه ، وبدأ بعبيد القصر من السودان ، وقد أخذ عليهم محاولتهم الاتصال بالفرنج ، فأوقع بهم وتخلص منهم — قال ابن واصل : « ولما وقعت هذه الواقعة تلاشى أمر العاضد خليفة مصر » [١].

وأرسل صلاح الدين فى طلب والده وإخوته لينصروه ، وليعتز بهم ويدعم حكمه . فطلب إلى نور الدين أن يسمح لوالده نجم الدين بالحضور إليه ، ففعل نور الدين . وجاء نجم الدين وسلم إليه ابنه الخزائن بأسرها [٢].

وأخذ فى التدعيم لأهل السنة فى مصر ، فأنشأ المدارس للشافعية ، وفوض القضاء بمصر للشافعى ، فاشتهر مذهب الشافعية واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به [٣].

وضيق صلاح الدين الخناق على الفاطميين ، فأعلن الخطبة للعباسيين ، وقطع الخطبة للعاضد الفاطمى ، وتوفى العاضد بعد ذلك ، فخلا الجو لصلاح الدين ، وأصبح صاحب الأمر قولا وفعلا .

وتولى صلاح الدين الأمر بمصر سنة ٥٦٩ هـ ، وبدأ تمهيد قاعدته فيها وتطهيرها من عناصر الفساد التى كانت تتمتع أيام الفاطميين بحرية العمل والتخريب ، وكانت سن صلاح الدين عند توليه الأمر سبعة وثلاثين عاماً . وقد كان له من شبابه عون على اقتحام الصعاب ، وخوض العقبات إلى آماله مستهيناً بكل ما يلقى فى سبيل ما يصبو إليه .

---

(١) مفرج الكروب ١/١٧٨ .
(٢) نفس المصدر ١/١٨٦ .
(٣) نفس المصدر ١/١٩٨ .

وبما أن ظروف الحكم والحكام فى تلك العصور توحى بالاستبداد والتفرد بالحكم إلا أن ذلك لم يكن من دأب صلاح الدين ، فقد ألف الشورى ، وكان له من مجلس أعوانه الأمراء والقواد والوزراء كالقاضى الفاضل ، والفقهاء والقضاة مجلس شورى يستأنس به فى الملمات ويرجع إليه كلما استشكل أمر أو أحب الاستفسار عن شىء .

وكان يتحلى بالإيمان المستقر فى قلبه ، وكان يعرف الله حق المعرفة ويراقبه فى غدوه ورواحه ، ويرجع إليه كلما أدلهم كرب ، أو ضاقت به السبل فيجد من خالقه معيناً ونصيراً ، ويجد فى الابتهال إليه قوة دافعة تميط له الحجب ، وتدفع به إلى الصراط السوى . قال ابن شداد : « وحسن ظنه بالله واعتماده عليه فى عظيم الأمور »[1] ، وقال : « كان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم »[2] . ويذكر مثالا لذلك الإيمان الذى يتفجر من قلبه ماحدث فى حصار الفرنج لبيت المقدس قال : « حدث فى حصار الإفرنج بقيادة قلب الأسد لبيت المقدس أن اشتد الأمر على المسلمين ، فصلى صلاح الدين الفجر . وخر ساجداً لله يدعوه وعيناه تقطران الدموع على شيبته ثم على سجادته »[3] .

وقد لاقى صلاح الدين صعاباً كثيرة فى الداخل من أولها ثورة السودان من عبيد القصر الفاطمى وحراسه ، ثم هجوم أهل النوبة والسودان على الصعيد ، ثم ثورة الكنز أمير الصعيد وبعض من أيدوه من الأعراب ، ثم مؤامرة الانقلاب الذى أراد بعض أنصار الفاطميين تدبيره للتخلص من صلاح الدين وملكه .

ولكن صلاح الدين خرج من هذه الصعاب والأزمات المتتالية منصوراً ظافراً بفضل يقظته ، وحسن تدبيره وإخلاص بعض أعوانه ، ومناصرة إخوته وعشيرته ، ثم بعد هذا كله إخلاص المصريين له بعد أن رأوا فيه الرجل الذى يمكن أن يخلصهم من فوضى الحكام والذى رأوا فيه القوة والشباب الذى كان

---

(١) النوادر السلطانية ص ٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٨ .

ينشده الشرق الإسلامى فى زعيم ينقذه من الصليبيين .

ولم يقنع صلاح الدين باستتباب الأمن وقهر روح التفكاك والهزيمة داخل البلاد بل قام بحملات لتأمين الحدود المصرية، وأهمها حملات أخيه شمس الدين توران شاه إلى بلاد النوبة واليمن . والتى انتهت بتطهير تلك البلاد ، وضمان تأييدها ونصرتها لمصر وصلاح الدين ، كما كانت حملته لليمن سبباً فى تطهير البلاد المقدسة ، وتأمين الطريق إلى مكة والمدينة ليحج المسلمون آمنين من العابثين من اللصوص وقطاع الطرق ، أو من المتلصصين من شراذم الصليبيين الذين كانوا يحاولون قطع الطريق إلى الحجاز ، فى البر أو البحر على ظهور سفن قراصنتهم التى كانت تقوم من ميناء إيلات جنوبى فلسطين على خليج العقبة ، وتجوب البحر الأحمر عابثة مرتكبة صنوفاً من النهب والسلب والقتل والاستيلاء على السفن التجارية الآمنة أو التى تحمل الحجيج من عيذاب متجهة للشمال .

وتم الأمر لصلاح الدين بمصر ، وأمّن داخل البلاد ، والحدود ، وأرسل ليكسب أنصاراً من البلاد الإسلامية والعربية المجاورة ، وكانت خطوته التالية هى كسب الشام إلى جانبه وتوحيدها مع مصر للضغط بالثقل الإسلامى والعربى كله على الصليبيين ، ولم يكن من الميسور عمل هذا فى حياة نور الدين ، فكلا الرجلين نور الدين وصلاح الدين صاحب طموح ، وإقدام ، وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان تابعاً لنور الدين ، إلا أنه أحب أن يفصم عرى تلك التبعية ، ويستقل بنفسه ، ولكنه عالج الأمر بمهارة ، حتى لا يكتسب الصليبيون مما قد ينشب بين الزعيمين من خلاف فرصة لإضعاف المسلمين والوثوب عليهم . فاضطر صلاح الدين أن يغضى بعض الشيء وأن يسالم عندما واجهه نور الدين بالرغبة فى الزحف إليه لاسترجاع مصر من بين يديه ، فأظهر له الإخلاص والود ، وسارع إلى إرسال الهدايا والمال إليه ، ثم سارع إلى معاونته ضد الفرنج ، فغزا الكرك والشوبك من قلاعهم القريبة من مصر .

وشاء الله ألا تطول حياة نور الدين ، ليسلم اللواء إلى صلاح الدين وينفرد وحده بجهاد الفرنج . فتوفى نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ، وخلا الجو لصلاح الدين ، فنهض من فوره إلى الشام ، وتوجه إلى دمشق حاضرة الدولة النورية ثم إلى حلب

حيث استولى على زمام الأمر ، ولم يترك فرصة لأخوى نور الدين أو قواده ، وهكذا تم له بناء دولته وتوحيد المنطقة العربية الإسلامية التى تحيط بإمارات الفرنج على سواحل البحر المتوسط ليجند كل مواردها للوثوب وطرد الغاصبين .

ولم تكن عيون الفرنج غافلة عن نشاط صلاح الدين ، واستعداداته ، فشنوا عليه سلسلة من الهجمات فى مصر والشام لمضايقته وتعطيله ، وبدأت تلك الهجمات بحملة ملك بيت المقدس ومساعدة أسطول قوى من إمبراطور بيزنطة بحصار دمياط واحتلالها . ولكن مقاومة المصريين من أهل دمياط حالت دون تحقيق أغراض الحملة ، فباءت بالفشل ، وعادوا من حيث جاءوا .

وشن الصقليون هجوماً بحريًّا جريئاً على الإسكندرية ، وحالت حامية المدينة واستماتة أهلها فى الدفاع دون نزولهم ، وباءوا بهزيمة نكراء ، وكروا على أعقابهم خاسرين .

صلاح الدين يبدأ حركة الانقضاض

بعد أن تخلص صلاح الدين من الصعوبات التى قامت فى وجهه فى مصر ، وقضى على المعارضة الداخلية ، وطهر البلاد من فتن الأعداء وحاسديه من الفاطميين وغيرهم ، وتخلص كذلك مما كان يحاك له من مؤامرات اتخذت أساليب الهجوم المسلح على ثغور مصر من ملوك أوربا وأعوانهم فى بيزنطة وصقلية وغيرهما من البلاد المجاورة لمصر — بعد أن تخلص من هذا كله ، وحطم موجات الهجوم ، بدأ مرحلة جديدة ، مرحلة إيجابية ، هى مرحلة الانقضاض .

وقد بدأ صلاح الدين مرحلة الانقضاض بأن ألقى بناظره إلى خارج مصر ، إلى حدودها الشمالية الشرقية حيث بلاد الشام ، وهى قسمان قسم يملكه الصليبيون ، ويحكمونه بقوة السلاح ، وقسم يملكه العرب والمسلمون . وعلى رأسهم نور الدين محمود بن زنكى ، وكان التناسق فى العمل بين صلاح الدين ونور الدين تامًّا ، فى سبيل غاية واحدة هى القضاء على الصليبيين واستعادة الأرض التى سلبوها من العرب واقتلاع جذورهم من الوطن الإسلامى العربى .

لذلك كان الصليبيون يعملون بشتى السبل على تحطيم كلا القائدين ، وتمكن صلاح الدين من مقاومتهم والصمود أمامهم فى مصر وفى حدود مصر ، وكذلك فعل نور الدين ؛ ولكن حم القضاء، فانتقل نور الدين إلى جوار بارئه ، وترك القيادة الشمالية خالية ، وكان لا بد لصلاح الدين أن يملأ الفراغ الذى خافه صاحبه لأنه لم تكن بعد نور الدين شخصية قوية تستطيع أن تصمد إلا صلاح الدين فى الجنوب ، فى مصر .

وتهيأ صلاح الدين للخروج إلى الشام لتوحيد شمل العسكر العربى فى القطرين تحت راية واحدة ، وزعامة واحدة ، لتحقيق غاية واحدة .

وسار صلاح الدين فى خمسمائة فارس إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٥ م ، وكان غرضه الظاهر هو حماية ابن نور الدين الأمير الذى ولى بعده باسم الملك الصالح ، وكان مستقراً فى حلب ، وحاول قواد نور الدين أن يقفوا فى وجه صلاح الدين ، لأنهم كانوا يحسون فى أنفسهم قوته . كذلك دفع الحسد والخوف على الملك عم الأمير الصغير صاحب الموصل إلى التحرك لإنقاذ ملك أخيه وأبيه زنكى .

واجتمعت كلمة بيت زنكى ، وقواد نور الدين على مهاجمة صلاح الدين وتفويت الفرصة عليه . وقد يبدو غريباً أن يلتقى المسلمون فى معركة دامية فى وقت ينبغى فيه الوحدة ، والتجمع ، والالتئام لا التفرق والتناحر والتقاتل .

ولكن الفريقين كانا مسيرين بدواع قوية تعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل منهما . فصلاح الدين يعتبر الأمر جداً ، وليست هناك أية فرصة للتردد أو التهاون فى جمع الشمل . بل ليست هناك فرصة لترك الميدان للعدو الخارجى الصليبيين وهم يتربصون بالمسلمين والعرب الدوائر ، ويتمنون وجود ثغرة فى صفوفهم لينفذوا من خلالها إلى أغراضهم وهى القضاء على هذه القوة الجديدة التى بدأت تفيق ، لتقلق مضاجعهم وتهدد مصالحهم وإماراتهم .

وكان الهدف البعيد، أو الأسمى أمام صلاح الدين أهم من الهدف القريب، الهدف البعيد والأسمى هو جمع الصف واقتلاع الغريب وتخليص أرض العرب والمسلمين للعرب والمسلمين ، أما الهدف القريب فهو الإبقاء على الصداقة ، وعلى

الولاء وعلى الرابطة بين المسلمين .

والتقى الجيشان ، جيش صلاح الدين وجيش آل زنكى بقرون حماة [١] سنة ١١٧٥ م . وتمكن صلاح الدين من هزيمتهم ، وامتلاك ناصية الأمر وبذلك أصبح سلطان مصر والشام الملك الناصر لدين الله .

واستقر الوضع له ، واعترف الخليفة العباسى ببغداد به سلطاناً على مصر والشام ، وأرسل إليه الخلعة الرسمية [٢] .

واستقر فى حلب فترة من الزمن ، أعد فيها الأمور فى الشمال ورتب الجند ، وعاد إلى مصر .

عاد صلاح الدين إلى مصر هذه المرة بعد أن أعد جبهته الشمالية ، وكانت عودته للاستجمام والتجمع للوثوب ، ولبدء الحملات الحقيقية ضد الصليبيين فى فلسطين والشام ، حملات الجلاء والطرد .

وقد دبر فى مصر الأمر لإعداد المؤونة للجيوش المقاتلة ، والسلاح ، والرجال وكانت القلعة المعروفة باسمه : قلعة صلاح الدين فى أعلى المقطم ، مركزاً للنشاط والإعداد ، والحركة الدائبة ليل نهار .

وبعد أن تم الأمر ، وأعد القائد قوة ضاربة تستطيع أن تقتحم وتهاجم حصون الفرنجة . سار على رأسها سنة ١١٧٧ م ، وفى الرحلة بأرض فلسطين التقى بجيوش الصليبية وكانت وقعة شديدة ، لم يوفق فيها القائد الطموح فعاد بجيشه ، إلى مصر ، وبدأ من جديد يعد ويستعد ، ثم عاود حملاته فى سنة ١١٧٩ م ، وانتصر هذه المرة فى عدة معارك لعل أهمها معركة مرج عيون سنة ١١٧٩ م .

وكانت قوة الصليبيين لا تزال صلبة ، فرأى صلاح الدين أن من الحكمة مهادنتهم إلى حين ، فوقع صلحاً بينه وبينهم سنة ١١٨٠ م لمدة سنتين ، وأزمع فيهما أن يدبر أمراً ، وهو أن يجمع حوله القوى العربية والإسلامية لتعاضده ، وتنطلق هذه القوى جميعاً فتلقى بثقلها على الصليبيين ، وحينئذ يستطيعون أن يفلوا قواهم وأن يخترقوا حصونهم ، وأسوارهم .

---

(١) راجع ابن الأثير فى الكامل جـ ١٠ ، Lane poole : Saladin 143

(٢) ابن الأثير فى الكامل جـ ١٠ .

وكتب إلى أمراء الجزيرة ، والموصل وأربل ، وكيفا ، وماردين وهى كلها مقاطعات فى الشمال ، شمال العراق وسورية ، كما كتب أيضا إلى سلطان قونية السلجوقى ، وإلى ملك أرمينيا، كتب إلى كل هؤلاء بالصلح ، واجتمع منهم مؤتمر كبير قرب سميساط ،اتفقوا فيه على أن يسود السلام بينهم وألايعادى أحدهم الآخر . وأن يكونوا صفاً على العدو . وحضر صلاح الدين مؤتمر سميساط ، وبعد أن تم الصلح عاد إلى مصر سنة ١١٨١ م (٥٨٧ هـ) وأناب ابن أخيه فرخشاه على دمشق . ولم يبق فيها طويلا ، فقد كان كثير التردد بينها وبين الشام ، وعاد فى العام التالى إلىالشام ، وودعته مصر هذه المرة وداعاً حافلا ، وخرج الناس فى وفود زاخرة إلى معسكره يودعونه وقد غلبهم التأثر والحماس . واستمع فى سرادقه إلى الخطباء والشعراء يهنئونه بالنصر ويتمنون له الخير . وقد جاء على لسان أحدهم فى هذه المناسبة :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فتطير الناس منه . ويقول المؤرخون إنه لم يعد بعد هذه السنة إلى مصر ، بل ظل يحارب الصليبيين إلى أن تم له النصر الكبير فى معركة حطين الفاصلة ، ثم فتح بيت المقدس ،وتمت الهدنة بينه وبين الفرنج ، وعاد إلى دمشق ليستريح . وكان قد نوى الحج ليختم به جهاده الرائع ، ولكن القدر لم يمهله فلقى الله سنة ٥٨٩ هـ بدمشق. وودعه العالم العربىوالإسلامى وداعاً رائعاً ، ورثاه الشعراء والأدباء مراثى باكية .

وقد مات ولم يبلغ الستين من عمره فتيًّا فى قلبه وهمته ، ولم يدع له موته السريع الفرصة للتمكين لدولته ووضع النظم لها ولحكمها وإدارتها وإن كان قد وضع على الولايات الهامة أبناءه وإخوته فتولى ابنه العزيز عثمان نائباً عنه فى مصر والظاهر غازى على حلب ، وأخاه الملك العادل على الولايات الشرقية .

الأيوبيون بعد صلاح الدين :

وبعد وفاة صلاح الدين اضطرب الأمر بين أبنائه ، وخاصة بعد تولى الملك الأفضل دمشق ، فقد ثارت بينه وبين أخيه العزيز عثمان أحداث جليلة

تدخل فيها الملك العادل أبو بكر بن أيوب وجاء من المشرق لينصر العزيز عثمان على أخيه الأفضل ، وانحاز الظاهر صاحب حلب إلى أخيه الأفضل فترة من الزمن ولكن تمكن العادل والعزيز من إقصاء الأفضل عن دمشق وتوليته بعض الولايات الشمالية . وتولى العادل أبو بكر أمر الشام سنة ٥٩٢ هـ .

واستقر الأمر للعزيز عثمان على مصر وكانت مدة حكمه سنتين إلا شهراً (توفى سنة ٥٩٥ هـ) .

وذكر المؤرخون أنه كان عادلا كريماً حسن الطوية والأخلاق والعقيدة شديد الخوف من الله تعالى ، محبًّا للعلم والعلماء كثير الاستماع للحديث ، سمعه بمصر والإسكندرية وخالط الفقهاء ، وأغدق عليهم ، وسار فى الرعية أحسن سيرة .

والتف حوله جماعة من أمراء أبيه ورجال دولته الكبار ، وإن كان شغب عليه بعض جنده فى أول حكمه عند توجهه إلى الشام .

وضم بلاطه كثيراً من أدباء مصر وشعرائها من جماعة القاضى الفاضل أمثال ابن سناء الملك ، وقد مدحه بكثير من القصائد .

ويذكر أنه كان قد طلب إلى القاضى الفاضل أن يعينه ببعض ماله لينفق على القتال ، فقال له القاضى الفاضل: «وجميع ما أنا فيه من نعمتكم ، ونحن نقدم الرأى والحيلة ، ومتى احتيج إلى المال فهو بين يديك » (١) .

وقد شارك العزيز عمه فى بعض وقائع بالشام ضد الصليبيين سنة ٥٩٤ هـ .

وتولى بعد العزيز ابنه الملك المنصور ، وكان طفلا ، فراسل بعض رجال دولته الملك الأفضل فى صرخد بالشمال ، وحاول الأفضل العودة إلى مصر فجاءها متخفياً ، ولكن عمه العادل سمع بالخبر فجاء إلى مصر من الشام وهرب الأفضل ووزيره ضياء الدين مرة ثانية .

وجاء العادل إلى مصر بعد هزيمة الأفضل والملك الظاهر . وتعقبه للأفضل إلى القاهرة .

وتولى العادل أمر مصر سنة ٥٩٦ هـ إلى جانب الشام التى كان تولاها سنة ٥٩٢ هـ وأرسل إلى ابنه الملك الكامل يستدعيه ، وولاه نائباً عنه بالديار المصرية ،

---

(١) مفرج الكروب ٣/٨٤ .

ولم يزل الملك الكامل ينوب عن أبيه إلى أن توفى ، وكانت مدة نيابته عن أبيه عشرين سنة ، ثم تولى الملك من بعده سنة ٦١٥ هـ وظل سلطاناً عشرين سنة أخرى ، فكان حكمه لمصر أطول حكم الأيوبيين جميعاً إذ استمر قريباً من أربعين سنة بين النيابة والسلطنة .

وكان عارفاً ديِّناً مهاباً شجاعاً . وحدثت أثناء توليه نيابة مصر أحداث بين فريقين من جند الأيوبيين ؛ بين الصلاحية والأسدية ، كما حدثت أحداث أخرى بين العادل وأبنائه وأبناء صلاح الدين وإخوته فى الشام ، كان من بينها منازلة الملك الأفضل وأخيه الملك الظاهر صاحب حلب لدمشق للمرة الثانية ، وكان عليها الملك المعظم عيسى بن العادل ، ولكن العادل نهض من مصر لنجدة ابنه فى دمشق . واختلف الأخوان الأفضل والظاهر على من يملك دمشق واستطاع العادل مرة أخرى أن يفرق شملهما فرحلا عنها وعادا إلى ولايتهما ، واستقر العادل بعض الوقت بالشام يدعم ملكه ويعين أبناءه على استقرار أمورهم فى الولايات التى يتولونها نيابة عنه ، فقد كان فى الشرق ابنه الأشرف موسى وفى دمشق المعظم عيسى وفى مصر الكامل .

وقامت أحداث بين العادل وأبنائه من جهة والفرنج من جهة أخرى فى بعض ثغور الشام . كذلك خرج عليه ابن أخيه الملك الأفضل على بن صلاح الدين وسلم سميساط للسلطان السلجوقى صاحب بلاد الروم وانتمى إليه [1] . وجرت وقائع أخرى بين الأشرف موسى وبعض خلفاء زنكى على الموصل . وهزم نور صاحب الموصل سنة ٦٠٠ هـ .

وهكذا استمرت مدة حكم العادل أبى بكر لمصر والشام فترة مضطربة عامرة بالأحداث الجسام والدسائس والمؤامرات والوقائع الحربية والخيانات بين أبناء البيت الأيوبى من ناحية فيما بينهم أو بينهم وبين بيت زنكى الذين كانوا يلون الموصل وأربل وسنجار فى المشرق من ناحية أخرى ، أو بينهم وبين الفرنج الذين كانوا يقيمون فى بعض الثغور والجيوب فى بلاد الشام وينتهزون الفرص للانقضاض كلما أحسوا بالضعف أو بانشغال الأيوبيين فيما بينهم بالنزاع على السلطة .

---

(١) مفرج الكروب ٣/١٥٢ .

واستقرت الأمور ردحاً من الزمن بين العادل والظاهر صاحب حلب بعد أن تزوج الظاهر ابنة عمه، وأنجب منها ولداً، وتعاون الاثنان وهدأت بينهما الأحوال وعاد السلام .

واستقرت الأمور نسبيًّا بعد ذلك على الحدود الشرقية فى السنوات الأخيرة من حكم العادل . ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ انقضّ الإفرنج فى آخر سنوات عمره سنة ٦١٥ هـ على مرج عكا بالشام ودمياط بمصر . وكان تجمعهم بعكا بقصد الهجوم على مصر بحراً من دمياط . قال ابن واصل :

« ولما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة فى ماذا يبدءون بقصده، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا ، وقالوا إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها ، وحينئذ لا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد » [1] . فصمموا عزمهم على ذلك وركبوا البحر ، وقصدوا بجموعهم الديار المصرية ، ونزلوا على بر دمياط وبينهم وبين ثغرها بحر النيل . ولقيهم الكامل وحاربهم أربعة أشهر إلى أن أنجده أبوه العادل ، وتمكنوا من ردهم .

وفى هذه السنة الأخيرة من حياته كذلك هزم ابنه الأشرف موسى سلطان الروم السلجوقى .

وكان العادل أبو بكر دون شك أقوى شخصية فى البيت الأيوبى بعد صلاح الدين؛ وإن لم تكن بطولته فى ميدان القتال أو انتصاراته شيئاً إلى جانب بطولات أخيه ، لكنه اشتهر بالدهاء والسياسة، قال المؤرخون : « وكان متيقظاً غزير العقل سديد الآراء ذا مكر شديد وخديعة ، صبوراً حليماً ، ذا أناة وتؤدة ، يسمع ما يكره ويغض عنه كأنه لم يسمعه » .

وقد كان له من أولاده سند فأعانوه، ورأى تمكن سلطانهم قبل وفاته. وكانوا على قدر كبير من النجابة والشهامة والكفاية والفضيلة، فقد تولى ابنه الأشرف موسى المشرق وابنه المعظم عيسى دمشق، وابنه الكامل مصر، وكان يتنقل هو بينهم وإن كانت له سلطنة مصر . وتولى أبناؤه الآخرون ولايات صغيرة أخرى فى بلاد الشام والجزيرة .

---

(١) مفرج الكروب ٣/٢٥٨ .

وقد وصفهم ابن عنين الشاعر فقال :

وله الملوكُ بكل أَرض منهم ملكٌ يجرٌّ إلى الأَعادى عسكرا
من كل وضاح الجبينَ تخاله بدرا فان شهد الورى فغضنفرا
يسمو إلى نار الوغَى شغفاً بها ويحلٌّ أن يسمو إلى نار القرى
متقدم حتى إذا النقع انجلى بالبيد عن سبى الحريم تأَخرا
وتعاف خيلهم الورود بمنهلٍ ما لم يكن بدم الأَعادى مسجرا

وكانت الشام أثناء تولى العادل مقسمة إلى ولايتين كبيرتين هما دمشق وحلب بعض الولايات الصغيرة مثل حمص وحماة وقد تولاها بعض أفراد البيت الأيوبى .

وظل المعظم عيسى على الشام إلى سنة ٦١٥ ﻫ ، وتولى الظاهر على حلب إلى سنة ٦١٤ ﻫ وخلفه ابنه . وتوالى الملوك والأمراء من الأيوبيين على ولايات مصر والشام بعد أبناء العادل وأبناء صلاح الدين يتوارثون الملك ، وكان من أبرزهم فى الشام الناصر صلاح الدين داود ، ثم العادل ابن الكامل فالملك الصالح نجم الدين وآخرهم فى مصر تورانشاه سنة ٦٤٧ ﻫ .

وفى السنوات التى تلت وفاة العادل سنة ٦١٥ ﻫ حتى مقتل تورانشاه سنة ٦٤٧ ﻫ وانتهاء الدولة الأيوبية فى مصر والشام حدثت أحداث جليلة متعددة بين أبناء العادل وأحفاده وإخوته وأبناء إخوته ، وكان أبرزها ما حدث بين الملك العادل الثانى ابن الكامل أيوب وبين الصالح نجم الدين أيوب من أحداث ووقائع للاستيلاء على ملك مصر انتهت بتآمر الصالح نجم الدين على ابن أخيه العادل والإيعاز بخنقه سرًّا والاستيلاء على سرير الملك بالديار المصرية . ثم ماحدث من تآمر على ابنه تورانشاه بين شجرة الدر ومماليك أبيه حتى قتل بعد انتصاره فى معركة المنصورة .

وقد تعرضت الدولة الأيوبية لهزات كبيرة من الداخل والخارج أدت إلى ضعفها وزوالها كقوة سياسية لعبت دوراً عظيماً فى تاريخ العالم العربى والإسلامى

فى مرحلة حاسمة من مراحل تطوره وصراعه مع القوى الخارجية الزاحفة من الغرب المسيحى ، وكانت الهزات التى تعرضت لها دولتهم من الداخل ناجمة عن استمرار النزاع بين أفراد بيت أيوب بعد موت مؤسس الدولة صلاح الدين ، وتآمر إخوته على أبنائه ثم تآمر الإخوة على الإخوة والأبناء على الآباء . . والآباء على الأبناء وهكذا .

وقد هز هذا النزاع كيان الدولة هزًّا شديداً ، وساعده وفت فى عضدها انقسام الجند فئات ، وصراع تلك الفئات فى الانتصار لواحد على الآخر وخيانة هذا لنصرة ذاك ، وكذلك بدأت الأحداث بين الأسدية والصلاحية وانتهت بين الخوارزمية والسلطان نجم الدين ، وكان المماليك الذين أسرف سلاطين الأيوبيين فى اجتلابهم ثالثة الأثافى فى أسباب هدم الدولة من الداخل .

أما من الخارج فقد تألبت عليها جحافل الصليبيين عبر البحر ، وأعوانهم الذين كانت جيوشهم لا تزال تحتل بعض ثغور الشام وكانوا يتربصون بهم الفرص ومنعتهم خلافاتهم الداخلية من طردهم . كذلك كان خلاف الأيوبيين مع حكام الموصل من آل زنكى .

الحالة الاجتماعية

كان الناس يخضعون فى القرنين السادس والسابع الهجريين لنظم اجتماعية لم يسبق لهم مشاهدتها فى العالم الإسلامى ، كانت نظماً طارئة أساسها الإقطاع الذى ساد العصور الوسطى فى أوربا والشرق .

وقد بدأ هذا النظام فى الشرق الإسلامى أيام السلاجقة ، وعلى التحديد أيام السلطان ملكشاه ووزيره العظيم نظام الملك ، فقد أشار نظام الملك على السلطان بأن يقطع كل أمير وقائد جند فى جيشه إقطاعاً فى ملكه الواسع العريض بحيث يتكفل كل أمير وقائد بكل ما يتصل بإقطاعه من النواحى الإدارية والمالية والعسكرية ، على أن يخضع للسلطان مباشرة ، ويقوم بأداء ما عليه من المال ، ويكون هو وجنده تحت إمرته كلما دعا الداعى أو كلما أمره السلطان بذلك :

والواقع أن نظام الإقطاع بتلك الصورة التى أوجدها ملكشاه ونظام الملك وزيره أدى إلى قيام تنظيم عسكرى قوى دقيق ، تخرج فيه فرسان ومقاتلون ممتازون أمكنهم أن يصمدوا أمام فرسان أوربا ونظمها العسكرية طوال الحروب الصليبية .

ولكن كانت لهذا النظام مساوئه إلى جانب هذه الميزات العسكرية ، ذلك أنه قد أدى إلى تقسيم الناس إلى طبقتين متناقضتين ، إحداهما طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع ويلحق بهم التجار الكبار ، وأصحاب الثراء من المقربين من الأمراء والسلاطين ، ثم الطبقة الثانية ، وهى الطبقة الدنيا طبقة الشعب الفقير ، وهى طبقة لا تملك شيئاً لأن الطبقة الأولى تملك كل شىء ، وهؤلاء يعيشون عالة عليها ، أجراء فى الأرض أو كادحين فى خدمة القصور وعمل السلاح ولإعداد آلة الحرب .

وقد كانت الأرض وما عليها ملكاً لصاحب الإقطاع ، لهذا كان يتصرف فى إقطاعه من أرض وبشر وحيوان ونبات كما يشاء ، ليس عليه رقيب ولا يحده قانون ، اللهم إلا السلطان وطبقة العلماء والقضاة ، وهؤلاء يتبعون فى أكثر الأحيان السلطان فى عدله وجوره . وكانوا يحكمون الشريعة الإسلامية وقد كان لأهل الحل والعقد أن يحوروها بحيث تلائم الرغبات السلطانية . اللهم إلا ما ندر من هؤلاء الرجال ممن كانوا يقفون أمام تلك الرغبات فيلاقون الاضطهاد كابن تيمية والعز ابن عبد السلام .

وكان طبيعياً والحال كذلك ألا يكون توزيع الثروة معتدلا بين هاتين الطبقتين ، كما كان طبيعياً أيضا أن يتعرض سواد الشعب لنوبات وهزات اقتصادية عنيفة فى صورة مجاعات مخيفة متتالية تجتاح الناس فتكتسح منهم الآلاف اكتساحاً .

وكان طبيعياً أن ينتج عن هذا الاضطراب وعدم التوازن فى الدخول التجاء بعض الناس إلى كثير من ألوان الكسب غير المشروع ، وغير الطبيعى الذى لا يأتى عن طريق زراعة الأرض وفلاحتها ، ولا عن طريق التجارة ، ولا الأعمال المهنية المختلفة ، ولا عن الصناعة ، إنما يأتى عن طريق ملتوية قد يكون أساسها

السعي لاجتذاب الرزق من السلاطين والأمراء والطبقة الغنية عن طريق الاستجداء والتملق في صور مختلفة متعددة .

وقد يبدو السلطان أو الأمير في صورة المتفضل ، أو الجواد ، الخير ، المتصدق فيجود على الناس بالأعطيات ، والهبات المالية ، والهدايا العينية بالكساء ، أو الغذاء في المواسم والأعياد ، فتعتبر هذه مكرمة ومأثرة له .

وهكذا كانت المقاييس في اعتبار هذه العصور مستمدة من واقع العصر لا تقرن بعصرنا الذى نعيش فيه ، ففهومنا لمثل هذه الأمور يختلف عن مفهوم أولئك الناس ، لأننا نعيش في قيم ومفاهيم غير تلك القيم والمفاهيم التي عاشوا فيها .

فمجتمعنا في القرن العشرين لا يعترف مثلا بأن يمتلك إنسان — أى إنسان — الأرض بمن عليها ، من مال وحيوان ونبات و إنسان ، لا يعترف بأن الجهد الإنساني لا يعود على صاحبه و إنما يعود على آخر هو صاحب الأرض ، وهو كذلك لا يعترف بالكسب الذى يأتي عن طريق الهبة والأعطية ، و إنما يعترف بالحق والمشاركة .

وكان الأدب — وسيلة من وسائل الرزق — وكانت موضوعات التملق تغلب على المواطنين من الشعراء ، وكان الأمير أو السلطان أو القائد أو الرجل العظيم يأوى جماعة من هؤلاء سواء عن طريق الدولة بتعيينهم في وظائف متعلقة بديوان الرسائل أو الدواوين الأخرى أو عن طريق شخصي كأن يكفل لهم الرزق عن طريق راتب معلوم .

كذلك اتخذ الدين والصلاح والتقوى وسيلة من وسائل الرزق . وقد ظهرت جماعات لم يكن لها عمل في الحياة إلا أنهم متدينون صالحون ، وكان الأمير أو السلطان يتقرب للناس بتقريب هؤلاء و إيوائهم ، وهكذا ظهرت بدعة التكايا ، ورباطات الصوفية ، وكانت تضم جماعات وأشتاتًا من الناس من مختلف بلدان العالم الإسلامي ، يأكلون ويشربون ويدعون للأسياد بالخير والبركة إذا ما استمر المدد ، أو يدعون عليهم بالويل والثبور والنكال إذا انقطعت الرواتب أو أسيئت معاملاتهم .

وكانت بدعة أن يوجد في كل مدينة كبيرة من مدن العالم الإسلامي رباط

للصوفية إلى جانب المسجد الجامع أو منفرداً فى مكان من البلد ، وكانت هذه الربط بمنزلة نُزُل ينزل بها هؤلاء الصوفية الصالحون الذين يطوفون أطراف العالم الإسلامى شرقاً وغرباً ، ويقضون حياتهم هكذا فى التنقل والعيش الرخى الهادئ الهانئ.

وكان لهذه الطبقة أثر كبير على الناس إذ أشاعت فيهم روح التوكل والاستجداء وأصبحت السلبية طابع تلك العصور عند الشعوب أو المحكومين ، ولم تقم بينهم دعوات للتحرر ، لأنها كانت تكبت لأول ظهورها . كما كان الحكام يعملون دائماً على أن يصرفوا عامة الشعب عن المشاركة الجادة فى حوادث العصر . فكان الجيش مثلا مجتلباً ، وكان جيشاً محترفاً ، يعمل بالأجر لا بعوامل الوطنية والدفاع عن الأرض والمصالح .

وربما كانت الحروب الصليبية التى هددت كيان الشرق الإسلامى أول هزة عنيفة أعقبت عصر الإقطاع الذى أوجده نظام الملك ، وهزتهم وأثارت فيهم النخوة والحمية ، وجعلتهم يعيشون مع الأحداث ويعتبرون ما يجرى على أرضهم شيئاً يتعلق بهم وبكيانهم ومستقبلهم .

وكان لشخصية صلاح الدين وشخصية نور الدين من قبله أثر واضح فى إيقاظ الوعى الشعبى ، فتحرك الشعب فى مصر وفى سوريا ، واشترك مع الجند المقاتلين ، اشترك الشعب فى الإسكندرية فى مقاومة الغزاة من القبارصة ومن ساعدهم من ملوك أوربا ، واشترك الشعب فى معارك عكا وغيرها من المدن فأبلى وصبر وثابر . ولم تكن مشاركة الشعب متمثلة فى القتال ، بل كانت كذلك متمثلة فى الحفاظ على كيان الدولة ، وعلى قائدها البطل ، فكان كل فرد يفديه ويعمل على إفشاء ماقد يدبر من مؤمرات ضده عن الأعداء ، واشتهر صلاح الدين بأنه يملك شبكة من المخابرات قوية واعية ، استطاعت أن تكشف كثيراً من تحركات الصليبيين فى الشام ، وتفسد خططهم بما يقابلها به صلاح الدين من رد فعل .

ولم تكن مخابرات صلاح الدين تعتمد إلا على أفراد الشعب فى الشام وفلسطين ومصر ، على الفلاحين الذين يفلحون الأرض ، والبدو الذين يضربون فى الصحراء والملاحين الذين يجوبون البحار .

وكان المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت يتكون من خليط أمشاج من عناصر

وجنسيات متعددة متباينة فى طبائعها ، وأخلاقها ، من العرب والترك والفرس ، والروم والأرمن ، ومن سلالات أوربية استوطنت وتأقلمت . ولكل جماعةمن هؤلاء تراثها الفكرى والاجتماعى والدينى . ولا شك أن اختلاط هذه العناصر جميعاً أنبت أشياء كثيرة جديدة، فى نظم المجتمع ، وفى العادات، والتقاليد، وفى الأدب ، وفى الفكر ، وفى الدين .

وكان العنصر البارز فى هذه الجماعات هو العنصر التركى، ثم الكردى وقد بدأ العنصر التركى يظهر عاملا فعالا فى العالم الإسلامى منذأيام المعتصم الخليفة العباسى ، وكان الأتراك يُجلَبون غلماناً من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة على أطراف الدولة الإسلامية ، يُخطفون من القبائل المخيمة شمال وشمالى شرق بلاد فارس . وكان هؤلاء الأتراك يمتازون بجمال الصورة وحسن البنيان، والاستعداد الحربى الممتاز ؛مما شجع الخلفاء وكبار رجال الدولة على الإكثار منهم لاستعمالهم خدماً ،أو حرساً خاصاً، أو نواة لفرق قوية فى الجيش. وقد أثبت كثير منهم فعلا مقدرة فائقة فى الأمور الإدارية والعسكرية .

وازداد الأتراك زيادة فعالة منذ أن سيطر السلاجقة على الحكم ثم من بعدهم الخوارزميون ، فأصبح الأمر لهاتين الدولتين فى العالم الإسلامى فى الشرق، وسبب تزايدهم اضطراباً فى المجتمع الإسلامى لصعوبة خضوعهم للقوانين والتقاليد [١]، ولم تكن لترضيهم أو تقنعهم تلك الأملاك التى يقطعها إياهم الأمراء والسلاطين بل بل كانوا كثيراً ما يلجأون إلى النهب والسلب ؛

وقد تسبب أولئك الأتراك ، وهم قوم عرفوا بالغلظة والشراسة ، فى كثير من المآسى المؤلمة التى حلت من حين لآخر بجماعات الناس فى المدن والقرى فى البلاد الإسلامية ، لأنهم لم يقفوا عند حد السلب والسطو ، بل كانوا دائماً يعمدون إلى القتل والتخريب وهتك الأعراض .

أما العنصر العربى فكان قد فقد سيطرته نهائياً فى كثير من البقاع التى كان يغلب عليها ، وإن ظلت آثاره باقية فى الشام والجزيرة وديار بكر وبعض أماكن أخرى متفرقة فى العراق ومصر . وقد صارت القبائل العربية تحيا حياة تساير

---

(١) الدولة الخوارزمية ص ٣٦ .

فيها الظروف بقدر الإمكان ، وتحاول أن تلائم بينها وبين البيئة التى تعيش فيها ، فتتزاوج وتستقر ، وتأخذ عادات السكان وتقاليدهم ، وإن كان بعضها يحتفظ ببعض التقاليد العربية الموروثة ، والعادات القبلية القديمة . وكانت بعض تلك القبائل تحتفظ بكيانها ولا تندمج فى سكان الأقاليم التى تحل بها ، وكانت تحارب لمصالحها أحياناً ، وكان بعض الأمراء والحكام يستغلها لمصالحه فتثور وتحارب بقيادة قواد أقوياء وكانت تصطدم فى معارك حامية مع الأتراك ، وكثيراً ما كانت تنتهى بهزيمتهم .

وأهم القبائل القوية فى هذه العصور قبائل العقيليين فى ديار بكر والجزيرة وقبائل بنى أسد وبعض قبائل كنانة فى أجزاء من الشام وأطراف العراق ، كما وجدت قبائل قوية أيضاً فى الصعيد المصرى كانت لها ثورات متعددة فى عصر الفاطميين وفى عصر صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين .

ولم يكن هذا العنصر فعالا فى مجرى الحوادث الكبرى فى هذا العصر اللهم إلا تلك الحركة التى قام بها أحد أمراء العرب ويدعى دبيس بن صدقة سنة ٥١٥ هـ فقد حاول اغتصاب السلطة من خليفة بغداد زمناً ، ولكنه فشل فى التغلب عليها وفتح المدينة بعد أن وردت نجدات قوية من الشمال والشرق من السلاجقة وولاتهم لمعاونة الخليفة المحصور .

وقل دور العنصر العربى فى الأدب والثقافة بصفة عامة ، فلم ينبغ منهم علماء مشهورون ولم يظهر شعراء مبرزون ، وإن كان بعض الشعراء كالأبيوردى قد افتخر بنسبه العربى الأموى العبد شمسى وتغنى به وبعنصره العربى طوال حياته فى قصائده التى كانت تبدو عربية الطابع ، وبدوية الصياغة والمعانى .

والعناصر الأخرى التى كان يتكون منها المجتمع الإسلامى عاشت إلى جانب هذين العنصرين ، تندمج فيهما أحيانًا ، أو تنفرد بأقاليم معينة تغلب عليها . فالفرس مثلا ، كانوا قد بدءوا يكونون قومية فارسية ، ويعيدون أمجادهم القديمة ولغتهم ، كما ظلوا يحتفظون بتقاليدهم ونشاطهم السياسى والعلمى والأدبى طوال هذا العصر ، أعنى القرن السادس الهجرى .

وقد نبغ منهم قبل ذلك جماعة من المشهورين فى السياسة وتدبير الملك « كنظام

الملك » الذى أشرنا إليه . كما ظهر من رجال الفكر أمثال الجوينى والزمخشرى والفخر الرازى وعمر الخيام وغيرهم .

والحقيقة أن أهم ما ميز هذا العصر عن غيره هو كثرة علماء الفرس ، وكثرة رحلاتهم من المشرق إلى المغرب والعكس ، والطواف بكثير من المدن الإسلامية لطلب العلم أو لتدريسه لطلابه من المسلمين ، فيستفيدون و يفيدون . وخير مثال نستطيع أن نضربه هو الحافظ السلفى الذى وفد من بلاده فى فارس إلى الشام ثم مصر واستقر بالإسكندرية حيث كانت له مدرسة مشهورة عرفت بالحديث ، واجتمع إليه كذلك جماعة من الشعراء والأدباء المشهورين. وكان صلاح الدين كثيراً ما يحب أن يستمع إلى الحديث من الحافظ السلفى ، وكان كلما جاء إلى الإسكندرية زاره أو استدعاه ليسمع منه .

وعاش الأقباط فى مصر فى سلام مع العرب منذ الفتح العربى ، وامتزجوا بهم وتعلموا اللغة و برعوا فيها ، وصار منهم شعراء مبرزون كالأسعد بن مماتى القبطى الأصل من أسيوط ، وقد عاش فى أواخر عصر صلاح الدين ، واتصل بالقاضى الفاضل وألف كثيراً من الكتب أشهرها « قوانين الدواوين» . وقد احتفظ الأقباط مع ذلك ببعض عاداتهم وتقاليدهم كما حاولوا أن يحتفظوا لأنفسهم بدور خاص فى المجتمع ، فعملوا فى الدواوين والإدارة والخراج ، وهى أشياء حذقوها وتوارثوها ، حتى إن ولاة مصر وأمراءها وخلفاءها منذ الفتح العربى حتى آخر العصر الأيوبى لم يستطيعوا الاستغناء عن خدماتهم القيمة فى الدواوين والإدارة . يقول ستانلى لانبول : « كان القبط الذين ولدوا ليصبحوا كتاباً وصيارفة يقومون بإدارة الدواوين جميعاً ، وظلت الكتب الحكومية ، والوثائق العامة تدون باللغة القبطية نصف قرن»[1] ونبغ من القبط جماعة عرفوا بالحكمة والدراية التامة ، وكثيراً ما بلغ منهم جماعة مرتبة الوزارة فى عهد الفاطميين والأيوبيين أنفسهم على ما عرفوا به من حماس دينى فقد تولى لهم ولبعض خلفائهم جماعة منهم المهذب بن مماتى وأسعد بن مماتى (توفى سنة ٦٠٦ هـ بحلب) .

* * *

(١) سيرة القاهرة ترجمة حسن إبراهيم وغيره ص ٧١ .

وقد تكون الصورة السابقة للمجتمع الإسلامى فى هذا العصر مصبوغة بلون قاتم ، إلا أننا لاينبغى أن نغفل عن بعض جوانبها المشرقة ، فإنه على الرغم مما كان يسود المجتمع من العيوب والمفاسد ، قامت كثير من الأعمال الإنشائية والعمرانية على أيدى بعض الشخصيات القوية الممتازة ، الذين يتمتعون بروح بناءة خلاقة ، وكان من هؤلاء نظام الملك ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين .

وقد استطاع نظام الملك — إلى جانب مشروعاته السياسية واهتمامه بأمور الحرب والتوسع الاقليمى على حساب الدول المجاورة كالبيزنطيين وغيرهم — أن يحقق كثيراً من المشروعات العمرانية النافعة ، فبنى كثيراً من المساجد فى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية التى كانت تخضع له ، وبنى كثيراً من المدارس التى ألحقها بالمساجد ، أو بناها مستقلة ، وكان بناء المدارس أهم عمل له ، وقد شغف بهذا أشد الشغف ، وهو مؤسس أول جامعة إسلامية كبرى ، وهى المدرسة النظامية فى بغداد؛ وقد خرّجت كثيراً من العلماء فى القرنين السادس والسابع الهجريين . وبنى على أمثالها مدارس أخرى سميت بالنظامية نسبة إليه ، وكانت كل واحدة تعرف باسم البلد الذى أنشئت فيه .

واهتم ملكشاه ونظام الملك — إلى جانب الدين والعلم من بناء مساجد ومدارس — بالزراعة ، فأمرا بحفر القنوات ، وإقامة القناطر ، كما أصلحوا المدن وشيّدوا حولها الأسوار والقلاع .

وأما نور الدين فإنه لم يقل فى أعماله العمرانية عن ملكشاه ، ونظام الملك على قدر إمكانيات إمارته فى الشام ، والتى اتخذ حلب قاعدة لها . وقد أنشأ نور الدين كثيراً من المنشآت النافعة فى مدن الشام وفى حلب ودمشق خاصة ، منها قلعة حلب العظيمة ، وبعض المدارس ، وكذلك البيمارستان وربط الصوفية والخانقاه فى دمشق . وكان لصلاح الدين نصيب وافر فى التعمير والإصلاح فى أنحاء متفرقة وبلاد كثيرة فى مصر والشام ، وأهم منشآته بمصر القلعة المعروفة باسمه على المقطم ، ثم بناء سور القاهرة الكبير ، وبناء المدارس الكثيرة بها ، وأهمها المدرسة التى بجوار الإمام الشافعى ، كما جدد كثيراً من مساجدها الكبرى ، وأقام المارستان .

وقد فعل فى دمشق مثل ما فعل فى القاهرة .

وقام خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين بمثل ماقام به من ضروب الإصلاح الإجتماعي فأقاموا المدارس ودور الحديث والبيمارستانات . فني عهد العزيز عثمان خفف كثيراً من أعباء الضرائب والمكوس على الناس ، وعمر الملك الكامل دار الحديث « الكاملية » فى بين القصرين بالقاهرة، وعمرت والدته قبة الشافعى ، وأجرت ماء النيل من بركة الحبش إليها .

و بالرغم من أن كثرة الحروب قد أثقلت كاهل الناس وأرهقتهم إلا أن بنى أيوب لم يحرموا أنفسهم ، ولا أمراء أجنادهم من النعيم . وقد حقق كثيرون منهم ثروة عظيمة وعاشوا فى بحبوحة .

ويذكر المؤرخون أنه عند زواج الملك الظاهر غازى لابنة عمه حنيفة خاتون جهزها والدها العادل أتم تجهيز فوصلت إلى حلب فى تجمل عظيم وقدم معها من القماش والآلات وأنواع المصوغات مايحمله خمسون بغلا وثلثمائة جمل ومائة بختى ، ومن الجوارى والوصائف والإماء والحرائر ما يحملهن مائة جمل . وذكر أنه كان فى خدمتها مائة جارية ، كلهن مطربات يلعبن بأنواع الملاهى ، ومائة جارية كلهن يعملن أنواع الصناعات البديعة .

« وقدم لها الملك الظاهر خمسة عقود جوهر قيمتها مائة ألف وخمسون ألف درهم ، وعصابة مجوهرة لانظير لها ، وعشر قلائد من العنبر المذهب ، وخمساً غير مذهبة ، ومائة وسبعين قطعة من الذهب والفضة، وعشرين تختاً من الثياب المختلفة الألوان ، وعشرين جارية وعشر خدم » [١].

ويذكرون كذلك أنه عند ولادة ابن الظاهر من ابنة عمه هذه عمل احتفال عظيم بمدينة حلب ، وزينت المدينة، وأمر الظاهر بإحضار شيء كثير من الفضة والذهب وأمر الصياغ ألا يتركوا شكلا ولا صورة من سائر الصور إلا ويصوغون مثلها فصاغوا من ذلك ماوزن بالقناطير ، وصاغوا عشرة مهود من الذهب والفضة سوى ماعمل من الأبنوس ، ونسج للمولود ثلاث فرجيات من اللؤلؤ فى كل واحدة منها أربعون حبة من الياقوت والزمرد، ودرعان وخوذتان من اللؤلؤ وثلاثة سروج مجوهرة فى كل واحد منها عدة من الياقوت والزمرد، وثلاثة سيوف غلفها وقبضاتها ذهب مرصع بأنواع الجوهر ، ورماح ذهب أسنتها جوهر منظوم [٢] .

(١) مفرج الكروب ٣/٢١٤ . (٢) المصدر نفسه ٣/٢٢١ .

وأكثر ملوك الأيوبيين من اقتناء المماليك حتى إنهم كانوا يجلبونهم من أصقاع آسيا من الترك ، وزادوا زيادة كبيرة . وكان للملك الصالح نجم الدين ألف مملوك منهم بالروضة ؛ فكانوا يسبون الحريم ويأخذون الأموال . وقد عاث هؤلاء فى البلاد فساداً ، وكانوا من أسباب اضطراب الأمن لكثرة شغبهم واعتدائهم على الناس وممتلكاتهم .

الحالة الاقتصادية

وقد نشطت حركة التجارة بصفة عامة فى هذا العصر على الرغم مما كان يسوده من اضطراب نتيجة للحروب المستمرة بين الشرق والغرب ، أو بين أمراء الشرق أنفسهم. فكانت التجارة تنتقل من أقصى الشرق ؛ من الهند والصين وبلاد فارس عبر العراق والجزيرة والشام فثغورها على البحر المتوسط ثم تحملها السفن بعد ذلك إلى مدن أوربا الوسطى الشمالية والغربية مثل جنوة والبندقية . أو كانت تنقل عن طريق البحر الأحمر فالنيل إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية أو دمياط وتنيس ومنها إلى أوربا .

وكان لهذه التجارة أثر كبير فى حياة الناس ، وفى أحوال معيشتهم . وفى ميزانيات الحكومات ومشروعاتها .

وقد اشتغل كثير من سكان مصر والشام بالتجارة وأثروا من ورائها ، كما أنها أوجدت أعمالا وصناعات لم تكن معروفة من قبل ، ونشطت صناعات أخرى محلية . كصناعة الأقمشة الحريرية فى تنيس والإسكندرية ودمياط ، وكان يصدر منها إلى بلاد الشرق وأوربا .

كذلك حصلت الحكومات المكوس الكثيرة على التجارة العابرة مما زاد موردها وحسن حالتها المالية بصفة عامة .

وقد ذكر الشعراء المكوس وتحصيلها ، وإلحاح المحصلين ، قال ابن التعاويذى فى محصل مكوس :

ملكت رقى وأبو خالد فى واسط بعد على المجر

في فم سريا ينفذ الحكم في بضائع التجار والسفـر
يأخذ منهـا الربع والمكس لا يزيد في الدنيا على العشر
محتكرًا للملح والذر والحنطة والشعير والتمر
وكل ما يصلح للقوت أو تطلق فيه لفظة البر
يبيعهـا بالعقيق والحلى والثياب والفضة والتبر
حتى رماه الناس من سوء ما أتاه بالإلحاد والكفر

وتجاوبت أصداء الشكوى من هؤلاء في كل مكان ، وخاصة في الثغور ، وقد ضج ابن جبير من محصلي المكوس عند لقائهم له ومضايقتهم إياه بالإسكندرية .

غير أن بعض الحكام العادلين لاحظوا ما يقاسيه الناس ، ويعانيه التجار من فداحة المكوس ، أو ما قد ينتج عنها من وقف نشاط التجارة . أو ركودها ، أو ما قد تسببه من مضايقات لحجاج بيت الله الحرام فرفعوا بعض أنواعها وخفضوا البعض الآخر .

وكان ممن استن هذه السنة الحميدة من حكام الشام نور الدين محمود إذ وضع عنهم المكوس ، كما أمر صلاح الدين بتخفيضها كثيراً في مصر سنة ٥٦٧ هـ[١] .

وكانت مصر والشام بموقعهما الممتاز وسط العالم الإسلامى ، وفي سرة العالم القديم النافذة المطلة على البحر المتوسط مركزاً هاماً للتجارة من الشرق والغرب في أوربا في هذه العصور . وقد تلاقت فيها تجارة أوربا ومصنوعاتها من البندقية وبيزا وجنوة بتجارة الصين والهند وأواسط آسيا[٢] .

ولم تكن التجارة في مصر والشام وبعض البلاد العربية في المنطقة حرة ، بل كانت تحكمها قيود واحتكارات ، فقد كان بعض الأمراء والوزراء وكبار التجار يحتكرون لأنفسهم أصنافاً خاصة ، كما فعل مثلا الوزير الصالح بن رزيك أيام

---

(١) ديوان ابن التعاويذى ص ١٩٥ .
(٢) كتاب الروضتين ١/٢٠٥ .

العاضد الفاطمى فقد احتكر لنفسه الغلات ، وكانت هذه سيرة مذمومة كما ذكر ابن خلكان [١] .

وكانت مصر مسلكاً لتجار اليهود الذين يتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنجية والأندلسية وغيرها . وكانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ، يجلبون من الغرب الخدم والجوارى والغلمان والفراء والسيوف [٢] .

وازدهرت الحالة الاقتصادية بوجه عام فى عصر الناصر صلاح الدين وخلفائه لعوامل عدة ، منها أنه حدّ فى مصر من النظام الإقطاعى الذى ساد طريقة امتلاك الأرض طوال العهد الفاطمى ، وبذلك حطم استغلال أمراء الإقطاع وكان لهذا أكبر الأثر فى نشاط الزراعة ، ومن ثم نشاط الحالة الاقتصادية فى البلاد عامة [٣] .

وقد اهتم الأيوبيون بصفة خاصة بالزراعة ، مما يختلف عن غيرهم ممن يتبعهم كالمماليك الذين وجهوا عنايتهم للتجارة ، كما لم يقصروا فى تشجيع التجارة ، فتسامحوا مع تجار الإفرنج لدخول البلاد الإسلامية وتبادل التجارة مع أهلها وتجارها كما أن الإفرنج كذلك سمحوا لتجار العرب والمسلمين بدخول البلاد التى تحت حكمهم فى فلسطين والشام وغيرهما فى بلادهم [٤] . وقد وقع العادل معاهدة تجارية مع البندقية [٥] ، كما سمح لبعض تجار أوربا ببناء فنادق لهم بالإسكندرية .

ومثال ذلك التسامح ما أمر به صلاح الدين من عمل التسهيلات للتجار فى القاهرة ومصر فى منشور قال فيه : « وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليها وإلى ساحل القسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويستمر ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر براً وبحراً راكباً وظهراً ، سراً وجهراً لا يحل ماشده ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما أورده وأصدره . . الخ [٦] .

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٢٩٤ .
(٢) مصر فى العصور الوسطى ص ٤٣٣ .
(٣) مصر فى العصور الوسطى ص ٤٤٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ٤٤٩ وراجع ابن جبير ص ٢٨٨ ط جب .
(٥) كتاب الروضتين ١/٢٥٠ .
(٦) المصدر نفسه .

وعلى الرغم من هذا ، كانت تحدث هزات اقتصادية عنيفة قد تودى بالكثيرين وتؤدى إلى المجاعات وانتشار الكساد ، ثم الأوبئة . ومرجع ذلك إلى أسباب عدة . منها انخفاض النيل فى مصر ، وعدم سيطرة الحكومة على تصريفه لانعدام الوسائل والمعرفة العلمية بأصول الرى فى بلد جل اعتماده على الزراعة ، وانصراف الفلاح عن فلاحة أرضه والعناية بها لأنه يرى أن ثمرة كده تذهب لغيره ، كما أن بعض الحكام الظالمين كانوا يقومون بأعمال تعسفية كمصادرة الأموال بالجملة والاستيلاء على الأمتعة والأملاك والأرض عدواناً وزوراً .

وكذلك كان الحال فى الشام والبلاد المجاورة . ولعل أهم ما حدث فى مصر والجزيرة والموصل والشام من غلاء ومجاعات ما كان سنة ٥٧٤ هـ قال ابن الأثير : «وفى سنة ٥٧٤ هـ اشتد الغلاء ، وعم أكثر بلاد العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد ودامت إلى أن انقضت السنة » [١] .

وكانت أشد المجاعات فتكاً فى مصر فى عهد العادل ابن أيوب فقد استمرت المجاعة من سنة ٥٩٦ هـ إلى سنة ٥٩٩ ، وكان أشدها سنة ٥٩٧ [٢] وكان سببها انخفاض النيل فانتشر القحط وهرب الناس من مصر إلى الشام ، وانعدمت الحبوب واشتد البلاء ، وكتب العماد الأصفهانى يصف ذلك كله فيقول : « وفى سنة ٥٩٧ هـ اشتد الغلاء ، وامتد البلاء ، وتحققت المجاعة وتفرقت الجماعة ، وهلك القوى ، فكيف الضعيف ، ونحف السمين ، فكيف العجيف ، وخرج الناس خوف الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر فى الأمصار . ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة تحت الأحمال ، ومراكب الفرنج واقفة على ساحل البحر كالرخم تسترق الجياع باللقم » [٣] .

ومما زاد الحالة سوءاً كثرة الحروب واتصالها ، مما تطلب كثيراً من الأموال والقوت ، وكانت النتيجة زيادة الضرائب وإرهاق الناس فلاحهم وتاجرهم .

---

(١) راجع الكامل جـ ٤ فى تلك السنة .

(٢) إرشاد الاريب ٧ / ٤٣ .

(٣) مرآة الزمان ٨ / ٤٧٧ .

ولا شك أن هذه الهزات الاقتصادية العنيفة قد أثرت كثيراً فى نفوس سكان هذا الإقليم (مصر والشام والعراق) وفى حالة المجتمع الاسلامى فى هذه البلاد.

العادات والأخلاق :

وكان للعناصر التى تكون منها المجتمع الاسلامى والتى أشرنا إليها أثر فى ظهور بعض العادات والتقاليد الغريبة عن الإسلام والعرب ، كما أن الحالة السياسية التى كان يحكم بها الناس أظهرت بعض المفاسد والمظالم الاجتماعية . وقد صورها ياقوت الحموى فى كتابه «معجم الأدباء» بقوله عن أحد من ترجم لهم :

« وعلى الحملة فعاش فى زمن سوء وخليفة غشوم جائر كان إذا تنفس خاف أن يكون على نفسه رقيب يؤدى به إلى العطب » .

وبرزت أخلاق الملق والرياء ، وطغت على غيرها بين العامة والخاصة ، وكثر الدس ، وانتشرت الخيانة والوقيعة . قال صاحب مرآة الزمان عن الحالة فى بغداد فى ذلك العصر :

« كانت السعايات قد كثرت ففسدت الأمور ، فنادى الخليفة : من سعى بأحد أبيح ماله » .

وقال ابن التعاويذى الشاعر يصف ذلك الحال :

لحى الله بغداد من موطن ... به من كل مكرمة تفقدُ
الدار لا ظلٌّ عيش بها ... ظليلٌ ولا زمنى أرغــدُ
نسيم الهوى بها باردٌ ... وسوق القَريضِ بها أَبردُ
وأَخلاق سُكانِها كالزُّلالِ ... ولكنّ أَيديهم جَلمــدُ
يُرى كل يوم بها سفلةٌ ... تسود ولم ينمهـا سؤددُ
يناضــل من دونه وفرة ... ويخذله الأَصــل والمحتــدُ
ويعجبــه طيب أثوابه ... وقد جنت الأَهــل والمولدُ
ويغنى بمبيضّ أثوابه ... ووجهُ الزمان به أَســودُ

يبـاري الملوك وأفعـالهُ بخسَّةِ آبائِهِ تشهـد
فبينـا نـراهُ عـلى حالةٍ يَرِقُّ لـرقَّتِهـا الحُسَّدُ
إلى أن تراهُ وقدَّامهُ الدّ واةُ ومِنْ خلفِـهِ المسنَدُ
ظَللتُ بها كارِها لا أَحُلُّ إذا الناس حاوا ولا أقعـد

فكثر فى هذا العصر الأدعياء ، والساعون إلى السلطة ، والراغبون فى الثراء واقتناء الأموال والجوارى والغلمان ورقيق الأرض . فغلبت روح الوصولية على الأخلاق الكريمة ، وأصبح دين الكثرة عبادة الدرهم والدينار والمنصب والجاه .

وعاش الأغنياء بين الأموال عيش الهناءة والنعيم ، فى قصور عامرة بأفخر الرياش ، سامقة عالية البناء ، مبنية على شواطئ أنهار دجلة والنيل وبردى، ومحاطة بالحدائق الناضرة التى تجمع أنواع الثمار والأزهار، إلى جانب كل ما يمكن أن يسر النفس ويمتع الجسد من زينة ورونق . وقد حدثنا التاريخ عن قصور العباسيين أيام الرشيد والمأمون والمنصور والمتوكل ببغداد ، كما حدثنا فى مصر عن قصور الفاطميين ، وكانت مضرب الأمثال ، فكان منها قصر اللؤلؤة مثلا ، « وكان من أجملها ، ويمتاز بحسن موقعه إذ كان يشرف من الشرق على البستان الكافورى ويطل من الغرب على الخليج الذى كان يوجد فى غربه حدائق غناء وبركة جميلة تسر الناظرين وكان الجالس فى هذا يتمتع بمنظر خلاب؛ إذ كان يرى خلف هذه الحدائق مياه النيل تجرى . ولهذا اعتبر من أحسن منتزهات العالم »[١].

وكان سكان المدن يشاركون الملوك والأمراء بعض ما يتمتعون به من مفاتن المدن الكبرى ومتنزهاتها ، فكانوا يخرجون إلى الحدائق والمتنزهات ، وكان الأثرياء القادرون منهم يبنون لأنفسهم القصور وينشئون البساتين ، ويقلدون الملوك فى المسكن والمأكل والشراب والمتعة . وقد أكسب هذا النعيم والترف عامة سكان المدن وخاصة العواصم الكبرى مثل أهل بغداد ودمشق والقاهرة — الرقة وحسن الآداب ، ودماثة الخلق ، ولين الطباع ، وكانوا يمتازون بجمال الملبس ونظافته ، والميل إلى الأناقة،

(١) مصر فى العصور الوسطى للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٤١٨ .

والظرف وحب اللهو والطرب ، وقد وصف ابن جبير أحوال من رأى من أهل بغداد ودمشق فقال :

«ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركنون للسلام على تلك الحال المشبهة بأحوال الفتاة مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفاً وأوثقوا تكتيفاً. وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزاً لهم فى ذوى الخصوصية وتشريفاً[١]». ولم يعجب ابن جبير هذا السلوك الذى يعتبره أهله من الأدب الجم ، فيتمادى فى السخرية بتلك العادات ويقول : « فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحال فى ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوى بينهم هوياً . وهذه الحال من الانعطاف الركوعى فى السلام كنا عهدناها فى قينات النساء وعند استعراض رقيق الإماء . فياعجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ! ! »[٢] . ويصف لباسهم فيقول : «والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً » . وكانوا يختلسون أوقات اللهو فى أماكن النزهة على شواطئ الأنهار فى الحدائق والبساتين ، أو فى الأديرة ، وكانت تعمر فى ذلك الوقت بالكروم والبساتين الزاهرة ويحبس بها الرهبان الخمر ويتاجرون فيها ، وكانوا يستمعون إلى الموسيقى والغناء بين تلك الرياض ، ويحتسون الخمر ويمر بها السقاة من الجوارى والغلمان حتى الصباح .

وقد كان بالعواصم العربية كثير من الأماكن المشهورة باللهو ، ومنها بالقاهرة بركة الفيل ، وبدمشق خان العقيقة بظاهر البلد . يقول عنه ابن خلكان : « قد جمع أسباب الملاذ ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يحد ولا يوصف »[٣] .

وقد أثرت كل هذه المظاهر الاجتماعية فى الأدب والفكر فى هذا العصر ، فكانت لها فى الأدب شعراً ونثراً ما ملأ الكتب والدواوين الكثيرة ، وسنتعرض له بالتفصيل عما قليل .

---

(١) رحلة ابن جبير طبعة أوربا ص ٢٩٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) وفيات الأعيان ٤/٤١٧ .

وهناك جانب آخر من حياة المجتمع فى هذا العصر ، لم نفصل فيه وإن كنا قد أشرنا إليه إشارات عابرة هنا وهناك ؛ هذا الجانب هو حياة الرقيق من الجوارى والغلمان ، والأكرة عبيد الأرض .

وكانت تجارة الرقيق رائجة يقوم عليها جماعة من تجار الرقيق من أهل جنوة والبندقية[١] ، ويتفننون فى تسويقه ، وكان أثرياء الناس يتهافتون على اقتناء الجوارى والغلمان ليكونوا زينة لقصورهم وتتمة لأبهتها ورونقها .

وقد أثر الرقيق فى حياة المجتمع الإسلامى والعربى فى ذلك الوقت ، وزاد منه كثرة سبى الحروب الصليبية الذى أضاف إلى الفئات المجتلبة من البلاد والأصقاع البعيدة أجناساً أخرى من الأرمن والأوربيين واليونان وغيرهم . وقد فتن المسلمون بهذه الألوان الجديدة ، وتنافسوا فى اقتناء النساء منها خاصة ، وكان طبيعياً فى هذا العصر أن يجمع الرجل فى داره مجموعة من ألوان ومشارب مختلفة ولم يتورع عن ذلك أكثر الناس تقوى ؛ فإنا نجد بعض الفقهاء يقتنى عدداً كبيراً من الجوارى والإماء الجميلات يتخذهن سرارى له ، كذلك اقتنى بعضهم الغلمان البيض .

وكان طبيعياً أن يظهر أثر هذا كله على أدب العصر . ونحن إن كنا قد رأينا أثر الجوارى أخذ يظهر فى أدب العصر العباسى ، وكذلك كثرة القول فى الغلمان ، فإننا مع ذلك لا نلمس الأثر قوياً فى القرون الأولى من العصر العباسى كما نلمسه فى هذا العصر ، فإن القول فى الجوارى والغلمان أصبح ترنيمة شعراء العصر ، ويكاد لا يخلو شعر شاعر ، ولا رسائل كاتب من القول فى هذا الموضوع .

العقيدة والمذاهب الفكرية

وبالإضافة لهذه الجوانب فى مجتمع العصر ، ينبغى أن نعرض للجانب الدينى والعقيدى ، وكان طبيعياً أن تؤثر النواحى السابقة جميعاً ، أعنى الخواص السياسية والاجتماعية فى عقائد الناس وأفكارهم .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل ظهور ألوان جديدة من العقائد والتقاليد الدينية لم تكن معروفة من قبل ، وكانت نتيجة طبيعية للاختلاط بين هذه الأجناس

---

(١) وفيات الأعيان ٤/١٤٧ .

والشعوب ، وبين أمشاج العقائد والديانات ، بين المسلمين ، من سنيين وشيعة ، ودروز وباطنية ، وحشيشية واليهود ونصارى ، ووثنيين ، وبقايا عقائد قديمة حملتها فئات من الشعوب ذات الحضارات القديمة كالهنود والفرس الذين تركزت فى عقولهم بعض عقائدهم كالمانوية والزرادشتية وغيرها .

وقد اختلطت هذه جميعًا ، فتألفت منها مجموعة من العادات والعبادات والآراء المختلفة الغريبة ، وكانت سببًا فى ظهور كثير من «الطرق» التى تفشت فى الإسلام وابتعدت به عن روحه الخالصة .

وقد أخذ الشعور الدينى عند المسلمين ينمو ويشتد ، لحاجة المجتمع إلى نموه لتعبئة الشعور العام ضد غزو الصليبيين ، وساعد الحكام على تنميته ، والنفخ فيه ، واتخذوا لذلك أسبابًا كثيرة ، منها تشجيع الفقهاء وتقريبهم والإغداق عليهم ، ومنها محاولة الحكام الظهور بمظاهر دينية لتقريب أنفسهم إلى الناس كالعكوف على الصلاة ، وقراءة القرآن ، والاستماع إلى الحديث والإغداق على فقراء المسلمين ، وبناء المساجد ومدارس القرآن والحديث وما إلى ذلك ، كذلك تقريب فقراء الصوفية وبناء الربط لهم فى المدن الكبيرة وتوفير ما يحتاجون إليه فيها من غذاء وكساء .

وقد عرف السلاجقة السنيون بتشجيعهم على بناء المدارس ودور الحديث لبث الثقافة الإسلامية السنية ، وكانت المساجد تفتح طوال النهار لأداء فريضة الصلاة ، ولتعليم الدين ، ولقراءة القرآن ، وكان من عادة الناس ترتيل القرآن ملحناً كل يوم بعد صلاة الفجر . ويجلس الناس لسماع المقرئين ذوى الأصوات الجميلة ، وللاستماع إلى تفسير آيات الذكر من أحد العلماء أو الوعاظ .

وإذاً فقد كان المسجد فى هذا العصر لا يقتصر على كونه مكانًا للصلاة ، بل كان مركزاً حيًّا ، كان مدرسة وكان ملاذاً للزهاد يقيمون فيه للتعبد « وختم القرآن » .

وكان صلاح الدين يهتم كثيراً بإقامة شعائر الدين ، والمحافظة على المظهر الإسلامى فى كل شىء . وكان يحارب الفجور فى أنحاء دولته ولا يسمح بالشذوذ فى العقيدة ؛ بل يقضى عليه ، فقد حارب كثيراً من الملحدين وعاقبهم عقابًا

شديداً . كما أولى عنايته للحج فأمن الطرق التى يسلكها الحجيج إلى مكة والمدينة ، وأدى عن المسلمين ما كان يحصل منهم من مكوس إلى أمير المدينة[١] ، وكان فى إحدى السنوات ثمانية آلاف إردب قمح وألف دينار .

وبنى صلاح الدين كثيراً من الخوانق والربط والدور للفقراء من صوفية ومتعبدين ورحالة من أنحاء العالم الإسلامى ومن العلماء الغرباء الذين كثرت أسفارهم فى هذا العصر من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ؛ وكانوا رابطة قوية بين بلاد المسلمين وعاملا حيًّا فى توحيد الثقافة العربية الإسلامية. وكانت الدور المعدة للعلماء أو المساجد مزودة بكل ما يحتاجون إليه ، وكانت تجرى عليهم المآكل والمشارب والملابس ، مع الرواتب المنتظمة من المال. بل كان إذا أراد أحدهم السفر أعطى من المال مايليق بمثله .

وقرب صلاح الدين وملوك الأيوبيين كذلك الفقهاء، وأحبوهم كما لم يحبهم حاكم من قبل ؛ واتخذوا منهم خير سند لهم فى حروبهم مع الصليبيين ، فكان هؤلاء الفقهاء يشحذون همم الناس ويستثيرونهم للجهاد ، وكان الجهاد رسالة صلاح الدين فى الحياة ، وتبعه على هذا خلفاؤه .

وأولى الأيوبيون عنايتهم للعلوم الإسلامية والعربية ، كالفقه والحديث ، والسيرة النبوية، ويروى أن صاحب إربل بلغ من تعظيمه لسيرة النبى صلى الله عليه وسلم أنه دفع لأحد علماء الأندلس ألفى دينار عندما ألف له كتاباً فى السيرة النبوية هو كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير »[٢] .

وقد أدى هذا كله إلى وجود محصول كبير من الكتب الإسلامية التى ألفت فى هذا العصر والتى تدور حول الموضوعات الفقهية أو فى الحديث، أو فى التاريخ الإسلامى وتراجم رجالات المسلمين وعلى رأسهم النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، وأمراء المؤمنين الصالحون أمثال عمر بن عبد العزيز .

هذا جانب مشرق من جوانب الحياة الدينية ولكن هناك جانباً آخر أقل إشراقاً ، وهو ما انتاب هذه الحياة من خلافات عقيدية ومذهبية بين المسلمين

---

(١) أعلام النبلاء ٢٦٩ .

(٢) وفيات الأعيان ١٢٢/٣ .

أنفسهم من اتباع المذاهب المختلفة ؛ بين أهل السنة « المذاهب الأربعة » ، وبين الشيعة بفرقها ، أو بين أهل السنة والأشعرية والمعتزلة . أو بين الفقهاء على اختلاف مشاربهم والفلاسفة . وكان لهذا النزاع مظاهره ؛ فقد كان الناس من أتباع المذهب الواحد ، أو العقيدة الواحدة يختارون أماكن متقاربة لسكناهم — وهو مظهر مادى للتعصب المذهبى أو الدينى — فكان فى كل بلد إسلامى كبير أحياء خاصة لليهود وأخرى للنصارى وغيرهم من المذاهب والشيع [1] ؛ فى دمشق مثلا كان النصارى يتجمعون شيئاً فشيئاً فى الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، واليهود يتجمعون فى الجانب الشرقى ، والمسلمون حول المسجد الأكبر فى القسم الغربى والقلعة والأسواق .

وكان للشيعة فى مصر والشام قبل نور الدين وصلاح الدين أيام الفاطميين شأن عظيم كما ظل لهم شأن غير قليل إلى زمن طويل فى عصرهما . ويذكر ابن جبير أحوالهم فى الشام أيام صلاح الدين فيقول : « وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم ، وهى فرق شتى ؛ منهم الرافضة وهم السبابون ، ومنهم الإمامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الإسماعيلية والنصرية وهم كفرة ملحدون يزعمون الألوهية لعلى رضوان الله تعالى عنه » [2] . وقد نشأت فى الشيعة فرقة النزارية أو الإسماعيلية الحشيشية ، وكانت فرقة ذات مبادئ وأهداف مخربة ، وكانت تمثل خطراً كبيراً على الشعوب الإسلامية التى بدأت تموج فى حركة الإفاقة فى ذلك العصر . وقد حاولت هذه الفرقة أن تلحق الضرر بالقوى الإسلامية المتحركة ، فسعت إلى الاغتيال والقتل ، وإلى الدسائس والفتن والمؤامرات ، فسببت بعض الخسائر والنكبات وكان منها قتل نظام الملك الوزير الكبير ، ومحاولة قتل صلاح الدين . وقد احتفظ الإسماعيلية والحشيشية بقلاع ومراكز حصينة فى قلب البلاد الإسلامية والعربية ، مثل قلعة « ألموت » فى فارس ، وبعض الحصون فى جبال العلويين بالشام .

وندب بعض المسلمين أنفسهم لحرب هؤلاء الرافضة والشيعة ، فألفوا من بينهم

---

(١) دمشق لسوفاجيه ترجمة ص ٣٦ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٨ .

جماعة أطلقوا عليها اسم « النبوية » وهم سنيون يدينون بالفتوة وأخلاق الرجولة . قد سلطهم الله على الرافضة يقتلونهم أينما وجدوهم[١] . وبلغ الصراع بين أهل السنة والشيعة مبلغاً عظيماً منذ أن استولى صلاح الدين على مصر إذ أمر بإزالة كل أثر لذلك المذهب ، كما أنشأ المدارس لتدريس المذاهب السنية . وكثيراً ما اصطدم العامة من الفريقين فقتل وجرح كثيرون[٢] . وطالما ألّب فقهاء السنة العامة على فقهاء الشيعة وعلمائهم ؛ كما فعلوا مع فريد الدين العطار لتشيعه فى قصيدة له ، فقد أمروا بإحراق كتبه ، وحرضوا الناس عليه فنهبوا بيته ودمروه[٣] .

وقد بلغ الخلاف بين السنة والإسماعيلية ، وغيرهم من الفرق درجة التفريط والخيانة ، وتسليم بلاد المسلمين والعرب للأعداء للتشفى والانتقام من الفريق الآخر . ومثاله مافعله ابن العلقمى الوزير الشيعى الرافضى لمولاه الخليفة العباسى السنى المستعصم ؛ إذ بيت خيانته له لخلاف بينه وبين دويداره ، وكان مغالياً فى السنة ، وكانت النتيجة تسليم بغداد للتتار[٤] .

وكان يجرى بين الأشعرية والحنابلة العجائب من السباب وتكفير بعضهم بعضاً[٥] .

وكان للدين مظاهر أخرى غير هذه العصبية والصراع المشبوب ، مظاهر تتسم بالبهجة أحياناً ، فقد كان المسلمون يحرصون على الاحتفال بأعيادهم الدينية ومواسمهم المختلفة ، فيظهرون من ضروب البهجة والسرور الشيء الكثير ، ويتبادلون التهانى ، ويلبسون الثياب الجديدة ، ويتزاورون ، وتزدان المدن ، وتزخر ما بها من المرافق الدينية كالمساجد ودور العبادة والربط بجماعات المسلمين ينشدون الأناشيد الدينية ويرتلون القرآن ويقيمون الأذكار ، فى ليلة نصف شعبان مثلا . كان المسلمون يحتفلون بها فى المساجد ، فتضاء بالثريات ، ويقوم الناس بالأذكار والصلوات والدعاء والتكبير قال الشاعر ابن سوار يصف أحد الجوامع ليلة النصف :

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٨ .

(٢) راجع الجامع المختصر ص ١١٨/٩ .

(٣) Browne: A Literary History of Persia

(٤) فوات الوفيات ٢ /٣١٣ .

(٥) مرآة الزمان ٨/٤٧٦ .

ما أَحسنَ الجامع فى ليلة النصـــــف وقد لاحَ عليه السرورُ
وأَشبهت زُهْرُ قناديلِهِ كاسات راحٍ للنّدامى تدورُ
وقـارن النَّسرُ الثّريا به وقابَل البدرَ هناك البدورُ[1]

وقد استغلت بعض الفرق الدينية الفقروسوء توزيع الثْروة ، واستغلت كذلك جهل العامة وسواد الشعب فلعبت بعقولهم ،وحاولت أن تجتذبهم إلى بعض المبادئ الهادمة المخربة ، مما جعلها تنتشر فى هذا الوقت ، كدعوة الإسماعيلية التى أشرنا إليها ، وكانت مبادئ هذه الفرق تزين للعامة التخريب فى ثوب الدين ، وتدخل إلى نفوسهم عن طريق العاطفة الدينية ، وكان يلجأ بعضهم إلى شتّى الحيل يتسلطون بها على الناس ؛ كما يروى عن الحشيشية من أنهم كانوا يسقون أتباعهم الحشيش وينقلونهم إلى جنات وبساتين وعيون تتسرب منها الجداول ؛ حيث يقضون أوقاتاً سعيدة بين الخمر والجوارى ، ويدخل فى أوهامهم أن ما رأوا صورة مصغرة للجنة التى يوعد بها الأتباع ، وعندما يفيقون يمنون أنفسهم بالعودة إلى ما كانوا فيه فيتسلط عليهم رؤساؤهم بأن يلقوا فى روعهم أن العودة لا تتم إلا باتباع الأوامر ،فيصيرون ألعوبة فى أيديهم يوجهونهم تحت هذا الوعد إلى مايشاءون[2] .

وكان الدين يستغل كذلك من بعض الناس لكسب الرزق بالحيل والطرق المختلفة عن طريق الشعبذات ؛ إذ ظهر كثيرمن المشعبذين باسم الدين واستغلوا سذاجة العامة وجهلهم، وأدخلوا فى أوهامهم كثيراً من الخرافات والعقائد الباطلة وصارلهم عديد من الأتباع والمريدين انطلت عليهم شعبذاتهم. وظهرت فى هذا العصر فرقة دينية تنتمى إلى الصوفية ، ويحترف أتباعها أشياءتختلف عما يتبعه الصوفية ، أشياء تتصل بأعمال السحرة والحواة، أكثر من اتصالها بأعمال الدين . يقول ابن خلكان عن أتباع الرفاعى : « ولأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهى حية،والنزول فى التنانير وهى تتضرم بالنار فيطفئونها ، ويقال إنهم فى بلادهم

---

(١) فوات الوفيات ٦٢/٤٣ .

(٢) راجع الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى لحافظ حمدى ٢١٠ .

يركبون الأسود ، ومثل هذا وأشباهه » .

ومما شاع كذلك من عقائد تتصل بالدين : الرؤى والأحلام يشاهد فيها النائم الرسول صلى الله عليه وسلم أو أحد صحابته ، أو أحد الصالحين ، فيأمره بعمل من الأعمال ، أو يدله على شيء أو أشياء ستقع . . . وما إلى ذلك .

وكان للشعور الديني الذى غلب على الناس فى هذا العصر أثره كذلك على الأسماء والكنى التى تسمى بها الناس ، فقد اتخذوا لأنفسهم أسماء وكنى مضافة إلى الدين أو منسوبة له مثل زين الدين ، وصلاح الدين ، ونور الدين ، وعلاء الدين ، ونجم الدين ، وجمال الدين ، وعز الدين ، وضياء الدين — إلى أمثال تلك . وقلما نجد أحداً من المشهورين من سلاطين العصر وقواده أو أمرائه أو كتابه أو علمائه إلا واسمه مسبوق بأحد هذه الأسماء والألقاب .

وشغل الناس فى هذا العصر ببعض التيارات الفكرية والعقيدية التى انحدرت إليهم من ديانات أو ثقافات متعددة . وظهر فى الصوفية كثير من الآراء والعقائد والعادات من الديانات والعقائد غير الإسلامية كبعض العادات والعقائد عن الرهبنة المسيحية ، أو من الآثار الفارسية والهندية .

ولكن التصوف والصوفية على أية حال قد اتخذت صبغة إسلامية وتملكت مشاعر العامة وعواطفهم ، وطغت على المجتمع ظاهرة اجتماعية خطيرة شغل بها الناس حتى الخاصة منهم . وليس غريباً أن هذا اللون من ألوان العقيدة — على مافيه من صفات طيبة وحسنات كثيرة تبدو مظهراً دينياً خالصاً — كان نتيجة لعوامل اجتماعية واقتصادية هامة . ولا شك أنه بسبب ما كان يسود العصر من مظالم اجتماعية ومساوئ فى الحكم والإدارة ، واستبداد وعدم استقرار ، لكثرة الحروب والفتن الداخلية ، وكثرة المجاعات والأوبئة التى كانت تحصد أرواح الملايين من البشر ، ثم تلك البلبلة الدينية الناشئة عن الفرق الدينية المختلفة المتنازعة المتناحرة ، والمذاهب الاجتماعية الناشئة والتى تحوى فى داخلها بعض مبادئ الفوضى والهدم ، ثم اختلاط المجتمع العربى الإسلامى فى هذا الوقت من أمشاج من العناصر والأجناس ، كل هذا أثر فى ظهور الطرق الصوفية وتلونها فى صور وأشكال مختلفة .

الزهد والتصوف :

كذلك قد دفع كثير من العوامل السابقة بعض الناس إلى الزهد والانصراف عن العمل ، لأنهم رأوا أنهم لا يحصلون على ثمرة أعمالهم ، فقامت فلسفة العمل مع الجزاء فى الآخرة، وتفشت فى النفوس، وقويت روح التوكل والقنوع ، واليأس من الحياة الدنيا، والتطلع إلى ما يعده الله للأتقياء فى الآخرة من ضروب النعيم التى يسعد بها الأقوياء والأثرياء فى الدنيا وحسب . كذلك تملك بعض الناس الزهد لما رأوا عناصر الفساد والإباحية والفوضى تدب فى المجتمع وتعم وتطغى ، عند ذلك انتحى الخيرون جانبًا تقية وتورعاً . كذلك كف العاجزون، واعتكفوا فى صوامعهم ، يتقشفون ويلبسون الجبب والخرق ، ويدعون الناس ، ويغرونهم بتلك الحياة السهلة ، التى لانصب فيها ولا تعب ولا جرى وراءالمطالب والمشاغل الدنيوية ، وقد زينوا للناس حياتهم ، وقبحوا ملاذ الدنيا، ووصفوا الحياة بأقبح الأوصاف ، وخلطوا صفوها بكدر مصطنع ، وهولوا للناس مصائب الصراع حول المكاسب الدنيوية . ودعوهم إلى التأمل فى الله والحياة الأخرى، والتمتع بالإشراق الإلهى فى الباطن. وربما كانوا يحاولون أن يلتزموا جانب الله ليرزقهم القوة الروحية الخفية، للتغلب على صعاب الدنيا ومظالمها، ماداموا قد سلبوا فى الدنيا القوة المادية.

وقد شجع الحكام تلك الحركات الصوفية عن رغبة حقيقية وعقيدة عند بعضهم أو عن رغبة خفية ماكرة ، لمجرد مسايرة الشعور العام ، ولأن هذه الدعوة فى صالحهم ؛ فهى تصرف العامة عن تتبعهم وحسابهم عما يفعلون ، أو الوقوف فى وجوههم وفى طريق رغباتهم الطامحة ؛ فبنوا الخوانق والربط ، وأجروا على الصوفية الرزق السهل اللين ، وتوافد إلى ما ابتنوا جماعات مختلفة من مشارق العالم الإسلامى ومغاربه .

ومهما يكن من شىء فإن الظاهرة الهامة فى هذا العصر هى انتشار الصوفية وطغيانها على ما سواها من مذاهب . وقد اتخذت الصوفية لنفسها ألوانًا، وسرت فيها تيارات متعددة إسلامية ونصرانية وعقلية فلسفية أو روحية . وليس المجال هنا متسعًا لعرض تلك الآثار أو الكلام فى التصوف ونشأته وتطوره ، إنما يهمنا هنا أن نشير إلى أثر التصوف فى هذا العصر خاصة، وفى الفكر والثقافة عامة ، وكيف

أثر كذلك على الذوق الجماعى عند الأدباء والعلماء .

وكانت أحوال الصوفية فى الشرق مما استرعى اهتمام ابن جبير فى رحلته قال : « وأما الرباطات التى يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية ، وهى قصور مزخرفة يطرد فيها الماء على أحسن منظر يبصر ، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الحياة الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة فى أسباب المعايش وأسكنهم فى قصور تذكرهم بقصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة وسنة فى المعاشرة عجيبة ، وصلاتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم فى الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات المتبتل المثابر رقة وتشوقاً . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون عيشا طيباً هيناً[١] » .

وقد كان لرجالها أحوال غريبة حقاً إذ أن أحدهم وهو عبد القادر الجيلانى (٤٩١ هـ – ٥٦١هـ) يلازم الخلوة والسهر والمقام فى الصحراء والخراب – يحكى عن نفسه فيقول : « طالبتنى نفسى بالشهوة فكنت أصابرها ، وأدخل فى درب وأخرج إلى درب أطلب الصحراء ، فبينما أنا أمشى إذ رأيت ورقة ملقاة فإذا فيها : ما للأقوياء والشهوات ؟! إنما خلقت الشهوات للضعفاء يتقوون بها على طاعتى ، فلما قرأتها خرجت تلك الشهوة من قلبى »[٢] .

وكان من الصوفية، فى هذا العصر ، علماء ألفوا فى التصوف ، ومنهم القشيرى صاحب الرسالة القشيرية بالعربية والفارسية ، كذلك ألف جماعة فى طبقات الصوفية مثل السلامى «طبقات الصوفية» ، والشيخ الأنصارى « كتاب الأسرار» والهجويرى كتاب « كشف المحجوب » بالفارسية . وغيرهم كثيرون .

ومن شيوخهم المشهورين فى القرنين السادس والسابع : نجم الدين كبرى[٣]

---

(١) راجع Browne : A Literary History of Persia p. 491.

(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٤ .

(٣) فوات الوفيات لابن شاكر طبعة محيى الدين عبد الحميد ٢/٥ .

ومجد الدين البغدادى (توفى بين سنة ٦٠٦ هـ وسنة ٦١٦ هـ) ،[١] ونجم الدين الداية [٢] (ت ٦٥٤ هـ) وشهاب الدين السهروردى صاحب التآليف المشهورة فى التصوف مثل « عوارف المعارف » (توفى سنة ٦٣٢ هـ) ، وعبد القادر الجيلانى ، والسهروردى المقتول صاحب « حكمة الإشراق » ، ومحيى الدين بن العربى صاحب كتب « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » . وتزيد مؤلفاته على خمسة عشر كتاباً ، وله شعر نشر فى ديوان يحوى ٢٤٤ صفحة [٣] . ومن شعرائهم المشهورين عمر بن الفارض (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ) ، وشعره جيد بليغ عليه مسحة القديم . ومن أشهر قصائده التائية ، وهى خمسة وسبعون بيتاً وقد شرحها كثير من العلماء .

وكانت أحوال الصوفية وأعمالهم موضوعاً لكثير من الشعر فى هذا العصر وخاصة ما كانوا يقومون به من غناء وذكر ورقص فى حلقاتهم ، وكانوا يدعون إلى « الموالد » والحفلات الدينية لأداء طقوسهم التى عرفوا بها ، وكان الأمراء وسراة القوم يعجبون بهم ، ويحرصون على استدعائهم فى المناسبات الدينية . فقد كان مثلا صاحب « إربل » يحضر عدداً منهم ليلة المولد النبوى ، ويدعو أعيان العلماء وسادة القوم ، « ويعمل للصوفية سماعاً من الظهر إلى الفجر ، ويرقص بنفسه معهم »[٤] ، ثم يخلع عليهم الخلع ويطلق لهم الأموال .

ومن أشعارهم فى التوكل قال شاعرهم :

جرى قلم القضاءِ بما يكونُ　　فسيان التحرك والسكونُ
جُنونٌ منك أن تسعى لرزقٍ　　ويرزق فى غشاوته الجنينُ

ولم تكن الصوفية وحدها هى الدعوة التى صورت بعض الاتجاهات السلبية فى المجتمع الإسلامى والعربى لذلك العصر ، بل هناك ظواهر أخرى تدل على مدى تفشى تلك السلبية ، وتدل كذلك على التخلخل الاجتماعى والضعف والقعود

---

(١) نفس المصدر P, 495

(٢) نفس المصدر P. 496

(٣) Browne p. 497.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ١٣٧ .

عن كبار الآمال، وعن الطموح. فكانت هناك ظواهر التنجيم والشعبذة بأنواعها، توهم الناس بالكشف، والقدرة على معرفة أسرار الكون والغيب ، والتنبؤ بالمستقبل وما يخفيه الغد . وكان ذلك ضروريًّا بالنسبة للناس فى هذا العصر بسبب الاضطراب الشديد ، والخوف الدائم مما تخبئه الأيام ويخفيه الغد، ومحاولة الناس التطلع إلى ما سوف يأتى به من شرور حتّى يتجنبوها . وهذا كما قلت مرجعه لشعور القلق وعدم الاستقرار الذى ساد المجتمع للعوامل الكثيرة التى أشرنا إليها .

وتعلق الناس بالتنجيم والفلك لمعرفة أسرار الكواكب ، وما تدور به فى أفلاكها من مقادير على الناس ، وذكر ابن خلكان أن ابن خاقان قال فى الشاعر ابن الصائغ – وكان يعمل فى الفلك والنجوم –: «نظر فى كتاب التعاليم، وفكر فى أجرام الأفلاك، وحدود الأقاليم، ورفض كتاب الله الحكيم، ونبذه وراء ظهره، ثانى عطفه، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واقتصر على الهيئة وأنكر أن يكون إلى الملة فيئة، وحكّم الكواكب بالتدبير ،واجترأ على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فهو يعتقد أن الزمان دور، وأن الإنسان نبات أو نور »[١]

وكثيراً ما كانت تنبؤات أولئك المنجمين والفلكيين مثار السخرية من الناس وخاصة إذا أخفقت التنبؤات ، وجاءت الأيام بعكسها . ومن ذلك ما كتبه ضياء الدين بن الأثير فى هذا الشأن قال : « ومن هذا ماذكرته فى النجوم وهو فصل من كتاب : « ولقد توهم أهل التنجيم بالتسيير والتقويم ، والحكم على أفعال العليم الحكيم ؛ فأخبروا عن النجوم فى سعودها ونحوسها بما لم تخبره عن نفوسها، وقضوا فى ترتيب أبراجها واختلاف مزاجها وحكموا على حوادث العدل فى حال وجوده إلى عدمه . فى سعادته وشقاوته ، وصحته وسقمه، وأشباه ذلك من الزخارف التى نصبوها للاكتساب على غير ذوى الألباب . وكلها أضغاث أحلام، وأوضاع لاتخرج عن خط الأقلام » [٢] .

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٥٦ .

(٢) الوشى المرقوم لضياء الدين بن الأثير ص ٥٨ .

الباب الثانى

الثقافة والفكر فى عصر الأيوبيين

١

العلم والعلماء

كان عصر الأيوبيين عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية كما كان عصر إحياء سياسى. وتمثل هذا الإحياء فى بعث العلوم الشرعية والاهتمام بالقرآن والحديث اهتماماً بالغاً ، وقد مرت بنا إشارات عديدة تبين مدى اهتمام الحكام والناس وتقديرهم للعلم والعلماء ، والدراسة والمدارس . والحق أن العلم كان رائداً للناس جميعاً ، وكانت الغيرة عليه من غيرتهم على أوطانهم ودينهم ، ولذلك لم يبخلوا عليه بكل غالٍ نفيس .

وشجع الحكام العلماء، وتسابقوا إلى تقريب الفقهاء والحفاظ والقراء ، بل سعى كثير من ملوك الأيوبيين وأمرائهم لينهلوا من فيضه ، ويحكموا فروعاً منه ، تتفق مع ميول كل منهم ، وعرفنا من ملوكهم الأدباء والشعراء : الأفضل بن صلاح الدين ، والملك المعظم عيسى بن العادل ، ويلقبونه بمأمون بنى أيوب ، والملك المنصور داود . كذلك عرفنا فى الكامل بن العادل الذى تولى على مصر زمناً طويلا حبه الكبير للعلماء والمدارس .

ولهذا كثر بناء المدارس ودور الحديث والفقه ، وبذل الحكام كل ما فى وسعهم لتوفير الأساتذة من أقطار العالم الإسلامى شرقاً وغرباً . ومن ثم أصبحت عواصم مصر والشام والعراق المشهورة : القاهرة ، والإسكندرية ، ودمشق ، وحلب ، وبغداد ، والموصل قبلة القصاد من سائر بلدان العالم العربى والإسلامى فى المشرق والمغرب .

وربما بدا غريباً للمؤرخ والباحث فى تاريخ الأدب على السواء أن يزدهر العلم والأدب فى عصر سادته الفتن المتواصلة ، وغلبت عليه الأحداث الكبار ، أحداث الحروب الصليبية التى عصفت بالشرق الإسلامى سنين طويلة . ولكن يبدو

– كما رأى بعض الباحثين – أن الشرق قد اعتاد أن تسير الأحداث العنيفة جنباً إلى جنب مع الثقافة والفن (١) .

وقد اعتمدت حركة البعث العلمي والأدبي في هذا العصر على التراث الإسلامي الزاخر في العصور السابقة ، وكان الدافع إليها والمحرك القوي أول الأمر حماس السلاجقة السنيين لإحياء شعائر أهل السنة ، وكذلك أتباعهم في الأقاليم المختلفة ؛ فكانوا مدفوعين بالدعوة للقرآن ، قراءته ودرسه وتفسيره وعلومه المتصلة به والحديث وجمعه وروايته وحفظه وشرحه ، وذلك على أثر فترة من الزمن طغت فيها عناصر الثقافة اليونانية البعيدة عن روح الإسلام ، كفلسفة الدهريين والمناطقة والملاحدة ، على عقول العلماء والمتعلمين في العصر السابق عصر البويهيين ، ونشأت نتيجة لذلك تيارات متعددة ، تتجه اتجاهات شتى بالعقيدة الإسلامية وتكاد تنحرف بها و بمقوماتها عن الطريق السوى . كذلك كان لاشتداد الحركات العقلية عند مفكري الإسلام أثره في صرف الناس عن طريق السنة وهو القرآن والحديث . ولعل أشد تلك الحركات أثراً في الفكر الإسلامي حركة المعتزلة والمتكلمين التي ظهرت منذ أواخر القرن الثاني للهجرة واشتدت في القرن الثالث ، ثم حركة السنية والباطنية الذين احتضنوا آراء المعتزلة المتحررين في العراق ومصر وكانت مدارسهم وعلماؤهم دائبة على تدريس تلك العلوم ، ولعل أبرز تلك المدارس دار الحكمة التي أنشأها الفاطميون في القاهرة .

وجاء السلاجقة بعد ذلك ، وكانوا كما قلت سنيين متحمسين ، فناهضوا الحركات العقلية في الإسلام ، التي احتضنها الشيعة أعداؤهم المذهبيون ، بعد أن استولوا على مقاليد الحكم في بغداد والشرق جميعاً ، واستولى أتباعهم على الشام ومصر . وكان للسلاجقة في ميادين الثقافة الإسلامية جولات صادقة مظفرة . وكان أبرز حكامهم اهتماماً بالعلوم والعلماء والمدارس الوزير العظيم نظام الملك (٢) . (قتل سنة ٤٨٥ هـ) إذ كان سنياً شديد التعصب لعلوم الحديث . وكان يعقد مجلسه ، ويجعل فيه حلقة لقراءة الحديث يحضرها علماء عصره المبرزون (٣) . وقد

(١) راجع Lane poole : Saladin P.21

(٢) راجع أتابكة الموصل في سلسلة :

Receilles des Historiens des Crossades, Historiens Orienteaux vol. II P. 2 - 16

(٣) راجع معجم السلفي مصور بمكتبة بلدية الإسكندرية ورقة رقم ٤٩ .

دفعه حماسه لأهل السنة — بتأييد من السلطان السلجوقى العظيم ملكشاه — إلى بناء المساجد والمدارس الكبرى لتعليم أبناء المسلمين القرآن والحديث والعلوم العربية الأخرى التى تخدمها[١] . وسمى كثير من المدارس التى أسسها بالنظامية نسبة إليه، فكانت عواصم البلاد الإسلامية الكبرى لا تخلو من واحدة منها على الأقل ، وخاصة فى العراق وفارس، فكان هناك نظامية بغداد فى القرن السادس الهجرى، تخرج فيها كثير من العلماء المشهورين ، كما درس بها جماعة من المتفوقين. يقول لانبول: « فالمدارس النظامية ببغداد التى أنشأها الوزير نظام الملك كانت مركز إشعاع للعلم والثقافة على جميع الأقطار الإسلامية فى فارس والعراق وسوريا ومصر ، حيث التقى هذا الشعاع بشعاع آخر كان ينبعث من الأزهر جامعة مصر »[٢] . ومنها نظامية نيسابور، ونظامية الموصل وهراة . . . إلخ .

وكان بناء مدرسة من أهم الأعمال التى يعمل لها سلاطين السلاجقة وأمراؤهم ووزراؤهم، وكانت تماماً توازى عندهم بناء مسجد أو فتح مدينة أو بناء قلعة . ودفعت هذه الروح نفسها أمراء الأتابكيات أو « الأتابكة » - بعد انحلال دولة السلاجقة إلى أتابكيات أو إقطاعات صغيرة — إلى التشبه بسلاطينهم العظام ، فأصبحت دمشق وحلب والقاهرة والموصل وبغداد وحمص وبعلبك ، ومدن أخرى إسلامية عربية كثيرة فى عصر نور الدين وصلاح الدين مراكز هامة للثقافة بفضل ما أنشئ فيها من المدارس ومن نشأ فيها أو أقام وعلم فيها من العلماء[٣] .

وقد بنى نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب مدرسة كبيرة فى دمشق لأصحاب أبى حنيفة[٤] كما بنى صلاح الدين مدرسة لأصحاب الإمام الشافعى بجوار ضريح الشافعى بالقاهرة . وكان صلاح الدين يقول للخبوشانى وهو يشرف على بنائها : زد احتفالا وتأنقاً وعلينا القيام بمئونة ذلك[٥] . واشتهر صلاح الدين كذلك بأنه يعد أعظم مشيد لدور العلم فى الإسلام بعد نظام الملك[٦] .

---

(١) الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى ص ٢٦ .

(٢) Lanepoole : Saladin p. 18.

(٣) Lanepoole : Saladin P. 19.

(٤) كتاب الروضتين ١/٢٢٩ .

(٥) رحلة ابن جبير ص ٤٨ .

(٦) تاريخ العرب مطول — لفليب حتى وآخرين طبع بيروت ج ٣ ص ٧٨٢ .

ولم تقتصر همة سلاطين العصر وأمرائه وكبار رجاله فى تشجيع العلم والعلماء على بناء المدارس ، وجلب العلماء والأساتذة من كل مكان ، بل كان بعضهم علماء بأنفسهم . وكان بعضهم الآخر شغوفاً بالعلم والدرس يحب الاستماع للعلماء والجلوس فى حلقات الدرس . وكان منهم من يختلس الفرص عند الفراغ من مشاكل السياسة والحرب وأعمال الدولة فيخلد إلى عالم أو شيخ يسمع منه ويسائله ويحفظ عنه ما يلقنه إياه من أحاديث ومواعظ أوحكم غالية . ويروى أن نظام الملك كان عالماً ، وأنه ألف كتاب « سياسة تامة »[١] . فى السياسة ، كما كان فقيهاً دينياً ، واشتغل بالفقه فى حداثته زمناً، وكان يحب العلماء ويقربهم وينفق عليهم كثيراً . يقول بروكلمان : «كان مدينا بشهرته — فى المحل الأول — لما أسبغه من عطف على الفقهاء والعلماء »[٢] . وذكر ابن الأثير فى أتابكة الموصل أنهم كانوا أحب الناس إليه،وأقربهم إلى قلبه[٣]، وكان يناظرهم فى المحافل ويبحث معهم مشكل المسائل وغامض الآراء فى الفقه والعلوم الأخرى . ومن أشهر من قرّبهم نظام الملك، وممن شجعهم العالم الفلكى والفليسوف الشاعر المشهور عمر الخيام[٤]. وكان السلطان محمود السلجوقى (توفى سنة ٥٢٥ هـ) قوى المعرفة بالعربية،حافظاً لكثير من الشعر والأمثال ، عارفاً بالتواريخ والسير[٥] .

وكان عصر سنجر وإخوته (٤٨٥ هـ — ٥٥٢ هـ) بصفة عامة عصراً زاهراً فى الأدب والعلم وغيره أكثر من العصور الزاهرة السابقة، فقد ازداد فيه عدد الكتاب والشعراء والعلماء من الفرس والعرب ، ونبغ فيه من شعراء الفرس جماعة مثل فريد الدين العطار ، ونظامى ، وعمر الخيام ، وسنائى ورشيد الدين الوطواط ، وأنورى وغيرهم[٦] .

كذلك كان سلاطين الدولة الغورية فى غزنة لا يقلون عن معاصريهم

---

(١) راجع Lanepoole : Saladin P. 12

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ٢/١٢٨ .

(٣) أتابكة الموصل ٢ ص ٢٥٠ مجموعة Receilles

(٤) Saladidn P. 12

(٥) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٩ .

(٦) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٩ و Browne ; P. 299

السلاجقة حبًّا للعلم وتشجيعاً للعلماء ، واشتهر من هؤلاء السلاطين شهاب الدين الغورى وكان يفد إلى بلاطه العلامة فخر الدين الرازى صاحب التفسير المشهور والكتب المعروفة فى الأدب والإعجاز والبلاغة وغيرها ،وكان السلطان يحبه ويعطف عليه ويبذل له المال [١] .

وفى العراق كان الخلفاء العباسيون ووزراؤهم يقربون العلماء ويشجعونهم كذلك بشتى الوسائل ، وكان من أبرز وزراء العصر وأكثرهم تقديراً للعلم والعلماء عمر الدين بن هبيرة (توفى سنة ٥٦٦ هـ) ، « وكان عالماً فاضلا ذا رأى صائب وسريرة صالحة ، مكرماً لأهل العلم ، يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم ويقرأ عنده الحديث عليه وعلى الشيوخ بحضوره ، ويجرى من البحث والفوائد ما يكثر ذكره » [٢] . وألف ابن هبيرة هذا كتبًا عدة ، منها « الإيضاح فى شرح الأحاديث الصحاح » [٣] .

وفى الشام كان نور الدين معروفًا بشغفه بالعلم والمشتغلين به ، وبحبه للفقهاء وأهل الحديث ، وكان لا يفتأ يجمعهم فى مجلسه ويستشيرهم فى أمور الدين والحكم . وممن وفد إليه من مشاهير الفقهاء فى العصر قطب الدين النيسابورى (توفى سنة ٥٦٨ هـ) . يقول أبوشامة : « فسر به نور الدين وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق » ، وبنى له مدرسة كبيرة للشافعية لفضله [٤] .

وفى مصر والشام كان صلاح الدين يحفظ القرآن ويروى الحديث ويسمعه من حافظه ، سمع على الحافظ السلفى عالم الإسكندرية ومحدثها الكبير فى القرن السادس ، « كما جعل له ميقاتًا لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهى المسعودى » [٥] ، وجمع بلاطه جمهرة من العلماء حفظوا مآثره وترجموا له وألفوا الكتب فى مناقبه ، وكان من خلصائه القاضى الفاضل ساعده الأيمن فى تدبير المملكة ، وكتب له العماد الأصبهانى العلامة الأديب

---

(١) الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير ٩/ ١٧١ .
(٢) وفيات الأعيان ٥/ ٢٧٧ وكتاب الروضتين ١/ ١٤١ .
(٣) الروضتين ١/ ١٤١ .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ١٢٤ .
(٥) كتاب الروضتين ١/ ٢١٤ .

صاحب الكتب الكثيرة التى منها « خريدة القصر » و « الفتح القسى فى الفتح القدسى » ، وابن شداد القاضى الذى جمع سيرته فى كتاب « النوادر السلطانية » . وقد بز صلاح الدين كل السلاطين والأمراء المعاصرين فى الإنفاق على العلم والفقه ومدارسهما ، وكان من سياسته مكافحة التشيع عملا وعقيدة ، فاتخذ العلماء والفقهاء وسيلة لبلوغ غرضه .

وجاء بعد صلاح الدين خلفاؤه فأحبوا العلم كما أحب . وقد سمع ابناه الأفضل والعزيز على الحافظ السلفى بالإسكندرية . وبعد وفاته وتوليهما بدمشق والقاهرة قربا كثيراً من الفقهاء والعلماء والأدباء . وكان الأفضل شاعراً أديباً ، قرب إليه من الأدباء الكاتب المترسل ضياء الدين بن الأثير صاحب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » وصاحب كثير من كتب الأدب مثل « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » وكتاب « الاستدراك » فى السرقات وغير ذلك . وقد لزم ضياء الدين الأفضل زمن ولايته على دمشق وبعد حضوره لمصر ، ولازمه ، وكان بينهما ود متصل على الرغم من معارضة عم الأفضل الملك العادل وأخيه العزيز وأمراء الدولة . وسار الظاهر فى حلب سيرة أخويه وأبيه من قبل فآوى فى حلب كثيراً من العلماء الأفاضل ، ومنهم القاضى ابن شداد الذى آثر صحبة الظاهر بعد وفاة صلاح الدين ، والقاضى جمال الدين القفطى ، وأسعد بن مماتى الشاعر الكاتب صاحب كتاب « قوانين الدواوين » وغيرهم . كما أنه آوى السهروردى المقتول إلى أن أمره أبوه صلاح الدين بقتله بعد ثورة الفقهاء عليه .

ومن أمراء بنى أيوب الملك المعظم عيسى بن العادل أخى صلاح الدين وصاحب دمشق ، فقد كان محباً للعلم والعلماء ، حتى سماه أحد المؤرخين له فى عصرنا هذا مأمون بنى أيوب [1] . وقد أخذ العلم على كبار علماء عصره ، فتعلم العربية على زيد بن الحسن المشهور بأبى اليمن الكندى ، قرأ عليه كتاب سيبويه ، و « الإيضاح » لأبى على الفارسى ، وشرح سيبويه لابن درستويه [2] . وكان يحرض الفقراء على الاجتهاد والاشتغال بالعلم ، وحفظ الكتب ، فقد أثر أنه كان يقول : من حفظ نص « الجامع الكبير » فى الفقه للكرمانى أعطيته مائة دينار ومن حفظ

---

(١) أحمد أحمد بدوى ألف كتاباً بعنوان مأمون بنى أيوب عن الملك المعظم عيسى .

(٢) إرشاد الأريب لياقوت ٤ / ٣٢٢ ط Gibb وراجع مرآة الزمان ٨ / ٦٤٧ .

« الإيضاح » لأبى على فى النحو أعطيته مائتى دينار ، فحفظ جماعة الكتابين ووفى لهم بما شرطه[١] .

ومن بين أمراء الشام كذلك الملك المنصور صاحب حماة (توفى سنة ٦١٧هـ) فقد جمع من الكتب ما لا يزيد عليه ، وكان فى خدمته مايناهز مائتى متعمم من الفقراء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب[٢] . وقد سمع هو على السلفى بالإسكندرية ، وصنف من الكتب «مضمار سر الحقائق وسير الخلائق» ، يقول ابن شاكر « وهو مؤلف كبير نفيس يدل على فضله ، ولم يسبق إلى مثله . وله كتاب سماه " طبقات الشعراء " يكون فى عشرة مجلدات[٣] » .

وشارك العلماء السلاطين والأمراء فى النهضة العلمية بهذا العصر ؛ فقد بنى القاضى الفاضل مدرسة له فى القاهرة سماها باسمه ، ووقف عليها أوقافاً ، ونقل إليها بعض كتبه ، وكانت مائة ألف مجلد[٤] . وبنى الحافظ السعدى مدرسة أنفق عليها من ماله ، واستعان بأهل الخير ، وأوقف عليها ما كان يملكه من مال وكتب[٥] .

وكانت المدارس فى هذا العصر – وخاصة المدارس الكبرى فى الحواضر الكبيرة – جامعات تدرس فيها العلوم المختلفة ، وتنقسم إلى أقسام حسب العلوم التى تدرس بها . ويوكل بكل قسم أستاذ عالم من الأساتذة المشهورين ، فكان هناك أستاذ للتفسير وأستاذ للحديث ، وأستاذ للفقه وأستاذ للغة والأدب ، وأستاذ للنحو ، وأستاذ للتاريخ وأستاذ للفلسفة . . إلخ ، كما كان يقسم الفقه إلى مذاهبه الأربعة ، ويكون لكل مذهب أستاذه ، فأستاذ للمالكية ، وأستاذ للحنفية ، وأستاذ للشافعية ، وآخر للحنابلة ، إلا أن بعض المدارس كانت تقتصر على مذهب واحد كالشافعى .

وكان بعض المدارس مستقلا ، وبعضها ملحقاً بالمساجد ، وبها أجنحة خاصة لإقامة الطلبة الغرباء الوافدين[٦] ، ينامون ويأكلون ويشربون وتجرى عليهم

---

(١) مرآة الزمان ٨/٦٤٧ .
(٢) فوات الوفيات ٢/٢٩٩ .
(٣) فوات الوفيات ٢/٤٩٨ .
(٤) مرآة الزمان ٨/٤٧٣ .
(٥) فوات الوفيات ٢/٢٧٢ .
(٦) تاريخ العرب مطول ٢/٧٨١ .

الرواتب ، وكانت الدولة تنفق على المدارس بسعة ، ومثال ذلك أن صلاح الدين كان ينفق على مدارس القاهرة وحدها فى عصره ألفى دينار كل شهر ، أى ما يوازى أربعة وعشرين ألف دينار كل سنة ، وكان لجامع عمرو وحده راتب يومىّ قدره ثلاثون ديناراً(١) . ولم نعثر تفصيلا على وصف لبناء المدارس فى هذا العصر إلا أنه روى أن مدرسة الإمام الشافعى التى بناها صلاح الدين كانت مكونة من أربعة أروقة (٢) . وكان يلحق بالمدارس دور للكتب لإطلاع الطلاب ودرسهم ، وكان للنظامية ببغداد دار كتب كبرى يقوم بالإشراف عليها أحد العلماء الأفاضل(٣) . وكذلك كانت حال مدارس الشام ومصر والأندلس (٤) .

وكان نظام التعليم فى المدارس الإسلامية وقتئذ يقوم على مرحلتين : مرحلة التعليم الابتدائى ، وكان منهاجه فى جميع البلاد الإسلامية يقوم أساساً على كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف والشعر . والمرحلة الثانية التعليم العالى ، وكان يقوم على تفسير القرآن ، ومعرفة الديانات والفلسفة ، وأصول اللغة وفقهها والشعر وعلم القراءات والفقه بمذاهبه والتاريخ وعلم البلدان (الجغرافيا)(٥) والحديث وعلومه . ولم يكتف الطلاب بهذا بل كان بعضهم يتخصص فى علم من هذه العلوم أو أحد فروعه ، وذلك بعد أن يجمع بينها فى المرحلة العليا ، فيلزم فى تخصصه بعض الأساتذة المشهورين فى العلم فى مدرسته ، أو قد يرحل إلى مدرسة أخرى فى بلده ، بل قد يضطره الأمر إلى الرحلة لشيوخ العلم فى المدارس الأخرى بالبلاد الإسلامية ليستزيد ممن يعرفون بالإلمام الواسع والدراية الشاملة ؛ وكان الطلاب يحتفون أشد الاحتفاء بالسماع على الأئمة المشهورين ، يهون لديهم فى سبيل ذلك كل جهد ومشقة ، وتقرب الشقة على ابتعادها . وكان جل همهم أن يحصلوا على إجازات تعتبر شهادة طيبة بالتحصيل والسماع .

وأما طريقة إلقاء الدروس داخل المدارس فيمكننا تصوره من بعض ما يرد

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٥٠ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٢/٢٣٥ .

(٣) راجع الجامع المختصر ٩/٢٣٥ .

(٤) تاريخ العرب مطول ٣/٦٦٩ .

(٥) تاريخ العرب مطول ٣/٦٦٨ — ٦٦٩ .

فى كتب التاريخ أو الأدب نتفاً هنا وهناك، ونستطيع منها أن نقول إن الأستاذ كان يجلس على كرسيه أو على مكان مرتفع وسط حلقة من الطلاب يلتفون حوله، فيلقى درسه شفاهاً أو من كتاب بين يديه، وقد يكون الكتاب من وضعه هو أو من وضع غيره، ويناقش الأستاذ طلبته فى موضوع الكتاب، ويقف عند ما يستشكل فيشرحه، أو قد يعرض الأستاذ لمسألة من المسائل فى الفقه أو الحديث أو اللغة أو الأدب، فيشرحها ويأتى عليها بالشواهد من محفوظه أو مما يعرفه أو ما يأتى به من الكتب.

وكان لبعض هؤلاء الأساتذة حذق بإلقاء الدروس ، وكان بعضهم ملماً بكثير من اللغات ، كما أنهم لم يقتصروا على الحديث عما يتخصصون فيه بل كانت دروسهم موسوعات تجمع كل شىء ، فكان درس الحديث مثلا يجمع طرائف لغوية ونحوية وأبياتاً من الشعر ، ونوادر وأخباراً عن الشعراء وغيرهم مما يناسب المقام ، ويتخذون هذا وسيلة لتثبيت العلم فى أذهان طلبتهم، أو للترويح أثناء الدرس من عناء التحصيل ، وقد كان ابن الدهان[1] مثلا إذا جلس للدرس بنظامية بغداد يقطع أكثر وقته بالأخبار والحكايات وإنشاد الأشعار . وكان يحسن الكلام بكل لغة ، إذا قرأ عليه أعجمى واستغلق عليه الفهم بالعربية أفهمه المعنى بلغته أو اللغة التى يجيدها غير العربية ، وكان حسن التعليم طويل الروح[2] .

ووصف لنا ابن جبير درس التفسير فى نظامية بغداد، عند ذهابه إليها فى رحلته ، فذكر أن القرآن كان يقرأ بين يدى الإمام وهو على المنبر ، ثم يبدأ الإمام فى تفسيره آية آية ، مستشهداً بالحديث ، وكان ذلك الدرس بعد صلاة العصر كل يوم [3] .

وكان لكل أستاذ معيد من نابهى طلبته ، أو ممن تخرجوا على يديه ، أو

---

(١) ابن الدهان عالم جليل من علماء الموصل فى النحو واللغة وتوفى فى القرن السادس الهجرى .

(٢) إرشاد الأريب ٦/٢٣٢ .

(٣) رحلة ابن جبير ٢٢١ .

ممن كان لهم فى العلم تخصص ومعرفة ، وكان كثير من الأساتذة والعلماء الذين تصدوا للتدريس ، وتولوا الأستاذية معيدين فى مدارسهم أو فى مدارس أخرى .

ولم تكن المدرسة ولا المسجد المصدر الوحيد للثقافة والعلم فى ذلك العصر بل شاركتهما المكتبة العامة والخاصة . وكان الاهتمام بالغاً باقتناء الكتب وحفظها فأنشئت دور الكتب فى قصور الخلفاء والسلاطين والأمراء واشتهر منها فى مصر مكتبة القصر الفاطمى ، وقد تحدث عنها المؤرخون ، ولهجت بها ألسن العلماء ، وسار ذكرها فى الخافقين . قال أبو شامة : « وكانت من عجائب الدنيا ، لأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر ، ومن عجائبها أنه كان بها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى . ويقال إنها كانت تحتوى على ألف ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة شىء كثير[١] . ويقول العماد الأصبهانى إن بها من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد ، وكانت فى مختلف العلوم والفنون: فى الأدب والشرع والنجوم ، والمنطق ، والعلوم الطبيعية والهندسية ، والتاريخ ، والتفسير ، كما أنها كانت تحوى من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخبار مما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً [٢] وكانت الكتب داخلها محفوظة فى خزائن مقسمة . قال العماد: وخزائنها فى القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف ، مفهرسة بالمعروف[٣] ، وانتهى الأمر بهذه المكتبة العظيمة إلى أن بيعت بالمزاد . وآل بعضها إلى القاضى الفاضل . و بعضها الآخر إلى العماد الأصبهانى[٤] .

وكان بالحواضر الإسلامية الأخرى غير القاهرة دور كتب مشهورة ، منها دار الكتب الملحقة بنظامية بغداد . وقد تعاقب على سدانتها ، وتولى أمرها جماعة من العلماء الأجلاء والأدباء الفضلاء ، منهم أبو يوسف الإسفرائينى ، وكان شاعراً أديباً (توفى سنة ٤٩٨ هـ) ومحمد بن أحمد الأبيوردى الشاعر الأديب كما كانت ببغداد دار كتب أخرى فى هذا العصر تعرف برباط المأمونية[٥] .

---

(١) كتاب الروضتين ١ / ٢٠٠ وراجع أتابكة الموصل Receilles P. 2-285

(٢) نقله أبو شامة فى الروضتين ١ /٢٦٨ .

(٣) نقلها حسن إبراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤١٢ .

(٤) كتاب الروضتين ١ /٢٦٨ .

(٥) إرشاد الأريب ٦ /٢٣٥ .

وكان بآمد دار كتب عظيمة حوت ألف ألف وأربعين ألف كتاب[١] واستولى على نفائسها القاضى الفاضل بعد استيلاء صلاح الدين على البلد، وقد وقع اختيار الفاضل منها حمل سبعين بعيراً[٢] .

وكانت بأصبهان دار كتب كبيرة بجوار جامعها بناها تاج الملك[٢] .

وظل عشق علماء المسلمين للكتب يفوق كل شيء ؛ إذ كانت الكتب المتنفس لهم ، يضمنونها آراءهم ، وكوامن أفكارهم ، لأنه لم تكن لديهم وسائل أخرى لبث هذه الآراء ، فلم تكن طبيعة الحياة الاجتماعية فى هذا العصر تعنى بالاجتماعات والخطب ، كما كان الحال مثلا فى عصر الجاهلية فى أسواقهم ومواسمهم الكبرى المعروفة كسوق عكاظ مثلا . وكذلك لم تكن هناك المنتديات السياسية والأدبية التى كانت موجودة فى صدر الدولة الأموية وفى أوائل الدولة العباسية بالكوفة والبصرة والمربد . . كذلك لم تكن هناك صحافة بطبيعة الحال. وقد ذكر فيليب حِتّى أن المسلمين قد وجدوا فى الكتب التسلية الوحيدة، لأنه لم تكن حياتهم تألف المحافل السياسية ومسارح التمثيل المعروفة منذ القدم فى بلاد اليونان وروما ، مما اقتضى أن تكون الكتب — وحدها تقريباً — السبيل إلى تحصيل المعرفة [٣] . ومما يروى عن حب علماء ذلك العصر للكتب وكثرة جمعهم لها أن مكتبة القاضى الفاضل كانت تضم مائة ألف كتاب [٤] . وكان القاضى القفطى (٥٧٠ هـ — ٦٤٦ هـ) قد جمع من الكتب ما لا يوصف وقصد من أجلها إلى الآفاق ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ، وقدرت مكتبته بخمسين ألف دينار . وله حكايات غريبة فى غرامه بالكتب يذكرها صاحب فوات الوفيات[٥] . ويقول ياقوت الحموى عنه : « وكان جمّاعة للكتب حريصاً عليها جداً ، لم أر مع اشتمالى

---

(١) Saladin : P, 172

(٢) إرشاد الأريب ٥/١٢١ .

(٣) تاريخ العرب مطول ٣/١٧٠ .

(٤) مرآة الزمان ٨/٤٧٣ .

(٥) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/١٩٢ .

على الكتب وبيعى لها وتجارتى فيها - أشد اهتماماً منه بها ولا أكثر حرصاً منه على اقتنائها وحصل منها ما لم يحصل لأحد [١] » .

ويروى عن حب المسلمين للكتب أن ابن حمدون الكاتب عندما تقاعد به الدهر ، وبطل عن العمل أخرج كتبه ليبيعها وعيناه تذرفان الدمع كالمفارق لأهله الأعزاء ؛ والمفجوع بأحبابه الأوداء ؛ وكان معه ياقوت فواساه فرد عليه قائلا : حسبك يابنى . هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقت فى تحصيلها ، وهب أن المال يتيسر والأجل يتأخر وهيهات - فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على الفراق الذى ليس بعده تلاق . وأنشد بلسان الحال :

هَب الدَّهْرَ أَرضانى وأَعتَب صرفَه ... وَأَعْقَب بالحسنَى وفكّ من الأَسْرِ
فمن لى بأَيام الشباب التى مضَتْ ... ومن لى بما قد مرَّ فى البؤْسِ من عُمرى [٢]

وكانت للكتب أسواق تباع فيها وتشترى فى الحواضر الكبرى ، وقد تقدمت قرطبة على حواضر الإسلام فى الأندلس فى تجارة الكتب ، وكان أعيانها يتنافسون فى شراء الكتب الثمينة [٣] ، ويرخصون فى سبيلها كل غال .

وكان للعلماء المسلمين أثر كبير فى ربط أجزاء العالم الإسلامى المترامية الأطراف من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وكانوا يعتبرون كل بلد يحلون به فى هذه الأقطار الشاسعة بلدهم ، وأهله أهلهم ، يقيمون بينهم ويرتحلون ولا يشعرون بالاغتراب ، بل كان يرضيهم كل الرضى أن يسعوا إلى مناهل المعرفة فى الشرق أو الغرب فيغترفوا منها ، ويأخذوا من أصولها على علمائها ، ثم يعودوا بعد أن يتزودوا بكل نفيس فيفيدوا ، بما تعلموا ، أبناء البلاد التى يحلون بها . وكان العلماء وطلابهم كالنحل يطوف الأنحاء ليجمع الشهد خالصاً . وكانت نتيجة لهذا التنقل مظاهر فريدة قد لا توجد إلا فى التراث العربى والإسلامى ، تلك أن العالم من هؤلاء كان يؤلف فى بلد يحل به كتباً يخلفها به ويرويها عنه فيه تلاميذه وقد

---

(١) إرشاد الأريب ٢/ ٢٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٢١٠ .

(٣) تاريخ العرب مطول ٣/ ١٧٠ .

تجد للعالم الواحد كتباً عدة ، ألف كلا منها فى بلد وتركه ، فنسخه وتداوله تلاميذه .

وقد أثرت رحلات العلماء هذه على الحياة الفكرية فى الحواضر الإسلامية آثاراً كبيرة ، وجعلت المسلمين وأمراءهم يوجهون عنايتهم إلى هؤلاء العلماء الرحل الوافدين من الشرق ومن الغرب ، فيبنون لهم الربط والمدارس والنزل التى تأويهم وتوفر لهم الراحة وتكفل سبل الرزق ليتفرغوا للدرس والعلم ، ولا يشغلهم عنه اهتمامهم بأمور العيش والكسب .

والحديث وطلبه يقف فى أول العوامل التى دفعت العلماء إلى الرحلة . وكان العلماء فى هذا العصر كما قلت — عصر البعث السنى — حريصين على الحديث وعلى السماع من الأئمة المشهورين فيه ، وكان الأئمة والحفاظ أنفسهم يتنقلون فى البلاد . ومن أشهر حفاظ الحديث وأئمته فى العصر الحافظ السلفى نزيل الإسكندرية ، وصاحب المدرسة المشهورة بها ، وأصل الحافظ من بلاد فارس ورحل إلى العراق ثم الشام وجاء إلى مصر فنزل بالقاهرة ثم استقر به المقام آخر الأمر بالإسكندرية ، ووفد إليه جماعة من العلماء المشاهير من الشرق ومن المغرب والأندلس خاصة ، ويستطيع من يراجع معجم السلفى أن يطلع على مادونه السلفى عن رحلاته وعن شيوخه وتلاميذه الذين كانوا ينزلون بساحته .

ووفد علماء المغرب والأندلس مع مواكب الحجاج للحج ، ولزيارة الأرض المقدسة بالحجاز . وكان طريق الحج من المغرب إما بحراً من الأندلس أو بلاد المغرب إلى الإسكندرية أو أحد موانى مصر الأخرى ، أو براً بحذاء الساحل الشمالى إلى الإسكندرية أيضاً ، وفيها يلتقى الفريقان ، ويسير الركب مصعدين فى النيل إلى القاهرة ثم يصعدون منها إلى الصعيد الأعلى حتى مدينة قوص ، ومنها يتخذون درباً فى الصحراء الشرقية على القوافل متجهين شرقاً صوب عيذاب على شاطئ البحر الأحمر ، ومن عيذاب يركبون المراكب بالبحر إلى جدة ثم إلى مكة ، فالمدينة ويشرقون إلى العراق ، ثم يعودون عن الطريق الشمالى إلى الشام فشواطئ البحر المتوسط ثم يركبون البحر مرة أخرى إلى بلادهم .

وقد هيأ حكام الشرق للحجاج من المسلمين سبل الراحة ، وأعانوا العلماء والفقراء ورجال الصوفية منهم خاصة . وكان العلماء يقابلون فى كل بلد يحلون به

فى مصر والشام بالاحترام والإكرام من الناس عامتهم وخاصتهم على السواء .

وتحدث جارسيا جوميز فى كتاب «الشعر الأندلسى» عن رحلة علماء الأندلس والمغرب إلى المشرق فقال : وكان المشرق إلى ذلك الوقت فى انهيار متصل ، ولم يبق له على الأندلس إلا ظل خفيف من سلطانه الثقافى الأول ، بل حدث عكس ما رأيناه قبلا من وفود المشارقة على الأندلس حاملين إليه ذخائر العلم والحضارة ، واتجهت الآن موجة الهجرة من الأندلس إلى الشرق ، وحملت موجات الهجرة معها إلى مصر والشام أعلاماً أندلسيين ذوى خطر »[١] . والواقع أن كلام جوميز صحيح إلى حد ما ولكن لا ينبغى أن نسلم به تماماً ، فنقول إن موجة العلم فى الشرق فى عصر صلاح الدين وخلفائه كانت إلى انحسار. وإن ذلك كان السبب فى هجرة علماء المغرب إلى المشرق ، إنما الواقع أن لهذه الرحلة أسباباً كثيرة، منها الرغبة فى الحج كما بينا، ومنها أيضاً تطلع أولئك العلماء إلى حكام الشرق الذين أحبوا العلماء وأكرموا وفادتهم وأغدقوا عليهم أمثال صلاح الدين ، فإن شخصيته كانت قطباً جاذباً جذب إلى مصر كثيراً من العلماء والرجال من بلاد المسلمين الكثيرة النائية ، كذلك أيضاً كان من أسباب وفادة بعض علماء المغرب الرغبة فى الاستزادة من علم المشرق بكنوزه وعلمائه ، فالقاهرة ودمشق وبغداد كانت لاتزال مراكز الإشعاع الفكرى على بلاد المسلمين عامة ، وإن كانت بغداد قد بدأت تخبو جذوتها فى القرن السادس الهجرى إلا أن القاهرة قد أورثها وأصبحت مركزاً هاماً عامراً خلال القرون الثلاثة التالية ، أى إلى القرن العاشر الهجرى قبيل الغزو العثمانى .

وقد تمتع العلماء فى ظل دولة صلاح الدين وخلفائه ببحبوحة العيش وصاروا يختارون للشورى والوزارة، وكان لآرائهم أثرها فى سير الحوادث . وقد جمع بعضهم كثيراً من المال ، وكانت له الثروة والقصور والجوارى الحسان مما جمعوا من هبات السلاطين والأمراء . ويروى أن ابن نجية أحد علماء الحنابلة فى هذا العصر (توفى سنة ٥٩٩ هـ) كان يملك فى داره عشرين جارية للفراش ، وكان

---

(١) الشعر الأندلسى لجارسيا جوميز مترجم ص ٢٨ .

يعمل فى داره ما يعمل فى دور الملوك ، ويعطيه الخلفاء والملوك أموالا كثيرة [١] .

وتوفر العلماء على التأليف ؛ ونالوا على مايؤلفون من الكتب تشجيعًا ، فكثر إنتاجهم فى جميع العلوم يروى عن ابن الجوزى أنه ألف فى جميع فروع الثقافة الإسلامية فى عصره تقريبًا . ألف فى القرآن والحديث ، والتاريخ ، واللغة والأدب ، والشعر ، والوعظ ، والفقه . وبلغت تصانيفه ثمانمائة « اخترعها وأودعها حكمة وصوابًا » [٢] . وكثر أمثال ابن الجوزى ، وامتاز بعضهم بأنه جمع إلى جانب أطراف الثقافة الإسلامية والعربية ثقافات أخرى . ومن هؤلاء ابن الخشاب النحوى ، وكان عالمًا فى النحو وعالمًا بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة ، « وما من علم من العلوم إلا وكانت له فيه يد حسنة » [٣] . ومنهم كذلك عبد اللطيف البغدادى الرحالة العالم فقد صنف مايزيد على خمسين كتابًا فى مختلف العلوم والفنون ، والآداب والبلاغة والفلسفة والمنطق والطب والتاريخ والحيوان والنبات والكيمياء والطبيعة والهندسة والرياضيات [٤] .

وظهر فى هذا العصر إلى جانب هؤلاء أعلام مخلدون فى التاريخ الأدبى وفى علوم الحديث والفقه والتاريخ والقراءات والتفسير والفلسفة وما إليها ، بل كان فى هذا العصر أعلام كبار فى تاريخ الفكر العربى والإسلامى عامة . ونخص بالذكر من هؤلاء وأولئك الإمام الفخر الرازى ، والإمام الزمخشرى (المتوفى سنة ٥٣٧ هـ) والإمام الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) ، والجواليقى ، والشهرستانى ، والنسفى ، والحريرى ، والسهروردى ، وابن فيره الشاطبى ، وابن رشد الفيلسوف .

وكان هذا العصر عصر الأعمال العلمية الضخمة ، أو الموسوعات الكبيرة التى تعتبر مراجع هامة ورئيسية فى علومها ، كذلك امتاز بالشروح الكبرى ، والمبسوطات . ومثالها تفسير القرآن الكبير للفخر الرازى ، وكتاب المبسوط للسرخسى ، « وبدائع الصنائع » فى الفقه الحنفى لعلاء الدين الكاسانى (المتوفى سنة ٥٨٧ هـ) وآخر فى فقه الحنابلة لابن قدامة ، وكتاب « الكامل » لابن

---

(١) مرآة الزمان ٨/٥١٥ .
(٢) مرآة الزمان ٨/٤٨٩ .
(٣) إرشاد الأريب ٤/٢٨٦ .
(٤) فوات الوفيات ٢/١٧ — ١٨ .

الأثير عز الدين فى التاريخ ، وكذلك كتب أخيه مجد الدين فى الحديث ورجاله .

وكان الناس يعجبون بالعلماء ويحرصون على الاستماع إليهم حين يلقون دروسهم بالمساجد أو المدارس ، وصار لدى العامة شغف بالعلم والأدب بصورة ملحوظة طريفة ، وكثيراً ما نقرأ فى هذا العصر عن بعض العامة من الناس ممن لايحسن القراءة ولا الكتابة ، ومع ذلك ينظم الشعر ويحفظ كثيراً من غريبه بل يروى كثيراً من نوادر المسائل الفقهية ويسمر بها مع العلماء فى مجالسهم . وكان هؤلاء العلماء لا يستنكفون من السماع لهم والأخذ منهم ورواية نوادرهم . ومما يذكر أن الحافظ السلفى بالإسكندرية كان يجلس إليه فى زمنه رجل اسمه شداد أخذ عنه كثيراً من النوادر وقيدها فى معجمه[١] .

وتنافس علماء المذاهب الأربعة فى الدراسات الفقهية فى هذا العصر. وكان بعض هذه المذاهب يغلب على مناطق بعينها ، أو بلاد بأكملها ، فى مصر مثلا يغلب مذهب الإمام الشافعى وخاصة بالقاهرة ، وقد وجدت بها مدارس كثيرة للشافعية ،فى حين كان مذهب الإمام مالك يغلب على الإسكندرية وبلاد المغرب والأندلس ،أما العراق وبلاد فارس وسائر المشرق فكان يغلب بها مذهب الحنفية والحنابلة والشافعية . وإلى جانب مذاهب أهل السنة الأربعة وجدت أيضًا مذاهب الشيعة—على الرغم من انهيار الدولة الفاطمية ومن قبلها الدولة البويهية. وقد احتفظت الشيعة بمراكز قوية لهم وسط المحيط السنى فى حلب والعراق وبعض بلاد فارس .

وحدث صراع كبير بين هذه المذاهب جميعًا ، ولم يكن الصراع مقصوراً على مجرد المبادئ أو التعاليم ، صراعًا فكريًّا أو كلاميًّا ، بل ربما تطور إلى صراع حقيقى مادى ، وصدام بين أتباع تلك المذاهب ، فتكون النتيجة خسائر مادية، وخسائر فى الأرواح ، وذلك مثل ماحدث بين الشافعية والحنفية فى نيسابور ، فقد قتل فيها فى فتنة بينهما من الحنفية سبعون رجلا[٢] . ويقول أبو شامة فى الروضتين ذاكراً خبر فتنة قامت بين أهل السنة والإسماعيلية فى مصر. قال: «ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم ،وصاروا

---

(١) راجع – على سبيل المثال – معجم السلفى مصور ورقة ٨٠ .

(٢) أخبار الدولة السلجوقية ص ١٢٥ .

لايقدرون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد الأتراك مصريا أخذ ثيابه ، وعظمت الأذية بذلك ، وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد »[١].

ومن العوامل التى أثرت كذلك على الثقافة والعلم فى هذا العصر ، الحروب الطويلة التى استعرت بين الشرق الإسلامى العربى والغرب المسيحى الإفرنجى وكان ميدانها الشرق الأوسط ، ومصر والشام على الأخص ، وكان من آثار تلك الحروب ما كتب العلماء فى الحرب والجهاد ، لحض المسلمين على الدفاع عن أرضهم ودينهم ولغتهم ، كذلك هذه الآثار العديدة فى الأدب شعره ونثره التى كانت من وحى تلك الحروب وسنعرض لها تفصيلا . كما تأثرت اللغة العربية أيضاً بكثير من الألفاظ اللاتينية الدخيلة نتيجة الاختلاط والاتصال بين الفرنجة والعرب[٢].

٢

عناصر الثقافة

وكانت الثقافة الإسلامية هى الغالبة فى هذا العصر ، وأهم عناصرها القرآن ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والشعر القديم ، والتاريخ .

أما القرآن فقد لقى عناية فائقة ، باعتباره نصاً يحفظ ويتلى فى مناسبات كثيرة غير مناسبات الصلاة والعبادة ، أو للثقافة والدرس. وقد بلغ اهتمام الحكام بالقرآن وحفظه وتلاوته درجة كبيرة ، فقد بنى نور الدين محمود دوراً وأوقفها على قراء كتاب الله عز وجل . وكانت الصبية فى المساجد يعلمون القرآن ، يجلس معلم القرآن مسنداً ظهره إلى سارية بالمسجد. ويجلس أمامه الصبية يلقنهم القرآن[٣]. وتجرى عليهم الأرزاق ويكفل لهم العيش .

---

(١) راجع الروضتين ١/١٩٧ .

(٢) Arnold : Legacy of Islam 57

(٣) رحلة ابن جبير ٢٧٢ .

وكان السلاطين يحرصون على سماع قراء القرآن ويخشعون عند السماع ، كما كان يفعل صلاح الدين ، فقد كان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى إنه كان يتخير إمامه ويشترط عليه أن يكون عالمًا بعلوم القرآن العظيم متقنًا لحفظه ، وكان يستقرئ من يحضره فى الليل الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ، وكان يستقرئ فى مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك[1] .

واشتهر من مفسرى القرآن الإمام « الزمخشرى » (٥٣٨ هـ) صاحب تفسير «الكشاف» و«الفخر الرازى» (توفى سنة ٦٠٦هـ) و«البيضاوى» (ت سنة ٦٨٥هـ) .

والعناية بالحديث جلية . ومررنا بإشارات تدل عليها ، وكان الحديث يلى القرآن من حيث الأهمية لأنه عنصر الثقافة الإسلامية الثانى ، ويدلنا ابن حمود (توفى سنة ٦٤٣ هـ) على مدى اهتمام الناس بالحديث فى أوائل القرن السابع فيقول[2] :

اشتغلْ بالحديث إن كنتَ ذا فهـــم ففيه المرادُ والإيثـــارُ
وهو للعلم مَعْلَمٌ وبه بين ذَوى الدّين تحسُنُ الآثـــار
إنما الرأىُ والقياسُ ظلامٌ والأحاديثُ للورى أنْــوارُ
كن بما قد علمتَه عاملًا فالعلمُ روضٌ منهن تجنى الثمـــار
وإذا كنت عاملا وعليمًا بالأحاديث لم تَمسك نَارُ

وكان لأهل الحديث وحفاظه دور خاصة ومدارس يسكنها الأساتذة والطلاب كذلك أحب السلاطين والأفراد مصاحبة المحدثين ومجالستهم والسماع عليهم . وكان صلاح الدين أحرصهم عل ذلك ، إذ يروى أنه كان شديد الرغبة فى سماع الحديث « ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر مجلسه استحضره وسمع عليه ، وأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتجافى عن الحضور فى

---

(١) الروضتين ٢/٢١٩ .

(٢) فوات الوفيات ٢/٢٤ ونقله صاحب أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ونسبه إلى عبد المحسن التنوخى (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) .

مجالسهم سعى إليه ، وسمع عليه . وتردد على الحافظ السلفى بالإسكندرية »[١] .

كذلك الفقه ، فقد كانت للناس به عناية خاصة، وكان للفقهاء مكانة رفيعة عند السلطان نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين وملوك بنى أيوب ، وكثيراً ما كان أحدهم يجلس إلى الفقهاء للاستعانة بآرائهم ، وكان للفقهاء بسبب ذلك نفوذ كبير فى دولتهم بلغ بعضهم مكانة عظيمة، وأصبح مسموع الكلمة، محترم الرأى والمشورة .

ومن أعلام الفقهاء آنئذ ابن الجوزى ، وابن الصلاح ، وأبناء السهروردى، والشهرزورى ، والكاسانى ، والسرخسى ، وغيرهم كثيرون .

وفى اللغة نبغ جماعة من الأعلام الكبار كأبى البركات ابن الأنبارى (توفى سنة ٥٧٧ هـ) [٢] صاحب الكتب المعروفة ، وابن خروف النحوى (توفى سنة ٦٠٦ هـ) [٣] ، والزمخشرى (توفى سنة ٥٣٨ هـ) وابن الخشاب ، والجواليقى ، وابن الشجرى .

كل هؤلاء ألفوا فى اللغة فى فروعها المختلفة مؤلفات ما زالت إلى اليوم موضع تقديرنا ، وتسد فراغاً كبيراً فى دراساتها ، وكانت دراسات اللغة فى هذا العصر متنوعة فكان بعضها تأليفاً عاماً فى فقه اللغة أو فى موضوعات خاصة منها ، وكان بعضها شرحاً للمؤلفات السابقة التى اعتبرت أصولا فى الدراسات اللغوية والنحوية . ومن أهم كتب السابقين التى لاقت فى هذا العصر عناية ، فشرحت كلها أو مقدمتها ، كتب أدب الكاتب لابن قتيبة؛ فقد شرح مقدمته الجواليقى ، واللمع لابن جنى شرحه ابن الشجرى[٤] ، والخطيب التبريزى[٥] ، وشميم الحلى[٦] ، ودرّسه ابن الصائغ بحلب[٧] ، ومجمل اللغة لابن فارس ، و إصلاح المنطق لابن السكيت ، وفصيح

---

(١) الروضتين ٢/٢١٩ .
(٢) ترجمته بالروضين ٢/٢٧ .
(٣) ترجمته بالجامع المختصر ٩/٣٠٦ .
(٤) فوات الوفيات ٢/٦١١ ، إرشاد ٧/٢٤٨ .
(٥) إرشاد ٧/٢٨٧ .
(٦) إرشاد ٥/١٣٨ .
(٧) ابن خلكان ٦/٤٦ .

ثعلب . وقد اهتم بالكتاب الأخير أحد تلاميذ عبد القاهر الجرجانى واسمه على ابن محمد ودرسه بنظامية بغداد ، ولذلك أطلق عليه اسم الفصيحى [١] لطول تدريسه له ، والأنموذج والمفصل للزمخشرى ، وكتاب سيبويه فى النحو بطبيعة الحال.

واشتغل بالتاريخ جماعة ، وتعددت ألوانه ، فكان منها التاريخ العام ، وتاريخ البلدان ، والسير ، والطبقات أو كتب الوفيات ؛ فمن اشتغل بالتاريخ العام عز الدين بن الأثير صاحب كتاب الكامل فى التاريخ ، وابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) صاحب « المنتظم » ، وابن الساعى صاحب كتاب المختصر. ومن مؤرخى البلدان اشتهر ابن النجار صاحب «ذيل تاريخ بغداد» ، وابن المستوفى صاحب « تاريخ إربل » ، وابن عساكر صاحب « تاريخ دمشق » ، وابن العديم صاحب « تاريخ حلب » وعبد اللطيف البغدادى (المتوفى سنة ٦٢٩هـ) صاحب « تاريخ مصر» . وممن ألف فى السير والتراجم ابن شداد صاحب «سيرة صلاح الدين» المعروفة باسم « النوادر السلطانية» ، وعماد الدين الأصبهانى صاحب كتابى « البرق الشامى » و « الفتح القدسى » ، وابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان» وجمال الدين القفطى صاحب « إنباه الرواة » وكمال الدين بن الأنبارى صاحب «طبقات النحويين » ، وياقوت الحموى صاحب كتاب معجم الأدباء المعروف باسم «إرشاد الأريب » *وابن أبى أصيبعة صاحب معجم الأطباء (توفى سنة ٦٦٨ هـ)* .

وأوضح ماظهر فى الحياة الفكرية لهذا العصر اشتداد دعوة أهل السنة ، ومحاولة تطبيق مناهج الدراسة العربية فى الحديث والسنة على الدراسات الأخرى ، ثم معاداة كل ما جاء إلى العربية والإسلام من علوم دخيلة ، وخاصة ما يتصل منها بالمنطق والفلسفة ، وما يضر منها بأصول العقيدة والعلوم الإسلامية ، ويخرج فى صور دعوات فكرية عقلية مثل دعوة المعتزلة والأشعرية وأمثالهم . وقد أشرنا إلى أن فقهاء السنة يسندهم السلاطين والأمراء لم يسمحوا لأمثال هؤلاء بأن يعيشوا إلى جوارهم ، ولا بتعاليمهم أن يتلقفها الناس .

وشهد العصر صراعاً عاتياً بين أقطاب أهل السنة وأقطاب الأشعرية خاصة ، وكان الأشعرية يضطهدون بصورة فكرية وكلامية أو بصورة مادية عن طريق

(١) إرشاد ٥/٤١٤ .

العمل العنيف من السلطان أو العامة، وأبرز أمثلة لهذا الاضطهاد مانراه من تعقب نظام الملك لعالمين جليلين هما أبو القاسم القشيرى ، وإمام الحرمين الجوينى لأنهما حاولا التوفيق بين مذهب أهل السنة والمعتزلة[١] . وقد انبرى الغزالى للأشعرية والفلاسفة، محاولا تحطيم كل منهما وبهرجة دعائم الدعوة الأشعرية، والحط من قدر الفلسفة . وكان الغزالى الشافعى المذهب فى الفروع أشعرياً فى الأصول ، ثم عدل بعد تجربته المعروفة إلى معاداة الأشعرية . وحاول الغزالى فى كتاباته بناء العقيدة الإسلامية على أسس جديدة تقوم على التجربة النفسية ، وتهدف إلى الرجوع بالإسلام إلى الروح، والخلوص من الشوائب التى علقت به ، وقد مكن لطريقة الصوفية المعتدلين من مذاهب أهل السنة ، وصور طريقته هذه فى كتابه «المنقذ من الضلال» وقد بسطها وفصلها تفصيلا، ودعم أصولها فى كتابه « إحياء علوم الدين »[٢] .

أما هجومه على الفلاسفة فيصوره كتاب « تهافت الفلاسفة » . الذى رد عليه ابن رشد الفليسوف بكتاب « تهافت التهافت » . وقد عادى الغزالى الشاعر الفيلسوف عمر الخيام[٣] . وهكذا كان الغزالى بمثابة المفكر الكبير والإمام الذى أرسى قواعد المذهب السنى فى القرنين الخامس والسادس ، كما أنه وضع الأسس الجدلية للتصوف فاكتسب به قوة من شهرة الغزالى وعقله وعلمه ، وشيوع كتبه بين الناس . وقد شاع التصوف فى هذا العصر كما رأينا، وأصبح فى القرنين السادس والسابع غالباً على الاتجاه الدينى ، بل أصبح التصوف تياراً من تيارات الفكر الإسلامى ، ورافدا كبيراً من روافد الأدب كذلك .

والتصوف من الناحية الفكرية جمع كثيراً من الأفكار الدينية عند الأمم القديمة ووفق بينها وبين الإسلام ، كما استعان كذلك ببعض الاتجاهات الفلسفية والأخلاقية ، وقد اشتهر من كبار رجال الصوفية العرب فى هذا العصر

---

(١) راجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٣ / ١٢٨ .
وتاريخ آداب اللغة العربية لنيكلسون (بالإنجليزية) ص ٢٧٩ .
cholson; A Literary History of Arabs.

(٢) راجع Gibb: Arabic Literature: 85

(٣) راجع Browne:A Literary History of Persia

السهروردى (المقتول سنة ٥٨٦ هـ) صاحب « حكمة الإشراق » ، و « هياكل النور »[١] وهو صاحب فلسفة الإشراق ، التى يظن أنها أثر من آثار فارسيته وما ورثه من عقائد الفرس القديمة وخاصة عقيدة زرادشت [٢] . ومحيى الدين بن عربى (توفى سنة ٦٣٨ هـ) ، وله مؤلفات كثيرة ، وقد أسبغ على الحركة الصوفية إطارها الخيالى[٣] .

وعلى الرغم من حملة الفقهاء وعلماء أهل السنة ، وبعض السلاطين والأمراء على الفلسفة والفلاسفة ، تلك الحملة التى بلغت أحيانًا درجة الاضطهاد ، إلا أنها مع ذلك ازدهرت فى هذا العصر ، ووجدت لنفسها بيئة تتنفس فيها وتثمر . وقد وجدنا بعض العلماء والأئمة الكبار يهتم بها اهتمامًا شديداً ، ويمزج دراساته الدينية بها مثل الإمام فخر الدين الرازى ، فى كتابه تفسير القرآن وهو خير شاهد على ذلك . وكان نتيجة لاتجاه الفخر هذا الاتجاه معاداة كثير من جماعات أهل السنة والغلاة منهم خاصة كالكرامية وبعض الحنفية والشافعية [٤] . وقد قام فى وجه بعض خطباء الشافعية مرة وقال للناس : «أيها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما علم أرسطاليس ، وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى فلا نعلمها » [٥] .

ونجد من الفلاسفة الكبار فى هذا العصر جماعة ، كان نصيب المغرب منها أكثر وأوفر من نصيب المشرق ، فقد نبغ هناك فى ظل دولة الموحدين ابن باجه (توفى سنة ٥٣٣ هـ) ، وابن الطفيل (سنة ٥٨١ هـ) ، وابن رشد توفى (سنة ٥٩٥هـ) وابن ميمون وغيرهم .

وحظيت العلوم العقلية الأخرى بعناية ملحوظة ، مثل الطب ، وعلوم الطبيعيات . ومن أشهر أطباء العصر ابن التلميذ ، وابن ميمون طبيب صلاح الدين. كذلك علوم الرياضات والفلك، ومن علمائها عمر الخيام،وقد عهد إليه السلطان

---

(١) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ٥/٣١٣ .

(٢) تاريخ العرب مطول ٣/٦٩٦ .

(٣) ترجمته فى فوات الوفيات ٢/٤٧٩ وراجع تاريخ العرب مطول ٣/٦٥٦ .

(٤) راجع الفتنة التى أثارها هؤلاء ضده فى كتاب الجامع المختصر ص ٥ – ٦ .

(٥) الجامع المختصر ص ٦ .

ملكشاه السلجوقى بإصلاح التقويم فوضع التقويم الجلالى ، نسبة إلى جلال الدين ملكشاه، وذلك لقدرة عمر الخيام وشهرته العريضة فى الرياضة والفلك. وكذلك روى لنا ابن أبى الصلت اهتمام المصريين فى عصره بالطب والفلك. وهكذا كان الحال فى المشرق فى بلادفارس والعراق؛ فقد بنى نصير الدين الطوسى مرصداً كبيراً لهذا الغرض فى بلاد الفرس[١] .

وكان اهتمام الناس بالفلك — والعامة خاصة — لغرض آخر غير العلم وهو التنجيم ورصد الطالع ، فقد كثر المنجمون ، والمدعون منهم على غير علم وكثرت تنبؤاتهم بالباطل ، وقالوا عن أشياء لم تحدث ، فصاروا ضحكة ، وموضوعاً للسخرية بين الناس . وقال الشاعر الفلكى علاء الدين بن نبهان سند اليشكرى (توفى سنة ٦٨٠ هـ) يفند كذب ماتقول به النجوم[٢] :

ولمّا دهانى الخَطْبُ من كل وجهةٍ ... وأصبح حالى حائلًا متبدِّلا
عكَفت على الأَفْلاك أرجُو معونَةً ... بها أوَ بعد الكواكِب يَجتلى
فخَاطبتُ منها الْمشترى بعدَ زَهرة ... فأَصغَى إلى ما قلته وتأَمَّلَا

وقد حمل الفقهاء على المنجمين لكذبهم . وكانوا يشكون فى كل من يأخذ بعلم النجوم، ويدعون الناس إلى عدم أخذ العلم عنهم ، ولا سماع الحديث . قال ياقوت : « قال ابن السمعانى : قرأت على ابن أبى جرادة بحلب ، وخرجت يوماً من عنده فرآنى بعض الصالحين ، فقال لى : أين كنت ؟ قلت : عند الحسن بن أبى جرادة قرأت عليه شيئاً من الحديث؛ فأنكر على وقال: ذاك يقرأ عليه الحديث؟ ثم قال : ليته اقتصر على هذا ، بل يقول بالنجوم ويرى رأى الأوائل »[٣] .

(١) فوات الوفيات ٢ / ٣١١ .
(٢) فوات الوفيات ٢ / ١٧١ .
(٣) إرشاد الأريب ٥ / ٢٤٤ .

٣

البيئات العلمية والمراكز الثقافية

اشتهرت فى القرنين الخامس والسادس مجموعة من البيئات العلمية فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكان من أسباب قيامها انقسام العالم الإسلامى فى هذين القرنين إلى مجموعة دويلات صغيرة ، لكل دويلة حاضرتها التى حاول حكامها أن يصنعوا منها بغداد أخرى أو قاهرة ، وهكذا أصبحنا نجد مدناً كثيرة مزدهرة بالعلم والعلماء يفدون إليها من كل بلد ، وتنشأ بها المدارس ودور الكتب الكبرى ويتخرج منها العلماء والأدباء فينسبون إليها ويبقى اسمها مع أسمائهم .

الإقليم الشرقى

الشرق :

ونبدأ بالقسم الشرقى من العالم الإسلامى ، ببلاد فارس ، ونبدأ من أقصى هذا الإقليم فنقع على « خوارزم » من أشهر مدن هذا الإقليم فى هذا الوقت ، وأكثرها تخريجاً للعلماء الذين كان لهم أثر واضح فى الدراسات الإسلامية ، بل الفكر الإسلامى إلى أمد بعيد . وقد نشأت بها فى ظل الدولة الخوارزمية حركة علمية وأدبية كبرى ، ونافس سلاطينها سلاطين السلاجقة فى إنشاء المدارس والتقرب إلى العلماء والأدباء . وقد أنشأ السلطان خوارزمشاه بها مدرسة للحنفية ، وأسس داراً للكتب . ويروى أحد العلماء أنه درّس خمس سنوات فى مدارسها . وظهر فى عهد سلاطين خوارزم الشاعر الأديب رشيد الدين الوطواط ، وكان يعارض أنورى شاعر السلطان السلجوقى وينافسه . وألف بالعربية والفارسية كتباً ورسائل منها «حدائق السحر » فى النقد بالفارسية . وعلى رأس من خرجتهم من النوابغ فى القرن السادس فخر خوارزم الزمخشرى محمود بن عمر (المتوفى سنة ١١٤٢م

= ٥٣٧ هـ)[١] ، وقد ألف فى تفسير القرآن كتابه المشهور « الكشاف عن حقائق التنزيل» وألف المفصل فى النحو ، والأنموذج ، وفى اللغة كتاب الأمكنة والجبال وغيرهما ، وأطواق الذهب ، وفى المحاضرات ربيع الأبرار .

وأهم ما اشتهر به الزمخشرى ، وشغل الناس منه اعتزاله ومحاولة تطبيق آراء المعتزلة فى تفسير الكشاف ، مما أثار موجة من النقد والمعارضة عند معاصريه من علماء السنة ، وقد كان الكشاف محوراً لكثير من الدراسات والتعليقات فى بلاد إسلامية كثيرة – لعل أهمها كتاب ابن المنير السكندرى .

كذلك نبغ فى خوارزم أبو القاسم الخوارزمى شمس المشرق ، والذى قتل نفسه سنة ٥٢١هـ ، قال ياقوت : وكان أفضل الناس فى عصره فى علم اللغة والأدب لكنه تخطى إلى علم الفلسفة فصار ممقوتاً بين المسلمين [٢] .

ومنها أبو الفتح ناصر الدين بن أبى المكارم الفقيه النحوى الأديب الخوارزمى ولد فى السنة التى توفى فيها الزمخشرى سنة ٥٣٧هـ وتوفى سنة ٦١٠هـ، ولهذا قيل عنه إنه خليفته . وكان رأساً فى الاعتزال داعياً إليه ، وينتحل مذهب أبى حنيفة فى الفروع .

ومنها السكاكى أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر بن محمد (ولد سنة ٥٥٤ هـ) وهو علامة إمام فى العربية والمعانى والبيان والأدب والعروض والشعر ، متكلم فقيه .

ومنها القاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمى . ولد سنة ٥٥٢هـ وقال عنه ياقوت « صدر الأفاضل حقًّا ، وواحد الدهر فى علم العربية صدقاً ، ذو الخاطر الوقاد والطبع النقاد ، والقريحة الحاذقة ، والحفيزة الصادقة . برع فى علم الأدب ، وفاق فى نظم الشعر ونثر الخطب . فهو إنسان عين الزمان وغرة جبهة هذا الأوان»[٣] .

---

(١) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ٤ / ٢٥٤ ، ونزهة الألباء ٤٦٩ وراجع أيضاً .
Browne : A. Lip. Hist. of Persia 292 ,

(٢) إرشاد الأريب .
(٣) إرشاد ١٤٦/٧ .

وممن وفد إلى خوارزم من أئمة العصر فخر الدين الرازى (توفى سنة ٦٠٦ هـ)(١) وقد درس بها .

ومن هذا العرض السريع للحالة العلمية فى خوارزم ولمن نبغ فيها واتجاهاتهم يظهر أن الطابع الغالب عليها كان الدراسات العقلية ، كما كان يغلب عليها الاعتزال ويسيطر على أكثر علمائها . وكان لعلوم الفلسفة والمنطق بها شأن كبير . ولشهرة خوارزم بالاعتزال يقول ياقوت عندما التقى بالقاسم بن الحسين الخوارزمى بخوارزم : «وقلت له : ما مذهبك ؟ فقال : حنفى ولكن لست خوارزمياً ، لست خوارزمياً . ـ وجعل يكررها ـ إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأى أهلها ، نفى عن نفسه أن يكون معتزليا ، رحمه الله »(٢) .

وإلى الشرق من إقليم خوارزم يوجد إقليم ما وراء النهر (نهر جيحون) وهو إقليم OXUS(٣) . وكان لهذا الإقليم مكانته أيام الدولة الخوارزمية ، وأهم حواضره مدينة سمرقند وهى العاصمة ، ومدينة بخارى المدينة الثانية أو العاصمة الثقافية . ومن سمرقند نبغ جماعة من العلماء والفقهاء فى هذا العصر منهم أبو حامد ركن الدين محمد بن محمد العميدى السمرقندى (توفى سنة ٦١٥ هـ) (٤) ويذكر ابن خلكان أنه كان إماماً فى الخلاف خصوصاً البحث ، وأنه أفرده بالتصنيف كما صنف كثيراً من الكتب الأخرى . ونبغ منها فى الأدب محمد ابن سليمان قنلمس السمرقندى ، وكان له شعر جيد ، ذكر أمثلة له صاحب فوات الوفيات ، وتولى الحجابة للباب الخليفى ببغداد زمناً وتوفى سنة ٦٢٠ هـ (٥) .

وعرفت بخارى بأنها كانت مركزاً هاماً لأهل السنة فى الإقليم الشرقى ، وكانت مشهورة بدراسات الحديث والفقه .

ويلى إقليم خوارزم من ناحية الغرب إقليم خراسان ، وهو أهم أقاليم المشرق حينئذ موقعاً وثروة وعلماً . وقد ظهرت أهمية هذا الإقليم خاصة فى القرن السادس

---

(١) ترجمته سبقت ، وفى البداية والنهاية ١٣ / ٥٥ .

(٢) إرشاد ٦ / ١٥٤ .

(٣) راجع Le Strange : The Lands of the Eastern Cali Phates

(٤) وفيات الأعيان ٣ / ٣٨٨ .

(٥) فوات الوفيات لابن شاكر ٢ / ٤١٩ .

الهجرى تحت حكم السلطان السلجوقى سنجر (توفى سنة ٥٥٨ هـ) ، وقد اعتاد سلاطين السلاجقة اتخاذ عواصمهم في إحدى مدن خراسان الأربع الكبرى وهى بلخ ومرو وهراة ونيسابور . وكان آخرهم سنجر قد استقر فى مرو كبراها[١] .

ونبدأ الكلام بنيسابور ، « وهى مدينة ذات فضائل جسيمة . معدن الفضلاء ومنبع العلماء » كما يقول ياقوت [٢] ، وقد ظلت عامرة زاهرة حتى خربها الغزاة سنة ٥٤٨ هـ ثم استعادت مجدها وعزها مرة أخرى وظلت كذلك إلى أن خربها التتر مرة أخرى سنة ٦١٨ هـ بقيادة جنكيزخان [٣] ، وقد عمرت بالعلم والعلماء وأنشئت بها المدارس ، وأهمها النظامية ، أنشأها نظام الملك [٤] قبل نظامية بغداد بخمس وعشرين سنة ، ودرس بها الغزالى[٥] وإمام الحرمين الجوينى ، وقطب الدين النيسابورى . ومن بين أعيانها الذين تخرجوا فيها نظام الملك نفسه وزميل صباه الحسن الصباح[٦] ، وعمر الخيام كما خرج بها جماعة من أقطاب الفقه والعلم والأدب ، فمن فقهائها الأرغيانى الفقيه الشافعى أبو خضر محمد بن عبد الله (توفى سنة ٥٢٨ هـ) .وقد اشتغل بنيسابور على إمام الحرمين الجوينى ، وبرع فى الفقه وكان إماماً فقيهاً ورعاً [٧] . وأبو محمد بن يحيى النيسابورى الفقيه الشافعى (قتل سنة ٥٤٨ هـ) « أستاذ المتأخرين . وأوحدهم علماً وزهداً ، تفقه على حجة الإسلام الغزالى ، وبرع فى الفقه وصنف فيه وفى الخلاف ، وانتهت إليه رياسة الشافعية بنيسابور ، ووصل إليه الناس من البلاد ، واستفاد منه خلق كثير »[٨] وكان يدرس بالنظامية . ومنها أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، وكان إماماً فقيهاً متكلماً على مذهب الأشعرى (توفى سنة ٥٤٨ هـ)[٩] ، وقطب الدين

---

(١) الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى ص ٣٧ .
(٢) معجم البلدان ٩/٣٥٦ .
(٣) المصدر نفسه ٩/٣٥٧ .
(٤) راجع Browne P.294
(٥) وفيات الأعيان ٣/٣٥٤ .
(٦) راجع Browne 363
(٧) وفيات الأعيان ٣/٣٥٨ .
(٨) وفيات الأعيان ٣/٣٥٩ – ٣٦٠ .
(٩) وفيات الأعيان ٣/٤٠٣ .

النيسابورى مسعود بن محمد (توفى سنة ٥٧٨ هـ) (١) . وقد أخذ بها على غير واحد من أئمتها ، وسمع الحديث ، ودرس بالنظامية على الجوينى وسافر بعد ذلك إلى بغداد ودمشق سنة ٥٤٠ هـ ، ثم خرج إلى حلب ودرس بها وصنف كتابًا فى الفقه ، واتصل بالسلطان صلاح الدين ، وجمع له عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى أمر دينه ، وتوفى بدمشق .

ومن علمائها فى اللغة والأدب الميدانى أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (توفى سنة ٥١٨ هـ) (٢) وكان أديباً فاضلا ، عارفًا باللغة ، أتقن فن العربية وأمثال العرب ، وله فيها التصانيف المفيدة ، ومنها كتابه المشهور « مجمع الأمثال» و« نزهة الطرف فى فن الصرف» وغيرها ، والبيهقى أحمد بن على بن أبى جعفر (توفى سنة ٥٤٤ هـ) (٣) وكان إماما فى القراءة والتفسير والنحو واللغة ، صنف التصانيف فى ذلك وانتشرت عنه فى البلاد ، وكان ملازمًا بيته والمسجد القديم بنيسابور ، ومن مؤلفاته « المحيط بلغات القرآن » و« ينابيع اللغة » ، يقول ياقوت : « جرد فيه صحاح اللغة من الشواهد ، وضم إليه من (تهذيب اللغة) (والشامل) لأبى منصور الجيان و(المقابيس) لابن فارس قدراً صالحًا من الفوائد ، وهو كتاب صالح كبير الحجم يقرب حجمه من (الصحاح) » . والبهيقى على بن زيد (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) وقد وصل إلى نيسابور وتعلم بها ثم خرج منها ، وتردد عليها أكثر من مرة ، وبقى بها مدة كبيرة يدرس بجامعها القديم وبعض المساجد الأخرى (٤) .

مرو :

أما مرو وهى كبرى مدن الإقليم فيسميها ياقوت مرو العظمى (٥) ، أشهر مدن خراسان ، وقصبتها ، وكان سنجر قد اختارها دون سائر بلاد سلطنته وأقام بها

---

(١) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٣/٢٦٩ .
(٢) وفيات الأعيان ١/١٣٠ ، ونزهة الألباء ٤٦٦ – ٤٦٧ .
(٣) إرشاد الأريب ١/٤١٤ .
(٤) المصدر السابق ٥/٢١٠ .
(٥) معجم البلدان ٩/٣٣ .

وما زال مقيماً إلى أن مات . وبمرو جامعان أحدهما للحنفية والآخر للشافعية ، مر بها ياقوت الحموى ، وأقام وأعجب بها وبما فيها من علم وعلماء وكتب نفيسة . يقول : « فإنى فارقتها وبها عشر خزائن للوقف لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة » وكانت خزائن كتبها ملحقة بالمساجد أو بالمدارس ، وكان بها مدرسة نظامية بها مكتبة ، وكان الاطلاع على هذه الكتب ممكناً دون قيود . يقول ياقوت: « وكانت سهلة التبادل ؛ منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتى دينار ، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها »[١] .

« وخرّجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم[٢] » ومن هؤلاء المؤرخ النسابة إسماعيل بن الحسين[٣] ومن كتبه التاريخية « خطوة الفرس » نحو ستين مجلداً ، و « بستان الشرف » و « غنية الطالب فى نسب آل أبى طالب » ، و « الموجز فى النسب » ، وكتاب « الفخرى » صنفه للفخر الرازى ، وكتب كثيرة فى الأنساب والطبقات وتفرد بمرو بالتصدر لإقراء العلوم على اختلافها فى منزل ينتابه الناس على حسب أغراضهم ؛ فمنهم قارئ اللغة ومتعلم النحو ، ومصحح الفقه ، وناظر فى النجوم وناظر فى الأصول وغير ذلك . يقول ياقوت « وله شعر كسائر العلماء » وتوفى بعد سنة ٦١٤ هـ ، فقد اجتمع به ياقوت فى هذه السنة . ومنها إسماعيل بن الحسين البيهقى[٤] ، وكان جامعاً لفنون الآداب ، حائزاً لمفاتيح الحكمة وفصل الخطاب . أقام وتوطن بمرو ، وطريقه فى الفقه مستقيم ، وله كتب فى غرائب الحديث واللغة والخلاف .

ومن أدباء مرو أحمد بن محمد بن القاسم الإخسيكثى (توفى سنة ٥٢٨ هـ)[٥] يقول ياقوت : كان هو وأخوه ذو المناقب محمد أديبى مرو غير مدافعين ، يقر لهما بذلك كلهم ، قدما مرو وسكناها إلى أن ماتا ، وكان أحمد شاعراً أديباً مصنفاً كاتباً مسترسلا فى ديوان السلاطين .

---

(١) معجم البلدان ٩/٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ٩/٣٥ .
(٣) إرشاد ٢/٢٦٣ .
(٤) المصدر نفسه ٣/٢٦١ .
(٥) المصدر نفسه ٢/١١١ .

ومن نسابها المشهورين المذكورين السمعانى تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم ابن محمد (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) وصاحب كتاب « الأنساب » المشهور (وهو مروزى شافعى ، صنف التصانيف الحسنة الغزيرة الفائدة فمن ذلك غير الأنساب « ذيل تاريخ بغداد » و « تاريخ مرو » وهو يزيد على ٢٠ مجلداً [١] . وخرج منها جماعة آخرون أقل شهرة .

إقليم الجبل — أصبهان :

ويلى هذا الإقليم العراق شرقًا ، وهو أكثر تلك الأقاليم السابقة صلة بالحياة العربية الإسلامية منذ قديم الزمان ، وأكبر مدينة به هى مدينة « أصبهان » ، وهى مدينة قديمة عظيمة . لها شهرتها فى الأدب العربى والتاريخ العربى والإسلامى لما خرجت من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء ، ولما دار فيها من الأحداث الكبيرة ،وما روى حولها وحول أهلها من الأخبار والطرائف .

واشتهرت فى هذا العصر (فى القرنين السادس والسابع) بتخريجها عدداً كبيراً من حفاظ الحديث ، ولكنها لم تعرف ازدهارها بالثقافة كما كانت فى سابق عهدها . يقول ياقوت : « وقد فشا فيها الخراب » ، ويعزوه لما كان بين أهلها من الاضطرابات بسبب العصبيات المذهبية ، وخاصة بين الشافعية والحنفية [٢] .

ونشأ بها سلمان بن عبد الله الحلوانى النهروانى (المتوفى سنة ٤٩٣ هـ) وكان عالمًا فى النحو واللغة، واستوطن أصبهان ، وأخذ عنه الحافظ السلفى ، وله كتب كثيرة منها « تفسير القرآن » وكتاب فى القراءات ، « والقانون » فى اللغة فى عشرة مجلدات . يقول ياقوت إنه لم يصنف مثله ، و«شرح الإيضاح » لأبى على الفارسى و « شرح ديوان المتنبى » ، و«الأمالى » .

ومنها إسماعيل بن محمد بن أحمد الوثابى (المتوفى سنة ٥٣٣ هـ) ، وهو أديب شاعر مذكور ، معروف بسرعة خاطره وحضور بديهته ، وتروى له فى ذلك أخبار وأشعار .

---

(١) وفيات الأعيان ١/٣٧٩ .

(٢) معجم البلدان لياقوت ١/٢٦٩ .

ومنها الحافظ أحمد بن محمد السلفى نزيل الإسكندرية (ولد سنة ٤٧٢ وتوفى بالإسكندرية سنة ٥٧٦ هـ) صاحب المدرسة السلفية المعروفة باسمه ، والعالم الكبير والمحدث المعروف فى دولة صلاح الدين .

ومنها أبو الفتوح أسعد بن أبى الفضائل محمود بن خلف العجلى الشافعى الواعظ (المتوفى سنة ٦٠٠ هـ) من الفقهاء الموصوفين بالزهد . وقد تبحر فى العلوم وصنف عدة تصانيف منها « شرح مشكلات الوسيط ، والوجيز للغزالى » وتكلم فى المسائل المشكلة فيها . وله كتاب « تتمة التتمة » لأبى سعد المنزلى .

ويقول ابن خلكان [١] : « وعليه كان الاعتماد فى الفتوى بأصبهان »

ومحمد بن محمد بن حامد العماد الأصبهانى (المتوفى سنة ٥٧٩هـ)، وهو الكاتب المنشئ المؤرخ الشاعر ، أخذ على شيوخ العلم والأدب فى بلده ، وفى النظامية ببغداد ، واتصل بالملوك والأمراء ، وكان أول من اتصل بهم الوزير عون الدين ابن هبيرة ببغداد ثم السلطان نور الدين محمود ، والسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكان هو والقاضى الفاضل فرسى رهان فى دولة صلاح الدين فى العلم والأدب والجاه ، والمنزلة . تولى التدريس بدمشق بمدرسة « العمارية » ، وكان ينشئ رسائله بالعربية والفارسية ويجيد فيها وله شعر جيد .

ومصنفاته كثيرة أشهرها : « خريدة القصر وجريدة العصر » ذيل بها « دمية القصر » للحظيرى الوراق ، وقصرها على تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس ممن كان بعد المائة الخامسة إلى ما بعد سنة ٥٧٠ هـ ، فى عشرة مجلدات و « البرق الشامى » وهو تاريخ بدأ فيه بذكر نفسه ورحلته ، وأخباره مع نور الدين وصلاح الدين وذكر بعض الأحداث والفتوحات . و « الفيح القسى فى الفتح القدسى » فى فتح بيت المقدس و « نصرة الفطرة وعصرة القطرة » فى أخبار الدولة السلجوقية [٢] .

ومحمد بن محمود بن محمد العقبة العالم (المتوفى سنة ٦٨٨ هـ) انتهت إليه الرياسة فى معرفة الأصول ، وشرح « المحصول » للفخر الرازى شرحاً كبيراً ، وله كتاب

---

(١) وفيات الأعيان ١/١٨٨ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت طبع الرفاعى ١٩/١٩ .

« القواعد » فى أصول الدين والفقه والمنطق والخلاف ، وهو أحسن تصانيفه ، وكتاب « غاية الطلب » فى المنطق . وقد جاب بلاد العراق والشام ومصر ، وولى قضاء قوص ومنبج والكرك ، ودرس بالصالحية وبمسجد الحسين بالقاهرة[١] .

وممن نزل بها من علماء العصر الحافظ ابن عساكر الدمشقى المشهور . وقد بقى بها زمناً وحدث وعلم . كذلك نزلها العلامة ابن النجار محمد بن محمود ابن الحسن ، المؤرخ صاحب « تاريخ بغداد » الذى ذيل به تاريخ الخطيب البغدادى .

همذان :

وهى ثانى مدينة فى هذا الإقليم[٢] . وتقع على مرتفع من الأرض ، لذلك فهى شديدة البرد شتاء ، وخرجت جماعة من العلماء والأدباء الأفاضل ممن نسب إليها .

ومن علمائها فى هذا العصر محمد بن أبى عثمان موسى الحازمى[٣] (المتوفى سنة ٥٨٤ هـ) أحد الحفاظ المتقنين وعباد الله الصالحين أخذ على شيوخ العلم بهمذان ، ثم تفقه فى بغداد على الشيخ جمال الدين بن فضلان وسمع الحديث على جماعة من المحدثين ، وسعى لطلبه فى عدة بلاد فرحل إلى الشام وفارس . وحل بأصبهان وكثير من بلاد أذربيجان . غلب عليه الحديث وألف فيه وفى غيره كتباً منها : « الناسخ والمنسوخ » فى الحديث ، وكتاب « الفيصل » فى مشتبه النسبة ، و « العجالة » فى النسب و « ما اتفق لفظه وافترق معناه » فى الأماكن والبلدان المشتبهة الخط ، وكتاب « سلسلة الذهب » فيما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام الشافعى ، و « شروط الأئمة » وغير ذلك .

ومنها أبو يعقوب يوسف بن أيوب . . . ابن وهرة الهمذانى (المتوفى سنة

---

(١) فوات الوفيات ٢ – ٢٦٤ .

(٢) معجم البلدان لياقوت .

(٣) وفيات الأعيان ٤٢١/٣ .

٥٣٥هـ) [١] الفقيه العالم الزاهد الربانى، تلقى العلم فى همذان وفى بغداد ، وجلس للتدريس فى النظامية ببغداد سنة ٥١٥ هـ ، وكان له رباط بمدينة مرو واجتمع إليه فيه جماعة من الصالحين ، وكان يعظ الناس ويهديهم واعتنق الصوفية وعظم فيها شأنه . وقضى حياته متنقلا بين مرو وهراة وبغداد .

إقليم الوسط

العراق والشام ومصر

وإقليم الوسط الذى قامت به دولة صلاح الدين كان أكثر الأقاليم الثلاثة نشاطاً ، وخاصة الأيوبية ، فقد توافد إليه العلماء من كل صوب من الإقليمين الآخرين ، وزادت به المدارس زيادة كبيرة ؛ وراجت سوق العلم والأدب ، وعظم شأن كثير من البلاد ، وصارت محجة لطالبى العلم والمتأدبين ، وأهم حواضر هذا الإقليم فى العراق بغداد والموصل وأربل وسنجار .

العراق

بغداد :

فأما بغداد ، فكانت لاتزال حاضرة الدولة العباسية ، وارثة الثقافة العريقة والحضارة الزاهرة فى عصر الدولة العامرة فى القرنين الثالث والرابع وقد بنى بها نظام الملك فى النصف الثانى من القرن الخامس سنة (٤٥٩ هـ) مدرسته النظامية ، وكانت أهم المدارس التى ابتناها جميعاً وأبعدها ذكراً . وأكبرها أثراً؛ فقد ألحقت بها دار عامرة للكتب ، قام على خزانتها جماعة من المشهورين الأجلاء[٢] وكانت النظامية بالجانب الشرقى من بغداد ، وأقام بها ودرس الأدب أبو منصور الجواليقى (المتوفى سنة ٥٣٩هـ) ،وشيخه التبريزى[٣] ،ودرس بها على بن أبى زيد القصيمى[٤] ، وابن الجوزى وآخرون كثيرون . ووفد إليها طلاب العلم من المغرب ومصر والشام ، ومن بلاد المشرق ، فكانت كعبة للعلم فى القرنين الخامس والسادس .

---

(١) وفيات الأعيان ٧٦/٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٠٤/٥ والجامع المختصر ١٦٠/٩ .

(٣) المصدر نفسه ١٩١/٧ وابن خلكان ٢٣٨/٥ .

(٤) نزهة الألباء ٤٤٨/٦ .

وكان إلى جانب النظامية مدارس أخرى عديدة ، أكثرها فى الجانب الشرقى أيضا من دجلة . قال ابن جبير إن عدتها كانت نحو ثلاثين مدرسة فى أيامه « وما منها مدرسة إلا وهى يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية ، وهى التى بناها نظام الملك ، وجددت سنة ٥٠٤ هـ ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة على الفقهاء المدرسين بها ، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم » (١) .

وساعدت حياة الرخاء والرفاهية ، وما نالته بغداد من الشهرة فى آفاق العالم الإسلامى على رغبة العلماء والطلاب فى الذهاب إليها وتلقى العلم بها ؛ وقد وصف لنا ابن جبير ما تركته هذه المدينة فى نفسه عند ذهابه إليها من أحاسيس وانعكاسات مبهجة لما فيها من الحياة الزاهرة الزاخرة بأنواع السرور والبهجة ،حتى اشتهرت فى آفاق العالم الإسلامى بذلك ؛ وأصبح اسمها علماً على البهجة والأناقة والأنس والسرور ، يقول ابن جبير : « وكنا سمعنا أن هواء بغداد ينبت السرور فى القلب ويبعث النفس دائماً على الانبساط والأنس ، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طرباً ، وإن كان نازح الدار مغترباً » (٢) .

ومن علماء اللغة بها ابن الدهان أبو محمد سعيد بن المبارك النحوى البغدادى (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) ، وكان فى زمنه فى بغداد يرجح على معاصريه من النحويين مثل ابن الجواليقى وابن الخشاب وابن الشجرى ، وله كتب فى اللغة والنحو والأدب منها : « شرح الإيضاح والتكملة ». يقول ابن خلكان : وهو مقدار ثلاثة وأربعين مجلداً ، ومنها « الفصول الكبرى » و « الفصول الصغرى » ، وشرح « كتاب اللمع » لابن جنى شرحاً كبيراً يدخل فى مجلدين وسماه الغرة ، يقول ابن خلكان : ولم أر مثله كثرة شروح ، وكتاب « العروض » فى مجلدة . وكتاب « الدروس فى النحو» فى مجلدة ، وكتاب « الرسالة السعيدية فى المآخذ الكندية » يشتمل على سرقات المتنبى من أبى تمام» (٣) ، وكتاب تذكرته سماه « زهرة الرياض » فى سبع مجلدات ،وكتاب

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢١٦ .

(٣) هذا الكتاب ألف ضياء الدين فى الرد عليه كتاباً سماه « الاستدراك فى الأخذ على المآخذ الكندية»

« الغنية فى الضاد والظاء » و « العقود فى المقصور والممدود » « والراء » ، و « الغنية فى الأضداد » وكان لابن الدهان هذا حفيد سمي باسمه كذلك ويسمى بابن الدهان الأصغر [١] وهو أبو بكر المبارك بن أبى طالب المبارك بن سعيد النحوى الضرير الواسطى ، وقد حفظ القرآن ، وأتقن القراءات ثم قدم بغداد وسكنها وأخذ عن علمائها أمثال ابن الخشاب البغدادى ؛ والكمال ابن الأنبارى . قال ابن خلكان « وجل ما أخذ عنه » ، وقد درس بالنظامية ، وكان يحسن الحديث بكل لغة ، وكان شاعراً مجيداً (توفى سنة ٦١٢ هـ) . وأخذ عنه ياقوت .

ومنهم التبريزى[٢] يحيى بن على بن محمد (توفى سنة ٥٠٢) وكان أحد الأئمة فى النحو واللغة والأدب ، وكان حجة صادقًا مثبتاً ؛ رحل إلى أبى العلاء المعرى وأخذ عنه ، وكذلك أخذ عن عبد القاهر الجرجانى وأخذ عنه أبو منصور الجواليقى ، ودخل مصر فى عنفوان شبابه فقرأ بها على ابن باشاذ النحوى ، ثم رجع إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات ، وكان له معرفة تامة بالأدب إلى جانب النحو واللغة .

وأخذ عنه جماعة مثل ابن الدهان سعيد بن المبارك ، والخطيب الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت صاحب تاريخ بغداد ، وأبى منصور الجواليقى .

وصنف فى الأدب كتبًا كثيرة منها « شرح الحماسة » ، و « شرح ديوان المتنبى » و « شرح سقط الزند » لأبى العلاء المعرى ، و « شرح المعلقات السبع » و « شرح المفضليات » . وله فى الحديث « تهذيب غريب الحديث » وفى اللغة « تهذيب إصلاح المنطق » ، وله فى النحو مقدمات حسنة قصد بها أسرار الصنعة وله فى العروض « الكافى فى علمى العروض والقوافى » .

ودرس الأدب بالنظامية ، وانتهت إليه الرياسة فى اللغة والأدب وسار ذكره فى الأقطار ، ورحل إليه الناس . وكان — كما يقول ياقوت — يدمن شرب الخمر ، ويلبس الحرير والعمامة المذهبة ، وكان الناس يقرءون عليه تصانيفه وهو سكران.

= وهو مخطوط منه صورة بمكتبة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية . وقد نشر أخيراً وقام على تحقيقه الدكتور حفنى شرف ط نهضة مصر بالفجالة / القاهرة .

(١) ترجمته وفيات الأعيان ٣ / ٣٠٠ وإرشاد ٦ / ٢٣٢ .

(٢) ترجمته فى ابن خلكان ٥ / ٢٣٨ وإرشاد ٧ / ٢٦٨ .

والفصيح الاستراباذى أبو الحسن على بن أبى زيد النحوى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) ، أخذ النحو عن عبد القاهر الجرجانى ، وتبحر فيه حتى صار أعرف زمانه به . قدم بغداد واستوطنها ، ودرس النحو بالنظامية ، وانتفع به خلق كثير ، وأخذ عنه جماعة منهم ملك النحاة الحسن بن صافى ، كما روى عنه الحافظ أبو طاهر السلفى الأصبهانى نزيل الإسكندرية ، وألف كتباً كثيرة فى الأدب وغيره [١] .

وابن الخشاب عبد الله بن أحمد بن الخشاب البغدادى (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) العالم المشهور فى الأدب والنحو والتفسير والحديث والنسب ، والفرائض والعلوم وله فيها اليد الطولى . وألف فيها شرح الجمل فى النحو لعبد القاهر الجرجانى وسماه « المرتجل فى شرح الجمل » ، و « شرح اللمع » لابن جنى ولم يكمله ، ويقول ابن خلكان إنه كانت فيه بذاذة وقلة اكتراث بالملبس والمأكل [٢] .

والجواليقى موهوب بن أحمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) [٣] وكان إماماً فى اللغة وفنون الأدب . ويقول ابن خلكان : إنه من مفاخر بغداد . قرأ الأدب على الخطيب التبريزى ، ودرسه بالنظامية بعد شيخه ، التبريزى وكان فى اللغة أمثل منه فى النحو ، وأخذ عنه الكندى وابن الأنبارى ، وله مصنفات مشهورة منها « شرح أدب الكاتب لابن قتيبة » و « المعرب من الكلام » . قال ابن خلكان : « ولم يعمل فى جنسه أكثر منه » و « تتمة درة الغواص للحريرى » وسماه « التكملة فيما يلحن فيه العامة » . وكان يختار فى مسائل النحو مذاهب غريبة وكان إماماً للخليفة المقتفى يصلى به الصلوات الخمس ، وألف له كتاباً لطيفاً فى علم العروض ونشأ ابنه إسماعيل (المتوفى سنة ٥١٥ هـ) مثله ، وكانت له حلقة بجامع القصر يدرّس فيها ؛ كما علم أبناء الخلفاء كأبيه [٤] .

وملك النحاة الحسن بن أبى الحسن الصافى (المتوفى سنة ٥٦٨ هـ) [٥] ، ولد ببغداد وقدم دمشق ثم خرج منها وعاد إليها فاستوطنها إلى أن مات . وقد ألف فى اللغة والنحو والعروض والفقه كتباً عدة منها : « كتاب الحاوى فى النحو»

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٢٤ .
(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٨٨ .
(٣) وفيات الأعيان ٤/٤٢٤ – ٤٢٦ وإرشاد ٧/١٩٩ .
(٤) فى تاريخ بغداد للدبيثى ص ٢٤٧ .
(٥) إرشاد ٣/٧٥ .

وكتاب « العمدة فى النحو». قال ياقوت : « وهو كتاب نفيس » و « المقتصد فى التصريف »،و « أسلوب الحق فى تعليل القراءات العشر وشيء من الشواذ » وكتاب « التذكرة السفرية » انتهت إلى أربعمائة كراسة، وكتاب العروض مختصر محرر ، وكتاب فى الفقه على مذهب الشافعى سماه« الحاكم»فى مجلدتين ،ومختصر فى أصول الفقه، ومختصر فى أصول الدين وديوان شعر ، وكتاب مقامات حذا فيه حذو الحريرى .

والعكبرى أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى (المتوفى سنة ٦١٦ هـ) [١] ، ولد ببغداد وأقام وأخذ النحو عن أبى محمد بن الخشاب وعن غيره من مشايخ بغداد فى عصره وسمع الحديث من أبى الفتح محمد بن عبد الباقى المعروف بابن البطى . وكان فقيهاً حنبلى المذهب ، ضريراً ، اشتغل بالنحو وبرع فيه وصنف مصنفات مفيدة كثيرة منها : « شرح الإيضاح » لأبى على الفارسى ، « وشرح ديوان المتنبى » و « إعراب القرآن » فى مجلدين ، « وإعراب الحديث »، و«شرح اللمع لابن جنى »،و «اللباب فى علل النحو »، و «إعراب شعر الحماسة»،و«شرح المفصل للزمخشرى وشرح الخطب النباتية»و «شرح المقامات للحريرى » . وقد اشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به واشتهر اسمه فى البلاد .

وابن الجوزى عبد الرحمن بن محمد بن على (المتوفى سنة ٥٩٨ هـ) ، وكان عالمًا جامعًا ديناً زاهداً واعظًا حسن الوعظ . لقيه ابن جبير وسمع عنه وأعجب به ، وصنف فى علوم مختلفة كالتفسير والحديث والتاريخ ، وله تفسير كبير يسمى « المعين» فى واحد وثمانين جزءاً ، قال سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان « ولكنه لم يبيضه» . وله فى الحديث كتب ، وفى الفقه كتاب « الإنصاف فى مسائل الخلاف » و « البازى الأشهب» و « لقطة العجلان » ، ومجموع مؤلفاته فى هذا العلم كما قال صاحب المرآة عشرون كتابًا[٢] ، وله تسعة كتب فى اللغة ، وله فى التاريخ كتاب « المنتظم » ، و« مناقب بغداد » وكلاهما مطبوع ، وكتاب « الفخر النورى » فى سيرة نور الدين محمود،و « المجد الصلاحى» فى سيرة صلاح الدين الأيوبى.

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٢٨٦ .

(٢) مرآة الزمان ٨/٤٨٥ .

وابن النجار البغدادى محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله (ولد سنة ٥٧٨هـ) الحافظ الكبير صاحب تاريخ بغداد ، وله كتاب الرحلة الواسعة إلى الشام ومصر والحجاز وأصبهان وخراسان ومرو وهراة ونيسابور ، وكتابه فى تاريخ بغداد ، ذيله على كتاب الخطيب البغدادى واستدرك عليه فجاء فى ثلاثين مجلداً[1].

وابن شداد [2] صاحب كتاب « النوادر السلطانية » فى سيرة صلاح الدين . ولد بالموصل وأخذ الحديث والعلم عن أئمة عصره ثم انحدر إلى بغداد بعد تمام تأهله، ونزل بالمدرسة النظامية ، وترتب فيها معيداً بعد وصوله إليها بقليل ، وأقام معيداً نحو أربع سنين والمدرس بها يومئذ أبو نصر أحمد بن عبيد الله الشاشى .وعزل عنها سنة ٥٦٩ هـ وتولى أحمد بن إسماعيل القزوينى وابن شداد مستمر بها على الإعادة ، ثم خرج من بغداد إلى الموصل سنة ٥٦٩ هـ فترتب مدرساً بإحدى مدارسها . وله غير « النوادر السلطانية » كتاب فى الأقضية سماه « ملجأ الحكام عند التباس الأحكام » وكتاب آخر فى فضائل الجهاد . وقد ولاه صلاح الدين قضاء العسكر والحكم بالقدس سنة ٥٨٤ هـ ، ثم ذهب بعد وفاته إلى حلب حيث صحب ابنه الظاهر صاحبها وبقى بها إلى أن مات .

وياقوت الحموى الرومى أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (المتوفى سنة ٦٢٢ أو سنة ٦٢٦هـ) أسر من بلاده صغيراً،وابتاعه ببغداد تاجر اسمه أبو منصور الجيلى ، وعلمه الحساب والكتابة وجعله فى الكتاب لينتفع به فى ضبط تجارته ، ولما كبر ياقوت قرأ شيئاً من النحو واللغة ، وشغله مولاه بالأسفار فى متاجره ، ثم جرت بينه وبين مولاه نبوة فأبعده عنه وذلك سنة ٥٩٦ هـ ، فاشتغل بنسخ الكتب بالأجرة ، وحصل بالمطالعة على فوائد كثيرة. ومات مولاه التاجر بعد ذلك فحصل على بعض مـــاله .

وسافر ياقوت فى البلاد الإسلامية من مشرقها إلى مغربها . سافر إلى دمشق وحلب والموصل وإربل وخراسان وأقام بها وكان يتجر ، واستوطن مرو مدة وخرج إلى نيسابور ثم إلى خوارزم ، وصادفه وهو هناك خروج التتر سنة ٦١٦ هـ فهرب

---

(١) فوات الوفيات ٢/ ٥٢٢ .

(٢) وفيات الأعيان ٦/ ٨٥ .

منها إلى الموصل ، فتقطعت به الأسباب وأعوزه دفء المأوى وخشن الثياب ، وأقام بالموصل مدة مديدة ثم انتقل إلى سنجار ثم حلب وأقام بظاهرها فى الخان إلى أن مات .

وقد قرأ فى صغره القرآن وشيئًا من الأدب ، وكان حسن الخط ، قال الشعر وأكثر النظم منه فى الغزل والتصابى وذكر المحبة وراق شعره وحفظته الناس ، وكانت أشعاره سائرة يتغنى بها ، وهى رقيقة لطيفة . وقد لقب نفسه بعبد الرحمن بعد اشتهاره فى الأدب ، وظل مقيمًا بالمدرسة النظامية ببغداد زمنًا . وله المصنفات الواسعة فى الأدب والتراجم والبلدان مثل «معجم الأدباء» وسماه «إرشاد الأريب لمعرفة الأديب » و « معجم البلدان » ، و « معجم الشعراء » و « المشترك وصفًا المختلف صقعًا » وهو من الكتب النافعة وله فى التاريخ كتاب « المبدأ والمآل » ، وكتاب « أخبار المتنبى » .

والدبيثى أبو عبد الله محمد بن سعيد (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ) [١] سمع الحديث عن أئمته ، وعلق منه التعاليق المفيدة ، وكان فى الحديث وأسماء رجاله من الحفاظ المشهورين ، وصنف كتابًا جعله ذيلا على كتاب السمعانى فى الأنساب وعلى تاريخ بغداد للخطيب وذكر فيه ما أغفلاه أو جاء بعدهما ، وهو فى ثلاثة مجلدات. وصنف تاريخاً وسيطاً .

ومن الأطباء ابن التلميذ أبو الحسن هبة الله بن أبى الغنائم النصرانى (المتوفى سنة ٥٦٠هـ) ذكره العماد الأصبهانى فقال: «سلطان الحكماء» ، وبالغ فى الثناء عليه ، وقال إنه مقصد العالم فى علم الطب وأبقراط عصره وجالينوس زمانه ختم به هذا العلم ، ولم يكن فى الماضين من بلغ مداه . وهو شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم [٢] .

ومنهم عبد اللطيف البغدادى (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ) الطبيب الفيلسوف المتكلم والمعروف بابن اللباد ؛ صاحب الرحلة المعروفة إلى مصر [٣].

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٨ — ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ٥/١٢٠ .

(٣) فوات ٢/١٦ .

الموصل :

وتلى بغداد فى الشهرة وكثرة العلماء والمدارس الموصل ، وهى مدينة كبيرة عامرة، أكبر مدن ديار ربيعة ، وتقع على دجلة على الشاطئ الغربى حيث تتجمع بعض روافده الصغيرة وتكون مجرى واحداً ، واسمها يدل على موقعها لأنها تصل بين شرق العالم الإسلامى وغربه ، وكانت فى مكانها مدينة فارسية قديمة اسمها بوذ أردشير ، واشتهرت فى عصر الأمويين ، ثم أصبحت فى أواخر الدولة العباسية عاصمة لإقليم الجزيرة وأكبر حواضره وكان سكانها من العرب من قبائل بكر وتغلب ومن الأكراد . وقد غلبوا عليها منذ القرن الرابع ، وهى شبه دائرية فى صورتها ، ذكر المقدسى أنها كانت فى زمنه ثلث مدينة البصرة إلا أنها اتسعت بعد ذلك وتكاثر سكانها . وقلعتها مربعة وتقع فى الشمال على قناة تسمى نهر زبيدة ، وبجوارها السوق والمسجد العتيق ، وتقع منازل السراة فيها على نهر دجلة وتمتد إلى مسافة بعيدة ، وتملكها قبل عصر صلاح الدين والأيوبيين الأتابكة من آل زنكى وصارت المقر الأول لهم [١] . وبنوا فيها المدارس والمساجد والرباطات والمارستانات والقصور ، وازدهرت حالتها فى عهدهم ، وراجت تجارتها ، وجاءها ابن جبير فرآها مدينة عظيمة حصينة فخمة « قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها للحوادث والفتن . قد كادت أبراجها تلتقى انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض » ، وقد فصل بين القلعة والبلد شارع متسع عتيد من أعلى البلد إلى أسفله ، وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق [٢] . وقال عنها ياقوت كذلك فى هذا العصر « إحدى قواعد بلاد الإسلام ، قليلة النظير كبراً وعظمة وكثرة خلق وسعة رقعة ، فهى محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان ، فهى باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ومنها يقصد إلى أذربيجان ، وكثيراً ماسمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور ، لأنها باب المشرق ودمشق لأنها باب المغرب والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل ما لا يمر بها » ، وقال : « وكثيراً ما وجدت العلماء يذكرون فى كتبهم أن الغريب إذا أقام فى بلد الموصل سنة تبين فى بدنه فضل قوة وما نعلم

---

(١) ظل الأتابكة من أولاد زنكى يتولونها ولكن تحت سلطة صلاح الدين والأيوبيين . وتولى العادل أبو بكر بلاد المشرق فى حياة أخيه وجعل مقره الموصل ثم تولاها بعده ابنه الأشرف موسى .

(٢) ابن جبير ٢٣٤/٢٣٥ .

لذلك سبباً إلا صحة هواء الموصل وعذوبة مائها ، وليس للموصل عيب إلا قلة بساتينها وعدم جريان الماء فى رساتيقها ، وشدة حرها فى الصيف وعظم بردها فى الشتاء ، فأما أبنيتهم فحسنة جيدة وثيقة بهية المنظر ، لأنها تبنى بالنورة والرخام ، ودورهم كلها أزاج وسراديب مبنية ، ولا يكادون يستعملون الخشب فى سقوفهم ألبتة ، وقل ماعدم شيء من الخيرات فى بلد من البلدان إلا ووجد فيها (١) » .

وقد ازدهرت بها الحياة فى عصر الأتابكة الزنكيين ، وكثر علماؤها ومتعلموها بفضل تشجيع حكامها لهم (٢) ، وقد بنى بها نور الدين مسجداً ومدرسة ورباطاً للفقراء ، وكذلك فعل أخوه سيف الدين غازى ؛ فقد بنى بها مدرسة سماها المدرسة الأتابكية . وهى أحسن المدارس بها وأوسعها (٣) ، وقد جعلها وقفاً على فقهاء الشافعية والحنفية ، وكذلك بنى رباطاً آخر للصوفية . وبنى فيها قايماز التركى الرومى (المتوفى سنة ٥٩٤ هـ) متصرف المدينة فى عهد خلفاء زنكى الجامع المجاهدى ورباطاً ومدرسة ومارستاناً بظاهرها على نهر دجلة . وكان عليه رواتب كثيرة بحيث لم يدع بالموصل بيتاً فقيراً إلا وأغنى أهله (٤) . وقد أثرى أهلها ولكنهم ظلوا محافظين على دينهم ولم يسرفوا إسراف أهل بغداد . قال عنهم ابن جبير : « أهلها أحسن طبعاً وأكرم جبلة من أهل بغداد ، وهم على طريقة حسنة ، يستعملون أعمال البر ، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء ، وإقبال عليهم ، وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم » (٥) .

وكانت تجارتها رائجة تذهب وتدور إلى المشرق والمغرب ، وتحملها السفن فى البحر المتوسط إلى أوربا ، وظلت كذلك مركزاً هاماً من مراكز التجارة فى العصور الوسطى ، وكانت تصدر أنواعاً من الأقمشة الحريرية ، وإن اسم « موسلين » الذى يطلق على نوع معين منها إنما كان يستورده الإيطاليون منها ويسمونه Mosolina وعنهم شاع ذلك الاسم (٦) . وكثرت الأموال فى أيدى الناس لرواج التجارة ، فتمكن

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان مادة موصل .

(٢) Eneyclopaedia Britannica Vol. 18 P. 651

(٣) الروضتين ١ — ٦٥ .

(٤) مرآة الزمان ٨/٤٥٨ .

(٥) رحلة ابن جبير ٢٣٧ .

(٦) فنون الإسلام ٣٤٦ .

حكامها من القيام بحركات تعمير وإصلاح وبر واسعة . ويقال إن مجاهد الدين قايماز التركى كان ينفق على الفقراء كل يوم مائة دينار غير ما كان يرتبه كل شهر لهم . وكان أمراؤها ينعمون بهذا الثراء ؛ فكان سيف الدين غازى يجمع المغنيات ويستمع للغناء ، ويجمع الطيور النادرة كالبلابل والغرار والببغاء . قال أبو شامة : « واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية ، وأن السلطان صلاح الدين أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية »[١] .

وتولى التدريس فى مدارسها الست على دجلة جماعة من أفاضل العلماء ؛ ففى مدرسة نور الدين درس الفقه عماد الدين أبو بكر التوقانى الشافعى[٢]. وقد درس بالنظامية جماعة من آل شهرزور . وآخرهم محيي الدين الشهرزورى . والمدرسة البدرية ودرس بها كمال الدين الشهرزورى وآخرون [٣] .

ومن علمائها المشهورين جماعة على رأسهم آل ابن الأثير . فقد ظهر منهم ثلاثة إخوة برز كل واحد منهم فى علم من العلوم . فمجد الدين المبارك فى الحديث ورجاله ، وعز الدين على فى التاريخ . وضياء الدين نصر الله فى الأدب وفنونه .

مجد الدين المبارك بن محمد بن عبد الكريم (ولد سنة ٥٤٤ هـ) .

وعز الدين على بن محمد بن عبد الكريم (ولد سنة ٥٥٥هـ) وله كتاب الكامل فى التاريخ وكتاب « أتابكة الموصل » .

وضياء الدين (ولد سنة ٥٥٨ هـ وتوفى سنة ٦٣٧ هـ) وله كتاب المثل السائر والجامع الكبير والوشى المرقوم ، والاستدراك على المآخذ الكندية [٤] .

ومنها آل الشهرزورى وأخصهم يحيي الشهرزورى قاضى قضاة بغداد وقد سكن المدرسة النظامية متفقهاً ثم جاء الموصل وخرج إلى الشام حيث التحق بصلاح الدين ، وكان ينفذه فى رسائل إلى ديوان الخلافة ببغداد ، وكان يقول

---

(١) الروضتين ١/٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ١/١٩٨ وخطط الموصل ٤٩ .

(٣) تاريخ الموصل ٩٠ .

(٤) راجع دراسة مفصلة عن ابن الأثير للمؤلف بعنوان « ضياء الدين ابن الأثير وجهوده فى النقد » طبع بمصر سنة ١٩٥٨ م .

الشعر [١] . ومنهم أبو محمد عبد الله بن القاسم الشهرزورى الملقب بالمرتضى (المتوفى سنة ٥١١ ه) .

وعلى بن خليفة النحوى (المتوفى سنة ٥٦٢ ه) ، وكان يجلس بالمسجد المعروف بمسجد النبى بالموصل ، وكان إماماً فاضلا ، تأدب عليه أكثر أهل عصره من بلده وصنف مقدمة فى النحو سماها « المقدمة » [٢] .

ويحيى بن سعيد بن المبارك بن الدهان (ولد بها سنة ٥٦٩ ه وتوفى سنة ٦١٦ ه) وأشرنا إليه فى علماء بغداد .

وابن الفقيه عبد الواحد بن إبراهيم بن الحسن بن نصر الله بن عبد الواحد (ولد سنة ٥٦١ ه وتوفى سنة ٦٣٦ ه) وسمع عن أبى الفضل بن الطوسى حضوراً وكتب الخط المليح ، وقال الشعر [٣] .

وعماد الدين أبو حامد محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعى ، كان إمام عصره فى المذهب والأصول والخلاف ، وكان له صيت عظيم فى زمانه ، وقصده الفقهاء من البلاد الشاسعة . ودرس بالموصل بعدة مدارس ، وصنف كتباً فى المذهب منها : « المحيط فى الجمع بين المهذب والوسيط » ، « وشرح الوجيز للغزالى » ، وصنف جدلا وعقيدة وتعليقة فى الخلاف لم يتمها ، وولى القضاء بالموصل ، وانتهت إليه رئاسة الشافعية ، ويقول ابن خلكان : « غير أنه لم يرزق سعادة فى تصانيفه فإنها ليست على قدر فضائله » [٤] . توفى سنة ٦٠٨ ه .

وابن عصرون وكان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره ، ومن سار ذكره وانتشر أمره . درس بالموصل سنة ٥٢٣ ه ثم غادرها إلى سنجار وحلب ودمشق . وله كتب كثيرة فى المذهب الشافعى منها « الانتصار » فى أربعة مجلدات ، و« المرشد » فى مجلدين ، « والذريعة فى معرفة الشريعة » ، « والتيسير فى الخلاف » أربعة أجزاء ، و« مآخذ النظر » ، و« مختصر فى الفرائض » ، و« الإرشاد المعرب فى نصرة المذهب » .

---

(١) الجامع المختصر ٩/١٠٣ – وأصل البيت الشهرزورى من شهرزور بلدة قرب إربل ، ورد رب هذه الأسرة الموصل فاستوطنها .

(٢) إرشاد ٥/٢٠٦ .

(٣) حفوات الوفيات ٢/٤٠ .

(٤) وفيات الأعيان ٣/٣٨٥ – ٣٨٧ .

وابن خميس الكعبي الموصلي أبو عبد الله بن الحسين بن نصر الشافعي (المتوفى سنة ٥٥٢هـ) . أخذ الفقه عن أبي حامد الغزالي ببغداد وعن غيره ، وولى القضاء ثم عاد إلى الموصل وسكنها وصنف كتبه ومنها « مناقب الأبرار » على أسلوب رسالة القشيري في التصوف ، ومناسك الحج ، وأخبار المقامات [١] .

والشاتاني علم الدين (المتوفى سنة ٥٧٩ هـ) وكان فقيها غلب عليه الشعر وأجاد فيه واشتهر به ونزل بالموصل واستوطنها وتردد منها إلى بغداد وكان الوزير ابن هبيرة كثير الإقبال عليه والإكرام له . وذكره العماد الأصبهاني في الخريدة ، وأورد له أشعاراً . ومدح صلاح الدين بقصيدة أولها :

أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا   فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى

ومنهـــا :

يمينك فيها اليمن واليسر في اليسرى   فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى [٢]

وابن المستوفى (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ) عاش متنقلا بينها وبين إربل . وكان عالمًا بفنون الأدب واللغة والشعر والأخبار والتاريخ . ألّف «تاريخ إربل» في أربعة مجلدات وله كتاب « النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام » في عشرة مجلدات وكتاب « إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل» في مجلدين ومصنفات أخرى [٣] .

وعضد الدين بن أسعد الموصلي ، كان علامة زمانه في علمه ونسج وحده في نظمه ، كما يقول أبو شامة « درّس بالموصل واشتريت كتبه بأغلى الأثمان وتوفي سنة ٥٨١ هـ [٤] » .

وقد ورثت الموصل العلم من قدم ، وتعددت بها الثقافات ، ففي الآرامية نبغ بها جماعة من العلماء وكانت تدرس بمدارسها الآرامية والعبرانية [٥] .

---

(١) وفيات الأعيان ١/٤٠٤ .
(٢) المصدر نفسه ١/٣٨٦ .
(٣) المصدر نفسه ٣/٢٩٤ .
(٤) كتاب الروضتين ٢/٦٧ .
(٥) تاريخ الموصل ٤٤/١١١ .

وقد اختلطت الآرامية باليونانية فى شعر بعض شعرائها القدامى . واشتهر فى التأليف بها جماعة كما نظم بها الشعر آخرون فى مدح السيدة العذراء وكان شعرهم الآرامى يجرى على أساليب الشعر العربى فى التوشيح وأشكال البديع اللفظى [١] . وقد كثر إقبال الناس بها على العلم وشراء الكتب . فقد جاء عن أبى الدر ياقوت الموصلى أنه كان ينسخ الجوهرى ويبيع النسخة منه بمائة دينار [٢] .

إربل وسنجار :

ويتصل بالموصل فى هذا العصر مدينتان أخريان هما إربل وسنجار . وكثيراً ما اتصل تاريخهما السياسى بالثقافى وتنقل بينهما العلماء والأدباء ؛ وتقع إربل فى السهل بين الزاب الأكبر والزاب الأصغر . وهى ملتقى التجار ، وكانت قصبة من قصبات العلم فى العراق . وبها مسجد (الكف) لوجود آثار كف على أحد أحجاره ، وبها مدارس درس بها العلماء الأفاضل . وكانت تابعة لأتابكية الموصل وناب بها الأمير أبو منصور قايماز بن عبد الله الزينبى عن أتابك سيف الدين غازى ، ثم حكمها بعده أبو سعيد كوكبورى الملقب بالملك المعظم (المتوفى ٦٣٠ هـ) وبنى بها أربع خانقاهات للزمنى والعميان، وقرر لهم مرتبات ، ودوراً للنساء الأرامل والأبناء الصغار والملاقيط . ورتب لهم جماعة من المراضع ، وبنى البيمارستانات ، وداراً للضيافة يدخل إليها كل قادم من فقيه أو فقير أو غيرهما [٣] . وبنى بها مدرسة رتب فيها فقهاء الشافعية والحنفية ، وكان يأتيها متردداً ويعمل السماط ويبيت بها ويعمل السماع ، وإذا طاب خلع شيئاً من الأنغام ، ولم يكن له لذة سوى السماع . وبنى بها للصوفية خانقاهين ، آوتا منهم خلقاً كثيراً ، وكان يجتمع بهما فى المواسم ومولد النبى خاصة من الخلق ما يعجب الإنسان من كثرتهم على قول ابن خلكان . وأوقف عليهما أوقافاً كثيرة تقوم بجميع ما يحتاج إليه ذلك الخلق [٤] ويقدر صاحب مرآة الزمان من كان يحضر المولد بمائة ألف [٥] . ودخلها التتار سنة ٦٣٤هـ .

---

(١) تاريخ الموصل ١١٢ .

(٢) تاريخ الموصل ص ٩٠ .

(٣) وفيات الأعيان ٣/٢٧٠ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) مرآة الزمان ٨/٦٨٢ .

ومن علمائها ابن الأرملة أبو الثناء محمود بن الحسن بن علي الضرير النحوي (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ)، وأخذ عن ابن الدهان بالموصل، وانتقل إلى إربل وظل بها إلى أن مات [١].

والبحراني موفق الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف (المتوفى سنة ٥٨٥ هـ) الشاعر وكان إماماً مقدماً في علم العربية، مصنفاً في أنواع الشعر، ومن أعلم الناس بالعروض والقوافي، وأحذقهم بنقد الشعر وأعرفهم بجيده من رديئه، وأدقهم نظراً في اختياره. واشتغل بشيء من علوم الأوائل، وحل كتاب إقليدس. ويقول عنه ابن خلكان: إنه من طبقة ابن التعاويذي وابن المعلم والأبله في الشعر [٢]. وكان يتردد بين بلده البحرين وبين إربل، ويتجر في اللؤلؤ، وهو شيخ ابن المستوفي صاحب «تاريخ إربل». وقد رحل إلى دمشق وشهرزور، ومدح صلاح الدين، ومدح صاحب إربل زين الدين علي كوجك بقصيدة مطلعها [٣]:

رُبَّ دارٍ بالحمى طَال بلَاها ... عكف الرَّكبُ عليها فبكاها

كَان لي فيها زمانٌ وانقضَى ... فسقَى اللهُ زماني وسقَاها

ومجد الدين محمد بن أحمد بن الظهير الإربلي الحنفي الأديب (ولد سنة ٦٠٢ هـ وتوفي سنة ٦٩٧هـ) وسمع ببغداد في كهولته من أبي بكر بن الخازن، وبدمشق عن السخاوي وجماعته، وروى عنه أبو شامة صاحب الروضتين والدمياطي واليونيني، وكان ذا رأي منتقى. من أعيان شيوخ الأدب وفحوله المتأخرين، وله ديوان شعر في مجلدين، وشعره على النمط القديم [٤].

وكتب ابن المستوفي لإربل تاريخاً مطولاً سبقت الإشارة إليه.

أما سنجار فهي موطن ولادة السلطان سنجر السلجوقي وآخر سلاطين السلاجقة العظام، واشتهرت في القرنين السادس والسابع — على حد قول القزويني — بحماماتها — وقد ملكها نور الدين سنة ٥٦٦ هـ وسلمها لابن أخيه عماد الدين بن قطب الدين

(١) الجامع المختصر ٩/٢١٣.
(٢) وفيات الأعيان ٤/١٠٢.
(٣) الجامع المختصر ٣/٧٧.
(٤) فوات الوفيات ٢/٣٥٧.

مودود [١] وملكها صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ ، واصطلح مع عماد الدين على أن يبقيه عليها سنة ٥٧٩ هـ ، وبعد وفاة عماد الدين سنة ٥٩٤ هـ ولي ابنه قطب الدين محمد ، وتولى تدبير دولته مملوك والده مجاهد الدين برتقش ، وكان ديناً خيراً إلا أنه كان شديد التعصب على مذهب الشافعي يكثر ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم ، ومن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنفية ووظف بها جماعة من فقهائهم [٢] ، ونزل عليها العادل سنة ٦٠٦ هـ بعساكر من الشام ومصر وديار بكر وحلب ومعه أولاده وأقام يضربها بالمجانيق ، ورجع عنها ولم يستطع دخولها [٣] ، وملك بعد عماد الدين أخوه عماد الدين شاهنشاه سنة ٦١٦هـ ، وهو آخر ملوكها من الأتابكة [٤]. وكان بها المدرسة العمادية نسبة إلى عماد الدين المذكور بظاهر البلد، وتردد عليها جماعة من علماء الموصل وإربل الذين ذكرناهم .

البصرة :

ومن حواضر العراق فى ذلك العصر البصرة ، لكنها كانت مخربة ، غير عامرة بالعلم والعلماء كما كان شأنها فى الدولتين الأموية وأوائل العباسية . قال ابن جبير وقد مر بها «وقد استولى الخراب على أكثرها ، فالغامر منها أكثر من العامر» [٥].

الكوفة :

والكوفة كذلك لم يكن لها شأن يذكر ، ويترجم ياقوت لأحد علمائها من النحويين واسمه عمر بن إبراهيم (توفى سنة ٥٧٩ هـ) [٦] ، من أئمة اللغة والنحو والحديث أخذ عنه ابن الشجرى ، درس ببغداد والكوفة ودمشق وحلب وعاد إلى بلده الكوفة وأقام بها إلى أن مات .

واشتهرت **حرّان** منذ صدر الخلافة العباسية بأنها مركز من مراكز الثقافة اليونانية ولذا سميت Hellenopolis هيلينوبوليس [٧].

---

(١) أتابكة الموصل ٢٧٧ الجامع والمختصر ٥٦٦/٣ .
(٢) أتابكة الموصل ٣٥٠ ، الجامع والمختصر ٩٣/٣ .
(٣) مرآة الزمان ٥٤١/٨ .
(٤) المختصر ١٢٢/٣ .
(٥) رحلة ابن جبير ٢١١ .
(٦) إرشاد ١٢/٦ .
(٧) Browne 476

الشام

دمشق :

ودمشق بلد عربى قديم ، يقع على مرتفع من الأرض ، وسط سهول فسيحة تمتد شمالا وشمالا بشرق حتى الفرات وجنوبًا حتى قلب الجزيرة العربية، وتحيط به الصحراء التى تبدو قاحلة قاسية لأول وهلة ، والتى قد لا تبدو مناسبة لازدهار المدنية ، وعلى الرغم من قربها للبحر إلا أنها لوجودها وسط الصحراء وقربها من بلاد العرب الصحراوية تعتبر قارية المناخ، ولكن موقعها هذا وإن كان من أسباب عدم مناسبة مناخها إلا أنه كان من أسباب شهرتها لتوسطها الطبيعى بين إقليم الشام والجزيرة بالعراق وجزيرة العرب والبحر ، والعرب يسمونها عروس الأرض وجنة الدنيا ، واشتهرت غوطتها فى أشعار العرب وأخبارها [1] . قال الشاعر :

وما جنةُ الخلد إلاَّ دمشقُ   وفى القلب شوقا إليها سعير [2]

ويجرى إليها نهر بردى ، وسمى كذلك لبرد مائه [3] ، وتحف به الرياض والبساتين العامرة بصنوف الفاكهة ، والزهور كالريحان والياسمين ، وهو نهر دمشق الخالد ، وينقسم عند اقترابه منها إلى شعب وقنوات ، ويخرج من المدينة مجتازاً الغوطة والينابيع تنبع على جنباته فترفده ، والأنهار تنفصل عنه فيرفدها حتى يمر بالغوطة كلها فيسقيها ، وتكون مدينة له بخصبها ، وجودة تربتها ، ثم ينصب فى بحيرة المرج أو بحيرة دمشق .

ولهج بوصف بردى الشعراء من قديم الزمان ، من حسان بن ثابت الجاهلية إلى شوقى فى العصر الحديث .

وجو دمشق يمتاز بربيع وخريف قصيرين يأخذ منهما الصيف الجاف الحار،

---

(١) خطط الشام ودمشق لمحمد كرد على طبع دمشق سنة ١٩٢٥ .

(٢) مرآة الزمان ٥٠٧/٨ . .

(٣) خطط دمشق لصلاح المنجد ص ٢٣ .

والشتاء القارس القصير قليل الأمطار ، ويلطف من جوها نوعاً ما ارتفاعها وقربها من البحر[١]. وقد أعجب بها ابن جبير عندما زارها فقال عنها: «جنة المشرق، ومطلع حسنه المونق المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى اجتليناها . قد تحلت بأزاهير الرياض ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين »[٢] .

وقال عنها العرقلة شاعرها فى عصر صلاح الدين :

دمشقُ حُيِّيتِ من حيٍّ ومن نَادى وحَبَّذَا سِحرُ واديك منْ وادِى
يا رائحًا غاديًا عرج على بَردى وخَلِّنى من حديث الرائح الغادى
كم قد شَربت به من ماء دالية فى ظِلِّ دانية تنبيكَ عن عادِ
فى جنب ساقيةٍ من كف ساقية كادت تَثَنّى بقدٍّ غير ميَّـادِ
لها بعينى إذا ماسَتْ معَاطِفُها جمالُ مياسةٍ فى عين مِقـدَادِ

وازدهرت دمشق فى عهد نور الدين وصلاح الدين وخلفائه، وكانت قد قاست كثيراً فى عهد الفاطميين والعباسيين[٣]، وكان عصر الأيوبيين بالنسبة إليها عصر إحياء ونهضة حقيقية ، سببها اتخاذهم لها قاعدة ثانية لملكهم العريض مع القاهرة ، كما كانت مركزاً حيًّا لعملياتهم الحربية ضد الصليبيين، وسبّب وجود السلطان بها أكثر أيامه مع بلاطه وأقاربه وجنده ومماليكه واتخاذهم مساكن بها حركة نشاط واتساع عمرانى ، وحياة فى مجتمعها ، فقد احتاج الجم الغفير من آلاف الجند إلى آلاف أخرى من العمال والصناع وتوافد إليها هؤلاء وهؤلاء من أقطار مصر والجزيرة ، فجاء معها الرخاء ، والرواج .

وحظيت دمشق كذلك إلى جانب مكانتها العسكرية والتجارية والعمرانية بمكانة ثقافية ممتازة . وقد بنى بها نور الدين وصلاح الدين وخلفاؤه كثيراً من المدارس والمساجد

---

(١) دمشق لجان سوفاجيه مترجم ص ٦ .
(٢) رحلة ابن جبير ٢٦٠ .
(٣) سوفاجيه ٣٢ .

والخوانق ودور الحديث والرباطات ، التى كانت تفد إليها العلماء والصوفية من أقطار العالم الإسلامى شرقاً وغرباً ، مما أدى إلى نشاط ثقافى ملحوظ ظهرت آثاره واضحة .

ويمكن أن نتصور شكل المدينة العام أو تخطيطها فى عصر صلاح الدين فى صورة أقرب إلى صورتها القديمة المربعة ، حسب تخطيطها الرومانى ، إلا أن أقطارها الأربعة لم تكن منتظمة . وتتقسمها أحياء مختلفة قد ذهب كل جماعة من سكانها بحى يسكنونه ، وكانت كل جماعة تنظم حياً يتكون حسب المذهب الدينى أو الحرفة ، فهناك مثلا أحياء للنصارى وأخرى لليهود إلى جانب أحياء المسلمين ، كما وجدت أحياء لأصحاب السلاح وغيرهم كالسروجية من أصحاب المهن ، وكل حى ينقسم إلى مجموعة من الشوارع الضيقة والحارات المغلقة التى تنتهى بباب خارجى [١] .

وكان طبيعياً أن يتجمع المسلمون فى القسم الغربى من المدينة حول المسجد الأموى . وفى هذا القسم نفسه بنى نور الدين المارستان ، وبنى بجواره عدداً من الربط والخوانق والمدارس [٢] ، واختلفت نماذج مبانيها بين الطرز القديمة اليونانية والرومانية والبيزنطية والطرز العربية الإسلامية . وقد تميزت الطرز الرومانية بأحجارها الرملية الحمراء اللامعة ، وبالأبواب الضخمة المصفحة بالحديد الثقيل ، والأسوار القوية السميكة المرتفعة ، وتميز الطرز العربى كالمساجد والمدارس بمبانيه الرشيقة ذات الأقواس والزخارف والنقوش .

وكان مجتمع المدينة مختلف الأجناس ، بين عرب مسلمين ومسيحيين ، وأتراك وأكراد مسلمين ، ونصارى ويهود ، كما جمع كذلك أجناساً أخرى من سبى الحروب من الفرنج وغيرهم . وقد تزايد سكانها فى هذه الفترة زيادة كبيرة ، واتسعت مبانيها فجاوزت سورها القديم ، ونشأت ضاحيتان جديدتان خارجه هما العقيبة ، وتتبعها سويقة صارجا ، ثم الشاغور ، وقد بنى فى كل منها مسجد جامع [٣] . وساهم الحكام فى عصر نور الدين والأيوبيين فى تطوير المدينة

---

(١) Lanepoole: Saladin : 184

(٢) جان سوفاجيه ٣٦ .

(٣) دمشق فى العصر الأيوبى ص ٥٤ .

العمرانى بكثرة ما بنوا من قصور ومدارس وربط ومساجد ومارستانات(١) ، وحمامات ، وقد دهش ابن جبير لكثرة عمرانها وازدياد سكانها فقال : « إنها تحتوى من الخلق على ماتحتوى ثلاث مدن ، لأنها أكثر بلاد الدنيا خلقاً »(٢) ، وكان فيهم كل لون من علماء وافدين ، وطلاب علم ، وشعراء ينشدون الجائزة ، وتجار يروحون ويغدون بتجارتهم ، وعساكر من أجناس مختلفة ، ومماليك وموالى يتبعون أسيادهم فى مواكبهم .

وقد عمّ المدينة الرخاء والرفاهية ، وأكسبها الترف بعض الصفات التى طبع عليها سكانها من لين الجانب والدماثة وحسن آداب السلوك ، مما لم يكن معهوداً فى غيرها من مدن الإسلام ، مما جعل رحالة عابراً بها كابن جبير يعجب من تلك الطبائع والأخلاق (٣) ، وقد تأثر بعض سكان المدينة بعادات يهودها فى يوم السبوت كل أسبوع ، مما دعا شاعراً مصرياً كابن مطروح يؤاخذهم عليها لأنهم يتشبهون فى يوم السبت باليهود فيتخذونه يوم لهو ومرح (٤) . وكانت أماكن لهوهم ومرحهم خارج المدينة فى الغوطة وعلى شواطئ بردى حيث الحانات والخانات ودور اللهو وأماكن النزهة التى تقصد للمتعة والغناء وشرب الخمر ..

وقد انتشر اللهو وشرب الخمر بين سكان المدينة ، وغشى الدور الخاصة بها خارج المدينة كثير من أهلها مما دعا الملك الأفضل ابن صلاح الدين وصاحب دمشق إلى إنذارهم وعقابهم وتكسير تلك الدور وتخريبها . قال ابن رجب : « وإنهم جعلوا الملاهى فى دولة الأفضل ابن صلاح الدين على دراج حبرون فجاء الحافظ عبد الغنى المقدسى يوماً فكسر شيئاً عظيماً منها » (٥) . وقد أصدر الأفضل أمراً سلطانياً يحرم فيه الخمر ، ويأمر بالتنبيه الشديد على التمسك بشعائر الدين .

ومما بنى من المدارس فى عصر نور الدين وصلاح الدين المدرسة العادلية الكبرى نسبة للعادل نور الدين ، وقد أتمها ووسعها الملك المعظم عيسى ، وكانت

---

(١) دمشق فى العصر الأيوبى ص ٥٠ .

(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٣ .

(٣) ابن جبير فى « الرحلة » عند حديثه عن أهلها ودماثة أخلاقهم ص ٢٨٤ .

(٤) راجع ما نقله صاحب كتاب دمشق فى العصر الأيوبى ص ٣٦ – ٣٧ وراجع ابن مطروح فى الباب الأخير .

(٥) دمشق فى العصر الأيوبى ١٢٥ .

من أعظم مدارس الشافعية بها ، والمدرسة الشامية البرانية بنتها ست الملك بنت أيوب أخت صلاح الدين ، والمدرسة البدرية بناها أحد أمراء نور الدين واسمه بدر الدين وقد درّس بها وسكن سبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) وكانت من مدارس الحنفية [١] ، والمدرسة العمادية التي درس بها العماد الأصبهاني وسميت باسمه ، والعادلية الثانية التي بناها العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين قال أبو شامة: «وقد بناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس ، وهي المأوى وبها المثوى ، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب»[٢]. يعني الروضتين . وقد درّس بها قطب الدين النيسابوري إلى أن مات ، وعدد ابن جبير مدارسها عند زيارته لها بنحو عشرين مدرسة [٣] . قال : «ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين وهي قصر من القصور الأنيقة » . ويذكر النعيمي في كتاب الدارس في المدارس منها ١٥٧ مدرسة ، ويذكر سوفاجيه أن مدارسها قد أصبحت في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي مائة مدرسة [٤] .

ولم يكن الدرس — كما هو الحال في جميع البلاد الإسلامية حينئذ — مقصوراً على المدارس بل كان لجوامع دمشق الكبيرة نصيبها من العلم والعلماء . وقد ساهمت في نشر الثقافة ، فكان المسجد الأموي ، كما كان غيره من مساجدها يغص بالطلبة والعلماء ينتظمون حلقات في أنحائها كخلايا النحل ، يصفهم ابن جبير قائلا : «كان بجامع دمشق زوايا في جانب الجامع يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس ، وهي من جملة مرافق الطلبة » [٥] ، وكان أولئك الطلاب ينقلون العلم بالمجان دون أن يكلفوا أنفسهم مالاً ، يتنقلون من مدرسة إلى أخرى بحرية واسعة ، ويجلسون إلى من يحبون من العلماء دون تقيد ؛ بل كان فقراؤهم يتناولون من الدولة رواتب متفاوتة تكفل لهم العيش ، وكانت توفر لهم سبل الإقامة في الخوانق أو المساجد أو الربط والدور الملحقة بالمدارس للمغتربين .

---

(١) دمشق في العصر الأيوبي ص ٦٢ .
(٢) الروضتين ٢/٢١٤ .
(٣) رحلة ابن جبير ٢٨٤ .
(٤) سوفاجيه ص ٣٧ .
(٥) رحلة ابن جبير ٢٦٦ .

وحرض حكام دمشق على تشجيع العلماء وتقريبهم ، بل السماع منهم ، فكان صلاح الدين كثيراً ما يجلس لسماع ابن عصرون فى المسجد الأموى وسار خلفاؤه سيرته وأصبح لدمشق بفضلهم مركز ممتاز ، وجاءها الناس من المشرق؛ من بلاد ما وراء النهر، وفارس من سمرقند ومن بخارى ، ونيسابور وأصبهان ، ومن المغرب من قرطبة وبلاد الأندلس . وجاءوها كذلك من الإسكندرية والقاهرة يحملون معهم ثقافتهم المتعددة المتنوعة يصبونها فى مدارس دمشق ويعلمونها لطلابها .

وممن اشتهر من علماء دمشق فى هذا العصر محمد بن عبد الواحد السعدى الحنبلى (٥٦٩ هـ – ٦٤٣ هـ) يذكر ابن شاكر أنه صاحب التصانيف ، وأنه خرج من دمشق وطاف بكثير من بلاد المسلمين فى بغداد حيث استمع إلى ابن الجوزى وفى همذان وغيرها ثم رجع إلى دمشق ، وخرج مرة أخرى لجمع العلم حتى حصل منه الشيء الكثير ثم عاد وبنى مدرسة بدمشق أعانه على بنائها أهلها وجعلها دار حديث [١] .

وابن عصرون استدعاه إلى دمشق نور الدين، وبقى بها إلى عصر صلاح الدين ، وكان يدرس بالمسجد الأموى .

وابن قدامة موفق الدين عبد الله بن أحمد (المتوفى سنة ٦٢٠ هـ) [٢] صاحب « المغنى » المشهور فى فقه الحنابلة .

وأبو عبد الله محمد بن على بن صدقة ، وقد علم الأفضل ابن صلاح الدين وأجازله ، وابن شداد ، صاحب سيرة صلاح الدين وكاتم أسراره .

وابن زكى الدين الدمشقى (المتوفى سنة ٥٩٨ هـ) ، وكان ذا فضائل عديدة ، فى الفقه والأدب وغيرهما ، وله النظم المليح والخطب والرسائل ، وتولى قضاء دمشق سنة ٥٨٨ هـ ، وله قصيدة جيدة فى مدح صلاح الدين عند فتحه حلب سنة ٥٧٩هـ وفيها يعارض بائية أبى تمام ، كذلك له خطبة مشهورة فى فتح بيت المقدس ألقاها فى المسجد الأقصى بين يدى صلاح الدين [٣] .

وابن الجوزى عبد الرحمن المذكور فى علماء بغداد وصاحب المنتظم .

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/٤٧١ – ٤٧٢ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٠٠ .

(٣) يرويها ابن خلكان فى وفياته ٣/٣٦٥ .

والبندهى أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن المسعودى الخراسانى الشافعى (المتوفى سنة ٥٨٤ هـ) [١] وكان أديباً فاضلا ، أقام بدمشق فى الخانقاه السمباطية ، وأخذ الناس عنه ، وتعلم على يديه الملك الأفضل ابن صلاح الدين ، وحصل بطريقه كتباً كثيرة نفيسة غريبة استعان بها على شرح مقامات الحريرى شرحاً طويلا . وقد صحب صلاح الدين سنة ٥٧٩ إلى حلب ، ونزل بجامعها وقعد فى خزانة كتب الوقف ، واختار منها جملة أخذها لم يمنعه منها مانع ، وعاد إلى دمشق ومكث بها إلى أن مات ، ووقف كتبه على الخانقاه التى عاش بها .

وابن القلانسى (المتوفى سنة ٥٥٥ هـ) وكان من أعيانها وأفاضلها المبرزين . تولى رياسة ديوانها مرتين ، وبها توفى ، وله تاريخ مشهور ابتدأ به من سنة ٤٤١ هـ إلى حين وفاته ، وأرخ لأهم الحوادث التى وقعت فى تلك الحقبة [٢] .

وابن عساكر الحافظ أبو القاسم على بن أبى الحسن بن هبة الله بن عبد الله ابن الحسين الدمشقى (المتوفى سنة ٥٧١ هـ)[٣]. كان محدث الشام فى وقته ، ومن أعيان فقهاء الشافعية ، غلب عليه الحديث فاشتهر به ، وبالغ فى طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره ، وصنف التصانيف المفيدة ، وخرّج التخاريج ، وكان حسن الكلام على الأحاديث ، محظوظاً فى الجمع والتأليف ، صنف «التاريخ الكبير لدمشق» فى (٨٠) ثمانين مجلداً أتى فيه بالعجائب ، وجعله على نسق تاريخ بغداد للخطيب . وذكر ياقوت أنه فى خمسمائة وسبعين جزءاً . وتوفى بدمشق وحضر جنازته صلاح الدين [٤] .

والشهرزورى كمال الدين القاضى (المتوفى سنة ٥٧٢ هـ) ، وكان عالماً جليلا مقدراً من الملوك ، استدعاه نور الدين إلى دمشق ليدرس بمدرسته ، وظل بها يدرس إلى أن مات فى زمن صلاح الدين .

والكندى أبو اليمن تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد (ولد سنة ٥٢٠ هـ وتوفى

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٣ — ٢٥ .

(٢) إرشاد ٤/١٤٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٢/٤٧١ وترجم له ياقوت ترجمة مطولة فى معجم الأدباء ٥/١٤٠ .

(٤) الروضتين ١/٢٦١ .

سنة ٦١٣ هـ)[١] البغدادى المولد والمنشأ ، الدمشقى الدار والوفاة ، المقرئ ، النحوى الأديب . كان أوحد عصره فى فنون الآداب وعلو السماع ، ويقول ابن خلكان : إن شهرته تغنى عن الإطناب فى وصفه . أخذ عن جملة من شيوخ العلم ، ومنهم أبو السعادات ابن الشجرى ، وأبو محمد الخشاب ، وأبو منصور الجواليقى ، ورحل عن بغداد إلى دمشق فى شبابه سنة ٥٦٣ هـ ، وصحب ابن أخى صلاح الدين الأمير فروخ شاه ، واختص به وتقدم عنده ، وسافر فى صحبته إلى الديار المصرية ، واقتنى من كتب خزائنها كل نفيس ، وعاد إلى دمشق فاستوطنها ، وقصده الناس وأخذوا عنه . قال صاحب المرآة : وانتهت إليه القراءات والروايات وعلم النحو واللغات . وكان حسن العقيدة ، طيب الخلق ، طريفاً لا يسأم الإنسان من مجالسته ، وله النوادر العجيبة .

وقرأ عليه الملك المعظم عيسى بن العادل كتاب سيبويه متناً وشرحاً لابن درستويه ، والإيضاح لأبى على الفارسى ، وكان يمشى من المسجد فى دمشق إلى القلعة راجلا والكتاب تحت إبطه . وله كتاب مشيخة على حروف المعجم .

والبكرى المشار إليه من قبل جاءها وأقام بها زمناً .

حلب :

المركز الثانى من مراكز الثقافة العربية الإسلامية فى الدولة الصلاحية . وهى مدينة قديمة . واسمها آرامى قديم معناه اللبن أو البياض ، سميت به إما لبياض تربتها وإما لغزارة لبنها ، وقد ذكرت على معابد المصريين القدماء ، إذ كانت قاعدة مملكة صغيرة للحيثيين ، وكان للمصريين بقيادة رمسيس الثانى حروب فيها [٢] .

وقد نشأت المدينة كأى مدينة زراعية وسط سهل ممتد ، وقامت مدنيتها على الزراعة منذ القدم ، وملكها اليونان ، ونزل فيها جماعة منهم ، وصبغوها بصبغتهم حضارياً وثقافياً . ثم ملكها الرومان عندما ورثوا ملك اليونان ثم العرب من بعد .

وسهلها منبسط يجرى إليها نهير صغير هو نهر قويق [٣] ، يخرج من نبعين

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٨٧ ومرآة الزمان ٨/٥٧٥ — ٥٧٧ وإرشاد الأريب ٤/٢٢٢ .

(٢) راجع درر الحبب فى تاريخ حلب ٢٨ — ٢٩ .

(٣) جف هذا النهير الآن وسطها لتحويل مجراه شمالها ، ولم يبق فيها سوى مجراه .

منبثقين من الأرض ، وينحدر النهير إلى حلب بين جبلين حتّى السهل الذى تقع فيه فيلتقى بآخر ويصبحان نهراً واحداً فى بلدة أعزاز . وتمد قويق عيون أخرى قبيل وصوله إليها ، وتدور به الأرجاء ثم تمده عيون أخرى بعد أن يجاوز حلب . والنهير يجرى فى الشتاء والربيع وينقطع صيفاً .

وارتبط قويق بحياة المدينة وأهلها ، وكان يسميه أصحاب الخلاعة منهم « أبا الحسن » [١] . وتحيط بالنهير الجنات والبساتين ، وكان مسرحاً للناس ، ومراحاً فى أوقات لهوهم وسرورهم ، واتخذه الشعراء موضوعاً خصباً لأشعارهم ، وقد أبدع الصنوبرى فى وصف قويق فقال يصفه وقت الشتاء والصيف [٢] :

قويقُ إذا شمَّ ريحَ الشِّتاءِ ... أَظهرَ تيهًا وكِبرًا عجيبًا
وناسَب دجـلةَ والفُر ... اتَ بهاءً وحُسنًا وطيبـًا
وإن أَقبل الصيفُ أَبْصَرتَه ... ذليلًا حقيرًا حزينًا كئِيبا
إذا ما الضفادع نادت بـا ... قويقُ قويقُ أَبى أَن يجيبا

وقال فيه أيضا :

أَقامتْ به الحيتانُ سُوقًا ولم تزَلْ ... تُقَامُ على شَطَّيْهِ للطير أَسواقُ
وسُرْبلَ بالأَرْحاءِ مثنى وواحدًا ... كما سَربَلتْ غُصْنًا من البان أَوراقُ
وفاضتْ عيونٌ من نواحِيهِ ذُرَّفٌ ... ولما تعاونَها جفونٌ وآمـاقُ
إذا عَبثتْ أَيدى النسيم بوجهِهِ ... وقد لاح وجهٌ منه أَبيض براقُ
فطورًا عليه منه درقٌ حقيقةٌ ... وطورًا عليه جوشنٌ منه رقراقُ
وكم بعده لِينوفرٌ مُتَشَوِّفٌ ... بـأَروسِ تبرٍ والزبرجَدُ أَعنـاقُ

وذاعت شهرة حلب فى العصر العربى الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى عند

---

(١) درر الحبب ١٣٤ — ١٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ١٣٩ .

تولى الأمير سيف الدولة الحمدانى عليها ، وجمع فيها من الشعراء والعلماء والأدباء كل كبير مرموق ، فطيروا ذكرها فى الآفاق . كان بها المتنبى والسرى الرفاء وأبو الفرج الأصبهانى ، ثم خمد ذكرها بعض الوقت إلى أن كان القرن السادس فاستعادت مكانتها الأولى فى عصر نور الدين الذى اتخذها مركزاً لدولته بالشام ثم فى عهد صلاح الدين وابنه الظاهر الذى تولاها إلى أن مات وورثها بعده أبناؤه .

مر بها ابن جبير فقال عنها : « بلدة قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمان يطير ، خُطَّابُها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، وأما البلد فموضوعه ضخم جداً ، حفيل التركيب بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من سماط صنعة إلى صنعة إلى أن تفرغ من جميع صناعات المدنية ، وكلها سقف بالخشب » [١] .

ووصفها ابن شداد فقال : « وعلى كل حال فإنها أعظم البلاد جمالا وأفخرها زينة وجلالا ، مشهورة الفخار ، عالية البناء والمنار ، ظلها ضاف وماؤها صاف ، وسعدها واف ، ووردها لعليل النفوس شاف ، وأنوارها مشرقة وأزهارها مونقة ، وأشجارها مورقة ، نشرها أضوع من نشر العبير ، وبهجتها أبهج منظراً من الروض فى الزمن النضير » .

ووصف المهلبى أهلها فقال : « وأما أهلها فهم أحسن الناس وجوهاً وأجساماً والأغلب على ألوانهم الدريّة والحمرة والسمرة ، وعيونهم سودٌ وشهلٌ ، وهم أحسن الناس أخلاقاً وأتمهم قامة » [٢] .

وكان أهلها فى عصر صلاح الدين يلبسون العمامة المشقوقة [٣] . وقد عمرت حلب زمن نور الدين لعدله وحسن سيرته حتى ارتفعت الأسعار مع كثرة الغلات لكثرة العالم [٤] . ويغلب على السكان التشيع ، ويقول ابن القلانسى إن أذانهم المشهور كان « حى على خير العمل » إلى أن ملكها نور الدين فأبطل الأذان وضيق

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٥٠ .
(٢) درر الحبب ١٤٩ .
(٣) وفيات الأعيان ٦/٢٣٠ .
(٤) أعلام النبلاء ٢/٧٠ .

على الشيعة الإسماعيلية [١] . وبعد وفاة نور الدين وتولى ابنه الملك الصالح طلبوا إليه العودة إلى شعائرهم [٢] ، وفى سنة ٥٧٥ هـ أحرق الشيعة الإسماعيلية أسواقها وافتقر أهلها بذلك ، وكانت إحدى الجوانح التى أصابت حلب وأهلها [٣] . وكانت كلما بنيت مدرسة لأهل السنة خربوها .

وبعد الملك الصالح وكل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر غازى عليها إلى أن توفى سنة ٦١٣ هـ فولى ابنه وورثته من بعده ، وازدهرت حلب فى عهد الظاهر وصارت دولته بها معمورة بالعلماء والعقلاء لأنه كان محسناً إلى الرعية ، وكان من جملة شيوخ دولته القاضى بهاء الدين بن شداد والشريف الافتخار وبنو العجمى والقيسرانى [٤] .

وبنى نور الدين بحلب خانقاهين ، وصار بها بعد ذلك اثنى عشر خانقاهاً للرجال غير ما كان منها للنساء [٥] . وكان بها عدد كبير من المدارس لمذاهب أهل السنة المختلفة عدّد منها ابن الشحنة ثلاثاً وعشرين مدرسة للشافعية داخل المدينة وخارجها ، منها المدرسة النورية ، والمدرسة النصرية ، والمدرسة الصاحبية ، والمدرسة الظاهرية ، والمدرسة الأسدية (نسبة لأسد الدين شيركوه) .. وغيرها .

ومن مدارس الحنفية المدرسة الحلاوية ، قال ابن شداد : وهى من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامكية ، والمدرسة الشاذنخية والأتابكية والحدادية . . وغيرها ، وعددها ثلاث عشرة مدرسة بداخل المدينة ، وبخارجها تسع مدارس ، ومن مدارس المالكية مدرسة وزاوية وست دور للحديث داخل المدينة ، وظاهرها زاوية للحديث .

وكان مما شجع على زيادة عدد مدارسها القاضى ابن شداد فى عهد الظاهر غازى . قال ابن خلكان ، وكان قد جاءها وتعلم بها ودرّس : «وكانت حلب فى ذلك الزمان قليلة المدارس ، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير ، فاعتنى

---

(١) ابن القلانسى ٣٠١ .
(٢) الروضتين ١/٢٣٨ .
(٣) المصدر نفسه ٢/١٦ .
(٤) مرآة الزمان ٨/٥٧٩ .
(٥) درر الحبب ١٠٦ – ١٠٨ .

أبو المحاسن ابن شداد بترتيب أمورها ، وجمع الفقهاء بها وعمرت فى أيامه المدارس الكثيرة »[١] . قال : « ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع » . ورآها كذلك عند دخوله إليها فى مستهل سنة ٦٢٦ هـ قال : « ولما وصلت إليها لأجل الاشتغال بالعلم الشريف وكان وصولى إليها فى مستهل ذى القعدة ، وهى إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلم والعلماء والمشتغلين »[٢] .

وأول مدرسة بنيت بها سنة ٥١٠ هـ ، وعلى حائطها مكتوب سنة ٥١٧ هـ ، واسمها المدرسة الزجاجية ، أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب [٣] .

والمدرسة الحلاوية ، وقد كانت كنيسة ثم جعلت مسجداً ، فلما ملك نور الدين حولها إلى مدرسة وجدد بها مساكن يأوى إليها الفقهاء ، وكان بدأ عمارتها سنة ٥٤٣ هـ ، وأوقفَ عليها مال كثير ينفَقُ على الفقهاء فى طعامهم ولباسهم فى المواسم والأعياد [٤] . ثم بنى نور الدين الشعيبية سنة ٥٤٥ هـ .

والمدرسة العصرونية ، وكانت داراً لأحد الوزراء وحولها نور الدين إلى مدرسة سنة ٥٥٠ هـ ، وتولى التدريس بها ابن عصرون الشافعى إلى سنة ٥٧٠ هـ وهو أول من درس بها فعرفت به . وقد بنى بها نور الدين مساكن للمرتبين بها من الفقهاء [٥] .

والمدرسة النورية أنشأها نور الدين سنة ٥٤٤ هـ وتولى التدريس بها القطب النيسابورى ، والمدرسة الظاهرية أسسها الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، ثم أكملت من بعده ودرس بها القاضى بهاء الدين بن شداد وكانت وقفاً على الشافعية والحنفية [٦] . وكان يحضر بها الظاهر دروس ابن شداد ، ودرس بها ابن العجمى

---

(١) وفيات الأعيان ٦/٨٧ .
(٢) ابن خلكان ، وفيات ٦/٤٦ .
(٣) درر الحبب ١٠٠ .
(٤) أعلام النبلاء ٢/٧١ .
(٥) أعلام النبلاء ٢/٥٧ ودرر الحبب ١١١ .
(٦) أعلام النبلاء ٢/٢٢٢ .

وكان بها مساكن للفقهاء ، ولها بساتين يتنزهون فيها ، وكان عدد فقهائها خمسة عشر فقيهاً ، ولها مدرس فى الفقه ، ومدرس فى النحو والقراءات ، ومن جملة وقفها بستان إلى جانبها (١) .

وعلى كثرة مدارس حلب ، فإن الثقافة لم تكن مقصورة على مدارسها بل كانت تعقد حلقات الدرس بالمساجد ، ومسجدها الجامع ، وكانت به سارية خضراء يجتمع فيها المشتغلون بالأدب ويقرءون عندها (٢) .

وكان بحلب خزانة كتب كبيرة وقف .

وعلماؤها فى هذا العصر كانوا فريقين فريقاً من العرب والآخر من الأكراد ، وكان بعضهم من أصحاب السنة وعلى رأسهم ابن عصرون ، والبعض الآخر ممن نظر فى الخلاف وعلى رأسهم العلامة القطب النيسابورى (٣) .

ومن فقهاء الحنفية الكاسانى أبو بكر بن مسعود بن أحمد الملقب بملك العلماء صاحب كتاب « البدائع » فى فقه الحنفية ، وهو كتاب جليل عمدة فى المذهب . وكانت زوجه فقيهة عالمة كذلك ، جاء إلى حلب أيام نور الدين وتولى التدريس بالمدرسة الحلاوية وتوفى سنة ٥٨٧ هـ (٤) .

وجاءها ابن خروف النحوى الإشبيلى الأندلسى (المتوفى سنة ٦٠٩ هـ) . حل بها وكان إماماً فى العربية مدققا ماهراً عارفاً مشاركاً فى علم الأصول ، صنف شرحاً لكتاب سيبويه جليل الفائدة ، وحمله إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار ، وشرح المجمل وألف كتاباً فى الفرائض (٥) .

وجاءها ياقوت الرومى صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان أكثر من مرة وتوفى بها سنة ٦٢٦ هـ (٦) .

والواسطى أبو محمد القاسم بن القاسم بن عمر (ولد سنة ٥٥٠ وتوفى بحلب سنة ٦٢٦ هـ) وكان أديباً نحوياً لغويا فاضلا ، قرأ النحو بواسط على الشيخ مصدق

---

(١) أعلام النبلاء ٤/٣٥٦ .
(٢) المصدر نفسه ٤/٨١ .
(٣) المصدر نفسه ٢/٦٨ .
(٤) المصدر نفسه ٤/٣٠٦ .
(٥) فوات الوفيات وأعلام النبلاء ٤/٣٢٨ .
(٦) أعلام النبلاء ٤/٣٧٢ .

ابن شبيب ، وسمع كثيراً من الشيوخ فى النحو واللغة والقراءات وصنف « شرح اللمع لابن جنى » و « شرح التصريف الملوكى » وكتاب « فعلت وأفعلت » على حروف المعجم ، وشرح مقامات الحريرى . وله شعر . ودارت بينه وبين النابلسى الشاعر مهاجاة ، وله موشحات على طريقة المغاربة .

والشواء أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل الكوفى الأصل الحلبى المولد والمنشأ والوفاة (توفى سنة ٦٥٣ هـ) . وكان أديباً فاضلا متقناً لعلم العروض والقوافى ، شاعراً يقع له فى النظم معان بديعة فى البيتين والثلاثة ، وله ديوان شعر كبير يدخل فى أربعة مجلدات[١] .

وابن الصائغ أبو البقاء يعيش بن على بن يعيش (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) حلبى المولد والإقامة سمع على جماعة من العلماء فى حلب ودمشق والموصل ومن بينهم التاج الكندى ، وكان فاضلا ماهراً فى النحو والتصريف ، وكان شيخ الجماعة فى الأدب بحلب سنة ٦٣٦ هـ ، ولم يكن فيها مثله ، وكان يقرئ بجامع حلب بعد العصر ، وبين الصلاتين بالمدرسة الزجاجية ، وكان حسن التفهيم لطيف الكلام ، طويل الروح على المبتدى والمنتهى ، خفيف الروح ظريف الشمائل ، كثير المجون ، مع سكينة ووقار . وشرح كتاب المفصل للزمخشرى شرحاً مستوفياً وليس فى جملة الشروح مثله ، وشرح تصريف الملوكى لابن جنى شرحاً جيداً ، وانتفع به خلق كثير من أهل حلب وغيرها حتى إن الرؤساء الذين كانوا بحلب ذلك الزمان كانوا تلامذته[٢] .

وابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد (٥٨٦ — ٦٦٦ هـ) حسنة حلب ونابغتها فى الأدب ، والخط ، والفقه ، والتاريخ ، صاحب تاريخ حلب المشهور ، أخذ على التاج الكندى بدمشق ، وكان محدثاً فاضلا حافظاً ، مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتناً ، منشئاً بليغاً ، كاتباً محموداً ، درّس وأفتى ، وصنف وترسل عن الملوك ، وكان رأساً فى الخط لا سيما النسخ والحواشى ، وله كتب كثيرة أشهرها « تاريخ

---

(١) وفيات الأعيان ٦/٢٣٠ .

(٢) ابن خلكان ٦/٤٥ — ٥١ .

حلب » فى أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ، ومن كان بها من العلماء . وكتاب «الدرارى فى ذكر الذرارى» صنفه للملك الظاهر غازى، « والأخبار المستفادة فى ذكر بنى جرادة » . وتوفى بمصر ودفن بسفح المقطم [١] .

والقفطى جمال الدين على بن يوسف كتب للظاهر غازى . وصاحب التصانيف فى التراجم [٢] .

والجيانى الطائى جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك (٦٠٠ — ٦٧٢ هـ) ؛ النحوى الشافعى سمع بدمشق وتصدر بحلب لإقراء العربية ، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه النهاية ، وأربى على المتقدمين ، وكان إماما فى القراءات وعللها ، صنف فيها قصيدة دالية فى قدر الشاطبية ، وأما اللغة فكان إليه فيها المنتهى ، وكان إماماً فى العادلية ، فكان إذا صلى فيها يشيعه قاضى القضاة ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له ، وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يشق لجحه ، وأما اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد بها فى النحو فكان أمراً عجيباً . وكان أكثر ما يستشهد بالقرآن ، فإن كان ما فيه شاهد وإلا عدل إلى الحديث ، فإن لم يكن شىء عدل إلى أشعار العرب وكان نظم الشعر عليه سهلا . وصنف كتباً منها : « تسهيل الفوائد » و « سبك المنظوم وفك المختوم » وكتاب ، « الشافية » ثلاثة آلاف بيت وشرحها ، و« الخلاصة » و « مختصر الشافية » و « إكمال الأعلام » و« فعل وأفعل » وغيرها [٣] .

وابن خلكان نشأ بالموصل وإربل وتعلم واشتغل بها زمناً ثم قدم حلب وأخذ فيها على ابن شداد وابن يعيش وغيرهما ، وغادر حلب إلى مصر سنة ٦٣٥ هـ .

وابن الصلاح أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) تولى التدريس بالموصل والقدس ثم دمشق وحلب ، وكان عظيم القدر فى العلم .

---

(١) إرشاد الأريب ٦/ ٣٥ وفوات الوفيات ٢/ ٢٠١ وأعلام النبلاء ٤/ ٤٨٠ .

(٢) سبقت الإشارة إليه .

(٣) فوات الوفيات ٢/٤٥٢ — ٤٥٣ .

مصر

القاهرة :

القاهرة المعزية أحدث المراكز الثقافية التى تحدثنا عنها فى الإقليم المتوسط فى العراق والشام ومصر ، وقد بناها المعز لدين الله الفاطمى ، واتخذها قاعدة لملكه العلوى الذى ضم جزءاً من شمال أفريقيا والشام ، وبسط نفوذه فى الحجاز وبعض أجزاء الجزيرة العربية الأخرى . وقد جمع المعز لعاصمته كل ما يمكن أن يجمع لعاصمة كبيرة من مظاهر العظمة والمجد ، بنى بها القصور الفخمة التى تضارع أعظم القصور العباسية فى بغداد ، وبنى فيها الجامعة الإسلامية الخالدة « الأزهر » لتجذب المثقفين من أطراف العالم الإسلامى ، وبنى المرافق العديدة وسار على هذه السنن خلفاؤه ، فكثرت بها القصور والمساجد والحمامات والسبل والمستشفيات واجتذبت كثيراً من العلماء ، وحوت مكتباتها نفائس الكتب حتى ضرب بمكتبة القصر الأمثال ، وتحدث بفرائد ما جمعت الركبان .

ولا عجب فى حرص خلفاء الفاطميين على أن يجعلوا لمصر والقاهرة هذه المكانة فى العالم الإسلامى ؛ لأنهم كانوا يطمعون من وراء ذلك إلى أن يجذبوا أنظار المسلمين إليهم فى وقت كانت الخلافة العباسية السنية فى بغداد تضعف شيئاً فشيئاً تحت ضغط العناصر التركية والفارسية . وقد نجح الفاطميون فى أن يكسبوا مصر والقاهرة صبغة تضارع العراق وبغداد ، فأصبحت القاهرة تنافس بغداد فى الغنى والرفاهية ، وأصبحت أخلاق الناس وبحبوحة عيشهم وتفننهم فى النعيم مضرب الأمثال ، بل إن الأدب والفن والعلم قد ازدهر ازدهاراً ملحوظاً ، مما آذن بتحول القيادة الثقافية والفنية فى القرون التالية إلى القاهرة .

وقد جاءت الدولة الأيوبية فى أعقاب الدولة الفاطمية ، وكان الأيوبيون يعرفون أهمية مصر فى العالم الإسلامى ويقدرون ما يمكن أن تقوم به من أدوار فى مناوأة الصليبيين ، لهذا كان صلاح الدين حريصاً كل الحرص على تقوية مصر وتدعيمها تدعيماً كاملا داخلياً وخارجياً ، واقتصادياً وعمرانياً وثقافياً وعسكرياً ،

وقد أفادت مصر كثيراً من روح صلاح الدين ومناهجه الإصلاحية ، لأنه كان يرى أنها خط الدفاع الثانى فى وجه الصليبيين أعدائه ، ودمشق المواجهة لهم خط الدفاع الأول .

ولم تتغير مصر فى عصر صلاح الدين عما كانت عليه فى عصر الفاطميين تغيراً جوهرياً ؛ إلا أن طابع الترف الذى كان يصبغ عصر « المصريين » – كما يسمى الفاطميون – كان أغلب لأن صلاح الدين كان مهتماً بهدف واحد عبأ له جميع القوى ، ذلك الهدف هو تخليص العالم الإسلامى من الاحتلال الصليبى ، لهذا كان همه الأول تقوية الصف الإسلامى بشتى السبل ، فكانت إصلاحاته كلها تدور حول هذا الهدف ، بناء القلاع : قلعة القاهرة على المقطم ، وبناء السور الكبير ، وتجديد بعض الحصون المحيطة ، ومحاولة الاستفادة بإمكانيات مصر الزراعية والاقتصادية عن طريق تحسين أحوال الفلاحين ، وتخفيف المكوس لتنشيط التجارة ، ثم رفع إمكانيات الناس وإعدادهم إعداداً صالحاً عن طريق العلم ، وهو الهدف الثانى لسياسة صلاح الدين للتمكين للمذهب السنى على أنقاض الشيعى ، وكان العلم والإكثار من المدارس ، وجلب علماء السنة من الأقطار المجاورة وتشجيعهم على الإقامة بمصر والتأليف بها . وتربية تلاميذ فيها لإخراج جيل جديد من أصحاب السنة من المصريين أنفسهم .

هذا هو الطابع الإسلامى للقاهرة فى عهد الأيوبيين ، وكان طبيعياً أن تجمع القاهرة إلى جانب هذا اللون الإسلامى العربى لوناً آخر مستمداً من البيئة المصرية نفسها من النيل والتاريخ القديم ومشاهده الباقية الخالدة كالأهرام وأبى الهول والمعابد ، والعادات والتقاليد المتوارثة .

وظل النيل فى القاهرة عنصراً مكملا لها ، فالخليج يشقها وتقوم عليه قصور السراة والسادة ، وفى جزيرة الروضة توجد متنزهات القاهرة ومراتعها وملاهيها ، فالنيل فى القاهرة عنصر ترفيه وجمال ، وهو أيضا عنصر الحياة والبركة ، ففى فيضانه الخير العميم لمصر ، تقام له الحفلات ويفرح الناس ويستبشرون خيراً وينتظرون عاماً جديداً مغلا يحمل الثروة فى جنباته فيغنى الناس وينعمون . لهذا تغنى الشعراء بالنيل ، وبروضات النيل قال الشاعر :

الأول :

كأَن النِّيلَ ذو فهمٍ ولبٍّ　　لما يبْدُو لعَيْن النَّاس منهُ
فيأْتى عندَ حَاجتِهمْ إليه　　ويمْضِى حينَ يَسْتَغْنون عنهُ

والثانى :

وفَّت أَصابعُ نيلنا　　وطغتْ وطافَتْ فى البلادِ
وأَتَت بكلٍّ مسرةٍ　　من ذى أَصابع ذى أَيادِى

والثالث :

سَدّ الخليجُ بكسرهِ جبرَ الورَى　　طرًّا فكلٌّ قد غدا مسرُورًا

ووقفت الإهرامات وأبو الهول فى الجانب الغربى من النيل أمام القاهرة تشهد الناس على المجد التليد ، وقد أصبح القول فى الإهرامات وأبى الهول جزءاً من آداب القاهريين وكل من مر بالقاهرة من الشعراء والأدباء ، بل إن للعلماء كذلك مع الإهرامات وأبى الهول نوادر وأخباراً .

قال ظافر الحداد : (١)

تأَمَّل بنيةَ الهرمين وانظُر　　وبينهما أَبو الهول العجيبُ
كعمَّاريَّتين على رحيلٍ　　لمحبوبين بينهُما رقيبُ
وماءُ النيل تحتهما دموعٌ　　وصوتُ الرِّيح عندهما نحيبُ

وتنعم القاهرة بجو لطيف طوال السنة سوى أشهر صيف قصيرة ، تشتد فيها الحرارة ولا تبلغ حدًّا لا يطاق ، كذلك الحال فى الشتاء؛ لا يشتد بها البرد ولا ينزل الصقيع. فجوها هذا ملائم للحياة ، حبيب إلى النفوس ، شجع العيش بها والتغنى بمحاسنها. وأما مركز القاهرة كحاضرة ثقافية كبرى فى عصر صلاح الدين فقد ساعد ، عليه

(١) خريدة القصر ٢ — ٧ .

كل العوامل السابقة ، وزادها صلاح الدين صلة بالعالم الإسلامى لأنها كانت من قبل أقرب لأن تكون منعزلة عنه وعن المراكز الثقافية الهامة الأخرى ، مثل بغداد ودمشق وقرطبة ، ذلك لأن حكام القاهرة كانوا من الشيعة المخالفين فى شعائرهم وعقائدهم جماعة المسلمين من أهل السنة ، ولكن بعد تغلب صلاح الدين على مصر وحكمه للقاهرة واسترجاعه لمذهب أهل السنة بمصر ، وإزالته لآثار الشيعة وثقافتهم عادت الصلات مرة أخرى بين القاهرة وبين المراكز الإسلامية ، بل أصبحت القاهرة شيئاً فشيئاً على رأس تلك المدارس الثقافية ، وبدأت الحركة الفكرية الإسلامية والعربية تتجمع فيها من المشرق والمغرب ، وخاصة بعد حركة المغول والتتار والصليبيين ، والفرنج فى أسبانيا . وأصبحت رحلة علماء الأقاليم الإسلامية إلى القاهرة طابع العصر ، فكانت مدارسها ومساجدها موئلا لكثير منهم ، وصارت مكتباتها خزائن لكتبهم والكتب الأخرى التى كانوا يحملونها معهم ، وأصبحت القاهرة بعد زمن خزانة للتراث الفكرى الإسلامى كله حافظت عليه حفاظها على الرقعة الإسلامية أمام الغزو الصليبى والمغولى .

وتولى صلاح الدين الأمر فى القاهرة سنة ٥٦٧ هـ باسم الملك الناصر ، وجعل يوسع نفوذه شيئاً فشيئاً فى الشام والجزيرة ، وبلاد العرب واليمن والسودان وليبيا ، وعمل جهده على تدعيم مصر عسكرياً وعمرانياً وثقافياً .

وقد زار ابن أبى الصلت مصر قبيل الحكم الأيوبى فى عصر الفاطميين ووصف لنا سكانها فقال : « وأما سكان مصر فأخلاط من الناس مختلفة الأصناف من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم » (١)

ووصف لنا أخلاق أهلها فقال : « وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات والانهماك فى اللذات ، والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان فى ذلك ، واقتصه وأورده من الأمور الطبيعية » (٢) وقال : « وكان المصريون أكثر الناس

(١) الرسالة المصرية ٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

استعمالا لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلا عليها وشغفاً بها ، وسكوناً إليها ، حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى ألا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لاتحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها إلا بعد أن يستشير النجوم »[١] .

ومع ذلك فإن ابن جبير عندما زار مصر والقاهرة أعجب بها إعجاباً كبيراً ، ووصف حال الناس فيها والعلم والعلماء والمدارس وصفاً يناقض وصف ابن أبى الصلت[٢]. ويبدو أن صاحب الرسالة المصرية عندما كان بمصر فى أواخر العصر الفاطمى – قد لقى من سوء أحوال الناس ، واضطراب الحكم ، وقلق النفوس وتبلبل الخواطر ما جعله يخرج من مصر ساخطاً حانقاً فيصور هذا السخط فى رسالته ، والحق أن المصريين كانوا يميلون حقاً إلى اللهو وهذا طابع فيهم منذ الأزل ، حب المرح وخفة الظل والابتهاج بالحياة ، ولكن ليس كما صوره هو ميلا للترهات واشتغالا باللذات . ولم يفوقوا فى الاشتغال باللذات مثلا بغداد فى أوج ازدهارها ، ولم تنحرف الشهوات عند أهلها انحرافها عند البغداديين وغيرهم من سكان الحواضر الإسلامية الأخرى ، أما حديثه عن ميلهم لاستعمال أحكام النجوم فى كل ما يطرأ لهم من الشئون ، فإن هذا كان طابع العصر. وقد أشرنا إليه من قبل ولم يكن شيئاً مقصوراً على المصريين وحدهم ، بل إن المعتصم نفسه فى القرن الثالث الهجرى قد أشار عليه المنجمون قبل خروجه لحرب الروم ، ونصحوه بالقعود ، وقال فى هذه المناسبة أبو تمام قصيدته البائية :

السيف أَصدَقُ أنباءً من الكتبِ فى حَدِّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعِب

وعجب أن يصف ابن أبى الصلت المصريين بالتقاعد والاشتغال بالترهات وضعف العزمات ، ويصفهم فى الرسالة نفسها بعدم التبحر فى العلم والأخذ فيه بالأسباب والاكتفاء بالمعلومات والمعرفة الأولية التى تمكنهم من الحياة وخاصة فى الطب والنجوم .

---

(١) الرسالة المصرية لابن أبى الصلت فى مجموعة « نوادر المخطوطات » . تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) راجع رحلة ابن جبير – الجزء الخاص بمصر .

أما التبحر فيقول « إنه ليس منهم من يرقى إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المرتبة » ، وواقع الحال يخالف ابن أبي الصلت مما سنذكره عما قليل من أخبار العلماء والعلم والأدب في مصر ، وقد كان فيها الجامع الأزهر الكبير ، والمكتبة العامرة الزاخرة والعلماء في كل فن وفرع من فروع المعرفة .

وبعد تولى صلاح الدين الأمر لم يرد مناوأة التيار الفاطمى دفعة واحدة ، فلم يقابله بالاضطهاد الصريح ، بل بدعاية مقابلة ، وعند ارتقائه الحكم لم يكن فى مصر معهد واحد لتعليم الدين على مذهب أهل السنة على الأصول الصحيحة ، فعمل على سد هذا العجز وبدأ فى تشييد المدارس [1] ، وأوقف عليها الأوقاف الطائلة[2] ، وقد شجعه على ذلك ما فعله نظام الملك فى العراق وبلاد فارس ، وما فعله نور الدين فى الشام ، وهكذا كان إدخال نظام المدارس فى مصر بمثابة انقلاب فى الثقافة ، فقد أخذت تتحول من الدراسات المتعلقة بالشيعة إلى دراسات الحديث والسنة والفقه على المذاهب الأربعة . كما فتحت الباب أمام الثقافات الإسلامية المتعددة لتتدفق على القاهرة مرة أخرى من أنحاء العالم الإسلامى[3] . وقد بنى من المدارس مدرسة بغرب قبر الإمام الشافعي بالقرافة ، قال عنها ابن جبير « وبنى بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، ولا أوسع ساحة ولا أجل بناء ، يخيل لمن يطوف بها أنها بلد مستقل بذاته بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة (ساعة رؤية ابن جبير لها سنة ٥٧٨ هـ) والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول زد احتفالا وتأنقاً ، وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله »[4]

وقد بدأ بناء هذه المدرسة سنة ٥٦٦ هـ ووقف عليها وقوفاً وجعل عليها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشانى المذكور[5] ، وبنى مدرسة أخرى للشافعية غير مدرسة

---

(١) سيرة القاهرة ، مترجم، ص ١٦٢.
(٢) وفيات الأعيان ٦/٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٣) سيرة القاهرة ١٦٧ .
(٤) رحلة ابن جبير .
(٥) الروضتين ١/١٩١ ، ٢٦٨ .

ضريح الإمام الشافعي ، وبنى ابن أخيه كذلك مدرسة ثالثة للشافعية[١] .

وبنى مدارس الناصرية والقميحة ، وأسس الملك الكامل دار الحديث الكاملية[٢] وبنى مدرسة للمالكية[٣] .

وإلى جانب هذه المدارس أنشأ القاضي الفاضل مدرسته الفاضلية سنة ٥٨٠ هـ وألحق بها مكتبة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد[٤] .

وقامت مساجد القاهرة الكبرى بدور هام فى الثقافة ، وكانت جوامعها الهامة كالأزهر وجامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص منارات للعلم ، وقد اهتم صلاح الدين بجامع عمرو فجدده سنة ٥٦٨ هـ ، وكان مكانـًا مختاراً للعلم ، وكان بأركانه الأربعة مدارس للمذاهب الأربعة[٥] ، وكان محل إجلال من المسلمين جميعاً والعلماء وطلبة العلم خاصة ، فكان إلى جانب الدرس يجلس فيه القاضي ليحكم بين الناس فى صحنه[٦] . وقد درس به جماعة من المشهورين مثل ابن برى النحوى[٧] وتصدر للإقراء فيه عثمان بن على بن عمر السرقوسى النحوى الصقلى[٨] ، كذلك كانت لأبى على النحوى حلقة فيه لإقراء القرآن والنحو ، وقد سمع عليه الحافظ السلفى الحديث[٩] .

والأزهر لم يفقد مكانته فى عصر صلاح الدين ، وان كان قد تغيرت برامج الدرس فيه ، ومنعت الخطبة فى جامعه ، ولكنه ظل مناراً للعلم يقصده الطلاب من أنحاء العالم الإسلامى ، فينقلون مختلف العلوم والفنون ويكفل لهم العيش وتجرى الأرزاق ، وكان الحكام وأولو الأمر يوقفون على الطلبة الكتب النافعة ليفيدوا منها فى دراستهم .

---

(١) المختصر ٣/٥٠ .
(٢) مصر فى العصور الوسطى ٤٢٣ .
(٣) الروضتين ١/١٩١ .
(٤) الخطط للمقريزى ٢/٢٥٥ .
(٥) سيرة القاهرة ص ١٠٠ .
(٦) المصدر نفسه ٥٨ .
(٧) إرشاد ٤/٢٨٩ .
(٨) إرشاد ٤/٣٨ .
(٩) معجم السفر للسلفى مصور ورقة ٢٩ .

ومكتبة القصر الفاطمى كانت مكتبة عامرة زاخرة بالكتب ، وأشرنا إلى أن عدد ماحوته كان يقرب من المليون مجلد من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والجيدة .

أما علماء مصر فى هذه الفترة فقد تنوعوا ، فكان منهم من جاء من أقصى المشرق ، ومنهم من جاء من العراق والشام أو من الأندلس والمغرب ، ومنهم من نشأ فى مصر ، وقال السبكى فى «عروس الأفراح» : «إنهم صرفوا همهم إلى العلوم التى هى نتيجة أو مادة لعلم البيان كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن »[١] وعزا ذلك إلى أنهم كانوا أصحاب ذوق ؛ لذلك احتاجوا إلى تعلم صناعة البيان بخلاف المشارقة الذين كانوا أميل إلى علم المعانى ، لأنهم بطبعهم ميالون للعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلوم ما وراء الطبيعة .

وقد كان فى مصر علماء مشهورون فى النحو واللغة والبيان والقراءات والفقه والتفسير والحديث والأدب ، ولكن لم يبرز فيها من الفلاسفة ولا علماء المنطق والكلام أئمة متقدمون مثل ما كان الحال فى المغرب ، فقد برز ابن رشد ، وفى المشرق الغزالى والزمخشرى والفخر الرازى .

ومنهم على بن منجب الصيرفى (توفى بعد ٥٥٠ هـ)[٢] وكان أحد فضلاء المصريين وأدبائهم وبلغائهم ، سلم ذلك له غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفياً ، واشتهى هو الكتابة فمهر فيها وعرف بالبلاغة وحسن الخط ، والتحق بديوان الجيش والخراج مدة ثم استخدمه الأفضل الجمالى الوزير الفاطمى فى ديوان الرسائل ورفع من قدره وشهره ، وله من التصانيف كتاب «الإشارة فيمن نال رتبة الوزارة» و «لمح الملح» و «عقائل الفضائل» ، واختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبى العلاء المعرى ، وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات . وقد لقيه الحافظ السلفى بالقاهرة ودارت بينهما مراسلات .

وابن الزبير القاضى الرشيد أحمد بن على بن الزبير (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) . قال عنه العماد فى الخريدة : كان ذا علم غزير وفضل كثير ، قتله شاور صبراً ، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه فى قصده[٣] . وله كتاب «جنان الجنان ورياض

---

(١) عروس الأفراح ١ — ٥ .
(٢) إرشاد ٥/٤٢٣ .
(٣) الروضتين ١/١٤٦ .

الأذهان » جمع فيه جماعة من أدباء مصر وشعرائها، ونقل عنه العماد فى الخريدة[١].

وابن برى النحوى المصرى [٢] أبو محمد عبد الله بن أبى الوحش برىّ بن عبد الجبار الإمام « المشهور فى علم النحو واللغة والرواية والدراية ،علامةعصره وحافظ وقته ، ونادرة دهره » . أخذ علم العربية عن الشنترينى وأبى طالب عبد الجبار المعافرى القرطبى وغيرهما ، قيل لم يكن فى الديار المصرية مثله ، قرأ كتاب سيبويه، وتصدر للإقراء فى جامع عمرو. وله على كتاب « الصحاح » للجوهرى حواش فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها فى مواضع كثيرة ، وهى دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه .

قال ابن خلكان : « وكان عارفاً بكتاب سيبويه وعلله ، وكان إليه التصفح فى ديوان الإنشاء ، لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحى إلا بعد أن يتصفحه ويصلح ما لعله فيه من خلل خفى » . وأخذ عنه أبو موسى الجزولى صاحب « المقدمة فى النحو » .

والبلطى عثمان بن عيسى بن هيجون (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ) [٣] الأديب النحوى . له شعر ومجاميع فى الأدب وكان طويلا ضخماً كبير اللحية ويلبس عمامة كبيرة وثياباً كثيرة فى الحر ، وهو من بلدة بَلَط قريبة من الموصل ، وقد أقام بدمشق مدة ، وانتقل إلى مصر بعد أن ملكها الناصر صلاح الدين فجاء إليها ورتبه صلاح الدين لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو . وألف كتاب « العروض الكبير » فى نحو ثلثمائة ورقة ، وكتاب « العروض الصغير » وكتاب « العظات الموقظات » و « المستزاد على المستجاد فى فعلات الأجواد » وكتاب « علم أشكال الخط » وكتاب « التصحيف والتحريف » وكتاب « تعليل العبادات » . وذكره العماد الأصبهانى فى الخريدة وقال عنه ياقوت إنه كان يخلط المذهبين فى النحو (يعنى مذهب البصريين والكوفيين) ويحسن القيام بأصولهما وفروعهما « وكان مع ذلك خليعاً ماجناً شريباً للخمر منهمكاً فى اللذات . وذكر له من الكتب غير

(١) خريدة القصر ٢/٤١ .
(٢) ترجمة ابن خلكان ١/١٩٣ وخزانة الأدب الجزء الثانى .
(٣) فوات الوفيات ٢/٦٥ — ٦٧ .

ماذكرنا « النيّر فى العربية » و « أخبار المتنبى» و « التصحيف والتحريف » وموشحة فى القاضى الفاضل بديعة مليحة سلك فيها طريق المغاربة[١] » .

وابن الحاج شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة ضياء الدين (توفى سنة ٥٩٩ هـ) القفاوى القفطى النحوى اللغوى العروضى ، أحد أكابر الأدباء ، برع فى اللغة العربية وفنون الأدب وتقدم فيها ، وسمع من الحافظ أبى طاهر السلفى وغيره وحدّث ودرّس وكان ذا هيبة ووقار ، وله مقامات معروفة ، ومواقف بين يدى السلاطين والأمراء، وكانوا يخدمونه ويوقرونه . ومن كتبه «الإشارة فى تسهيل العبارة » و « المعتصر من المختصر » و « تهذيب ذهن الداعى فى إصلاح الرعية والراعى » صنفه للملك صلاح الدين و « حز القلاحم وإفحام المخاصم » وتعاليق فى الفقه على مذهب الإمام مالك و « قصيدة فى الأسماء المذكرة سبعون بيتاً [٢] .

وأسعد بن مماتى (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ)[٣] الشاعر الأديب العالم صاحب التصانيف من عائلة نصرانية خرجت من أسيوط بصعيد مصر ، وعمل والده فى ديوان الخراج وأسلم هو وابنه عند تولى صلاح الدين ، وله ديوان شعر جيد ، ومن كتبه « قوانين الدواوين » ، ونظم سيرة صلاح الدين، ونظم كليلة ودمنة ، و « الفاشوش فى أحكام قراقوش » و « مختصر الذخيرة لابن بسام » .

وابن مساس الإمام جمال الدين أبو محمد عبد الله بن نجم (المتوفى سنة ٦١٦هـ)[٤] المالكى الفقيه صاحب كتاب « الجواهر الثمينة فى مذهب عالم المدينة » وهو من أكثر الكتب فوائد فى الفروع ، رتبه على طريقة الوجيز للغزالى ، وفيه دلالة على غزارة علمه وفضله ، والطائفة المالكية بمصر كانت عاكفة عليه لحسنه وكثرة فوائده ، وقد تولى التدريس بالقاهرة زمناً ومات بدمياط .

والسخاوى على بن محمد (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) مصرى الأصل من قرية مصرية ، اشتغل فى القاهرة على ابن فيرة الشاطبى عالم القراءات ، وأتقن عليه القراءات والنحو واللغة ، وسمع الحافظ السلفى بالإسكندرية ، وابن عوف ،

---

(١) إرشاد الأريب ٤٣/٥ .
(٢) إرشاد ٢٦٤/٤ .
(٣) البداية لابن كثير ٨٧/١٣ .
(٤) ابن خلكان ٢٧/٣ وإرشاد ٤١٤/٥ .

وبالقاهرة من البوصيرى وابن ياسين ، ثم انتقل إلى دمشق فأخذ على أبى اليمن الكندى النحوى . وصنف من الكتب « شرح المفصل » للزمخشرى فى أربع مجلدات و « شرح الشاطبية » فى القراءات فى مجلدتين ، وتفسير القرآن .

والبوصيرى هبة الله بن مسعود بن ثابت (المتوفى سنة ٥٩٨ هـ) كان محدثًا جليلا سمع على الحافظ السلفى[١] .

والشاطبى أبو محمد القاسم بن فيره الضرير المقرئ ، (المتوفى سنة ٥٩٠)[٢] صاحب القصيدة المشهورة فى القراءات (الشاطبية) وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتًا . أبدع فيها كل الإبداع . وكانت عمدة قراء ذلك الزمان نزيل القاضى الفاضل . رتبه بمدرسته الفاضلية بالقاهرة متصدراً لإقراء القرآن الكريم بقراءاته والنحو واللغة .

الأنبارى محمد بن محمد بن بنان (ولد سنة ٥٩٧ هـ وتوفى سنة ٦٩١ هـ) الكاتب من أهل مصر وأصله من الأنبار ، قرأ الأدب ، وسمع الحديث ، وكان شيخًا جليلا ، مهيبًا عالمًا أديبًا ، كاملا بليغًا ، يكتب الخط الحسن ، ويقول الشعر الجيد ويترسل ، وفيه فكاهة ودماثة أخلاق ، ذهب إلى بغداد رسولا من قبل سيف الإسلام طغشكين أخى صلاح الدين بمصر ، فأكرم مثواه . وتولى ديوان النظر فى مصر وتنقلت به الوظائف فى أيام صلاح الدين بتنيس والإسكندرية وكان القاضى الفاضل يجله ويغشى أبوابه ويمدحه ويفتخر بالوصول إليه . ومن مؤلفاته تفسير القرآن المجيد ، وكتاب المنظوم والمنثور فى مجلدين .

وقد حدّث بكتاب الصحاح فى اللغة للجوهرى وبالسيرة النبوية .

وابن نجيّة زين الدين الحنبلى[٣] ولد بدمشق سنة ٥٠٨ هـ ونشأ بها واشتغل بالتفسير والوعظ ، بعثه نور الدين محمود رسولا إلى بغداد سنة ٥٦٤ هـ ثم جاء إلى مصر وسكنها أيام صلاح الدين ، وكان صلاح الدين يحضر مجلسه ، وكذلك

---

(١) ابن خلكان ٥/١١٧ .

(٢) إرشاد ٦/١٨٤ وفيات الأعيان ٣/٢٣٤ .

(٣) مرآة الزمان ٨/٥١٥ .

أولاده ، وكان يجرى بينه وبين الطوسى العجائب فى المناظرات والمجادلات لأن الطوسى كان أشعريًّا وابن نجية حنبلى . واقتنى أموالا كثيرة ، وكانت له الجوارى والإماء ومات فقيراً مع ذلك سنة ٥٩٩ ﻫ .

أبو حفص الفهرى [١] اللغوى المصرى عمر بن مظفر بن سعيد القاضى رشيد الدين الشاعر الكاتب ، تنقل فى الخدم الديوانية ، ومدح الملوك والوزراء، وكان كثير الحفظ . روى عنه الحافظ المنذرى ، وعاش خمسًا وسبعين سنة وتوفى سنة ٦٢٨ ﻫ وخدم الملك الكامل وانفصل عن خدمته .

ابن دحية الكلبى المحدث شيخ الديار المصرية فى الحديث وأول من باشر دار الحديث الكاملية بالقاهرة . توفى سنة ٦٣٣ ﻫ [٢] .

القفطى على بن يوسف [٣] (٥٦٠ — ٦٤٦ ﻫ) القاضى الأكرم وزير حلب ، وأحد الكتاب المشهورين والعلماء المرموقين ، ولد بقفط بصعيد مصر ، وكان أبوه كاتبًا ، ونشأ بالقاهرة ثم رحل إلى حلب فأقام بها ، وكان جمع كثيراً من العلوم كاللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وجمع من الكتب ما لا يوصف ، وقصد من أجلها الآفاق ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ولم يكن له دار ولا زوجة . وأوصى بجميع كتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوى مائة وخمسين ألف دينار ، وله حكايات غريبة فى غرامه بالكتب . وهو أخو المؤيد القفطى ، وله من التصانيف كتاب « الضاد والظاء » فيما اشتبه فى اللفظ واختلف فى الخط و « الدر الثمين فى أخبار المتيّمين » وكتاب « من ألوت الأيام عليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته » و « أخبار المصنفين وما صنفوه » و « أخبار النحويين » و « تاريخ مصر من ابتدائها إلى ملك صلاح الدين » ستة مجلدات ، و « تاريخ المغرب ومن تولاها من بنى تومرت » و « تاريخ اليمن منذ اختطت إلى عصره » . . وجملة كتب أخرى فى اللغة والتاريخ .

---

(١) فوات الوفيات ٢ /٢٢٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٥ /١٤ .

(٣) فوات الوفيات ٢ /١٩١ — ١٩٣ .

وعلى بن ظافر بن الحسين الأزدى (المتوفى سنة ٦١٣ هـ) مصرى الأصل ، قال ياقوت : إنه كان نعم الرجل له علوم جمة وفضائل كثيرة . قرأ الأدب وبرع فيه ، قرأ على والده أبى منصور ظافر الأصول ، وبرع فى علم التاريخ وأخبار الملوك وحفظ من ذلك جملة وافرة ، ودرّس بمدرسة المالكية بمصر بعد أبيه ، وترسل إلى الديوان وتولى الوزارة للملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بالشام ، ثم عاد إلى مصر فتولى وكالة بيت المال مدة ، وكان متوقد الخاطر طلق العبارة ، ومع تعلقه بالدنيا كان له ميل كبير إلى أهل الآخرة محبًّا لأهل الدين والصلاح . أقبل فى آخر عمره على مطالعة الأحاديث النبوية ، وأدمن النظر فيها ، وروى عنه القوصى وغيره ، وله تآليف منها : « بدائع البدائه » فيمن قال شعراً على البديهة ، وكتاب « مكرمات الكتاب » ، وكتاب « أخبار الشجعان » وكتاب « أخبار الملوك السلجوقية » و « أساس السياسة » و « نفائس الذخيرة » ولم يكمل . قال ابن شاكر : « ولو كمل ما كان فى الأدب مثله » . وكتاب « التشبيهات » وكتاب « من أصيب ممن اسمه على » وابتدأ بذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه ، و « الدول المنقطعة » قال ابن شاكر : « وهو كتاب مفيد فى بابه » . وله شعر يروى بعضه ابن شاكر فى فوات الوفيات [1] .

والدقيقى سليمان بن بين بن خلف المصرى النحوى العروضى العلامة . اجتمع به ياقوت عند حضوره لمصر ، وأجازه مؤلفاته ، وذكرها ياقوت ، وهى كثيرة ؛ فى النحو واللغة والشعر ومعانيه ، والأدب ، والمجموعات ، والعروض والقوافى [2] .

وأبو الخير الأنبارى سلامة بن عبد الباقى بن سلامة (المتوفى سنة ٥٩٠ هـ بمصر) [3] كان عالماً بالقراءات والعربية وفنون الأدب ، جاء إلى مصر وسكنها وتصدر بجامع عمرو يقرئ القرآن والنحو ، وله شرح على مقامات الحريرى .

وابن معطى يحيى بن معطى بن عبد النور ، (ولد سنة ٥٦٤ هـ) بالمغرب ، ورحل إلى دمشق فأقام بها زماناً طويلا ثم تركها إلى مصر واستقر به الحال فى القاهرة ، وتصدر بأمر الملك الكامل لإقراء النحو والأدب بجامع عمرو ،

---

(١) فوات الوفيات ٢/١٠٦ – ١٠٧ .
(٢) إرشاد ٤/٢٥٠ .
(٣) إرشاد ٤/٢٤٤ .

وقد لقيه ياقوت فى رحلته لمصر وهو إمام فى العربية أديب شاعر حنفى المذهب . اشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وله مصنفات مفيدة ، والتى اشتهر بها منها ألفيته فى النحو ، والفصول الخمسة فى النحو ، وحواش على أصول ابن السراج ، ونظم الصحاح للجوهرى ولم يتمه ، والمثلث فى اللغة ، وقصيدة فى العروض ، وقصيدة فى القراءات السبع ، وديوان خطب وتوفى سنة ٦٢٨ هـ بالقاهرة (١) .

والمنذرى زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى (٥٨١ – ٦٥٦ هـ) درّس بالجامع الظافرى بالقاهرة مدة ثم ولى مشيخة دار الحديث الكاملية وانقطع بها نحواً من عشرين سنة (٢) .

والسرقوسى عثمان بن على بن عمر النحوى الصقلى . قال الحافظ السلفى : « إنه من العلم بمكانة نحواً ولغة » ، وقرأ القرآن على ابن الفحام ، وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض ، وصارت له فى جامع مصر حلقة للإقراء . وقرأ عليه ياقوت ولازمه مدة إقامته بمصر (٣) .

إلى جانب هؤلاء العلماء الأجلاء الذين عاشوا فى مصر ودرّسوا ونفعوا بعلومهم ومصنفاتهم جاء إلى مصر علماء من أقطار العالم الإسلامى ثم رحلوا عنها مثل عبد اللطيف البغدادى العلامة والرحالة صاحب الرحلة المشهورة إلى مصر ، وقد جاءها أيام العزيز عثمان ، وياقوت الرومى صاحب معجم الأدباء ، وابن خلكان سنة ٦٣٥ هـ ، والخطيب التبريزى البغدادى سنة ٥٢٠ هـ ، وأبو اليمن الكندى وقد حصل من خزائنها على كتب كثيرة وعاد إلى دمشق .

الإسكندرية :

مركز هام من مراكز العلم والثقافة فى مصر فى عصور اليونان والرومان والإسلام ، وقد بناها الإسكندر الأكبر ، وسميت باسمه وصارت من بعده ثغر مصر العامر وعروس البحر المتوسط ومناره فى المعرفة ، جعلها البطالسة عاصمة ملكهم ، وجملوها بالقصور والمعابد ، وحملوا إليها من أطراف الدنيا الطرائف والمفاتن ، وتألقت بها

---

(١) إرشاد ٧/٢٩٢ ووفيات الأعيان ٥/٢٤٣ .

(٢) فوات الوفيات ١/٦١٠ .

(٣) إرشاد ٥/٣٨ – ٣٩ .

كليوباترا ملكة مصر الخالدة ، ودارت على رماها رحى الحرب بين جيوش روما ، واصطرع فتياها المظفران أنطونيوس وأوكتافيوس ، وعادت بعد ذلك قاعدة للرومان يحكمون منها مصر ويزهون فيها بحضارتهم وما جمعوه فى خزائنها ومكتباتها من نتاج فكرهم وخلاصة ثقافة اليونان قبلهم .

وعرفت الإسكندرية مركزاً ممتازاً للثقافة فى العالم القديم ، ورثت عن اليونان العلم والفلسفة ، وقامت بها مذاهب جديدة كالإفلاطونية الحديثة على يد بلوتينوس « أفلوطين » الفيلسوف السيوطى الأصل السكندرى النشأة والموطن . وعلى يد جماعة آخرين من فلاسفة الإسكندرية وعلمائها . وكان بها المكتبة الشهيرة ذات الصيت العريض فى العالم القديم ، والتى كانت تحوى من الكتب النادرة كل غال ثمين .

وفتح العرب الإسكندرية ، فصارت فى عهدهم كذلك مناراً للعلم فورثت الإسكندرية العربية الإسلامية الإسكندرية الهيلينية الرومانية . وقد أعجب العرب عندما جاءوها بما يروى عن مجدها التليد عن قصورها الرخامية ، ومناراتها السامقة ، وعمود السوارى والمعابد والأسوار والأبواب الضخمة ولا نكاد نقرأ لجغرافى عربى وصفاً للإسكندرية وآثارها إلا ونلمس مدى الدهشة التى تعتريه ، وهو يسترسل فى ذكر ماصح من أخبارها وما لم يصح ، وإنما هو من قبيل الأساطير والخرافة ، لكنها أساطير تحمل علامات التمجيد والإكبار .

قال عنها المقدسى فى أحسن التقاسيم : « قصبة نفيسة على بحر الروم ، عليها حصن منيع ، وهو بلد شريف كثير الصالحين والمتعبدين ، شربهم من النيل يدخل عليهم أيام زيادته فى قناة فيملأ صحاريهم ، وهى شامية الهواء ، كثيرة الأمطار ، جامعة للأضداد ، جليلة الرُّستاق جيدة الفواكه والأعناب ، طيبة نظيفة ، بناؤهم من الحجارة البحرية ومعدن الرخام »[1] . ويقول صاحب الكواكب السائرة عن مبانى الإسكندرية : « وقد مكث أهل الإسكندرية سبعين سنة لايمشون فيها بالنهار إلا وعلى وجوههم خرق سوداء مخافة على أبصارهم من شدة بياض حيطانها ألا تختطف ، فكان لا يوقد فيها سراج بالليل وإذا كان فى الليالى المقمرة تدخل المرأة

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ١٩٧ .

المخيط فى خرم الإبرة ليلا من غير سراج » . ويقول عن العمران المحيط بها وما يكتنفها من بساتين ومزارع للفاكهة والكروم : « وكانت العمارة ممتدة من رمال رشيد إلى برقة . فكان الرجل يسير فى العمارة فلا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والثمار ، وكان لا يسير إلا فى ظلال الثمار والأشجار تستره من حر الشمس إلى أن يصل إلى برقة ، وأما الآن فى زماننا فخربت بالكلية » (١) .

ووصف العرب عمود السوارى وتعجبوا من بنائه وارتفاعه ، وأخذتهم الدهشة كذلك من منارتها ووقوفها فى البحر على صخرة ناشزة ، وجعلها جغرافيوهم من عجائب مصر ، ويندر أن نجد واحداً يتحدث عن مصر والإسكندرية ولا يذكر عمود السوارى والمنارة ويبالغ فى وصفهما ماشاء له الخيال .

ومن معالم الإسكندرية البحر الممتد أمامها والبحيرة التى وراءها والسور الضخم ذو الأبواب الأربعة . كذلك من معالمها فى عصرها الإسلامى كثرة قبور الصالحين والمساجد . ونرى صاحب الكواكب السائرة يحدثنا عن الأماكن المقدسة بالإسكندرية والتى يرى أن العمل فيها والصلاة أفضل من غيرها سوى الحرمين وبيت المقدس ، ومنها مسجد سليمان عليه السلام ومسجدٌ لموسى عليه السلام ومسجد للخضر ومسجدُ ذى القرنين (٢) .

وقد ظلت الإسكندرية محتفظة بطابعها الرومانى حتى بعد الفتح العربى ، وظلت الجاليات اليونانية تحتل الأماكن المختارة بالقرب من البحر وسط البلد ، وتحيط بها أحياء المسلمين واليهود . يقول صاحب تقويم البلدان إنها موضوعة على صورة رقعة الشطرنج ، وأزقتها كالصلبان لا يضيع فيها الغريب ، فشوارعها متقاطعة ، وأحياؤها كل حى يأخذ ركناً من أركانها .

ويذكر صاحب المسالك والممالك أنه كان بها سوى أهلها ستمائة ألف يهودى خولا لأهلها (٣) وكان بها الملعب الكبير يتوسطها وقد ذكره صاحب الكواكب السائرة (٤) .

---

(١) الكواكب السائرة ص ١٧١ .

(٢) الكواكب السائرة ص ١٠٨ .

(٣) المسالك والممالك ص ١٦٠ .

(٤) الكواكب ص ١٧٤ .

ومن متنزهاتها خليجها وما يحوطه من البساتين يقول فيه ظافر الحداد الشاعر :(١)

وعشيةً أهلت لِعينَيكَ منظرًا ... جاءَ السُّرورُ به لِقلبِكَ وافدا
روضًا كمخضرِّ العِذار وجدولا ... نَقَشَت عليهِ يدُ الشَّمالِ مَباردا
والنخلُ كالغِيد الحِسان تزينَت ... ولبسن من أثمارهن قلائدا

وقد أحب الإسكندرية كثيرٌ ممن وفد إليها لطيب هوائها واعتدال نسيمها أكثر أيام السنة ، لكن بعضهم قد ضاق بكثرة رطوبتها فذمها كما قال الشاعر :(٢)

الإسكندريةُ مكربهْ ... وخمٌ ونار تُسْعَرُ
إن قِيل ثغرٌ أبيضُ ... فأَقول لكن أبخرُ

كذلك هجا بعضهم أهل الإسكندرية واصفًا إياهم بالبخل كما قال الشاعر ابن صقر الخفاجي (٣) :

نزيل الإسكندرية ليس يُقْرى ... سوى بالماءِ أَو عُمد السوارى
ويتحف حين يكرم بالعدالى ... ملايم والإشارة للمنار
وذكر البحر والأَمواج فيه ... ووصف مراكب الروم الكبار
فلا يطمع نزيلهم بخبز ... فما فيها لذاك الحرف قارى

وجاء حماد بن جبير الرحالة فذم أصحاب المكوس فيها ، ولم يعجبه منهم تشددهم مع المسافرين .

وللإسكندرية مع صلاح الدين دور ملحوظ ، فقد ولاه إياها عمه شيركوه عند حضوره لمصر أول مرة ، فحاصره فيها الفرنج بمساعدة شاور سنة ٥٦٢ هـ وضيقوا عليه الحصار ، وكان عمه مشغولا بالصعيد لولا أن أهلها قدموا له المعونة ؛ وحفظوه

(١) تقويم البلدان ص ١٠٦ .
(٢) الكواكب السائرة ١٧٢ .
(٣) الكواكب ١٧١ .

وقت الشدة ، ودافعوا عن مدينتهم ، فحمل لها صلاح الدين فى نفسه أجمل الأثر واعترف بجميلها وجميل أهلها وكان يتردد عليها دائمًا ، جاءها أول مرة بعد توليه أمر مصر سنة ٥٦٦ ليشاهدها ويرتب قواعدها . قال صاحب الروضتين : « وعم أهلها بإحسانه خير كثير ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها »[١] . وصحبه فى إحدى زياراته لها سنة ٥٧٢ هـ عماد الدين الأصبهانى وولداه الأفضل على والعزيز عثمان ، وقد ترددوا جميعًا مع السلطان على الشيخ الحافظ أبى طاهر السلفى ، وصام فيها تلك السنة شهر رمضان ، وأمر بتعمير الأسطول المصرى الراسى فى شواطئها . قال أبو شامة : ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين ، فرأى الأسطول قد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة ، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال وولى فيه أحد أصحابه ؛ وأفرد له قطاعًا مخصوصاً وديوانياً مفرداً »[٢] .

إذاً فقد كانت الإسكندرية أيضاً قاعدة بحرية لأسطول صلاح الدين تقوم بها « ترسانة » لعمل السفن وإصلاحها ؛ وتمدها بما يلزم لها وقت السلم والحرب على السواء .

وقد تولى الإسكندرية جماعة من القادرين من رجاله ، ممن ساروا فى الناس سيرة حسنة فازدهرت فى عهدهم المدينة وفاء إليها كثير من العلماء والفضلاء .

وأهم الأحداث التى وقعت للإسكندرية فى عصر صلاح الدين هى حصار شاور والفرنج سنة ٥٦٢ هـ ، ثم غزو أسطول صقلية فى اليوم السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ وانهزامه بعد أربعة أيام فى أول المحرم سنة ٥٧٠ هـ . قال أبو شامة فى وصف هذه الوقعة : « إن أول الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر وروع به ابن

---

(١) الروضتين ١/١٩١ .
(٢) الروضتين ١/٢٦٩ .

عبد المؤمن فى البلاد المغربية ، وهدد به الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية ، فشوهد بالثغر من وفور عدته وكثرة عدده وعظيم الهمة به وفرط الاستكثار منه ما ملأ البحر واشتد به الأمر ، فحمى أهل الثغر عليهم البر ثم أشير عليهم بأن يقربوا من السور فأمكن الأسطول النزول ، فاستنزلوا خيولهم من الطرائد ، وراجلهم من المراكب فكانت الخيل ألفًا وخمسمائة رأس ،وكانوا ثلاثين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل، وكانت عدة الطرائد ستًا وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا سفين فى كل سفين مائة وخمسون راجلا ، وكانت عدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، ودارت المعركة قاسية عنيفة بين الفريقين ، واستبسل أهل الإسكندرية فى الدفاع حتى أجلوهم عن مدينتهم وجاءت النجدة من صلاح الدين فأفلت القبرصيون ولم يتمكنوا من البلد(١) .

وكان للإسكندرية أهميتها التجارية ، إذ هى أقرب ثغور مصر إلى أوربا ، وقد اهتم صلاح الدين وولاته وخلفاؤه بتنشيط الناحية التجارية وتشجيعها بها ، كما سمح السلطان الكامل بن العادل بتأسيس سوق تجارية للبنادقة (أهل البندقية) سميت (سوق الأيلك) ومنحت نفس الامتيازات التى أعطيت لأهل بيزا الذين أرسلوا قنصلا إلى الإسكندرية (٢) .

وكانت الإسكندرية كذلك مركزاً هامًا لصناعة الزجاج منذ العصر الفاطمى(٣) وكان يصنع بها الحرير . وكانت تحوطها البساتين والزراعات ، وقد ذكر الحافظ فى معجمه كثيراً عن مزارع الكرم خارجها (٤) كما جاءت أخبار ذلك فى كثير ممن كتبوا عن الإسكندرية فى هذا العصر .

وأما المساجد والمدارس التى كانت بها فقد ذكر ابن جبير أنه كان يوجد بها جامع قديم لعمرو بن العاص ويصلى فيه المالكية الجمعة (٥) ، وجامع العطارين

---

(١) الروضتين ١/٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٢) مصر فى العصور الوسطى ٤٤٩ .
(٣) المصدر نفسه ٢٤٨ .
(٤) معجم السلفى ورقة ٢٨ .
(٥) رحلة ابن جبير ٥٤ .

بناه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٧ هـ [١] ، والمدرسة السلفية بناها أبو الحسن على بن السلار الوزير الفاطمى للحافظ أبى طاهر السلفى .

وكانت بها كذلك فى هذا العصر دار كتب كبيرة تسمى دار كتب الحكيم أرسطاليس حبس فيها أميه ابن أبى الصلت [٢] .

واشتهرت فى الإسكندرية فى القرن السادس الهجرى مدرستان كبيرتان للحديث والثقافة الإسلامية عامة ونعنى المدرسة العوفية [٣] وشيخها ابن عوف رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن طاهر (توفى سنة ٥٨١ هـ) من ذرية عبد الرحمن بن عوف وأحد فقهاء الإسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك . والمدرسة السلفية [٤] وشيخها الحافظ بن طاهر السلفى (توفى سنة ٥٧٦ هـ) .

وقد كانت الإسكندرية بفضل هاتين المدرستين ، وما جمعتا من العلماء ، وبفضل غيرهما من مدارس أهل السنة والحديث الأخرى الأقل شأناً ، مركزاً هاماً ومعقلا كبيراً لأهل السنة . ذكرها القاضى الفاضل فى رسالة لصلاح الدين فقال : « ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة »[٥] .

وأنشأ صلاح الدين بها مدرسة ثالثة كبيرة لأهل السنة . ودرست فيها اللغة وعلوم الدين والطب والفلسفة ، وألحقت بها مساكن للطلبة ، وحمامات ومارستان لعلاجهم . ووصفها ابن جبير فى رحلته .

كذلك ظهرت بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرون بالمعروف — فيما زعموا — ويعارضون السلطان فى أمره ، وقد قويت هذه الحركة عندما جاءها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع جماعة من متصوفة المغرب ، وكان أشهرهم فى القرن السابع أبو الحسن الشاذلى وتلميذه أبو العباسى المرسى .

---

(١) النجوم الزاهرة ١١٩٥ .

(٢) إرشاد ٢/٣٦٤ .

(٣) بناها الوزير رضوان بن دلخشى الوزير الفاطمى سنة ٥٣٣ هـ .

(٤) أنشأها الوزير العادل ابن السلار الفاطمى وزير الخليفة الظافر الفاطمى (توفى سنة ٥٤٤ هـ)

(٥) أبو شامة فى الروضتين .

مدرسه السِّلفى :

بناها الوزير الفاطمى ابن السَّلار سنة ٥٤٤ للحافظ السلفى ، وقد ظل يدرّس بها ويقرأ الحديث ما يقرب من نصف قرن ، تخرج عليه فيها جماعة من العلماء الكبار الذين وفدوا إلى الإسكندرية من مصر ومن المغرب والمشرق .

أما السلفى نفسه فهو عالم من أصل فارسى من أصبهان ، وقد نسب إلى سلفه بكسر السين جده ، ولد سنة ٤٧٢ هـ ، وتعلم ببلده وسمع عن علمائها فى ذلك العصر ، ثم رحل عنها فى سنة ٥٠٠ هـ وطاف الأقاليم ، فزار فى المشرق كثيراً من البلاد التى عمرت بالعلماء إلى شهرستان والرى وهمذان وزنجان وشينيا بالقرب من واسط والسوس من مدن خوزستان وتستر وآمد وميافارقين وصور وبغداد ، وقد زار بغداد مرتين ، زارها سنة ٤٩٠ هـ وظل بها إلى سنة ٤٩٧ هـ وأخذ عن مشاهير علمائها ومنهم أحد شيوخ الصوفية كما يقول فى معجمه ، ثم خرج من بغداد إلى الحج وسمع بمكة من بعض العلماء المجاورين ، وذهب إلى دمشق سنة ٥٠٩ هـ بعد طوافه ببلاد المشرق ، وبقى بها ردحاً من الزمن يسمع العلم والحديث والأدب عن علمائها ؛ ومن بينهم ابن الخلاط ، وانتقى من شعره مجلدة لطيفة حفظها عنه ، ثم جاء إلى مصر فى عهد الفاطميين ونزل بالقاهرة ثم غادرها إلى الإسكندرية ، وعاد إلى القاهرة مرة ثانية ثم غادرها نهائياً إلى الإسكندرية حيث بقى بها إلى أن توفى . وقد كان بالإسكندرية قبل سنة ٥٢٩ هـ لأنه سمع على القاضى ابن أبى الحديد قاضى الإسكندرية الذى توفى فى هذه السنة .

وعندما استقر به المقام بالإسكندرية ، كان بها العادل ابن السلاّر والياً . وقد احتفل به وزاد فى إكرامه وعمر له المدرسة التى عرفت باسمه وفوض تدريسها له ، وجعلها للشافعية(١) . قال ابن خلكان عندما زار الإسكندرية بعد وفاة السلفى بزمن طويل يقرب من خمسين سنة : وهى معروفة به الآن ولم أر مدرسة للشافعيين سواها .

وكان الحافظ فقيهاً ورعاً ثقة فاضلا ، حافظاً متقناً ، سمع كثيراً وحفظ كثيراً وكان اهتمامه منصباً على الحديث وجمعه . قال منشداً لنفسه :

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٩٣ .

إنَّ عِلمَ الحديث علمُ رجالٍ   تركُوا الابتدَاع للإتبَاعِ
فإذا الليلُ جنَّهم كتبُوهُ   وإذا أصبَحُوا غَدوا للسَّمَاعِ

ألف معجماً كبيراً لشيوخه ومن بينهم القارئ أبو جعفر أحمد بن الحسين ابن السراج ، والزمخشرى ، وقد كانت بينهما مراسلات واستعار بعض كتبه[١] ، والنهروانى بن عبد الله سلمان بن عبد الله النحوى اللغوى المفسر ، وعثمان بن على الخزرجى الصقلى ، وقد روى له مختصراً فى القوافى[٢] ، والشاعر محمد بن خليفة النميرى العراقى المتوفى سنة ٥١٥ هـ[٣] ، وروى عن عثمان بن على بن المعمر بن أبى عمامة البقال المتوفى سنة ٥١٧ هـ . كما اتصل بجماعة آخرين من الشعراء والعلماء والأدباء وروى بعض كتبهم ، فروى رسالة الحسن بن على بن محويه إلى أبى حميد سبأ بن أبى السعود اليمانى وهى مشهورة[٤] . قال ياقوت وهى رسالة مطولة جيدة للشاعر اليمنى[٥] المتوفى سنة ٥٨١هـ. وروى كذلك شعراً كثيراً لشعراء مصر فى عصره مثل ظافر بن القاسم الحداد الجذامى الإسكندرى المتوفى سنة ٥٢٩هـ وجمع مجلدة لطيفة انتخبها من شعر ابن الخياط الدمشقى عندما كان بدمشق سنة ٥١٠ هـ[٦] .

واستقر السلفى بالإسكندرية ، وتزوج واحدة من كريمات نسائها سنة ٥٣٤ هـ[٧] ، وكان الناس يجلونه والحكام يكبرونه ويسعون إليه ، وكان صلاح الدين كلما جاء إلى الإسكندرية ذهب ليسمع عنه ، وكان يتردد عليه عادة فى أيام الخميس والجمعة والسبت من كل أسبوع ومعه بعض ولده . قال العماد عن زيارة صلاح الدين للإسكندرية سنة ٥٧٢ هـ : « ثم وصلنا ثغر الإسكندرية وترددنا مع السلطان

---

(١) إرشاد ٧/١٥٠ .
(٢) إرشاد ٥/٤٠ .
(٣) فوات الوفيات ٢/٤٠٢ .
(٤) فوات ١/٢٧٨ .
(٥) إرشاد ٤/٨١ .
(٦) معجم السلفى ق ١١ .
(٧) معجم السلفى ق ١٨ .

إلى الشيخ أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى وداومنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هى التى حسبناها من العمر حتى آخر ما اجتمعنا به فى ذلك الثغر » .

وكان يعيد عليه فى المدرسة رافع بن يوسف بن زيدون القيسى الإسكندرى وهو حائك ثياب ، وكان عدة تلاميذه أربعين من الصبيان ، وقد قرأ السلفى كثيراً من الحديث وكتب جملة من الأمالى التى أملاها وتوفى سنة ٥٥١ هـ [١] .

وتوفى الحافظ يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ . وقد جاوز المائة بخمس سنين ولم يكف عن التدريس إلى أن مات يروى عنه أنه قال :

أَنا إِن بانَ شَبَابِى ومَضَى فلربِّى الحمدُ ذِهنى حاضِرُ
ولئن خفَّت وجفَّتْ أَعظمى كِبرًا غُصْنُ عُلُومِى نَاضِرُ

ودفن بالإسكندرية بالباب الأخضر . قال أبو شامة: «وقد زرت قبره بالباب الأخضر » .

وقد ذاع صيت السلفى عند المغاربة فتوافدوا إليه وحطوا رحالهم عنده بالإسكندرية وقرءوا عليه وسمعوا الحديث ، ثم رووا عنده ما يحفظون من العلوم والآداب ، وكان يقيد كل ما يسمع من تلاميذه ، ويبدو أنه خلف غير معجمى السفر والمشايخ كتباً أخرى فى الأحاديث والأمالى . قال ابن خلكان إن أحد سماسرة الكتب سافر بعد موته إلى الإسكندرية لبيع كتبه [٢] .

أما تلاميذه الذين أخذوا العلم فى مدرسته أو الذين سمعوا عليه فهم عديدون لايمكن حصرهم ، فقد ظل كما قلنا يلقى العلم ويحدث أكثر من نصف قرن، ونعد من بينهم المشهورين أمثال الحازمى محمد بن موسى الهمذانى صاحب التصانيف الفائقة ، وابن الجلاجلى ، وقد حدث فى أسفاره بشىء من مسموعاته منه وتوفى سنة ٦١٢هـ . والصفى ابن شكر الوزير المصرى (المتوفى سنة ٦٢٢)[٣] ، ومحمد بن خلف

---

(١) معجم السلفى ق ٥٢ .
(٢) وفيات الأعيان ١/١٧١ .
(٣) الوافى بالوفيات ١/٤٦٤ .

المقدسى ولد سنة ٥٢٠ هـ وتوفى سنة ٦١٨ هـ وكتب الكثير للناس وروى عنه خلق ، والشاعر ابن قلاقس الإسكندرى (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) ، والعلامة الجميزى المتوفى سنة ٦٤٩ هـ مفتى الديار المصرية والذى انتهت إليه مشيخة العلم بمصر ، والحافظ على بن مفضل اللخمى المقدسى الإسكندرانى الفقيه المالكى المتوفى سنة ٦١١ هـ والحافظ الجماعيلى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ ، وصاحب حماة الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه أيوب ، والحافظ ضياء الدين السعدى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، والفقيه عيسى الهكارى الأمير الخطير والمقرب لصلاح الدين (المتوفى سنة ٥٨٥ هـ) ، والشاطبى صاحب الشاطبية وعالم القراءات (المتوفى سنة ٥٩٠ هـ) وابن الحاج النحوى القفطى (المتوفى سنة ٥٩٩) ، والقاضى ابن الزبير الأسوانى الشاعر الإسكندرى (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) ، وأبو بكر يحيى بن سعدون القرطبى (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) وأحد الأئمة المتأخرين فى القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو ، وابن سناء الملك الشاعر المصرى ، وابن ظفر الصقلى روى عنه مقامات الحريرى عن صاحبها ، وروى عنه ياقوت كثيراً فى معجمه[1] .

مدرسة ابن عوف :

ابن عوف رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن طاهر (المتوفى سنة ٥٨١ هـ) من فقهاء الإسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك بن أنس ، ذهب إلى دمشق سنة ٥٦٢ هـ وكان عمره إذ ذاك ستين سنة ، وكان قد أقام قبل ذلك فى الإسكندرية زمناً فى المدرسة التى أنشئت له وتولى التدريس بها وسميت باسمه . ولم تشتهر المدرسة العوفية شهرة السلفية معاصرتها ، وقد كان صلاح الدين يستفتيه فى بعض أموره ، يقول صاحب أعلام النبلاء : « سأل صلاح الدين القاضى الفاضل أن يستفتيه عما ورد من الأحاديث فى قضاء الأعمى هل يجوز أم لا »[2] وسمع عليه من أبناء صلاح الدين العزيز عثمان[3] .

وعندما زار صلاح الدين الإسكندرية سنة ٥٧٧ هـ قال نغتنم حياة الشيخ أبى طاهر بن عوف فحضر عنده وسمع عليه موطأ مالك بن أنس بروايته عن الطرطوشى

---

(١) ترجمة السلفى فى تاريخ ابن عساكر ١/٤٤٦ طبعة الشام ١٣٤٩ هـ .

(٢) أعلام النبلاء ٤/٢٨٠ . (٣) ابن خلكان ٢/٤٣٥ .

فى العشر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده السماع [١] .

وممن اشتهر بالإسكندرية من علماء اللغة :

ابن عبد الجبار بن على بن عبد الجبار بن سلامة بن عيذون (ولد سنة ٤٢٨ وتوفى سنة ٥١٦ هـ) وكان إماماً فى اللغة حافظاً لها . حتى إنه لو قيل لم يكن فى زمانه ألغى منه لما استبعد ، وكانت له قدرة على نظم الشعر . قال الحافظ السلفى : « وكانت له قدرة على نظم الشعر ، وله إلىّ قصائد وقد أجبته عنها . ومن جملة شعره قصيدة فى الرد على المرتد البغدادى فيها أحد عشر ألف بيت على قافية واحدة فيها فوائد أدبية »[٢] .

والقاضى سند بن عنان الأزدى ، أخذ عن أبى بكر الطرطوشى وجلس لإلقاء الدرس بعده فى الإسكندرية ، وانتفع به الناس ، ومن أهم آثاره كتاب حسن فى الفقه شرح به كتاب المدونة فى مذهب مالك أنهى منه ثلاثين سفراً ومات قبل أن يتمه . وألف فى الجدل أيضاً ، توفى بالإسكندرية سنة ٥٤١ هـ .

الديباجى بن إلياس ، القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى من ولد عمرو بن عثمان بن عفان (توفى سنة ٥٧٢ هـ) من بيت قضاء وعلم ، كان واسع الباع فى علم الأحاديث ، كثير الرواية قيماً بالآداب ، متفوقاً فى النظم والنثر ، إلا أنه مقل فى النظم ، أوحد عصره فى علم الشروط وقوله المقبول على العدول [٣] .

وعلى بن ظافر صاحب كتاب « بدائع البدائه » ، الذى جمع كثيراً عن أدباء العصر وأدبهم ، وكان فى خدمة الملك العادل بالإسكندرية سنة ٦٠١ [٤]هـ .

وابن شيث جمال الدين عبد الرحيم بن على بن شيث بن إسحاق الكاتب (من أبناء إسنا ولد سنة ٥٠٧ هـ) بها ونشأ وتأدب بقوص ، وتعلم هناك كثيراً من العلوم والآداب وكان ديناً حسن النثر والنظم ، ولى الديوان ببلاد قوص فبالإسكندرية فبيت المقدس ، ثم تولى كتابة الإنشاء للمعظم عيسى بدمشق [٥] .

---

(١) مفرج الكروب ١١٢/٢ .

(٢) معجم السلفى مصورة بمكتبة بلدية الإسكندرية .

(٣) الروضتين ٢٧١/١ .

(٤) بدائع البدائه ١٧٧ .

(٥) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٥٣ .

وابن الحاجب [١] أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر النحوى المصرى المشهور (ولد بإسنا بالصعيد سنة ٥٧٠ هـ وتوفى سنة ٦٤٦هـ) . وكان والده حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحى ، وكان كردياً ، واشتغل أبو عمرو هذا بتحصيل العلم فى صغره بالقاهرة ، فحفظ القرآن ، وتعلم شيئاً من الفقه على مذهب الإمام مالك ، ثم تعلم العربية (النحو) والقراءات وبرع فى علومها وأتقنها غاية الإتقان ، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها فى زاوية المالكية وأكب الخلق على الاشتغال عليه ، وانتقل إلى الإسكندرية للإقامة بها ، ولم تطل مدته فيها فتوفى سنة ٦٤٦ هـ ودفن خارج باب البحر ، وقد رثاه أحمد بن المنيِّر ، وغلب عليه فى علمه النحو ، وقد ألف مختصراً فى مذهبه المالكى ، ومقدمة وجيزة فى النحو سماها الكافية وهى التى شهر بها وأخرى فى التصريف وسماها الشافية وشرح المقدمتين . وصنف فى أصول الفقه . قال ابن خلكان : وكل تصانيفه فى نهاية الحسن والإفادة ، وخالف النحاة فى مواضع ، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات تبعد الإجابة عنها ، وكان من أحسن خلق الله ذهناً . وذكر صاحب بغية الوعاة أنه كان من أذكياء العالم .

وكان بها من النساء المشهورات بالعلم والأدب جماعة ذكرهن السلفى فى معجمه وابن خلكان فى الوفيات ، من بينهن : تقية بنت غيث بن على الأرمنازى الصورى المدعوة ست النعم ، قال السلفى عنها : « ولم تر عينى شاعرة قط سواها »[٢].

وخديجة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى المدعوة مليحة ، روى عنها السلفى وقال : « وخديجة هذه أبوها محدث وأخوها محدث ، وقد حدثت أختها كما حدثت هى وتوفيت خديجة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ ، وهى بكر لم تتزوج قط ، وكانت تصلى طول الليل ولا تنام إلا عن غلبة » [٣] .

والجديدة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى وروى عنها السلفى .

وترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى (المتوفاة سنة ٥٣٤هـ) قال عنها السلفى[٤] :

---

(١) ابن خلكان ٢/٤١٣ ، شذرات الذهب لابن العماد ٥/٢٣٤ والحياة العقلية ٢٠٧ والحركة الفكرية لعبد اللطيف حمزة ٢٢١ .

(٢) معجم السلفى ق ١٧ .

(٣) معجم السلفى ق ٤٦ — ٤٧ .

(٤) المعجم ق ١٩ .

« ترفة هذه من بيت العلم ، وهى فى نفسها كانت دينة كثيرة المعروف ، وتسمى أيضاً عائشة وتدعى ترفة رحمها الله . قرأنا عليها سنة ٥٣٤ ﻫ وتوفيت بعدها بمدة قليلة . رحمة الله عليها ، وكانت امرأة الشيخ أبى عبدالله محمد أبى موسى الخولانى الذى تزوجت أنا بعد موته بابنته » [١] .

وهكذا كانت الإسكندرية فى القرن السادس وأوائل القرن السابع مناراً للعلم ، زاخرة بالعلماء من كل لون ، والأدباء والشعراء وقال فيها أبو المظفر — كما يرويه صاحب النجوم الزاهرة : « وفى سنة ٦٤١ ﻫ قدمت القاهرة وسافرت إلى الإسكندرية فوجدتها كما قال الله تعالى : (ذات قرار ومعين) معمورة بالعلماء ، مغمورة بالأولياء الذين هم فى الدنيا شامة : كالشيخ محمد القبارى والشاطبى وابن أبى أسامة ، وهى أولى بقول القيسرانى رحمه الله فى وصف دمشق :

أَرْضٌ تَحلُّ الأَمانى من أَماكِنِها   بحيثُ تجتمِعُ الدُّنيـا وتفتَرِقُ
إذا شَدَا الطيرُ فى أَغْصانها وَقَفَتْ   على حدائقِها الأَسْماعُ والحدَقُ

قال صاحب النجوم : وإن قول أبى المظفر من قول مجير الدين بن تميم فى وصف الإسكندرية [٢] :

لما قَصدْتُ الإِسكندرية زائرًا   ملأَتْ فُؤادِى بهجةً وسرورَا
ما زرتُ فيها جانباً إلاَّ رأَتْ   عيناىَ فيها جنةً وحَرِيرَا

قوص :

كانت ثالث البلاد أهمية فى مصر من حيث الثقافة وكثْرة العلماء والمدارس وكانت تلى الإسكندرية فى هذا الميدان ، وقد خرج منها جماعة من العلماء الأجلاء المذكورين ، والذين كانت لهم آثار باقية فى الثقافة والأدب والعلم . وهى فى أقصى الصعيد ، كانت مرفأ للحجاج يمرون بها عند اتجاههم إلى عيذاب

---

(١) المعجم ق ١٨ .
(٢) النجوم الزاهرة ٦/٣٤٦ .

بالبحر الأحمر، وقد نزل بها كثير من العلماء الذين كانوا يقصدون الحج من المغرب ومن مصر والإسكندرية . نزل بها ابن جبير فوصفها فى رحلته قائلا : هذه المدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوّزون بصحراء عيذاب ، وإليها انفلاتهم فى صدورهم من الحج » [١].

وخرج منها ابن شيث عبد الرحيم بن على بن الحسين القاضى الإسنائى القوصى ، وقد مر ذكره فى علماء الإسكندرية .

ومنها زكى الدين الكاتب القوصى (المتوفى سنة ٦٤٠ هـ) قال ابن شاكر « وكان فاضلاً فى نظمه ونثره، متقناً للكتابة ، تولى الوزارة للمظفر صاحب حماة ، وكان يقول الشعر ، وتوفى بحماة مخنوقاً »[٢] .

وأسيوط : وهى المدينة القديمة ذات التاريخ المجيد ، كانت عاصمة لأمير أسيوط ، وكان من أقوى الأمراء فى عصر الإقطاع فى دولة الكهنة الفرعونية ، وقد عثر بها على نصوص قانونية هامة، كما تشير آثارها إلى وجود حركة فكرية فى هذا العصر الفرعونى القديم ، وقد صارت فى عصر اليونان والرومان عاصمة ثقافية تعرف باسم ليكوبوليس، وخرج منها الفيلسوف أفلوطين صاحب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة الذى انتقل إلى الإسكندرية وأسس بها مدرسته ونشر مذهبه . أما فى العصر العربى الإسلامى فقد أخذت أسيوط تستعيد مكانتها شيئاً فشيئاً ، وقد وصفت فى كتب الجغرافيين العرب بأنها أخصب بلاد مصر وأرضها أكثر البلاد استواء ، وأعجبوا ببساتينها ، وكان بها بستان خمارويه الإخشيدى المشهور ، وقد عرفت أسيوط مركزاً من مراكز القبط من قديم الزمن ؛ فيها كثير من الأديرة والكنائس القديمة، وقد بنيت بها بعض المساجد القديمة كذلك، وبنى فيها الفائز الفاطمى مدرسة عرفت باسمه «الفائزية» ، تولى التدريس بها بعض الشيوخ والعلماء ، وزار أسيوط فى العصر الأيوبى ابن الساعاتى ، وابن جبير ، فوصفها الأول شعراً والثانى نثراً ،

---

(١) ابن جبير ٦٥ .

(٢) فوات الوفيات ١ ص ٥٥٣ .

وكلاهما أبدى إعجابه بها . قال ابن الساعاتى (المتوفى سنة ٦٠٣ هـ) :

لله يومٌ فى سُيُوطَ وليلةٌ صَرْفُ الزَّمانِ بأُخْتِها لا يغلطُ
بِتْنا به والبدرُ فى غُلَوائِهِ وله بجنح اللّيل فرعٌ أشمطُ
والطلُّ فى سلك الغصون كلؤلؤٍ نَظمٍ يُصافحِهُ النَّسِيم فيسْقُطُ
والطيرُ يقرأُ والغديرُ صحيفةٌ والريحُ تكتُبُ والغَمامةُ تُنقطُ

ودرَّس بالمدرسة الفائزية بأسيوط فى القرن السابع العالم المغربى الجليل نجم الدين المغربى القصرى الأكتع الفتح بن موسى بن حماد ، وكان قد زار كثيراً من البلاد الإسلامية ؛ زار بغداد وحماة ، ثم جاء إلى مصر وألقى عصاه بأسيوط حيث عين قاضياً ، وكان يدرس فى الفائزية الفقه على مذهب الشافعى والأصول والنحو والعروض والحكمة والمنطق ، وظل بأسيوط إلى أن توفى سنة ٦٢٣ هـ ونظم كتاب « نظم المفصل فى النحو للزمخشرى » .

وخرج من أسيوط عائلة آل مماتى ، ومنهم المهذب ، وقد تولى ديوان الجيش فى أواخر العهد الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى ، والأسعد وهو الشاعر الأديب صاحب قوانين الدواوين ، وكان قد اتصل بالقاضى الفاضل وتولى لصلاح الدين المناصب ثم خرج بعد وفاته من مصر إلى حلب حيث بقى هناك مع الظاهر ابن صلاح الدين إلى أن مات .

وخرج من أسيوط أيضاً الشاعر الوزير الصاحب ابن مطروح معاصر البهاء زهير وصديقه . وقد درس فى أسيوط ثم أتم علومه بالقاهرة ، وذهب إلى قوص حيث مدح واليها ولقى صاحبه البهاء زهير وقضيا معاً زمناً ثم عاد إلى القاهرة حيث اتصل بالرؤساء والقواد ، والتحق بخدمة السلطان الملك الكامل وتولى دمشق ثم عزل وسفر بينه وبين الخوارزمية ، وشاهد حوادث المنصورة وأسر الملك الفرنسى فى دار ابن لقمان .

وتخرج فيها ووفد إليها جماعة أخرى من العلماء فى القرنين السادس والسابع وما بعدهما إلى القرن العاشر حيث خرج السيوطى .

الباب الرابع

الأدب والأدباء

١

صحبت الحركة العلمية والثقافية فى القرون الخامس والسادس والسابع حركة أدبية واسعة ، أشرنا إليها فى الفصول السابقة . ولم يحظ هذا العصر بما يستحق من الدرس ، على كثرة ماحظيت به العصور السابقة ؛ العصر الجاهلى ، والعصر الإسلامى والأموى ، والعصر العباسى . ولم تحظ كذلك الدراسات الأدبية والعلمية فى إقليمى مصر وسوريا خاصة بالدرس لبيان الدور الخطير الذى كانتا تقومان به لحفظ التراث الإسلامى ، بعد أن بدأ يتحول شيئاً فشيئاً من الشرق والغرب ليصب فى القلب ، فى إقليم الوسط سوريا ومصر ، وقد حفظت مصر الإسلام والعروبة من الانهيار السياسى على أيدى المغول والتتار فى موقعة « عين جالوت » حيث انتصر بيبرس على جحافل التتار الزاحفة بعد أن اكتسحت أمامها العالم الإسلامى فى بلاد الفرس ، وفى العراق وفى شمالى سوريا ، ولم تُبق للعروبة والإسلام تراثاً ، بل خلفت وراءها رماداً ، وأشلاء ، وجمعت مصر وسوريا ما بقى ، وما أمكن حفظه أو خلاصه وضنت به على الضياع فصانته ، وكذلك فعلت بالنسبة للتراث المغربى ، بعد أن بدأ الانهيار السياسى الإسلامى فى الأندلس والمغرب ، بعد الانحسار الإسلامى والمد المسيحى فى شبه جزيرة الأندلس .

وكان جديراً أن يولى الباحثون دور مصر وسوريا عناية لائقة ، لكن يبدو أن عوامل كثيرة تدخلت ، ومنعت من انصباب الدرس وتركيزه على هذه الناحية ، لعل أبرزها أن اهتمام الناس فى مطلع النهضة العلمية فى مصر والشام فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وأوائل التاسع عشر كان يتجه إلى عصر العباسيين والأمويين ، ينشدون من ذلك البحث وراء العناصر القوية ، التى دفعت العلم

والثقافة والأدب ليتخذوا منها عمداً ، ومحركات ودعائم تدعم الحركة الجديدة وتدفعها دفعات قوية ، ولم يكن كذلك الاستعمار الثقافى لمصر والشام وبقية البلاد العربية ليسمح بأن تبرز قيمة مصر والشام فى مجال الثقافة العربية الإسلامية ، وكان دائماً يحاول تفتيت قوة مصر ثقافياً ، وسياسياً لتبقى الأمة الإسلامية العربية دون قيادة .

ومن عجب أن دراسات المستشرقين لهذا العصر لا تشير إلا إلى أفراد معدودين ولا تشير إلى الدور الكامل المتماسك ، فهم حين يتكلمون عن العصر إنما يشيرون إلى الغزالى وابن رشد والزمخشرى والفخر الرازى من المفكرين ، ومن الأدباء إلى الحريرى والطغرائى وابن الفارض .

وليس هؤلاء هم كل من كان ، وليست آثارهم كل الآثار الفكرية والأدبية ، بل إن دراسات المستشرقين لم تتناول من الأدباء والمفكرين والشعراء من كانت لهم روح قومية ، أو من كان لهم دور فى حركات البعث الإسلامى العربى فى عصر صلاح الدين ومن بعده ، وكان هذا الإغفال متعمداً أغلب الظن . فلا نجد كلاماً عن ابن الأثير ولا القاضى الفاضل ، ولا عماد الدين الأصبهانى ولا ابن التعاويذى والأبيوردى وغيرهم ممن فاضت كتاباتهم بروح النضال والكفاح والتصوير الحى لحركات صلاح الدين ضد الاستعمار الصليبى .

وصف المستشرق جب العصر الذى سنتحدث عنه بأنه العصر الفضى للأدب وأن العصر السابق عليه هو العصر الذهبى (١) . ونعته بأنه لم يكن يمتاز بالإبداع والعبقرية بقدر ما كان يمتاز به من براعة الصنعة والمهارة الفنية التى غلبت إلى وقت كبير – على العبقرية والابتكار (٢) . هذا الكلام لا يخلو من الحقيقة ، فالأدب فى عصرنا هذا كان حقاً أدب صنعة فى أكثره . وإن لم يخل الأمر بطبيعة الحال من الطبع والحس الرقيق . وهو أدب « برجوازى » – إذا صح استعارة هذا التعبير – فى أساليبه وموضوعاته بمعنى أنه أدب ترف لخدمة الطبقة الحاكمة والوزراء والولاة ، وهو فى كثير من حالاته كذلك أدب تسلية وقطع للوقت ، فيه غير قليل من اللعب باللفظ والمعنى ؛ والمهارة فى اللغز والتعمية ، بقصد السمر والدعابة ، وكان على

---

(١) Gibb : Arabic Literature p. 82

(٢) المصدر نفسه ص ٨٤ .

الأديب والشاعر أن يبرع فى هذا كله ويعد عدته وآلاته ، وإلا كان أديباً كاسد السوق ، غير قريب إلى قلوب الرؤساء ونفوسهم ، ولا مختاراً لمجالسهم وأسمارهم .

ومن معالم هذا الأدب فى النثر والرسائل كثرة ألفاظ المديح والإطراء ، كما أنه عرف بالافتتاحيات التى تزخر بمعانى الخضوع والذلة من مثل قولهم : « الخادم يقبل الأرض بين يدى المولى » . . . أو الخادم يقول كذا وكذا . . . إلخ .

وفرض ذوق العصر ورفاهيته على الأدب ألواناً من التعبير عمادها استخدام الخواص الصوتية للعبارات ، لا الألفاظ المفردة وحدها ، كذلك استغلال الحروف كأصوات استغلالا كبيراً واللعب بها وإدارتها فى الجمل أو أبيات الشعر . وبرعوا فى توليد الأوزان الخفيفة ، والتى تميل فى نغماتها إلى التوقيع الراقص ، وهكذا .

وهذا الميل ، أو الذوق العام لهذا اللون من الأدب جعلهم ينحرفون عن الأنماط القديمة له ، والشعر خاصة ، ويبتعدون عن أساليبه وفنونه ، كما جعلهم ينفرون من روح البداوة كل النفور ، ورقوا فى أدبهم كما رقوا فى أخلاقهم وعاداتهم وغلبت ألفاظ المجاملة الدمثة . وصور ابن حجة [1] هذا الذوق بقوله : (فى أحد أنواع البديع فى الشعر) : « ولم يخطر لى أن أورد هنا من التشبيهات البديعة التى أخذتها أمثلة لهذا النوع إلا ما خف على السمع وعذب فى الذوق ، وارتاحت الأنفس إلى حسن صفاته ، فإن التشابيه التى تقادم عهدها للعرب رغب المولدون عنها ، فإنها مع عقادة التركيب لم تسفر عن بديع معنى إلا ما قل وندر [2] » .

وقال ابن رشيق فى هذا المعنى أيضاً : « إن طريق العرب خولفت فى كثير من الشعر إلى ما هو أليق بالوقت وأمس بأهله » ، وذكر من أمثلة ما تغير من مفهومات الشعر أن القينة الجميلة كانت تشبه بالذباب ، ولن ترضى هى نفسها بذلك كما قال أبو محجن .

---

(١) ابن حجة الحموى من أدباء القرن التاسع . فهو متأخر عن عصرنا هذا إلا أنه يصور حقيقة لها ما يؤيدها فى أدب القرنين السادس والسابع .

(٢) خزانة الأدب ص ٧ وكرر هذا القول مرة أخرى ص ١٨١ .

٢

أما موضوعات الأدب فقد كانت هى الموضوعات التقليدية نفسها للأدب العربى ، إلا أنه زادت فى هذا العصر فنون جديدة ، وترعرعت فنون كانت معروفة من قبل . وقد كان هذا العصر عصر حروب متصلة بين المسلمين والصليبيين ،وكانت تلك الحروب سبباً فى ظهور لون من الأدب، بل ألوان متعددة ترجع إلى أصل واحد هو الجهاد والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين ،ومن هذه الألوان أدب القتال ، والحض عليه، ووصف الجيوش وآلات الحرب، والحصون،وإبراز فضائل الشجاعة والنخوة ، والبطولة ، والتفانى . واشترك فى هذا الشعراء والكتاب جميعًا . وللقاضى الفاضل من كتاب الرسائل أوصاف كثيرة للحروب والحصون ؛ له فى قلعة نجم قول مشهور تناقله عنه الأدباء وأعجبوا به أيما إعجاب ، كما وصف حصن الكرك ــ وكان أحد حصون الصليبيين المنيعة المشهورة والذى طالما ضايق المسلمين ، بل كان شوكة فى جنبهم تؤذى الناس ، وتقطع طريق الحاج ، ولم يتركها صلاح الدين بل شدد عليها الحصار إلى أن اقتلعها من الصليبيين فاستولى على الحصن الحصين وقد انتهز القاضى الفرصة فقال فيه :

« هو شجىٌ فى الحَناجر وقذًى فى المَحاجر ، قد أَخَذَ من الآمال بمَخنِقها ، وقعدَ بأَرْصَادِ العزائِم وطُرُقِها ، وصارَ رئيًا للدهر فى ذلكَ الفجِّ ، وعذرًا لتارك فريضةِ اللهِ من الحجِّ ، وهو وحصنُ الشوبَك ــ يسَّر الله الآخر ــ كبيتِ الواصِفِ للأَسدينِ :

ما مرَّ يومٌ إلا وعندَهُما   لَحْمُ رجالٍ أَو يُولغانِ دمًا[1]

ووصف المعركة التى وقع فيها هذا الحصن فى أيدى المسلمين فقال :

« أما الكركُ فكفأَتْ المنجنيقاتُ متظافرةً عليه ، وحِجارتُها على منْ فيه

---

(١) الروضتين ٢/٥٥ .

حاجرة ، وقد جُدِعتْ أُنوفُ الأَبرجة ، وأسبَلَت قِنَاعُ السَّتَائِرِ وجوهَها المتبرِّجةَ ؛ وكلٌّ جَوانبها وعرةُ المرتَقى ، الّتى تَتعادى فيها الهِمَمُ ، ويُباشِرُ حمرات الشتاء الكالح بوجههِ المبتسِم » [١] .

وألفت كتب فى أحوال الحرب والسلاح وغيرها . قال ابن خلكان فى ابن صابر المنجنيقى : «كان ابن صابر جنديًّا فى ابتداء أمره ، مقدمًا على المنجنيقيين بمدينة السلام ، ولم يزل مغرى بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة ، واشتهر بذلك ، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه ، فى درايته وفهمه لذلك ، وصنف فيه كتابًا سماه « عمدة السالك فى سياسة الممالك » ولم يتمه ، وهو مليح فى معناه ، يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها ، وفتح الثغور ؛ وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية ، والهندسة ، والمصابرة على الحصار ، والقلاع ، والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل أداة الحروب والكفاح ، وصنوف الخيل وصفتها » [٢] .

وكتب ابن عساكر الدمشقى (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) كتابًا فى الجهاد سماه « كتاب الأربعين فى الجهاد » [٣] ، وجمع القاضى ابن شداد لصلاح الدين كتاباً فى الحرب يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعد الله سبحانه وتعالى للمَجاهدين »[٤] وذكر ابن شداد فى سيرة صلاح الدين المعروفة « بالنوادر السلطانية » : « أن الرجل إذا أراد التقرب إلى صلاح الدين يحثه على الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابًا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرحتُ غريبها ، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل » [٥] .

وظلت الحروب الصليبية نبعًا لا ينضب لموضوعات الجهاد وآلاته فى أدب

---

(١) الروضتين ٢/٥٥ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦ — ٣٦ .
(٣) إرشاد ٥/١٤١ .
(٤) وفيات الأعيان ٦ — ٨٥ .
(٥) النوادر السلطانية ص ١٧ .

العصر ، وقد ألهبت عواطف المسلمين والعرب ، وكانت عاملا هامًّا فى ظهور هذا اللون الأدبى، وهو لون اهتدى فى قيمه ومثله بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه ، وسير أبطال الإسلام الأوائل وجهادهم ، واعتمد المؤلفون والأدباء على إبراز الصفات لأولئك الأبطال من الصحابة والقواد لإذكاء روح الجهاد والتضحية فى صدور الجند المكافحين عن الإسلام (١) ، ولتثبيت الأقدام فى المعارك المتصلة فى سبيل الحفاظ على الأرض وعلى الكيان المهدد بجحافل الصليبيين .

وامتزج التأليف فى الجهاد والحث عليه بالتأليف فى التاريخ ووصف الوقائع والأحداث الكبيرة ، وقد ألفت كتب بتمامها فى الأعمال الحربية العظيمة التى تمت على يدى صلاح الدين مثل كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » . وهو كتاب يؤرخ لفتح صلاح الدين لمدينة القدس ، واستعادتها إلى حوزة المسلمين بعد أن اغتصبها الصليبيون زمناً ، وأقاموا بها إمارة هى إمارة بيت المقدس ، واعتبروها عاصمة لإماراتهم الشرقية فى بلاد الشام ، وكان ملكها رئيساً لأمراء تلك الإمارات . من هذا يتضح أن فتح بيت المقدس كان عملا عظيماً من صلاح الدين ، لأنه اجتث شأفة الاستعمار الصليبى ، وكان دوى ذلك الفتح عظيماً ، والفرحة به غامرة غالبة، ترددت أصداؤها فى نفوس المسلمين فى كل مكان . وكان كتاب العماد الأصبهانى صورة من تجاوب الأدباء مع هذا الحدث الأعظم ، وقد كتبه على طريقة عصره التى تعتمد على الإكثار من السجع والمحسنات البديعية حتى إن بروكلمان، قال عنه : « ومن أسف أنه أثقل كتابه هذا بالمحسنات اللفظية التى توقع فى نفس القارئ أن الجانب اللغوى كان أهم عند المؤلف من الموضوع نفسه » (٢)

وسنعود مرة أخرى عند الكلام عن الاتجاهات الأدبية فى هذا العصر إلى الحديث عن هذا الموضوع تفصيلا .

وقد وجد من المؤرخين من حاول أن يدون حوادثه ويؤرخ بأسلوب أدبى رفيع ، وكانت فى بعض كتاباتهم التى تتناول الأحداث المعاصرة أو الأحداث

---

(١) راجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٢/٢١٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ٢/٢٣٣ .

التى تمس شغاف قلوبهم مقطوعات تصل إلى درجة رفيعة من الأدب الجميل ، نجد هذا فى كتابة ابن شداد فى فتح بيت المقدس وكتابة عز الدين بن الأثير عن مقتل الشهيد عماد الدين بن زنكى [١] ، وكذلك كتابته عن غزو المغول لبعض مدن المشرق ، وكتابة ياقوت عن هذا الموضوع فى بعض مواضع من كتابيه « معجم الأدباء » و « معجم البلدان » ، فهذه كلها قطع أدبية رائعة ، وإن كان أصحابها لم يتفرغوا للرسائل والشعر .

وسجل أدب هذا العصر معالم الحياة ، والمجتمع ، فكتب عن الاضطراب الاجتماعى ، ووصف الأدب ارتفاع الناس وسقوطهم وتقلب أحوال الناس بين المجد والانحدار ، وهى أشياء ومظاهر كانت عادية معهودة ، حتى إن كاتباً مثل القفطى يؤلف كتاباً فى « من ألوت الأيام عليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته » ، [٢] ويصف أدب العصر النكبات الإنسانية الكبرى ، كالمجاعات التى كثرت فى هذا العصر فى مصر والشام والعراق . ومنها وصف عماد الدين الأصفهانى للمجاعة التى حدثت بمصر سنة ٥٩٧ هـ وأورد بعضه صاحب مرآة الزمان [٣] . وشارك الأدب فى الجانب الضاحك اللاهى من الحياة ، كما شارك فى الجانب القاتم المظلم ، فكان الشعر روح مجالس السمر والشراب ، والعدسة المصورة لما يجرى فيها . وكان الشعراء يجتمعون فى مكان جميل أو روضة ، أو حول بركة أو ماء جار فيتبارون فى إظهار قدرتهم وبراعتهم .

ومن بين الموضوعات الطريفة التى تناولها الأدب موضوعات من صميم الحياة التى قد لا نجد الأدب القديم يعنى بها ، مثل وصف الحمامات العامة ، أو ذم بعض العادات الشاذة ، والسخرية بالأوضاع غير اللائقة ، والسلوك أو التصرف المنحرف الشائن من بعض الناس ، ونقد أحوال العمال والموظفين فى الدولة مثل عمال المكوس ، أو موظفى الدواوين .

وشغل الأدباء كذلك ردحاً من الزمان بموضوع ندر أن نجد مثيلا له فى

---

(١) أتابكة الموصل من مسلسلة Receuil II 2-182

(٢) إرشاد ٥ — ٤٨٣ .

(٣) كتاب الروضتين ٢ — ٥٦ ، ٥٨ .

العصور الأدبية الأخرى ، أعنى به موضوع مدح المدن وذمها ، أو مدح الأقاليم وهجائها ، ومنها كتب ألفت فى ذكر فضائل الشام ودمشق وفضائل مصر ، وفضائل الإسكندرية ، وفضائل بغداد . . . وغيرها من البلاد الإسلامية . وربما قامت بين الأدباء مناظرات أو منافرات ، أو نقائض كالتى كانت بين جرير والفرزدق موضوعها المدن ، كل أديب ، شاعراً أو كاتباً ، ينتصر لبلده فيمجدها ، ويهجو بلد مناقضه . ومما يذكر فى هذا السبيل المفاضلة التى كانت تدور بين أدباء مصر والشام حول فضائل الإقليمين ، ومن فرسان هذا الميدان القاضى الفاضل الذى طالما جال قلمه فى ذكر فضائل مصر والتغنى بها وذم مدن الشام ، ومن رسائله الطريفة فى هذا رسالة أوردها أبو شامة فى الروضتين[1] ، وقد رد عليه العماد الأصبهانى بذكر فضائل الشام . وقال أبو شامة : « وقد قيل فى وصف دمشق وملحها شىء كثير من النظم والنثر ، واشتمل ما جمعته فى أول تاريخ دمشق على قطعة كبيرة حسنة ، من ذلك ما وصفه شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوى رحمه الله فى مقامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر ، ووصف كلا من البلدين بما يليق به »[2] .

وظل نيل مصر من أبرز الموضوعات التى ترددت فى إنتاج الأدباء شعراء وكتاباً ، وقد تناوله كل واحد منهم بحسب ماتجود به قريحته أو حسب المناسبة التى يصفه فيها . وممن جرى قلمهم بوصفه ضياء الدين بن الأثير ، وأشار إلى بعضه ابن خلكان فى وفيات الأعيان قال : « ومن رسائله قوله فى صفة نيل مصر :

« وعذبُ رضابهِ يُضاهِى جنَى النَّحل ، واحمرّ صفيحُه فعلِمتُ أنه قتَلَ المحْل »

وللقاضى الفاضل رسالة فى النيل نقل بعضها ابن حجة الحموى فى الثمرات[3] ، وغيرهم من الكتاب ، وذكر ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية [4] من أمثال المصريين فى فيضان النيل قولهم : « إذا دخل أبيب كان للماء دبيب » .

---

(١) الروضتين ٢ — ٥٦ — ٥٨ .

(٢) كتاب الروضتين ٢ — ٥٩ .

(٣) ثمرات الأوراق ص ١٣٢ .

(٤) الرسالة المصرية من مجموعة نوادر المخطوطات ص ١٧ .

ومن موضوعات العصر كثرة ماقيل فى السيف والقلم ، والموضوع قديم إلا أن الشعراء والكتاب قد أكثروا فيه كثرة لم تسبق . وكذلك عمد الكتاب والشعراء إلى موضوعات بعينها فأكثروا فيها بينما أهملوا موضوعات أخرى . ومما أكثروا فيه وصف الرياض ومظاهر الطبيعة .

وامتازت الكتابة بأنها اقتحمت على الشعر ميادينه ، بل تفوقت عليه ، وأصبح الكتاب بمنزلة أرفع من منزلة الشعراء ، وصارت بأيديهم أزمة البيان بعد أن رفع رايته الشعراء دهوراً طويلة من قبل .

وكان الكتّاب يحرصون على ألوان معينة من الثقافة يتزودون بها ولا تخلو مكتباتهم منها ، منها محفوظهم الوفير من الشعر القديم والنثر ، وكان بعض الأدباء يبالغ فى الحفظ فيحفظ كتباً بتمامها ، وكانت هناك كتب تحظى دون غيرها بالعناية والحفظ والدراسة ، وقام على شرحها وتذييلها جماعة العلماء واللغويين والأدباء ، وعلى رأس هذه الكتب « الحماسة » لحبيب بن أوس أبى تمام ، وكانت لها مكانة خاصة فى نفوس الأدباء ، وقل أن نجد أديباً معروفاً منهم لم يقرأ « الحماسة » ولم يحفظ منها كثيراً إن لم يكن قد حفظها كلها ، وكانوا يستشهدون بأبياتها فى كتبهم ورسائلهم ، بل ويقتبسون فى أشعارهم معانيها وألفاظها . وقد أشار ضياء الدين بن الأثير من كتاب العصر فى مقدمة كتابه « المثل السائر » وفى مواضع منه ، وفى بعض كتبه الأخرى إلى حفظه للحماسة . وكى نعطى صورة لمدى اهتمام علماء العصر بهذا الكتاب نقول إنه قد تناوله بالشرح جماعة من أعلام اللغويين كالخطيب التبريزى ، إذ شرحها ثلاثة شروح [١] ، والبيهقى [٢] ، وابن عصفور النحوى الأندلسى (المتوفى سنة ٦٦٩ هـ) [٣] . وعارضها بجمع مجموعات شعرية مماثلة جماعة كابن الشجرى ، وحماسته معروفة متداولة بين الناس ، وشميم الحلى [٤]

---

(١) إرشاد ٧ — ٢٨٧ ، وفيات الأعيان ٢ — ٢٣٨ .

(٢) إرشاد ٥ — ٢١٣ .

(٣) فوات الوفيات ٢ — ٨٥ .

(٤) إرشاد ٥ — ١٣٩ وفيات الأعيان ٣ — ٢٦ .

وصدر الدين البصرى (المتوفى سنة ٦٤٧ هـ)، وقد ألف للملك الناصر صلاح الدين حفيد السلطان صلاح الدين كتاب «الحماسة البصرية»، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية، ومكتبة بلدية الإسكندرية.

ويأتى مع «الحماسة» كتاب ديوان أبى الطيب المتنبى، وكان عدة الأدباء، وزاد الشعراء يستقون منه كل طريف بديع، يقول ابن خلكان عند كلامه عن الأديب البيَّاسى الحافظ: «بلغنى أنه كان يحفظ كلام الحماسة تأليف أبى تمام وديوان أبى الطيب المتنبى، وسقط الزند ديوان أبى العلاء المعرى» (١). وقد شرحه التبريزى، وابن عصفور، وختم ابن الشجرى أماليه بمجلس قصره على أبيات من شعر أبى الطيب (٢).

واهتم الناس بشخصية المتنبى الشاعر، فجمعوا أخباره، جمعها ياقوت الحموى (٣)، وابن البلطى النحوى المصرى (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ).

والكتاب الثالث مما اهتم به الناس «مقامات الحريرى»، كان يحفظها الأدباء والعلماء مع شرحها لما تحويه من ثروة لغوية وأدبية. قال ابن خلكان فى ترجمة العماد المحلى الكاتب الناظم الأديب: «وكان يحفظ المقامات ويشرحها» (٤)، وذكر ضياء الدين بن الأثير فى «الوشى المرقوم»: أن مقامات الحريرى وخطب ابن نباته كانتا عكازى أهل الزمان من متعاطى صناعة الإنشاء، وذكر الشريشى مدى إعجاب الناس بمقامات الحريرى وسيرورتها منذ ظهورها إلى عصره فقال: «منذ ظهرت مقامات الحريرى لم تستعمل مقامات البديع، ثم إنه طبق استعمالها آفاق الأرض» (٥).

وممن تولى شرحها فى الإقليم الشرقى أبو سعيد البندهى الخراسانى (المتوفى سنة ٥٨٤ هـ) فى خمسة مجلدات كبار، «واستوعب فيه ما لم يستوعبه غيره من

(١) المصدر نفسه ٥ — ٩٦ وفوات الوفيات ٢ — ٦١٠.
(٢) وفيات الأعيان ٥ — ١٨٠.
(٣) وفيات الأعيان ٢ — ٢٩٦.
(٤) الوشى المرقوم ص ٦.
(٥) شرح الشريشى جـ ١ ص ١٥.

شراح الكتاب » [1] ، وشرح مشكلاتها ببغداد على بن زيد البيهقى [2] ،وشميم الحلى من الحلة بالعراق أيضا . وقد سئل شميم هذا عمن يرضى عنه من المتقدمين فذكرالمتنبى فى مديحه ، وابن نباته فى خطبه ، والحريرى فى مقاماته [3] . وفى الشام شرحها فى حلب أبو محمد القاسم بن عمر الواسطى نزيل حلب [4] ، وفى مصر شرحها أبو الخير الأنبارى النحوى (المتوفى بمصر سنة ٥٩٠ هـ) . كما شرحها بالمغرب الشريشى [5] .

ولم يكتف الأدباء والعلماء بشرحها ، بل حاولوا معارضتها ، فعارضها ملك النحاة الحسن بن أبى الحسن (المتوفى سنة ٥٦٨هـ)[6] .وقلدها بالفارسية حميد الدين البلخى [7] ، وألف ابن الخشاب النحوى (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) كتاباً فى الرد على الحريرى فى مقاماته [8] .

ويرجع اهتمام الأدباء والعلماء بهذه المقامات إلى أنهم كانوا يرون فيها وفى ديوان المتنبى أكمل تعبير عن روحهم كما ذكر بروكلمان ، أوأرفع نموذج للأدب العربى بشطريه النثر والشعر حسب ذوق العصر ، كما اعتبرا مرجعاً لغوياً لما يحويانه من غريب الألفاظ ، وفصيح التراكيب ؛ كما أن المقامات تحوى أبواباً فى النحو واللغة والبلاغة موجزة وقد وجه إليها الشراح هممهم ، ففصلوها بعد إجمال ، وعلقوا عليها ، وزادوا فيها .

٣

وكانت صور الأدب النثرى وفنونه هى نفسها تقريباً الصور والفنون التى عرفت من قبل فى الأدب العربى ، ونعنى بها الخطب والرسائل ، وزادت عليها المقامات وهى أحدثها ظهوراً فى الأدب النثرى، وكان لمقامات الهمذانى ، والحريرى أثر واضح

---

(١) وفيات الأعيان ٤ — ٢٣ .
(٢) إرشاد ٥ — ٢١٢ .
(٣) معجم الأدباء ٥ — ١٣٨ .
(٤) وفيات الأعيان ٦ — ٤٠ .
(٥) وهى ثلاثة شروح طبع أكبرها بالقاهرة سنة ١٣٠٠ هـ .
(٦) إرشاد ٣ — ٧٥ .
(٧) Browne : 346-349
(٨) إرشاد ٤/٢٨٧ .

فى انتشار هذا الفن الجديد وظهوره بين الفنون الأخرى ، وقوى أيضاً فن القصص ، فأخذ يشيع وينمو ولكن فى المجال الشعبى وباللغات العامية المختلطة بالفصحى أحياناً ، وقوى فن القصص وأضيفت نماذج جديدة من القصص الطويل إلى ما عرف من قبل مثل ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة ، وسيف بن ذى يزن ، فأضيفت سيرة صلاح الدين والأميرة ذات الهمة وغير ذلك مما جاء بعد كسيرة الظاهر بيبرس .

وقوى فن الخطابة والدينية خاصة ، فلم تكن فى هذا العصر أحزاب أو فرق متناحرة حتى تقوم أو تقوى الخطابة السياسية ، كما كان الشأن مثلا فى عصر بنى أمية ، ولم تكن هناك أيضاً حركات مذهبية أدبية أو عقلية تستدعى نهضة الخطابة الأدبية أو المحفلية كما كان الشأن فى مطلع عصر العباسيين حين قويت الخطابة الأدبية على أيدى المعتزلة . إنما قويت الخطابة الدينية فى هذا العصر لشيئين أولهما شعور المسلمين بالضعف أمام جحافل الصليبيين ورغبتهم فى استنهاض الهمم والحث على الجهاد وبذل النفس والنفيس فى سبيل نصرة الدين الإسلامى والأمة المحمدية ، والثانى هو غلبة العامل الدينى على النفوس ولجوء الناس إلى الدين باعتباره مخلصاً مما هم فيه من الرزايا والهموم .

وقد اشتهر جماعة من الخطباء الأئمة ، كانوا يعمدون إلى أن تأتى خطبهم مسجوعة ، وكانت تبدأ بحمد الله ، ثم بآيات من القرآن للتأثير بها على النفوس ، وكانت تختار الآيات ذات معان مقاربة لموضوع الخطبة لتكون استهلالا لها ومدخلا سهلا إلى النفوس لما يريد الخطيب أن يصبه فى الآذان ، وهكذا كانت خطب ابن الجوزى حين يعظ الناس ببغداد (١) ، وهكذا كانت خطبة ابن الزكى المشهورة فى فتح بيت المقدس (٢) ، واتخذ الخطباء فى هذا العصر من مجموعة خطب ابن نباته نموذجاً يحتذونه ، ويصنفون على شاكلته ، وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير فى الوشى المرقوم .

---

(١) راجع رحلة ابن جبير ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) وفيات الأعيان ٣ / ٣٦٥ — ٣٧١ .

والرسائل كان أهمها بطبيعة الحال الرسائل الديوانية التى تصدر عن ديوان السلطنة ، وكان يقوم على ديوان رسائله جماعة من الكتاب الفحول ، وأشهر من تولى الكتابة فى عصرنا ابن الخلال والقاضى الفاضل وعماد الدين الأصبهانى والقاضى ابن شداد ، والشاعر ابن مماتى والوزير ضياء الدين بن الأثير والصاحب البهاء زهير .

وكان الكتاب يتأنقون فى كتابتهم « فيعرضون فيها لألوان شتى من التعب الفنى ، وحققوا فيها أموراً كثيرة ربما لا تتحقق كلها حتى فى الشعر المتكلف[1] » وبهذا صارت الكتابة أشق فى كثير من الأحيان من الشعر ، وصار الكتاب يفخرون بفنهم الدقيق ويتيهون على الشعراء .

وإلى جانب الرسائل الديوانية وجدت الرسائل الإخوانية ، التى يتبادلها الكتاب فى المناسبات ، فى التهانى ، والمداعبة ، أو فى الاشتياق وما إليه،وكذلك وجدت الرسائل المطلقة التى ينشئها الكاتب فى موضوع من الموضوعات التى يروق له الكتابة فيها ، فهى أقرب للمقال فى عصرنا الحديث ، ووجدت من هذا النوع رسائل فى وصف الحروب ، والقلاع والحصون ، ورسائل فى النيل وما إلى ذلك . ووجدت أيضاً أنواع أخرى من الرسائل تدور حول المنافرات والمناقضات وأيهما أنفع وأخطر ، أو كالكلام عن البلاد وفضائلها أو رذائلها كالكلام عن مصر والإسكندرية ودمشق وحلب وما إليها . ولم تقل هذه الرسائل عن الديوانية شأناً،بل من الوجهة الأدبية الخالصة هى أكثر أهمية وأكشف عن روح الكاتب وفنه.

وكانت الرسائل تلتزم نهجاً معيناً تكثر فيه من ذكر الشعر أو الاقتباس منه ، وكثيراً ما تفتتح به أو بآيات من القرآن ، ولكن الاستشهاد بالقرآن والحديث كان أوضح فى الرسائل الديوانية منه فى الرسائل الإخوانية والفنون الأخرى . وهذا طبيعى ، لأن رسائل الدولة موجهة إلى الناس تخاطب فيهم الناحية الدينية فى أمور عيشهم وتدبيرهم وحقوق الدولة عليهم . وقد برع كتاب هذا العصر فى استخدام القرآن والحديث فى الرسائل عن طريق الاقتباس أو التضمين أو تقليدهما أو الإشارة إلى ما فيهما من أمر ونهى وعظة وقصص وما شابه ذلك .

وكذلك كان فن الكتابة يعتمد على القصص والأخبار والشعر والأمثال

---

(١) عبد اللطيف حمزة فى أدب الحروب الصليبية ١٧٥ .

السائرة ، يضمنها الكتاب رسائلهم أو يستخدمون بعض معانيها أو ألفاظها فيوشحون بها جملهم وعباراتهم ، أو يشيرون إلى بعضها عن طريق إبراز طرف منها ويتركون للقارئ الاستنتاج وإتمام البقية فى الشعر أو القصة .

وتعقدت صنعة الاقتباس والتضمين والإشارة فى الرسائل إلى درجة لم يبلغها الشعر نفسه كما قلنا . لهذا لم يكن غريباً أن يصبح للرسائل كما لكل صنعة دقيقة أصول وأسباب وآلات ، وأن يكون لها رواد ينهجون الطريق ويبينون معالمه ويسير وراءهم غيرهم من السالكين . وقد ألف جماعة من الكتاب كتباً فى فنون الرسائل وأصول النثر والنظم ، ومنهم ضياء الدين بن الأثير فقد ألف كتباً عدة فى هذا الموضوع ، منها — بل على رأسها — « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » و « الجامع الكبير فى فنى المنظوم والمنثور » و « الوشى المرقوم فى حل المنظوم ونظم المنثور » ، ومنها « معالم الكتابة » لعلى بن شيث ، « وحسن التوسل إلى صناعة الترسل » لشهاب الدين الحلبى .

ومن أعلام الكتابة فى هذا العصر القاضى الفاضل ، فهو زعيم الكتابة فى عصره غير مدافع ، و (توفى سنة ٥٩٦ هـ) ، وقد اصطنع لنفسه طريقة سار عليها وتبعه فيها التابعون [١] .

وفن المقامات ظهر فى الأدب العربى فى القرن الرابع الهجرى ، وكانت إذ ذاك محاولات أولى ، ويأخذ من فنى القصة والرسالة ، فيأخذ من القصة الأحداث وتتابعها ، والشخصيات والحوار ، ومن الرسالة التأنق فى العبارة واستخدام المحسنات كالسجع خاصة ، والتوشيح بالشعر والقرآن والأمثال وما شابهها . وقد ابتدعها بديع الزمان الهمذانى (المتوفى سنة ٣٩٣ هـ) بهراة « وقد أملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندرى فى الكدية وغيرها ، وضمنها ما تشتهى الأنفس من لفظ أنيق قريب المأخذ وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجد يروق فيملك القلوب وهزل يشوق فيسحر العقول »[٢] .

« والمقامات معناها المجالس ، ومقامة مفعلة من القيام كمكان ومكانة ، وهما

---

(١) أدب الحروب الصليبية ١٧٩ .

(٢) شرح المقامات الحريرية للشريشى ١/١٠ ط بولاق سنة ١٣٠٠ هـ .

اسمان لموضع القيام إلا أنهم اتسعوا فيه ، فاستعملوهما استعمال المكان والمجلس . . . إلى أن قيل لما يقام به فيها من خطبة أو عظة أو ما أشبهها مقامة ، كما يقال له مجلس يقال مقامات الخطباء ومجالس القصاص » (١) .

ويرى نيكلسون فى المقامة تقدماً نحو الفن القصصى الذى لم يكن – فى رأيه – موجوداً عند الساميين (٢) .

وأصبحت المقامات منذ ابتدعها الهمذانى نموذجاً لذلك النوع من الكتابة والشخوص التى ابتدعها والنمط الذى ابتكره كلها بقيت ، لم تتبدل عند تابعيه ، بل عاشت وتطورت (٣) ، وقد نسج الحريرى على منوال الهمذانى « واستعمل بعض أسماء مقاماته ، وقفى أثر عيسى بن هشام بالحارث ابن همام ، وعارض طرح الإسكندرى بما نسجه أبو زيد السروجى ، وعلى كل تقدير فالبديع عرابة هذه الراية وعباس هذه السقاية » كما يقول ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب (٤) .

وتحوى المقامات مجموعة من القصص أو سلسلة من الحكايات القصيرة المفضلة والتى تكون فيما بينها مجموعة من الحلقات فى سلسلة حوادث تقع لبطل المقامات فى صورة من النثر المسجوع والشعر ، وليست القصة وموضوعها شيئاً إلى جانب الأسلوب الذى هو كل شىء ، والحقيقة أن مقامات الحريرى اكتسبت شهرتها عملا أدبياً فائقاً لأسلوبها ورصانة عبارتها ورونق فقراتها . ويبدو أن الحريرى اصطنعها ليعرض على مواطنيه اللغويين والنحويين فى البصرة قدرته ، وليمتع أصحاب اللغة والنحو بدقيق تراكيبه وغريب ألفاظه ، ويبدو كذلك أنه قصد من عمله هذا أن يبرز أقصى ما للغة العربية من قدرة جمالية وبراعة لفظية وروعة بيانية (٥) . ولعله لم ينس أثناء صياغتها أن الغرض الأول لمقاماته هو الإمتاع والتسلية لما يعمد إليه خلالها من براعة الوصف والحوار وتنميق العبارات (٦) .

---

(١) المطرزى فى شرح مخطوط للحريرى ورقة ٤٥ .

(٢) Nicholson : A Literary History of Arabs p. 328

(٣) راجع Nicholson : A Literary History of Arabs p. 329
وراجع Gibb : Arabic Literature p. 87

(٤) خزانة الأدب ص ١٣٣ .

(٥) راجع Nicholson 336

(٦) راجع Gibb : 9

ويرى نيكلسون فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » أنها بتلك الخصائص أصبحت – على الرغم من قلة أصالتها عن زميلاتها الهمذانية – مقدمة متفوقة عليها فى القدرة اللغوية بحيث صارت قطعة ممتازة فى الأدب العربى لثمانية قرون ، وبحيث اعتبرت أحياناً بعد القرآن الكنز الأول للسان العربى[1] .

وأخذ الفن القصصى ينمو ويزدهر فى هذا العصر والعصور التالية فصاحة وبلاغة وأضيفت مجموعات جديدة إلى ألف ليلة وليلة فى العراق ومصر ، وإن كان بعض الباحثين يرى أن ذلك القصص متقدم بكثير [2] ، ولكن مما لا شك فيه أنه قد زيدت إلى الأصل مجموعة كبيرة ابتداء من القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى ، وهى زيادة تدل دون ريب على عبقرية قصصية عاشت بين الناس فى ذلك العصر ، ولم يستطع الأدب الرفيع أن يحظى بها ، ويأخذ بأسبابها ويسايرها .

ومن فنون النثر كذلك فى العصر المذكرات ، وأشهرها كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، وهو صورة مشوقة لحياته وحياة عصره ، وفيها يتحدث عن مغامراته والأحداث التى لاقاها فى الشام ومصر ، مع أهله وعمه ، ومع خلفاء الفاطميين ووزرائهم ، ومع الصليبيين وقوادهم . وهى وقائع شيقة طلية فيها الطرافة ، ولا تعدم المادة التاريخية التى أغفلها التاريخ من الجوانب الخاصة فى حياة الناس وأحداث العصر .

وظهر كذلك أدب الأسفار والرحلات ، وأشهرها كتاب « سفرنامة » بالفارسية لناصر خسرو ، قبل هذا العصر بقليل ، وكان قد وفد من بلاده فارس إلى مصر فى عصر الفاطميين ، ويصور فى الكتاب رحلته ، وما دار له ، و « رحلة ابن جبير » ، وتعد درة من درر أدب الأسفار والرحلات لما يمتاز به الرجل من أسلوب سهل معبر ، لا يلتزم فيه السجع ولا المحسنات فجاءت رحلاته قطعة أدبية جميلة ، وبها مقطوعات يتجلى فيها فنه ، ويمتاز بالقوة الفائقة على تصريف الكلام مما يجعلنا نضع ابن جبير فى مصاف كبار أدباء العصر . وليست « رحلة ابن

---

(١) راجع Nicholson : A Literary History of Arabs p. 336
- واجع كذلك تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (مترجم) ، ٢ / ١٣٥ .
(٢) راجع مقال « ألف ليلة وليلة » فى دائرة المعارف الإسلامية .

جبير » مقصورة فى روعتها على الأسلوب وجمال العرض ، بل إنه يمتاز فيها بملكة « لاقطة » مصورة ، يزور البلاد الإسلامية فيقع فيها على بعض المعالم البارزة فيصفها لك ، وكأنك تشاركه النظر ، ويختلط بأهلها فيرى صنوفاً من التقاليد والعادات التى تبدو لديه غريبة ، فيصفها لك بشعور الغريب الذى يقف من تلك العادات موقف الاستنكار أحياناً ، أو الرضى والترحيب أحياناً .

وهو فى استعراضه ناقد فنان ، له من اطلاعه وخبرته الطويلة فى الأسفار خير معين على تجلية ما يصوره لك بقلمه .

وبعد ابن جبير يأتى ابن بطوطة ، وهو جواب أقطار وصاحب أسفار طويلة بعيدة غريبة ، تلمس فى رحلاته تعدد البلاد التى زارها إسلامية وغير إسلامية ، وتقع على عادات غريبة وطبائع طريفة ، وتختلف عن ابن جبير بالتعدد والخروج عن العالم الإسلامى إلى بلاد أخرى مختلفة ، وابن جبير يطلعك على مازار من بلاد المغرب ومصر والحجاز والعراق والشام ، ولا يعدو ذلك إلى غيرها ، بخلاف ابن بطوطة ، إلا أن ابن جبير أجمل أسلوباً وأرفع عبارة وإن امتاز ابن بطوطة بعنصر التشويق والإغراب .

وكان للأدب خصائصه فى كل إقليم من أقاليم العالم الإسلامى الثلاثة التى أشرنا إليها : المشرق وإقليم الوسط والغرب والأندلس ، ففى الشرق ازدهر الأدب فى بلاطات سلاطين السلاجقة وخاصة السلطان سنجر [1] ، وسلاطين الخوارزميين [2] وكانوا يعشقون الأدب والأدباء ، ويقربون الكتاب ويستوزرونهم وكان الكتاب يدونون رسائلهم وإنتاجهم بصفة عامة باللغتين العربية والفارسية [3] .

وممن اشتهر من رجال الدولتين رشيد الدين الوطواط الكاتب الأديب صاحب التصانيف والرسائل الكثيرة بالعربية والفارسية ، ومن رجال الدولة الخوارزمية خاصة فى الأدب والإنشاء ابن الأصباغى وزير السلطان محمد خوارزمشاه (المتوفى سنة ٦٠٠ هـ) وكان منشئاً فاضلا بليغاً أديباً [4] .

---

(١) راجع Browne : 344 .

(٢) الدولة الخوارزمية ص ٧٧ — ٨٩ .

(٣) Browne : 317

(٤) الجامع المختصر ٩ / ١٣٩ .

ويغلب على كتابات المشرق الطابع العقلى ، لكثرة أخذهم بعلوم الفلسفة والمنطق والطبيعيات ، وقد ازدهرت هذه العلوم كما قلنا فى بيئات مشرقية فى هذا العصر مثل خوارزم .

وفى المغرب والأندلس كان للأدب شأنه كذلك فى ظل الدولة الموحدية فكان يعقوب بن عبد المؤمن (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) مقرباً للأدباء ، مصغياً للمديح مثيبًا عليه ، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكورانى كتابه الذي سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر [1] ، يقول عنه ابن خلكان : « وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق ، وكانت له نوادر نادرة ، وملح مستطرفة عند أهل الأدب » . وقد اتصل أهل المغرب والأندلس خاصة بالفرنجة وقتاً طويلا ودهوراً متصلة مما جعلهم يقتبسون بعض آدابهم وآرائهم كما كان للطبيعة السخية الجميلة فى الأندلس أثرها فى أدب هذا الإقليم . وقد ظهر فى هذا العصر من الأدباء الكبار الفتح بن خاقان (المتوفى سنة ٥٣٥ هـ) والشريشى شارح المقامات .

وقابل عصر الأيوبيين فى المشرق عصر الموحدين فى المغرب والأندلس (٥٤١ — ٦٦٨ هـ) . ونبغ فى ظلهم جماعة من المفكرين وكبار الفلاسفة كابن طفيل وأبى الوليد بن رشد، وابن البيطار . كما أمهم جماعة مشهورى شعراء العصر كابن زُهر (ت ٥٩٦هـ) والرصافى البلنسى (ت ٥٧٣ هـ) ، وعرف كذلك إبراهيم ابن سهل الإسرائيلى (ت ٦٤٩ هـ) برقة شعره، وخاصة الغزل .

---

(١) وفيات الأعيان ٦ / ١٢٠ ، ٦ — ١٣٧ .

أعيان الأدباء والكتاب

هناك خصائص نستطيع أن نقول إنها خصائص عامة لكتابة هذا العصر بصفة عامة كما أن هناك خصائص خاصة بكل إقليم وبكل كاتب وأديب ، وقد أشرنا إلى هذه الخصائص عند الحديث عن فن الكتابة أو النثر ، ويصح هنا أن نكرر القول بأن كتاب المشرق كانوا يمتازون عن كتاب مصر بطابع يعتبر علماً على كل من الإقليمين ، وسنراه جلياً عند الحديث عن المشهورين منهم .

المشرق والعراق

رشيد الدين الوطواط :

وأشهر كتاب العصر فى الشرق فى فارس رشيد الدين الوطواط (المتوفى سنة ٥٧٣ ﻫ) واسمه محمد عبد الجليل البلخى ، وظل فى خدمة الخوارزميين منذ أيام السلطان آتسز خوارزمشاه (٥٢١ ﻫ - ٥٥١ ﻫ) فاتخذ منه رفيقاً خاصاً ، كما جعله شاعراً للبلاط ، وقد كان لسان السلطان يمدحه ويهجو عدوه السلجوقى سنجر ويهجو شاعره أنورى[١] ، وله ديوان يحوى ١٥٠٠ بيت مميزة بجمالها وبلاغة أسلوبها كما ينقل براون عن دولتشاه [٢] . وكان إلى جانب منزلته فى الشعر كاتباً بليغاً ذا أسلوب أخاذ ، تبادل الرسائل مع كثير من علماء العصر وأدبائه وتبادل الرسائل مع الحسن القطان . أورد ياقوت أمثلة منها[٣] . وتدور حول الهجاء والسباب ، وأسلوب الوطواط فيها جيد مسجوع إلا أن السجع فيه غير رشيق ، بل هو ثقيل متكلف . كذلك راسل الزمخشري — ويقول ابن رشيق إن شعر الوطواط دون نثره جودة ، قال براون : ولسانه حاد لاذع .

---

(١) الدولة الخوارزمية ٨٧ .

(٢) Browne 333

(٣) معجم الأدباء ٣ / ١٦٩ — ١٧٧ .

وله ديوان رسائل ، سمى القسم الثانى منه أبكار الأفكار . وله كذلك كتاب فى البلاغة سماه (حدائق السحر) وهو مطبوع ، ويقول براون إنه ربما كان كتاب (ترجمان البلاغة) المفقود للفرّخى . وله كتاب (صد كلمة) أى مائة كلمة . وهو بالفارسية ، عن خطب الخلفاء الأربعة ومنه مخطوطات فى ليدن وكمبردج تشمل الكتاب جميعه ، إلا أن الجزء الخاص بكلام على أكثر شيوعاً فى فارس . وهو مطبوع هناك على حدة .

جلال الدين أبو الحسن :

بالعراق وكان من مشاهير الكتاب البلغاء، اتصل بسيف الدين غازى وصاحبه وصار له وزيراً ، أعجب به ابن خلكان وبالغ فى وصفه وتقريظه وفضله على كل من تقدمه من الفصحاء [١] ، وكان له ديوان رسائل أجاد فيه وجمعه ابن خلكان . وراسل حيص بيص الشاعر وكانت بينهما مكاتبات وتوفى سنة ٥٥٤ هـ .

ابن حمدون :

محمد بن الحسن بن محمد بن على بن حمدون الكاتب البغدادى (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) من بيت فضل وديانة . كان ذا معرفة بالأدب والكتابة سمع وروى وصنف كتاب « التذكرة » فى الأدب والنوادر والتواريخ. وهو كتاب كبير يدخل فى ١٢ مجلداً واتصل بالمستنجد الخليفة العباسى واختص به ونادمه، وولاه الخليفة الزمام [٢] .

وقد كان ابنه كذلك من الأدباء العلماء ، لقيه ياقوت ، وقال إنه كتب بالديوان العزيز ببغداد، وكان من المحبين للكتب، وقال إنه ألف كثيراً من الكتب [٣] .

الواسطى :

قوام الدين بن زبارة الكاتب المنشىء ، وكان من الصدور الأوائل (توفى سنة

---

(١) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ٤ / ٢٣١ .

(٢) فوات الوفيات ٢ /٣٧٨ .

(٣) إرشاد ٣ / ٢١٠ .

٥٩٤ هـ) . قال ابن خلكان : « انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته فى الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك ، وله النظم الجيد . جالس الجواليقى وأخذ عنه وخدم الديوان ببغداد فى صباه. وكان مليح العبارة فى الإنشاء، جيد الفكرة ، حلو الترصيع ، لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه فى رسائله العناية بالمعانى أكثر من طلب السجع ، وله رسائل بليغة وفضله أكثر من أن يذكر » . تولى النظر بديوان البصرة، وواسط والحلة . ولم يزل على ذلك إلى أن رتب حاجباً بباب الخليفة ، وقلد النظر فى المظالم ثم عزل ، ثم رتب استاداراً وعزل، ثم عاد إلى واسط وأقام بها إلى أن استدعى فى رمضان سنة ٥٩٢ وقلد ديوان الإنشاء ثم ولى ديوان المقاطعات وظل بها إلى أن توفى .

قال ابن خلكان : « وله كل معنى مليح وله ديوان رسائل ، وقعت عليه فى بلادنا ولم يحضرنى شىء منه أثبته ههنا » .

المدائنى :

أبو الفوارس نصر بن نصر بن ليث بن مكى الكاتب (المتوفى سنة ٦٠٥ هـ) وقد اشتغل ببغداد وأقام بها واستوطن ، ثم خدم بالديوان وعلت منزلته ورتب مشرف دار التشريفات المعمورة ثم الإشراف بالديوان المفرد ، وتولى عدة مناصب أخرى ولم يزل فى علو من شأنه وإقبال من سلطانه إلى أن توفى شاباً . وكان فيه فضل وكتابة وعنده أدب ويقول الشعر [1] .

فى الشام ومصر

اختلفت الكتابة فى مصر والشام عن العراق وفارس ، لأن الصنعة فى هذا الإقليم لم تكن ثقيلة ، بل كانت صنعة رقيقة رشيقة وكانت الصنعة الممثلة فى المحسنات اللفظية والمعنوية غالبة كما هو الحال فى كتابة العصر إلا أنها صنعة فيها ذوق وروح ليست جافة يابسة بأشكالها وقوالبها ، وخير مثال لهذا النوع كلام القاضى الفاضل

---

(١) الجامع المختصر ٩/٢٧٩ .

وطريقته ، فقد افتن فيها كل افتنان ، ويقال إنه أخذ هذه الطريقة عن ابن الخلال الكاتب المصرى ، وسنعرض لها مفصلا عند الحديث عن الثلاثة الكبار القاضى الفاضل ، والعماد الأصبهانى ، وابن الأثير .

وضمت مصر فى عصر الفاطميين جماعة من الكتاب تمرسوا فى الكتابة الإنشائية :

ابن الشحناء

ومن بينهم الحسن بن محمد بن عبد الصمد بن الشحناء (توفى سنة ٤٨٢ هـ) قال عنه ياقوت : « أحد العلماء الفصحاء وله رسائل مدونة مشهورة . قيل إن القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى منها استمد وبها اعتد . وقد كتب للمستنصر فى ديوان الرسائل بمصر [١] .

وابن الصيرفى

على بن منجب (توفى سنة ٥٥٠ هـ) من فضلاء الكتاب المصريين وأدبائهم وبلغائهم . وكان أبوه صيرفيًّا واشتهى هو الكتابة فهر فيها ، وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة ، واشتغل بكتابة الجيش والخراج . واستخدمه الأفضل الجمالى فى ديوان المكاتبات ، ورفع من قدره وشهره ، وأراد أن يوليه ديوان الإنشاء ، وله كتاب « الإشارة فيمن تولى الوزارة » وكتب أخرى ، وله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء مثل ابن السراج وأبى العلاء وغيرهما ، وله ديوان رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربعة مجلدات [٢] . وقال عنه السلفى : من أجلاء الكتاب وأعيان أهل الأدب ، وله مجموعات . رأيته بمصر سنة ٥١٥ هـ وحين عزمت الخروج كتبت إليه فى إثبات أبيات من نظمه بخطه ، فكتب فى الجواب « وأما ما استدعاه من شعرى فوالله ما تعرضت قط للنظم لأنه لا جواهر عندى تصان به » فاستحسنت لفظه الذى صدر عنه وقنعت بهذا القدر منه [٣]

---

(١) إرشاد ٣ / ١٩٥ .

(٢) معجم الأدباء ٥ / ٤٢٣ .

(٣) معجم السلفى مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .

ابن الخلال [١]

يوسف بن محمد المتوفى سنة ٥٦٦ هـ . من أعيان الكتاب المصريين وفضلائهم، كان صاحب ديوان الإنشاء بمصر فى دولة الحافظ الفاطمى . وقال عنه العماد الأصبهانى : هو ناظر مصر وإنسان ناظرها ، وجامع مفاخرها ، وكان إليه الإنشاء وله قوة على الترسل ، يكتب كما يشاء . عاش كثيراً ، وعطل فى آخر عمره ، وأضر ولزم بيته، وتوفى بعد أن تملك الملك الناصر بثلاث أو أربع سنين ، وله مقاطيع من الشعر ، وأخذ عليه القاضى الفاضل وتأثر به كثيراً .

ابن الجراح .

أبو الحسن يحيى بن أبى على الكاتب المصري (المتوفى سنة ٦١٦ هـ) كتب فى ديوان الإنشاء بالديار المصرية مدة طويلة وكتب كثيراً ، وكان خطه فى غاية الجودة وكان فاضلا أديباً متقناً له نظرة حسنة وشعر فائق ورسائل أنيقة . سمع على الحافظ السلفى بالإسكندرية وتوفى بدمياط ساعة حصارها بالفرنج .

ابن شيث [٢]

جمال الدين عبد الرحيم بن على بن إسحاق بن شيث (توفى سنة ٦٢٥هـ) العالم الفاضل . كان الله تعالى قد جمع له من الفضل والمروءة والإحسان إلى حسن الخلق . ماقصده أحد فى شفاعة فرده خائباً ، وكان كثير الصدقات واسع المعروف ، غزير الإحسان ، وكان القاضى الفاضل يحتاج إليه فى علم الرسائل، وكان إماماً فى فنون العلوم من المنظوم والمنثور .

وله تصانيف كثيرة ظريفة ورسائل وأشعار لطيفة ، وكانت وفاته بدمشق ودفن بقاسيون . وكان المعظم عيسى يكرمه . وقد جعل له راتباً يقوم بأوده .

---

(١) كتاب الروضتين ١/١٩٢ وراجع كذلك Stanely Lanepoole His of Egypt in the Moyen Ages p. 188 ١ — ١٩٢ والمختصر ٣ — ٥٠ .

(٢) مرآة الزمان ٨/٦٥٣ .

القاضى الجليس [١]

عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى الصقلى (المتوفى سنة ٥٦١ هـ) تولى ديوان الإنشاء للفائز مع الخلال ، وله رسائل وشعر .

خصائص الفن الكتابى

فى آخر عصر الفاطميين وعصر صلاح الدين :

قال أبو شامة فى الروضتين عن منشور كتبه أحد كتاب الخليفة الفاطمى بتقليد أسد الدين شيركوه : « ثم ذكر باقى المنشور ، وهو مشتمل على كلام طويل وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين ، والبلاغة عكس ذلك ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : بعثت بجوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصاراً » .

فأبو شامة يأخذ على الكاتب التطويل بزيادة الألفاظ والمعنى واحد محدود والبلاغة هى الإيجاز ، كما يفهمها العرب ، وكما نوه عنها النبى صلى الله عليه وسلم.

وكذلك كان السجع — وهو طابع عام — يغلب على الكتاب ، وهو سجع يعمد إليه الكتاب عمداً ، ومثاله منشور آخر لأحد كتاب نور الدين محمود بالشام [٢] ، نلاحظ عليه هذا اللون المتكلف من السجع والذى يختلف عن سجع القرنين الرابع والخامس ، فقد كان سجعاً فيه رونق الزخرف وعليه سيما الصنعة الجميلة لا الصنعة المعقدة التى أطلق عليها الدكتور شوقى ضيف بحق اسم التصنع . يقول : « ولعل أهم عامل تفترق به مقامات الحريرى عن مقامات البديع هو أنها كتبت فى ظلال مذهب التصنيع وزخرفه » [٣] .

كذلك الحال فى الجناس ، وما ابتدعه الحريرى فى هذا الفن من ضروب عجيبة أشرنا إلى بعضها فى الحديث عن الأدب والمقامات ، والتضمين بالشعر والقرآن والحديث .

ولم يكن هذا التضمين مجهولا فى فن الكتابة إلا أنه مع ذلك لم يدخل فيها

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٥٧٧ .

(٢) الروضتين ٢ / ٥٨٣ .

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٤٩ .

عنصراً تقوم عليه دعائم هذا الفن ،وتكون له أصوله التى تحتذى وتؤلف فيها الكتب، وسنشير إلى ذلك عند الحديث عن الفن الكتابى عنده .

وقد كان الكتاب يحاولون بكثرة لجوئهم إلى التعقيد والإسراف فى الصنعة أن يوجدوا فناً جديداً يضارع الشعر ويفوقه أو كما يرى بروكلمان فى مقامات الحريرى أنها تمثل محاولة أخيرة من جانب الروح العربى إلى التماس فن ملائم من القول خارج نطاق الشعر التقليدى (١) ، ونرى للحريرى بعض رسائله المسرفة فى الصنعة .

يقول فى رسالة له التزم فى كل كلمة منها السين نظماً وكتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب صديقاً له أخل به فى دعوة ودعى غيره إليها وكتب على رأسها :

« باسم القدوس أستفتح ، وبإسعاده أستنجح ، سجية سيدنا سيف السلطان سدة سيدنا الإسبهسلار ، السيد النفيس ، سيد الرؤساء ، حرست نفسه ، واستنارت شمسه، وبسق غرسه ، واتسق أنسه استمالة الجليس ومساهمة الأنيس ومواساة النسيب ومساعدة الكسير والسليب . . . إلخ »(٢) .

ولم يوجد بمصر من حاول هذه المحاولة الشاذة عند الحريرى ، أو تمادى مثل ما تمادى فيه ، وإنه وإن كان وجد له بها مقلدون إلا أنهم لم يكثروا كثرة المقلدين من العراقيين والفرس ، وسرعان ما وجدنا محاولات التقليد فى مصر والشام تفشل أو يقضى عليها ، بينما نجد كثيراً من محاولات التقليد فى العراق وفارس تستمر، وقد ذكرنا قبل من قام بتقليده هناك ، ولعل هذا يرجع إلى الناحية التى أشرنا إليها فى بيان مصر والشام فى هذا العصر ، ونعنى به الجنوح إلى البساطة والخروج بالصنعة البيانية عن التعقيد ومجافاة الذوق ، والجهد والجفاف ، وسنجد عند الحديث عن القاضى الفاضل والعماد وابن الأثير ، أن القاضى الفاضل يختلف عن صاحبيه اختلافاً بيناً، وسبب هذا الخلاف وأصله راجعان إلى الخاصية المشار إليها. فأسلوب العماد متكلف ثقيل فى كل ما يكتب وكذلك صنعة ضياء الدين فى رسائله ، وإن كان

---

(١) بروكلمان تاريخ الشعوب ٢ / ١٧٢ .

(٢) أورد ياقوت الرسالة فى الإرشاد ٦ / ١٧٥ - ١٧٦ .

مرسله أحسن حالا من الرسائل، فأسلوبه فى كتابه المثل السائر مقبول بل جيد ، إذا قورن بما أورده من رسائله فيه ، وكذلك الحال فى كتبه الأخرى مثل كتاب « الاستدراك » .

ويشارك المصريين أهل الشام المغاربة ، وأهل الأندلس ، فإنهم لم يغرقوا فى الصنعة إغراق المشارقة ، ولم يخرج من بينهم واحد مثل الحريرى فى الكتابة ولا الأرجانى فى الشعر .

بل إننا نجد فى الشام من الكتاب من ثار على الصنعة اللفظية وعارضها ، كما وجد جماعة من الشعراء خرجوا على نهج البديع كذلك ، ومن هؤلاء الكتاب أسامة بن منقذ ، فقد كتب كتابه المسمى (بالاعتبار) فى أسلوب سلس سهل ، وعبارة قصصية بسيطة يضمنها مختلف مغامراته فى الحرب والسلم [١] .

كبار كتاب العصر

القاضى الفاضل

أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف أبى المجد على ابن الحسن بن الحسين اللخمى البيسانى .

ولد القاضى الفاضل ببيسان سنة ٥٢٩ هـ ونشأ بمصر وتعلم واشتغل بالدرس ، وبالأدب والرسائل . تحدث عن صباه ، وطلبه للعلم بمصر فقال : « أرسلنى والدى وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ — وهو أحد خلفائها — وأمرنى بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرّفته من أنا وما طلبتى رحب وسهل ثم قال : ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ، فقلت : ليس عندى شيء سوى أنى أحفظ القرآن وكتاب الحماسة . فقال : فى هذا بلاغ ، ثم أمرنى بملازمته [٢] » .

---

(١) بروكلمان ٢ / ٢٣٣ .

(٢) الوشى المرقوم لابن الاثير ٩ .

وإذاً فقد كانت تلمذة القاضى الفاضل فى فن الكتابة على ابن الخلال ، وكان قد اشتهر فى ديوان الرسائل ببلاغته ، وعرفت تلمذة القاضى على ابن الخلال عند الكتاب من بعد . قال ابن حجة : « الذى ثبت عند المؤرخين وعلماء هذا الفن — يعنى الكتابة — أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الإنشاء وحكمه عن موفق الدين ابن الخلال منشئ الخليفة الحافظ العلوى ، ورتبته فى الإنشاء معلومة »(١) .

وقد زاد أبو شامة على عبارة ابن الأثير شيئاً آخر ، ذلك أنه قال إن ابن الخلال أمره بملازمته « فترددت إليه وتدربت بين يديه ، ثم أمرنى بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية فحللته » فكأن ابن الخلال كان يرى أن أهم الآلات فى تعلم الإنشاء والكتابة هى حفظ القرآن وحفظ شعر الحماسة ، ثم محاولة الاستعانة بهما بالاقتباس والتقليد ، وأولى درجات الاستعانة هى التدرب على حل المنظوم إلى منثور ، أو محاولة فك الشعر والآيات القرآنية إلى جمل نثرية عادية تحتفظ بأكثر ألفاظ الشعر والقرآن ولكنها تنظم تنظيماً آخر من صنع الكاتب المنشئ ، وبهذا يستطيع الكاتب أن يتدرب على بناء كلمات من نسق رفيع فى عبارة من عنده ، ثم يتدرج فى ذلك فيستطيع أن يستعين بهذا الشعر وهذه الآيات فى المعانى التى يريدها مضيفاً إليها مايريد إضافته من ألفاظه هو حتى تتلاءم معها وتكون وإياها كالعقد الذى تتلاءم خرزاته ، وتتسق حباته .

وسنرى عند الحديث عن فن القاضى الفاضل أن هذا العنصر « الاقتباس وحل المنظوم » من أهم عناصر كتابته .

وتخرج القاضى على يد ابن الخلال ، فصار بارعاً قديراً فى الكتابة وإنشاء الرسائل ، واستطاع بمهارته أن يلى بعض المناصب الهامة فى دواوين الفاطميين ، وقد ذهب إلى الإسكندرية وتولى الكتابة بها على باب السدرة ثم اتصل بالكامل ابن شاور فاستكتبه . وظل بها زمناً ثم استدعاه العادل بن الصالح بن رزيك الوزير

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة ص ٥٣ .

الفاطمى إلى القاهرة سنة ٥٥٨ هـ وأسند إليه ديوان الجيش كما ذكر عمارة اليمنى فى « الوزارة المصرية » [١] .

قال الحموى فى ثمرات الأوراق : « ومن أيام العادل ابن رزيك الحسنة التى لاتوارى بل هى اليد البيضاء التى لاتجارى ، خروج أمره إلى والى الإسكندرية بإحضار القاضى الفاضل إلى الباب واستخدامه بحضرته فى الديوان ، فإنه عروس الدولة بل للملة ثمرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء » [٢]

واشترك فى الأحداث التى دارت بين شاور وضرغام قبل حضور شيزكوه ، وصلاح الدين إلى مصر [٣] .

وعندما جاء أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر ، وهزما شاور والفرنج ، واستقل شيركوه بالأمر وولى الوزارة ، طلب من القصر كاتب إنشاء ، فأرسل إليه القاضى الفاضل ، وقال أبو شامة فى الروضتين : إن القصر بعثه إلى أسد الدين شيركوه استبعاداً له ، ذلك أنه زاحم كتاب القصر فثقل عليهم أمره ، وعندما أرسلوه إلى شيركوه ظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم وأن أسد الدين سيقتله كما قتل من قبله ، يعنون ضرغاماً وشاوراً وابنه — وقالوا : لعله يقتل معه فنتخلص من مزاحمته لنا فكان من أمره ماكان [٤] .

فالرجل إذاً كان موضع حقد من منافسيه من كتاب الديوان والقصر ، وهو حقد تشهد الدلائل وخصائص الفاضل وطبائعه على أنه كان لتقدمه فى فنه ولاستقامته فى خلقه وأنه لا اعوجاج فيه كاعوجاج الموظفين فى عهده ، وهكذا أرادوا التخلص منه وأراد الله تعالى التمكين له فى دولة غير دولتهم ، دولة ناشئة فتية هى دولة صلاح الدين .

وجاء صلاح الدين إلى الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه . فتولى له الكتابة ثم أعجب صلاح الدين بتقواه وكثرة عبادته ، وباستقامته وحسن خلقه ، بفنه وأدبه . وعلمه . بذكائه وحسن تصريفه للأمور ، فاعتمد عليه ، وكان

---

(١) راجع الروضتين ١ / ١٣٠ .

(٢) ثمرات الأوراق ١٣٦ .

(٣) قال أبو شامة : إن ضرغام اعتقله مع الكامل ابن شاور سنة ٥٥٦ هـ . (الروضتين ١ / ١٦٦)

(٤) الروضتين ١ — ١٥٩

له وزيراً لا يستغنى عنه ولا يفارقه فى سلم أو فى حرب ، وكان صلاح الدين يقول فى حقه فى الملأ من الناس : « لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل »[١]

وبعد زوال الدولة الفاطمية حصل على قدر كبير من الكتب من مكتبة القصر الفاطمى ، وصحب الفاضل صلاح الدين فى وقعة الرملة . وعاد بعد أن كسر جيش صلاح الدين . وظل بمصر زمناً ثم عزم على الحج ، وكان صلاح الدين يعد جيشه للغزو[٢] . وعاد من الحج وتردد مع السلطان بين الشام ومصر ، ولكنه كان دائماً يفضل الإقامة بمصر . وفى سنة ٥٨٥هـ كان السلطان بالشام يدبر بعض أمورها ويقوم بتدعيم ملكه وإعداد جنده ،وكان الفاضل بمصر يرتب للسلطان أموره ويجهز العسكر ويعد الأسطول ويحمل إليه المال والميرة إلى عكا . والسلطان يكاتبه فى مهماته ، وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيراً وناصحا ومسلياً ، وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصيا »[٣] .

وفى سنة ٥٨٦ هـ غادر القاضى الفاضل مصر إلى صلاح الدين بالشام ، قال أبو شامة : « فوصل إلى العسكر المنصور فى ذى الحجة ، وكان السلطان متشوقاً لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين ، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة ، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى أركانه ، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام ، وإن تركه ناله وحشة التفرد بالقضايا والأحكام ، وكان يكاتبه يشرح له الأحوال »[٤] .

وإذاً فقد جمع القاضى بين فن الكتابة والسياسة وتدبير الملك ، ونجح فى كليهما نجاحاً كبيراً ، فكان خير سند لصلاح الدين فى كفاحه ، وواجه صلاح الدين أعداء العرب والمسلمين بالسيف والحرب والقتال وعاضده القاضى الفاضل ،

---

(١) مرآة الزمان ٨ / ٤٧٢ .

(٢) الروضتين ١ / ٢٧٥ .

(٣) الروضتين ٢ / ١٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٨٢ .

فحمى ظهره بالعون والتدبير وحشد الإمكانيات وتعبئة القوى فى مصر لمدده .

قال لانبول فى كتاب صلاح الدين : «ومع كتابة الفاضل الرائعة ، كان رجل خدمات عامة وإدارة ، فقد استعان به صلاح الدين فى مصر عند غيابه فى حروبه بالشام ، وكانت مصر وطنه المفضل المحبوب ، الذى لم يطق فراقه ولا البعد عن النيل الحبيب » [١]

وقال بروكلمان : « نهض بعبء الإدارة كلها منذ تم الأمر لصلاح الدين ، وعنى بتدوين يوميات رسمية طوال عهده بالإدارة العامة ، ولكن يد الزمان لم تحفظ لنا مع الأسف غير نتف صغيرة » [٢] .

وقال صاحب الجامع المختصر : « وكان صلاح الدين يحترمه ويعظمه ويرجع إلى قوله وإشارته »[٣] .

واستمر به الحال على هذا إلى أن توفى صلاح الدين ، فحزن عليه الفاضل ولم يطق الوزارة بعده ، وقد ظل زمنا وجيزاً وزيراً لابنه الأفضل ثم استعفى وعاد إلى القاهرة عاكفاً على الأدب والعلم ، يجمع حوله تلاميذه ومريديه من الأدباء والكتاب والشعراء ، وظل كذلك إلى أن توفى سنة ٥٩٦ هـ[٤] ودفن بظاهر القرافة بالقاهرة .

وقد اجتمعت للفاضل فى حياته أسباب الجاه ، والشهرة ، والغنى ، والعلم والخلق الكريم . كان ديناً صحيح العقيدة ، يحج إلى بيت الله كلما سنحت فرصة ذلك ، ويجاور هناك ، وكان خيراً ينفق من ماله على الفقراء ، وكان يبعث إليه السلطان بالمال ليفرقه على المحتاجين . بعث إليه مرة بثلاثة آلاف دينار ، وأمره بتفريقها على الفقراء والمجاورين[٥] .

وكان اهتمامه بالعلم بقدر اهتمامه بالدين والسياسة ، فأنشأ مدرسة سميت باسمه

---

(١) Lanepoole : Saladin 188

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ٢ / ٢٣٣

(٣) الجامع المختصر ص ٢٨ .

(٤) قال صاحب مرآة الزمان : « إنه لما استولى العادل على مصر وولى له الوزارة صفى الدين بن شكر خافه فدعا على نفسه بالموت حتى لا يهينه فأصبح ميتاً » .

(٥) الروضتين ٢ / ٧ .

وجعلها لتدريس المذهب الشافعى مع العلوم العربية الأخرى ، وضم إليها مكتبة زاخرة ، وقد جمع من مكتبة القصر وغيرها من مكتبات البلاد الإسلامية الشيء الكثير . ذكر صاحب المختصر فى التاريخ أنه كانت له خزانة تحتوى على ثلاثين ألف مجلد(١) . وذكر صاحب مرآة الزمان أن كتبه كانت مائة ألف مجلدة .

رسائله :

خلف تراثاً كبيراً من الرسائل . يذكر صاحب مرآة الزمان أنها تبلغ عشرة مجلدات (٢) . ويذكر ابن خلكان أن مسودات رسائله إذا جمعت ماتقصر عن مائة مجلد (٣) . وضاع كثير من هذه الرسائل ولم يبق غير بعضها متناثراً فى كتب الأدب والإنشاء . وقد روى منها أبو شامة فى الروضتين ، وكذلك النويرى فى نهاية الأرب (٤) ، والقلقشندى فى صبح الأعشى ، والحموى فى ثمرات الأوراق كما جمع ابن نباته المصرى مختارات منها (٥). وكذلك فعل ابن عبدالظاهر ؛ فقد جمع مختارات منها سماها (الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم) منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات (٦) إلا أننا مع ذلك نتمنى أن نعثر على جزء أكبر من رسائله ، فهى فضلا عن قيمتها الأدبية ، تصور أجمل تصوير وأدقه هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والشام ، وتجلى كثيراً من الغموض فى تاريخ الحروب الصليبية ودور مصر فيها .

وقد ذكر بروكلمان أن يد الزمان لم تحتفظ لنا مع الأسف بغير نتف صغيرة من يومياته الرسمية، أو رسائله الإدارية ، أما رسائله الديوانية فلم يصل إلينا منها غير نصوص لم تخثر — لسوء الحظ — من أجل أهميتها التاريخية بل لجمالها الأسلوبى(٧) .

---

(١) الجامع المختصر ٢٨ .
(٢) مرآة الزمان ٨ / ٤٧٢ .
(٣) ثمرات الأوراق ٥١ .
(٤) نهاية الأرب ٨ / ١ .
(٥) سماها « الفاضل من إنشاء الفاضل » ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .
(٦) ومنه نسخة فى مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١٢٤٢٧ — ج .
(٧) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٢ / ٢٣٣ .

قال فى بنى أيوب : « وقد كان يقالُ إن الذَّهبَ الإبريزَ لا تَدْخُل عليه آفة ، وإن يَد الدهْر البخيلةَ به كافَّة ، وأنتم يا بنى أيوب أيديكم آفةُ نفائِس الأَموال، كما أَن سيُوفكُم آفةُ نفوسِ الأَبْطَالِ ،فلو ملكتمُ الدَّهْرَ لامتطيتم لياليَه أداهمَ ، وتقلّدتُم أيامَه صَوارم ، ووهبتُم شموسَه وأقمارهُ دراهمَ . وَأَيامُ دولتِكُمْ أَعراسٌ ومآتم ، والجودُ فى أَيدِيكُم خاتم ، ونَقْشُ حاتِمٍ فى نَفس ذلك الخَاتَمْ »(١) .

وقال يصف جيشًا فى معركة : « فبَنتْ سنابك الخيل سماءً من العَجاج نجُومُها الأَسنَّةُ ، وطارت إليهم عِقبان الخُيول ، قَوادِمُها القوائمُ ، ومخالبها الأَعنَّة ، وتَصوَّبتْ عيُونُ السُّمْرِ إلى قلوبهم كأَنما تَطْلُبُ سوادَها ،وقصدَت أَنهَارُ السُّيوف صُدُورَهم لتروى أكبادَها »(٢) .

وقال يصف قلعة حمص : « والشيخُ الفقيهُ قد شَهدَ ما يُشْهدُ بهِ من كَونها نجمًا فى سحاب ،وعُقابًا فى عُقاب ،وهامةً لها الغمامة عمامة ،وأنملة إذا خضَّبها ا صيل كان الهلال منها قُلامة ، عاقدة حَبوةً صالحها الدهرُ على أَن لا يحلها بقرعه ،عاهدة عِصْمةً ، صالحها الزمنُ على أَن لا يُروعَها بخلعِه ، فاكتنف بها عقارب منجنيقاتٍ لا تطيع طبعَ حمصٍ فى العقارب ، وضَربَتْ حجارةً بها الحِجارة فأَظهرت فيها العداوةَ المعلومَةَ بين الأَقارب ، فلم يكُنْ غيرَ ثَالِثَةٍ من الحدِّ إلا وقد أَثرت فيها حُدَرِيًّا بضربها ، ولم تصل السابعَ إلا والحُجرانُ تنذرُ بنقبها ،واتسع الخرقُ على الراقِع، وسَقَطَ سَعدُها عن الطَّالِع . إلى موحِّد هو إليها الطالِعُ ، وفُتِحت الأَبراجُ فكانت أبوابًا ، وسُيِّرت الجبالُ فكانتْ سرابًا ، فهنالك بدت نقوبٌ يرَى قائمٌ من دونِها ما وراءَها ، وخُشيت فيها النَّارُ ، فلولا

(١) ثمرات الأوراق .

(٢) المصدر نفسه ١٣٢ .

الشُّعاعُ من الشُّعاع أَضاءها »[1] .

وقال فى وصف قلعة الكرك المشهورة وحصار جيوش صلاح الدين لها :

« عذابُ الله بالحصْن وَأهلهِ واقعٌ ، ماله من دَافعْ ، وإنَّ نهارَ النصر قد ظهرَ وما دونَه من مانع ، وأَما المنجنيقاتُ فقد نكأَتْ فى الأَبْراج بالْهدْم ، وفى الأَعلاج بالهتْك ، فلم تُبْق لها الحجارةُ الطائرةُ إليها حِجارةً قائِمةً ،وإن لها من أَمطارها عليها ليلًا ونَهارًا ديمةً دائمةً ،وأَطفَنْا عليها بالزَّرجُون حتى وقعت الأَسوارُ من سُكرها ، وضربَنا دونها الستائر حتى ترنحت لصخْرها ،وعاطتها كِفَّةُ المنجنيق عُقَارَ عَقرها ، فالسور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أَبراجُه وأَبوابُه ، وانهدَّتْ قواعدُه وأَركانُه . ولولا الخندَقُ الذى هو وادٍ من الأَوديةِ واسعٌ عميقٌ ، لما تعذَّرَ إلى الزَّحف إليهم والهجْم عليهم طريق » ، وقال « وقد جمعتْ الحِجارةُ فى الإِسقَاط بين رُءُوس الأَبراج ورُءُوسِ الأَعلاج ، فرمت الشَّرائف والواقِفين عليها لحمايتها ، وأَرت الإِفرنج باهتدائها إلى أَردائها غايةَ غِوايتِها ، فما أَخرَجَ أَحَدٌ منهم رأْسًا إلا دخَل فى عينيه نَصل ، وما هَجر قِرابَ الإِسلامِ سَيفٌ إلا وله فى رقاب الكُفر غِمد ، قطْعُها وصْلُ ، وما على الحجر فى الإِسراف والتبذير حَجْر ، ولكلِّ ليلةٍ من وقع الحوافِر ، ومن سنا الأَسِنَّةِ فَجر ، ولقد أَخذنا من العدوِّ بالمخنق ، وشرعنا فى ضم الخندق ، والحائِطُ واقعٌ ، والواقعة بهم مُحيطة ، والدروع بالسيوف مُتَّصلة وبالجروح مُحيطة » .

وقال فيه أَيضًا : « وأَما الكرك فكفأَتْ المنجنيقاتُ عليه متظافِرة ، وحِجارتُها على من فيه حاجِرَة ، وقد جُدِعَت أنوفُ الأَبرجَةِ ، وأَسبلتْ قناعُ

---

(١) الروضتين ١ — ٢٣٩ .

الستائر وجوهَها المتبرجةَ وكلُّ جوانبها وعرةُ المرتَقَى صعبةُ المحتَظَى ، والسلطانُ يستعذِبُ المشقات التى تتفادَى منها الهممْ ، ويباشِر جمرات الشِّتاءِ الكَالح بوجههِ المبْتسم »[١] .

وقال فيه : «هو شجًا فى الحناجر ، وقذًا فى المحاجر ، قد أَخَذَ من الآمال بمخنقها وقعد بأَرصاد العزَائم وطُرقها ، وصار ذَنبًا للدهر فى ذلك الفَجّ ، وعذرًا لتارِك فريضَةِ اللهِ من الحج ، وهو وحصن الشُّوبك يسَّرَ الله الآخرَ – كبيت الواصف للأَسدين :

« ما مر يوم إلا وعندهما لحم رجال أَو يولغان دما »

هذا فيما يتصل بنماذج من رسائله فى وصف الحصون وحروب صلاح الدين ، مع الإفرنج ، أَما الرسائل الخاصة لصلاح الدين ، فيمثلها نماذج عن شفاء السلطان من مرض أَلم به قال الفاضل سنة ٥٨١ هـ : «وقد استَقْبَل مولانا السلطانُ الملكُ الناصرُ العافيةَ غضَّةً جديدة ،والعزْمةَ ماضيةً حَدِيدةً والنشاط ، إلى الجهادِ والجنةِ مبسوطةَ البساط ، وقد انقَضى الحسابُ وجُزْنا الصِّراط وعُرِضْنا نحنُ على الأَهوال التى من خوفها كاد الجملُ يَلج فى سم الخياط »[٢] .

وقال من رسالة يذكر فيها أَولاد السلطان وقد غاب عنهم زمنا : «وقبل الإِجابة عن الفصول ، فنبشر بما جرت العادة به – لا قطع الله تلك العادة – من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا وأَولاده السادة ، أَطاب الله الخبر إليهم عن المولى ، والى المولى عنهم ، وعجَّل لقاءهم له ، فإنهم من يلق منهم بل كل منهم ملكٌ دسْتُه بُرجُه ، وفارسٌ مهده سرجُه ، فهم بحمد الله بهجةُ الدنيا

---

(١) الروضتين ٢–٥٥ .
(٢) الروضتين ٢–٦٦ .

وزينتها ، وريحانة الحياة وزهرتها ، وإن فؤادا وسع فراقهم لواسع ، وإن قلبا قنع بأخبارهم لقانع ، وإن طرفًا نام على البعد عنهم لهاجع ، وإن ملكا ملك تصبُّرَه عنهم لحازم ، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم ، أما يشتاق جيدُ المولى أن يتطوق بدررهم ، أما تظمأ عينه إلى أن تتروى بنظرهم ، أما يحنُّ قلبُه على قلبه ، أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه ، وللمولى أبقاه الله أن يقول :

«وما مثل هذا الشوق يُحمل مَضْغُه ولكن قلبى فى الهوى متقلِّبُ[1] »

وكتب عن السلطان إلى ابنه الملك الفاضل :

« إن إعزازه لأهل الفضل دليل على فضله ،وإن الأولى أن تكونَ كتبُ الأدب عند أهله ،وما أبهجنا إذا جالَ فى فضاءِ الفضائِل ،وخطَبَ من أبكار المعالى كرائم العقائل،وآخَى بين السيف والقلم ، وصار فى موكبه العلْمُ والعَلَمُ[2] » .

وله رسائل فى موضوعات مختلفة ،فله رسالة مثلا فى النيل يقول فيها :
« نِعمُ الله سبحانه وتعالى من أضوئِها بزُوغًا ،وأَضفَاها سُبوغا ،وأصفاها يُنبوعًا ، وأسناها منقوعًا ، وأمدها بحر مواهب ، وأضمنهاحسن عواقب ، النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويَقبضُها مدُّه وجزرهُ ، وَيُربى النبات حَجْره ويحيى مُطلقه الحيران ، ويُجنى ثمرات الأَرض صِنوانٌ وغير صِنوانْ ، وينشر مطويَّ حريرها ، وينشر مَواتها ،ويوضح معنى قوله عز وجل: (وبارَكَ فيهاوقدَّر فيها أقواتَها) . وكانَ وفاءُ النيل المبارك تاريخ كذا فأَسفَرَ وجهُ الأَرضِ وإن كانت تُنَقَّب.وأَمَّن يومُ بشراهُ منْ كانَ خائِفًا يترقَّب ،ورأينا الإبانةعن لطائف

---

(١) الروضتين ٢/٣ .
(٢) الروضتين ١/٢٧٧ .

الله التى حقَّقَت الظنونَ وَوَفت بالرزق المضمون ، إن فى ذلك لايات لقوم يؤمنون[١] » .

وله رسالة فى حمام الرسائل ذكرها ابن حجة الحموى وأعجب بها[٢] .

خصائص فن الفاضل فى الكتابة :

يمتاز الفاضل بخصائص تجعله علمـًا مبرزاً فى الكتابة ، بل وقدوة معلمـًا لجيل من الكتاب ساروا على نهجه ، واهتدوا بطريقته . قال النويرى فى نهاية الأرب : « إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت زود الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت بها نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب فى زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل فى مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة ، والفاضل بغير إطالة ، وقد أنصف بعض الكتَّاب فيه وفطن من تفضيله بملء فيه حيث قال : « كل فاضل بعد الفاضل فضله ، وكل قد عرف فضله »[٣]

وقال صاحب الجامع : « كان كاتبـًا فصيحـًا ، بليغـًا . . إليه انتهت الكتابة فى زمانه »[٤] .

وقال ابن حجة : « ولعمرى إن الإنشاء الذى صدر فى الأيام الأموية والأيام العباسية نُسى وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعانى المخترعة والأنواع البديعية ، والذى يؤيد قولى قول العماد الكاتب فى الخريدة إنه فى صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع[٥] » .

وأول ما جعل للقاضى هذه المنزلة قدرته على استخدام البديع وسيطرته على السجع وحسن تصريفه للألفاظ ، فتطاوعه أو يطوّعها للألوان البديعية المختلفة التى فتن بها الناس . وأظهر ما برع فيه الجناس الذى يديره فى عباراته غير متكلف .

---

(١) ثمرات الأوراق ١٣٢ .

(٢) ثمرات الأوراق ٥١ .

(٣) نهاية الأرب ٨/١ .

(٤) الجامع المختصر ص ٢٨ .

(٥) ثمرات الأوراق ٥١ .

وإن كان قد بذل فى استخراجه من الجهد ما بذل ، ولكنه يمرق أمامك دون تعثر أو توقف . والجناس والسجع هما الظاهرتان الأسلوبيتان اللتان يعتمد عليهما الفاضل فى تلوين أسلوبه بالجرس الموسيقى المتتابع ، والذى يشبه فى تتابعه وتقاربه مع تثنيه وانحناءاته الوشى والزخرف والنمنمة العربية التى توشى بها البرود والطرز الجميلة التى تحلى بها الجدران والسقوف والآنية والتحف العربية ، فلا غرو إذاً أن تحدث الشعراء بهذه القدرة الزخرفية الموسيقية فى العبارة . يقول ابن التعاويذى فى وصف رسائله[1] :

ترعى لِحَاظُكَ من بدائع وَشْيها ... أَزهارَ جنات ونورَ خمائِلِ

وقال أيضا :

تزهو على الأَصداف أَوراقها ... لأَنهـا أَوعية الدرِّ
قارئها ينظر فى روضة ... موشيَّة الأَقطار بالزَّهْرِ
كأَنه فَضٌّ وقد فضَّهَا ... لطائم العِطر على العِطر
تُجدِّدُ فى أَعطافِه نشوةً ... كأَنها جاءت على خمْرِ[2]

ومثال هذا اللون ما قاله الفاضل فى قلعة نجم : « أما قلعة نجم فهى نجم فى سحاب ، وعقاب فى عقاب وهامة لها الغمامة عمامة . وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة » .

وقد جمعت هذه العبارات فنونـًا من البديع ، ففضلا عن السجع والجناس والمقابلة ، تحوى صوراً جميلة ، تتضمنها هذه الاستعارات والتشبيهات التى يرشح بعضها بعضاً ، فهو يشبه القلعة بالنجم وهى يحيط بها السحاب تشبه الهامة التى تحيطها العمامة ، وهى فى سبائك الأصيل وقد ألقت عليها الشمس بضوئها العسجدى الأحمر كالأنملة قائمة عليها الخضاب ، ورشح تشبيهها بالأنملة تشبيه الهلال بقلامة الظفر ، وهكذا نجد الفاضل يمزج فى براعة بين التلوين الصوتى عن طريق الجناس والسجع ، والتلوين التشخيصى بالصور المخيلة عن طريق الاستعارة والتشبيه ، قال ابن حجة عن تشبيهه السابق : « فخضاب الأصيل لهذه الأنملة حسَّن أن يكون الهلال لها قلامة . وهذه غاية فاضلية لاتدرك »[3] .

---

(١) ديوان ابن التعاويذى ٣٣٤ .
(٢) ديوان ابن التعاويذى ١٩٤ .
(٣) خزانة الأدب ص ١٧٥ .

ويرى شوقى ضيف أن سمات القاضى الفاضل ميله الشديد إلى التشخيص [١] ويعتمد إلى جانب هاتين الخاصتين الأصيلتين على خصائص أخرى فرعية ، منها الكناية والتورية . قال ابن حجة الحموى : « وأظن أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى هو الذى ذلل منهما الصعاب – يعنى فنى الكناية والتورية – وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب ، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره ، وأصحابه الذين نزلوا بربوع مصره » [٢] .

ومثاله فى رسالته التى تحدث فيها عن حمام الرسائل . قال : « وتطوى الأرض إذا نشرتْ الجناحَ الطائر ،وتزُوى لها الأرضُ حتى ترى ماسيبلغهُ ملكُ هذه الأمة، وتقربُ منها السماء حتى ترى مالا يبلغه وهم ولا همّة ، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعاً ، وتركب الجو بحراً يصفق فيه هبوب الرياح موجاً مدفوعاً ، وتعلق الحاجات على أعجازها ولا تعوق الإرادات عن إنجازها ، من بلاغات البطائق استفادت ماهى مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى دائمة الرجع ، وقد سكنت النجوم فهى أنجم [٣] » .

كذلك اقتبس القاضى الفاضل من القرآن ، وتفنن فى الاستعانة بآياته بطريق التضمين أو الإشارة أو التلميح ، وهو حيناً يورد الآية بتمامها ، أو جزءاً منها وحيناً يورد بعض لفظها ، وحينا آخر يشير أو يلمح . قال صاحب مرآة الزمان : « وقد استعان بآيات من الكتاب فى كثير من رسائله »[٤] . وقال عبد اللطيف حمزة: « وهذه الخاصية التى تلفت النظر إليها هى خاصية نثر القرآن على طريقة ابن العميد فى نثر الأشعار ، وبيان ذلك أن القاضى الفاضل كان يستطيع بهذه الطريقة أن يدمج القرآن فى كلامه ، فكأنه جزء من هذا الكلام ، ولا تقل إنها طريقة بسيطة أو مسبوقة ؛ فالقول ببساطتها أو إمكانها مردود بمحاولتك تقليدها ، وعجزك كل العجز عن ذلك . والقول بأنها مسبوقة مردود كذلك ببحثك فى آثار الكتاب جميعهم قبل

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر الطبعة الأولى ص ١٩٦ .

(٢) خزانة الأدب لابن حجة ص ٥٤ .

(٣) ثمرات الأوراق ٥٠ .

(٤) مرآة الزمان ٨ – ٤٧٢ .

الفاضل ، وانعدام هذه الخاصية فى تلك الآثار ، وهكذا استطاع الفاضل أن يستغل القرآن لنفسه استغلالا فنيًّا صرفًا ، وأن يتخذ منه صبغًا من أجل أصباغه الفنية » [١] .

ويريد عبد اللطيف حمزة أن يحتفظ للفاضل بفضل استعمال القرآن فنيًّا فى أساليب النثر ، والحق أن الفاضل قد تنوع وتوسع فى هذا الاستعمال ، ولم يكن هو بطبيعة الحال أول من اقتبس من آيات القرآن ، لأن خطب الصدر الأول من المسلمين كانت متأثرة بالقرآن تضمينا واقتباسًا ، كذلك كان كتاب بنى العباس وبعض كتابات عبد الحميد متضمنة لآيات القرآن معنى ولفظًا ، أما التنوع والتفنن والتوسع فى هذا وذاك فشىء نستطيع أن نقول إن الفاضل حقًّا كان أبا عذرتها ، ويدلك على ذلك ضروب من استعمال الفاضل لآيات القرآن ، قال فى رسالة له كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسى فى بغداد فى الاستصراخ وتهويل أمر الفرنج : « رب إنى لا أملك إلا نفسى ، وهاهى فى سبيلك مبذولة ، وأخى وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة » [٢] .

وقال فى وصف هجير الصحراء : « والجو يتنفَّس عن صدرٍ مسجُورٍ كصدر المهجور ، والحرُّ وصاليه فى هذا النحو كجارٍّ ومجرُور ، والمهامِهُ قد نشرت فيها ملاءُ السَّراب ، وزخَرفيها بحرُ ماء ولو لغير رشْدةٍ على غير فراشِ السَّحاب وجرُّ الرمل قد مَنع حث الرمل ، ونحن فى أكثر من جموع صِفّين إلا أننا نخافُ وقعة الجمل ، ووردنا ماءَ هذه العيون ، وهو كالمحبر يقترف منه المجرم مثل عمله ويرسله سهما فلا يخطئه نقرة مقتلة ، وهو مع هذا قليل مما جادت به الآماق فى ساحات النفاق ، لا فى ساعات الفراق ، فيالك من ماءٍ لا تتميز أوصافه من التراب ، ولا يرتفع به فرض التيمم كما لا يرتفع بالسراب ، ولا يعدو ما وصف به أهل الجحيم فى قوله تعالى : (وإن يستغِيثُوا يُغاثوا بماءٍ كالمهْل يَشْوى

---

(١) أدب الحروب الصليبية ١٨٥ .

(٢) حسن التوسل ص ٥ .

الوُجوه بئْسَ الشَّرَاب) فنحن حوله كالعوائِدِ حول المريضِ يُعلِّلونَ عليلا لا يردُّ الجواب »[١] .

وهذه القطعة تمثل كثيراً من خصائص فنه ، فهى تجمع الاقتباس من القرآن، إلى السجع والجناس والتورية والكناية والتشبيه . كما أنها تمثل كذلك استعانته بالأخبار والتاريخ وبالحديث والفقه ومعلومات الناس فيهما . وقد مضى فى نماذج رسائله أمثلة من استعانته بالشعر العربى القديم ، كما فى رسالته فى وصف قلعة حمص حيث يورد قول الشاعر قيس بن الخطيم :

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ثائرٍ   لها نفذٌ لولا الشعاع أَضاءَها
ملكتُ بها كفِّى فانهرتُ فتْقَها   يُرى قائمٌ من دونها ما وراءَها

حيث ضمنه فى قوله : « فهناك بدت ثقوب يرى قائم من دونها ما وراءها ، وخشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها » [٢] .

وهكذا أصبح القاضى الفاضل أستاذ الكتاب والبلغاء فى عصره ، ومن بعده أعجب به معاصروه وحاولوا معارضته وتقليده ، عارضه ضياء الدين بن الأثير . قال : سألنى بعض الإخوان أن أنشئ فى ذلك كتاباً إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذى أنشأه عبد الرحيم بن على رحمه الله ، فأجبته إلى سؤاله[٣] » . كذلك ذكر ابن خلكان أنه كان يعارض القاضى الفاضل فى رسائله ، « فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات » [٤] .

وقد تأثر به ونهج على طريقته من كتاب المصريين جمال الدين بن نباتة

---

(١) ثمرات الأوراق ١٣١ .

(٢) وقد استعرض القلقشندى فى كتابه طريقة الفاضل فى الاقتباس والتضمين وتحدث عنهما تفصيلا فى صبح الأعشى ١/٢٧٤ — ٢٨٦ ، وكذلك النويرى فى نهاية الأرب إذ يورد نماذج لا بأس بها من رسائله فى الجزء الثامن .

(٣) المثل السائر .

(٤) وفيات الأعيان ٢/٣٣٣ .

المصرى ، قال عنه ابن حجة : « وتفقه فى الطريق الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون[١] » .

قال ابن حجة إن ابن سناء الملك ممن سلك طريق الفاضل، كذلك قال : « ولم يزل هو ومن عاصره على هذا النهج فى ذلك الأوان ، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان إلى أن جاء بعدهم عصبة أخرى وزمرة تترى ، فكلهم يرمون فى هذا الإحسان عن قوس واحدة ، وينفقون من مادة هى فى الجود معن بن زائدة ، ويصلون المقطوع بالمقطوع ، فلا تخلو فيه كلمة فائتة من فائدة [٢] » . ويذكر جماعة ممن تأثروا به من الشعراء والكتاب مثل أبى الحسن الجزار والسراج الوراق ، والحكيم شمس الدين بن دانيال ، والقاضى محيي الدين بن عبد الظاهر . قال : فهؤلاء هم الفحول الذين جدّوا بعد القاضى الفاضل إلى هذه الغاية ، ورفعوا راية هذا النوع ، وكان كل منهم عرابة تلك الراية، تسابقوا جياداً والديار المصرية لهم حلبة ، وتلاحقوا أفراداً وهم فى شرف هذا الفن من هذه النسبة » .

ويذكر ابن شاكر أن الشاعر الماردينى ابن الصفار قال :

ويوم قُرٍّ برد أَنفاسِه ... تمزق الأَوجه من قرصها
يوم تَود الشمسُ من برْده ... لو جرَّت النارَ إلى قُرصها

أخذه من قول القاضى الفاضل : « فى ليلة جمد خمرها ، وخمد جمرها ، إلى يوم تود البصلة لو ارتدت إلى قمصها ، والشمس لو جرت النار إلى قرصها »[٣] .

وكان للقاضى الفاضل نظم ولكنه لم يرق إلى مرتبة رسائله ، وإن كان ابن حجة يقول عنه : كان نظم القاضى الفاضل رحمه الله ونثره كفرسَىْ رهان ولكنه نثر أكثر مما نظم [٤] .

ولم يكن القاضى كاتباً وشاعراً فحسب ، بل كان ناقداً كذلك ، يجلس

---

(١) خزانة الأدب ٩٣ .
(٢) خزانة الأدب ص ٥٤ .
(٣) فوات الوفيات ٢/١٩٦ .
(٤) ثمرات الأوراق ١٥١ .

فى مجالس صلاح الدين، ويناقش الشعراء الذين يأتون لمدح السلطان ، فيقرظهم، وقصد مرة المهذب ابن سعد إلى الملك الناصر صلاح الدين بقصيدة يمدحه؛ فقال القاضى لصلاح الدين هذا الذى يقول :

والشعر ما زال عند الترك متروكا .

فجعل جائزته كبيرة لتكذيب ظنه وجمع له بين الخلعة والضيعة . وعنى الفاضل قصيدة المهذب التى مدح بها الصالح بن رزيك والتى أولها :

أما كفاك تلافى فى تلافيكا

والتى يقول فيها[1] :

من أرتجى يا كريمُ الدهر ينْعشنى ... جدَاوَاهُ إن خاب سعيى فى رحابيكا
أأمدَحُ الدُّركَ أَبغى الفضل عندهُم ... والشعرُ ما زالَ عندَ الترك متروكا

كذلك يأخذ على القاضى أبى الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس بعض أقواله [2] ، وجرت بينه وبين الشاعر ابن سناء الملك محاورة حول بعض ألفاظ شعر ابن سناء الملك . قال من أبيات :

صلينى وهذا الحب باق فربما ... يعزل بيت الحسن منه ويكنس

فوقف القاضى الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة ، وكتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل : « والقصيدة فائقة فى حسنها ، بديعة فى فنها ، ولكن بيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة ، فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها[3] » . ورد عليه ابن سناء الملك محتجاً بأن ابن المعتز قد استعمل ألفاظاً شبيهة بما استعمله هو ، ومع ذلك لم يعترض عليه معترض بل وقعت عند الناس مواقع حسنة مقبولة . بل استعمل لفظ الكنس فى قوله :

---

(١) الروضتين ١/٢٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ١/١٠٣ .
(٣) ثمرات الأوراق ص ١٠ .

وقوامى مثل القناة من الخطْ ـطِ وخدى من لحيتى مكنوسُ

وقال إنه يقتدى بابن المعتز ويجرى على أثره . « فوجد طبعه إلى هذا الأمر مائلا ، وخاطره فى بعض الأحيان عليه سائلا ، فنسج على هذا الأسلوب وغلب على خاطره مع علمه أنه المغلوب ، وحبك الشىء يعمى ويصم ، فقد أعماه حبه وأصمه إلى أن نظم تلك اللفظة فى تلك الأبيات تقليداً لابن المعتز ، قالها وحمل أثقالها ، وهى زلة تغتفر فى جنب حسناته ، وأما المملوك فهى عورة ظهرت فى أبياته » فأجابه الفاضل بقوله : « ولا حجة فيما احتججته بابن المعتز عن الكنس فى بيته فإنه غير معصوم من الغلط ، ولا يقلد إلا فى الصواب فقط ، وقد علم مما ذكره ابن رشيق فى العمدة من تهافت طبعه وتباين صنعه ومخالفة وضعه ، فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ، ومن بارده وغثه مالاتلبس عليه الثياب» .

فهذا مثال من نقده لشعراء عصره ، وأنه لم يكن يترك فرصة تواتيه ليوضح لهم بعض أخطائهم البيانية أو الذوقية .

وقد حاول الفاضل من الفنون الأدبية غير الرسائل والشعر والنقد فن المقامات إذ يقول ابن حجة : « ثبت أن القاضى الفاضل شرع فى معارضة المقامات وعارض منها كل فصل بفصل أحسن منه[1] » . ولكن يبدو كذلك أنه لم يوفق على الرغم من قول ابن حجة ؛ فقد عاد بعد قليل وذكر أنه عجز عن بعضها . وله شعر يذكرابن حجة أنه كنثره جيد فيقول : « وكان نظم القاضى الفاضل ونثره كفرسى رهانٌ . ولكن نثر أكثر مما نظم »[2] .

عماد الدين الأصبهانى :

أبو عبد الله محمد بن أبى الفرج محمد بن حامد . . المعروف بالعماد الكاتب الأصبهانى ، صاحب التصانيف والرسائل والشعر ، ولد بأصبهان ونشأ بها ، وقدم بغداد فى صباه سنة ٥٣٤ هـ ، وتفقه على مذهب الشافعى ، على الشيخ أبى منصور

(١) خزانة الأدب ٤٦١ .
(٢) ثمرات الأوراق ٥١ .

ابن الرزاز بالنظامية ، وسمع الحديث ، وأخذ الأدب عن ابن الخشاب . وحفظ كثيراً من دواوين الشعر العربى القديم والجديد مثل ديوان البحترى ، وقد عاد إلى بلده بعد أن قضى ببغداد تسع سنين سنة ٥٤٣ هـ ، فلقى بها الفضلاء وصحب العلماء ، وخرج منها سنة ٥٤٨ هـ على نية الحج ثم عاد إليها ، وسافر منها إلى بغداد مع أبيه مرة أخرى سنة ٥٥١هـ ، واتصل فى بغداد بالوزير ابن هبيرة ومدحه بقصائد ، واستكتبه ابن هبيرة واستنابه بواسط وأعمالها [١] .

وذكر أبو شامة أنه ذهب إلى الموصل سنة ٥٤٢ هـ وحضر إلى جمال الدين وزيرها بالجامع جمعتين ، وتكلم عنده مع الفقهاء فى مسألتين ، ومدح جمال الدين بقصيدة أولها [٢] :

أَظُنُّهمُ وقد عزَمُوا ارتحالا ثَنُوا عنَّا جَمَالا لا جِمالا

وخرج من بغداد إلى الشام سنة ٥٦٢ هـ ، ونزل فى دمشق عند القاضى الشهرزورى ، فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية [٣] وهى المدرسة التى تولى بعد ذلك التدريس بها وعرفت به ، وذكره الشهرزورى للسلطان نور الدين ، وعرفه به وبحاله وعرض عليه قصيدة له يمدحه بها مطلعها :

محمد يحمد عيش بلدة مالكها مبدلهُ محمودها

وهى طويلة ، فرتبه نور الدين فى ديوانه منشئًا سنة ٥٦٣ هـ ، بعد أن استعفى أبو البشر شاكر بن عبد الله من الخدمة فى كتابة الإنشاء وقعد فى بيته وظل فى ديوان الإنشاء سنين كثيرة ، وفى سنة ٥٦٨ هـ ترتب مشرفا بديوان نور الدين بالإضافة إلى كتابة الإنشاء [٤] ..

ولقى أثناء وجوده بالشام نجم الدين أيوب والد صلاح الدين . ومدحه وأسد الدين

---

(١) مرآة الزمان ٨/٥٠٤ .
(٢) الروضتين ١/١٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ١/١٤٤ .
(٤) الروضتين ١/٢٠٥ .

شيركوه ومدحه ،وذهب شيركوه ومعه صلاح الدين إلى مصر ، وهناك ولى صلاح الدين الأمر ، فأرسل إليه العماد يمدحه ويهنئه .

وللعماد مدائح كثيرة فى نور الدين ، قال أبو شامة : رحم الله العماد ، فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه[١] . ثم توفى نور الدين فحزن عليه العماد أشد الحزن ، وقال العماد عن نفسه : « ولما توفى نور الدين اختل أمرى واعتل سرى ، وعلت حسادى ، وبلغ مرادهم أضدادى »[٢] إلا أن عماد الدين وجد فى صلاح الدين خلفاً لنور الدين ، وموضعا لشعره ومديحه ، فتولى مدحه ، وأخذ جوائزه . وأول صلته ببنى أيوب كما يرويها أبو شامة أنه كانت له معرفة بنجم الدين وأسد الدين شيركوه من تكريت بسبب أن عمه اعتقله السلطان محمود السلجوقى بقلعة تكريت ،ونجم الدين إذ ذاك واليها ،فاتصلت المودة بينهما من هناك، فعند حضور العماد إلى دمشق سمع به نجم الدين فاتصل به وكان صلاح الدين مع عمه شيركوه بمصر . فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أولها :

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب

وتم ملك مصر بعد سنتين من إنشاده إياها . وأول قصيدة مدح بها صلاح الدين قوله :

كيف قلتم بمقلتيه فتور وأراها بلا فتور تجور

ويروى العماد أول لقاء له مع صلاح الدين فيقول : « ولما وصلت إلى السلطان، ورغبت منه فى الإحسان وجدته لأمرى معقلا ولشغلى مهملا . ثم عرفت أن حسادى قالوا له متى أعدت ديوان الكتابة إلى العماد وهو لاشك بمحل الوثوق والاعتماد ، وهذا منصب الأجل الفاضل ، وهو عنده فى أجل المنازل ربما ضاق صدره وتشعث سره ، فلما عرفت هذا المعنى لجأت إلى القاضى الفاضل لأنه به يعنى ، فقام بأمرى ، وبصره بقدرى ، وأراح سرى وشد أزرى[٣] » .

(١) المصدر نفسه ١ — ١٥٠ — ١٥١ .
(٢) المصدر نفسه ١ — ٢٣١ .
(٣) الروضتين ١ — ٢٤٨ .

وعلل العماد إعراض صلاح الدين عنه أول الأمر بقول حساده عند صلاح الدين أن العماد يصبو إلى منصب كتابة الإنشاء ، والسلطان يأتمن عليها الفاضل وهو بالمنزلة الرفيعة عنده . فلجأ العماد إلى الفاضل لينصره عند السلطان ، وليبعد الشبهة عنه . ويعود العماد فيروى ما حدث له بعد ذلك ، فيقول : « قد سبق ذكر ماقرره حسَّادى فى خاطر السلطان وقالوا شُغْله المكاتبة ، وهى منصب الأجل الفاضل ، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضل ، وهذا تصرفه برفد جزيل ووجه جميل ، والسلطان مع شدة رغبته متوقف ، وإلى ظهور وجه النجاح فى أمرى متشوّف ، وكنت قد أنست مدة مقامى بالعسكر بذى المجد والمفخر ، ومورد الكرم والمصدر نجم الدين بن مصال ، وهو ذو فضل وأفضال وقبول وإقبال ، وله من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال ، وقد مال إلى فضل نباهته ونبله ، وكان أبوه وزر للحافظ فى آخر عهده منفرداً بسؤدده ومجده وكان من أهل السنة والجماعة والتقى والورع والعفاف ، وله يد عند السلطان فى النوب التى قصدوا فيها مصر ، وأجزل عنده الإحسان والبر ، ولا سيما عند كونه بالإسكندرية محصوراً ، وكان إحسانه مشكوراً ، واعتناؤه لحفظه مشهوراً ، فلما ملك أحبه واختار قربه ، فلزمت له التودد ، وجعلته الوسيط بينى وبين الأجل الفاضل [1] » .

واتصل الود بينه وبين الفاضل ، ومدحه العماد بقصيدة ، وأول ماقاله فيه مدحته حين لقيه بحمص . يقول فيها راجياً إياه أن يطلب من السلطان إعطاءه منصبا :

عاينتُ طود سكينةٍ ورأيتُ شمسَ فَضَائلٍ ووردْتُ بحرَ فواضِلِ
ورأيتُ سحبانَ البلاغَةِ ساحبًا ببيانِهِ ذيلَ الفخَارِ لوائِلِ

ويقول :

أَرجوك معتنيًا لدى السُّلطان بى كرمًا فمثلُكَ يعتنى بأماثلى
قرِّرْ لِىَ الشُّغْلَ المبجَّلَ مُخليًا بالى من الهمِّ المقيم الشَّاغِلِ

(١) الروضتين ١/٢٥١ .

قال العماد : « فدخل الفاضل إلى السلطان وعرفه أنه فىّ راغب » ، وقال : « أنا لا يمكننى الملازمة الدائمة فى كل سفرة ، وقد يكاتبك ملوك الأعاجم ، ولا تستغنى فى الملك عن عقد الملطفات وحل التراجم ، والعماد يفى بذلك ، ولك أختاره ، وقد عرف فى الدولة النورية مقداره ، وأخذ لى خط السلطان بما قرره لى من شغلى » .

وأقام العماد بدمشق يكتب للسلطان إذا غاب الفاضل بمصر ، ثم أقامه صلاح الدين مقام الموفق خالد القيسرانى فى ديوان الاستيفاء ، فجمع بين الإشراف والاستيفاء ومنصب الإنشاء[١] . وكان العماد يؤرخ فى رسائله ، كما فعل الفاضل ، حروب صلاح الدين وأعماله ، وتعاون الاثنان على تسجيل منشورات السلطان ورسائله وأوامره ، كما سجلا فتوحاته خير تسجيل .

وقد أرسل إليه السلطان مرة من مصر عمامة ، فبعث إليه العماد من دمشق يشكره ويمدحه بقصيدة . وقد أرسله صلاح الدين مرة رهينة إلى أمراء حلب عند حصره إياها سنة ٥٧١ هـ ، وحبسه ابن العجمى ومنع عنه الطعام ومعه آخر . قال العماد : « وبتنا فى أنكد عيشة » ثم انتصر صلاح الدين ودخل حلب : فعاد إليه العماد . وعاد مع السلطان إلى مصر سنة ٥٧٢ هـ ، ولم يكن قد جاء من قبل إليها ، ويذكر مسيره عن دمشق وحسرته على فراقها فى قصيدة[٢] .

وجاء إلى مصر فاتصل بعلمائها وأفاضلها ، وجمع كثيراً من كتب مكتبة القصر الفاطمى ، قال : « نقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام »[٣] .

وصفت له الحياة بمصر ، وبدأ يرتاح إليها وإلى أهلها قال : وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الأغانى ، والتنزه فى الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ومنازل العز ، والروضة ودار الملك والنيل والمقياس . ومراسى السفن ومجارى الفلك ، والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة فى المسائل الفقهية والمعانى الأدبية . . قال : واقترحنا على القاضى ضياء الدين الشهر زورى أن يفرجنا

---

(١) الروضتين ١/٢٠٦ .
(٢) الروضتين ١/٢٦٦ .
(٣) الروضتين ١/٢٠٠ .

فى الأهرام ، فقد شغفنا بأخبارها فى الشام ، فخرج بنا إليها ، ودار بنا حواليها ، وزرنا تلك البرابى والبرارى والرمال والصحارى وأحدنا المقار والمقارى ، وهالنا أبو الهول وضاق فى وصفه مجال القول ، ورأينا العجائب ، وروينا الغرائب ، واستصغرنا فى جنب الهرمين كل ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث فى الهرم ومن بناه . . . إلخ[1] .

ولم يدم بقاء العماد كثيراً فى مصر ، ولا أرخت له الحياة حبل الهناءة ، بل سرعان ما استدعاه صلاح الدين للخروج لغزوة الرملة سنة ٥٧٣ هـ لملاقاة الصليبيين فى فلسطين ، ولكن العماد تخاذل . وطلب من السلطان أن يعفيه من الخروج متعللا فى ذلك بمختلف العلل ، يقول: «وقد استشعرتْ نفسى فى هذه الغزوةِ من عاقبة ندَم ،والمدَى بعيدٌ والخطبُ شديد ،وهذه نوبةُ السُّيوف لا نوبة الأقْلام ، وفى سلامتِنا سلامةُ الإسلام ، والواجبُ على كلٍّ منا أن يلزَم شُغلَه ، ولا يتعدَّى حدَّه ، ولا يتجاوز محلَّه ، لا سيما نوابُ الديوان قد استأذنوا فى العودة ، وأَظهروا قِلَّةَ العُدَّة . وأَظهرتُ سِرِّى للمولَى الأَجلِّ الفاضِل ، فَسرَّهُ ذلكَ إشفاقًا علىَّ وإحسانا إلىَّ . وكان السُّلطانُ أَيضًا يُؤْثرُ إيثارى ، ويختار اختيارى فقال لى : أَنتَ معنا . أَو عَزمْتَ أَن تَدَعنا ؟ ، فقلتُ : الأَمرُ للمولَى وما يختارُه فهو أَوْلَى ، فقال : تعودُ وتدعُو لنا ، وتسأَلُ اللهَ أَن يُبلِّغنا من النصْر سُؤْلَنا . وكنتُ قد كتبْتُ أَبياتًا إلى المخدومِ الفاضلِ ونحنُ بالمُبْرَز فى فى العشرين من شهر جمادى :

قيل فى مصر نائلٌ عددَ الرَّمْـ ... ـل ووفرٌ كنِيلها الموفورِ
فاغْترَرْنا بها وسِرْنا إليها ... ووقَعْنا كما ترى فى الغُرورِ
وحَظِينا بالرَّمل والسَّيْر فيهِ ... ومُنِعْنَا من نيلِها الميْسُورِ
وبَرزْنا إلى المبرزِ نشكو ... شَذرًا من نُزُولِنا بالسديرِ

---

(١) الروضتين ١/٢٦٧ .

قيل لى سِرْ إلى الجِهادِ وماذا | بالغٌ فى الجهادِ جَهْد مَسِيرى
ليس يقْوى فى الجيش جأْشُ | ولا قوسٌ يرَى موتورًا إلى موتور
أَنا للكُتْبِ لا الكتائب إقدا | مى وللصُّحْف لا الصفاح حُضُورى
كادَ فَضْلِى يضِيعُ لولا اهتمامُ الـ | ـفَاضِل الفائِضِ النَّدَى بأُمُورى
فأَنا منْهُ فى ملابِسِ جاهٍ | رافلًا منهُ فى حَبِير حُبُورِى[1]

وقد لحق بالسلطان فى دمشق فى شوال سنة ٥٧٣ هـ ، وخلف القاضى الفاضل بمصر وظل بالشام ملازمًا لصلاح الدين فى تنقله من حمص إلى بعلبك ، كلما نال نصراً .

قال فى هذه السنة : « ولزمت خدمته ، أرحَلُ برحيله وأنزل بنزوله » . وأثناء وجوده بالشام تذكر مصر ، وما رآه بها من خير ، وما نعم فيها من وجوه النعم فنظم يتشوق إليها :

ساكِنِى مصرَ هناكُمُ طِيبُها | إنَّ عيشى بَعدكُمْ لَم يَطِبِ
لا عَلِمتُم راحةً من قُرْبها | فأَنا من بعدها فى تعبِ
بَعُدَ العهدُ بأَخبارِكُم | فابعثوا أَخبَارَكُمْ فى الكُتُبِ
ليت مصرًا عرَفت أَنِّى وإِنْ | غِبتُ عنها فالهَوى لم يَغِبِ

وقد مرض أثناء ذهابه مع السلطان إلى إرْبل سنة ٥٨٠ هـ ، وتخلف فى بعلبك وسار السلطان إلى حمص ثم إلى حماة فأقام بها إلى أن شفى العماد ولحقه بها ، وكان القاضى الفاضل بدمشق فى هذا الوقت فأرسل إليه طبيبًا هو الحكيم ابن مطران، فجاء العماد بعلبك وتولى علاجه وجاءه القاضى بنفسه وواساه فى مرضه إلى أن برئ ولحق بالسلطان وعاد القاضى إلى دمشق [2]

ومن هذه الحادثة يتبين لنا مدى حب السلطان والقاضى الفاضل للعماد ،

---

(١) الروضتين ١/٢٧٢ .

(٢) الروضتين ١/٦٠ .

ومدى المكانة التى كانت له فى دولة صلاح الدين ، وهى مكانة لاتسبقها إلا مكانة الفاضل فى دولة القلم .

وقد كان السلطان يستوحش إذ ما غاب العماد عن مجلسه ، جلس يوماً وتفقد جلساءه فلم يجد بينهم العماد ، وقد غاب عنه مدة؛ فقال للقاضى الفاضل: لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب ، فلعله ضعيف ، امض إليه وتفقد أحواله ، فلما دخل الفاضل إلى دار العماد وجد أشياء أنكرها فى نفسه مثل آثار مجالس أنس ورائحة خمر وآلات طرب فأنشد :

ما ناصَحتكَ خبايا الودِّ من رجل ما لم ينلْكَ بمكروهٍ من العذَلِ
محبتى فيكَ تـأْبى عن مُسَامَحتى بـأَن أَراك على شىءٍ من الزَّلَلِ

فلما قام من عنده نزع العماد عما كان فيه ، وأقلع ولم يعد إلى شىء من ذلك البتة »[1] .

هذا ما رواه ابن حجة . ويبدو من روايته تلك أن الفاضل كان يختلف فى طبائعه وسلوكه عن العماد . ذلك أن الفاضل كان رجل تقوى وصلاح ، وكان دائم العبادة والصلاة ، بل ربما بلغ فى ذلك درجة التزمت ، والجد الصارم ، على خلاف العماد الذى كان يبدو من فعله وقوله ، وأخبار حياته أنه كان يمتع نفسه بشىء من الحرية ، ويطلق لها العنان . إذا ما لا حت له فرصة لهواقتنصها ، فهو يخرج لأماكن اللهو والنزهة ، ويطارح صحبه من الأدباء والشعراء اللذات ، يشربون الخمر ، ويتمتعون بالغناء وما إلى ذلك .

وقضى العماد فترة من الزمن إلى جوار صلاح الدين والفاضل . ولقى كذلك فى آخر أيام السلطان الكاتب الصاحب ضياء الدين بن الأثير فى دمشق . وبعد وفاة السلطان . وتولى ابنه الأفضل الأمر فى دمشق أقره على إنشاء الكتب زمناً[2] ، ثم اضطربت أحوال الأفضل ، وسفر العماد بينه وبين أخيه العزيز صاحب مصر فمضى إليه وعنده عمه العادل ، ولم يتمكن من العودة إلى دمشق إلا معهما حين

---

(١) ثمرات الأوراق ٤ .
(٢) الروضتين ٢/٢٢٥ .

نهضا إلى دمشق مع العسكر لحصار الأفضل وأخذ دمشق ، وبعد تمام الصلح بينهم عاد الأفضل من جديد وترك أمره إلى كاتبه ابن الأثير ،الذى تحكم فى دولته فأغضب منه كبار أعوان أبيه ،فرحل عنه القاضى الفاضل إلى القاهرة وظل بمصر ، ثم غضب العماد بعد ذلك واعتكف يدرس فى مدرسته العمادية بدمشق ، وهجا ضياء الدين فى رسالة له ، واستمر فى مدرسته إلى أن توفى سنة ٥٩٧ هـ .

رسائله وشعره :

يقول عنه صاحب الجامع المختصر : « إنه كان سمح القريحة ، جيد النظم ، كثير القول ، له الترسل المليح والكتابة البليغة . دون شعره وجمع رسائله وصنف كتباً عدة منها « خريدة القصر فى ذكر شعراء العصر » و « الفتح القدسى » إلى غير ذلك [١] ، وقال عنه الدبيثى فى مختصره : « له شعر غاية فى الجودة ، كثير القول والترسل البليغ [٢] » . وكان حاد الذكاء ، سمح القريحة ، وقاد الخاطر ، وإن كان يعتريه العى والتلجلج أحياناً . قال ابن عساكر : « قالوا وكان منطوقه يعتريه جمود وفترة ، وقريحته فى غاية الجودة والحدة ، وقد قال القاضى الفاضل لأصحابه يوماً : قولوا فتكلموا وشبهوه فى هذه الصفة بصفات ، فلم يقبلها القاضى وقال : هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار [٣] »

وكان العماد يحفظ كثيراً من الشعر والخطب والأخبار إلى جانب حفظه القرآن والحديث ، وساعده هذا كله فى الكتابة ، فقد زاد ثروته اللفظية والمعنوية ومكنه من صنعته ووسع أفقه فى الجناس والسجع والتورية والاستعارة .

وأول ما تمتاز به رسائل العماد ، وتختلف عن رسائل القاضى الفاضل كثرة استعانته بالاستعارة ، الاستعارة الجزئية لا الصورة التامة المتكاملة الأجزاء ، كما هو الحال فى كتابة القاضى الفاضل ، والتى قلنا إنها أميل منه إلى التشخيص ، فالعماد أكثر ميلا إلى الاستعارات المتتابعة التى لا تتحد فى صورة واحدة ، كذلك

---

(١) الجامع المختصر ٩/٦١ .
(٢) مختصر الدبيثى ١٢٢ .
(٣) البداية والنهاية ١٣/٣٠ .

يختلف عن القاضى الفاضل بإغراقه فى الجناس بصورة ملحوظة ، تكاد تخرج عن حد المعقول المقبول المستساغ إلى شىء من التكلف الثقيل على السمع ، وفقراته فى السجع أكثر قصراً ، وسجعاته أكثر تكلفًا ، إذ تحس وأنت تقرأه أنه يأتى بالجملة من أجل أواخرها وخواتيمها ، مما يفكك ترابط عبارته ، ويوهى عرى معانيه .

كذلك نرى أن العماد أقل عمقًا من الفاضل ، فمعانيه ليس فيها المجهود الذهنى والفنى الذى نحسه فى كتابة الفاضل . فصناعته نستطيع أن نقول إنها صناعة سطحية ظاهرية . لا تتغلغل تغلغل صنعة الفاضل ولا تتعمق تعمقها . ونعرض لهذا كله نماذج من رسائله :

يقول فى كتاب له فى فتح عكا : «ولقد كَتَبْنَا فى الزَّبُور من بعْدِ الذكْر أنَّ الأَرْضَ يرثُها عِبادىَ الصَّالِحُون . الحمد للهِ على ما أَنجزَ من هذا الوعْد ، وعلى نُصْرَتِه لهذا الدِّين الحنيف من قَبْلُ ومن بَعد . وجعل بَعْدَ عُسْر يُسرًا ، وقد أَحدثَ اللهُ بعد ذلكَ أَمرًا ، وهَوَّنَ الأَمْرَ الذى ما كانَ الإِسلامُ يستطِيعُ إليهِ صبرًا ، وخُوطِب الدِّينُ بقوله : ولقد مَنَنَّا عليكَ مِنَّةً أُخرى . فالأُولى فى عَصْر النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم والصحابَة ، والأُخرى هذه التى أُعتق فيها من رقِّ الكآبة ؛ فهو قد أَصبح حُرًّا ريانَ الكَبِد الحَرَّا ، والزمان كهَيئَتِه استَدَارَ ، والحقُّ ببَهجتِهِ قد استنَار . والكفرُ قد رَدَّ ما كانَ عِنْدَه من المتَاعِ المُسْتَعَار : فالحمدُ للهِ الذى أَعاد الإِسلامَ جديدًا ثوبُه بعد أَنْ كانَ جذيذًا حبْلُه : مُبْيضًّا نصرُه ، مُخْضرًّا نصلُه . مُتَّسِعًا فضله . مُجتَمِعًا شَملُه . والخادمُ يَشْرحُ من نبإٍ هذا الفتحِ العَظِيم . والنصْر الكريم ما يشرحُ صُدُورَ المؤمِنِين . ويمنحُ الحبور لِكافَّةِ المسْلمِين . ويُوردُ البُشْرىَ بما أَنعم به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه . وتلك سبعُ ليالٍ وثمانيةُ أَيام

سخَّرها اللهُ على الكُفار ، فترى القوم فيها صَرْعى كأنهم أعجازُ نخل خَاوية ، وإذا رأيت ثَمَّ رأيتَ البلاد على عُروشها خاوية [١] » .

وتظهر فى هذه الرسالة خصائصُ السَّجْعِ والجناس والاستعانةِ بالقرآن الكريم من حيث تضمين بعض الآيات بنصوصها أو بأكثر ألفاظها أو ببعض ألفاظها ومعانيها ، ويمثل اقتباسه من الشعر القديم ، ومن الخطب قوله فى استرجاع بيت المقدس : « ونجومُ الرُّجومِ على شياطين الكُفْر بسيوف أهل الإيمان مُنْقَضَّة ، والثغورُ مبتَسِمة ، والأُمورُ منتظمة ، والحصونُ مُتَسلِّمة ، والخصوم مذعنةٌ مُسْلِمة .وأرضُ الكُفْر ينقصُها الإسلامُ كلَّ يومٍ من أطرافها - بل يستولى على أوسَاطِها وأَكْنافِها ، ويعيدُ إلى الطَّاعةِ كرْهًا مذهبَ خِلافهَا ، ولقد أينعَ زَرْعُها وثمرُها من رُءوسِ المشْركين ، وهذا أوانُ حصَادِها وقِطافِها ، والنعمةُ بحمدِ اللهِ عظيمة » [٢] .

فى هذا المثال يتضح اقتباس العماد لمعنى بيت بشار بن برد المشهور :

كأَن مثارَ النّقع فوقَ رُءُوسِنا   وأَسيافَنا ليلٌ تهاوَى كَواكِبُهْ

وجمع بين معنى الآية ومعنى البيت ، واقتبس فى آخر الفقرة قول الحجاج فى خطبته المشهورة « وإنى أرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها » .

أما اعتماده على الاستعارات المتتابعة فتظهر فى وصفه لمعركة حطين حيث يقول : « فاغتنمنا الغِرَّ فى اللِّقاء ، وهِجْنَا إلى الهيجاء ، وأسرعتْ الأَعِنةُ ، وأُشْرعتْ الأَسِنَّة ، ونقعَ النقعُ أوامَ الجوّ ، وأَجابَ الصَّدى دوىّ الدو ، وجال الجاليشُ وطارَ السَّهمُ المريش ، وعصفتْ رياحُ السَّوابق ، واستعْبرَتْ عيونُ البوارق ، ولقيناهُم فى عرمْرَم عارم ومجرٍ جَارم ، وعوامِل جوازم وصواهل صَلادِم ، وضراغمَ ضوارٍ ، وجوارحَ جوار ، وأسودٍ قد اعتقلت أساود

(١) الروضتين ٨٩/٢ .

(٢) الفتح القدسى ص ٥٥ .

وجيادٍ قد حملت أجاود ، وسوابحَ قد أقلّتْ بحورًا ، وصقورٍ قد ركبتْ صقورًا . . .

وما زالت الحملاتُ تتناوبُ . والأسلاتُ تتواثب ، والسواعِدُ بقرعِ الظُّبى سَواعٍ ، والرَّواعِفُ فى زرع الطُّلى رَواع ، والمنايا تئِنُّ والحَنايا تحِنّ ، والبيضُ تُصافِحُ البِيْضَ صِفاحُها ، والذكورُ لنتاجِ الحرْب العَوان بالفتح البكْر عندَ اللقاءِ لقاحُها ، والذَّوابلُ فى أشاجع الشُّجعان ذواب ، والصوارمُ لجوامح النيران شَرابْ . ولما أحسُّوا بأسْمِنَا وإمرار أمْراسِنا ، والهجيرُ يَتلظَّى ، وقَدوقَدَ عليهم بنارهِ ، وأخذُوا طريقَ البُحيْرة للارتواءِ ،فأخذْنا قدّامَهم - ووقفنا أمامَهم ، وحَلأْناهم عن الوِرْد ، وألجأْناهم إلى الرد بالرَّدى ،فاعتصموا بتل حِطِّينَ ، وصِرْنا بهم مُحيطِين ،وتَحكَّمتْ فيهم قَواضِي القَواضِب ، ونشبتْ من النُشَّابِ بهم نيوبُ النَّوائبِ[1] » .

ويظهر فى هذه النماذج جميعًا إسرافه فى الجناس والسجع .

وشعر العماد متوسط لايبلغ حد الجودة ، وإن كان بعض معاصريه معجباً به ، وقد ذهب فى بعض قصائده إلى تقليد المتنبي ، يحذوه فى قصيدة يصف فيها الحمى . ينظم على الوزن نفسه كما يستخدم كثيراً من ألفاظه ومعانيه . قال العماد :

وزائرةٍ وليس بها حَياءٌ فليس تزور إلاَّ فى النهار
ولو رَهبَتْ لدَى الإقدام جَوْرى لما رَغبتْ جِهارًا فى جِوارِى
تُقيم فحينَ تُبْصِرُ من أناتِى ثَباتَ الطَّوْدِ تُسْرِعُ فى الفرارِ
تفارقنِى على غيرِ اغتِسال فَلمْ أحْلُلْ لزوْرَتِها إزارِى

---

(١) الفتح القدسى ١٦٧ .

(٢) الروضتين ١/٢٧٧ .

وقال كذلك فى قصيدة أخرى يمدح صلاح الدين :

بملك مصر أهنى مالك الأُمم ... فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم

أَضْحى بعدْلِك شملُ الْمُلكِ مُلتئِماً ... وهل بعدْلِكَ شىءٌ غيرُ ملتئِم

ووامِقا ثَلْمَ ثَغْرِ الكُفْرِ تَعجُمه ... لا لثْمَ ثغرٍ شَنِيبٍ راضِحٍ شَبِم

وفى هذه الأبيات تمتزج معانى المتنبى ببعض معانى أبى تمام .

ضياء الدين بن الأثير [1]

عرضنا لكاتبين كبيرين من كتاب دولة صلاح الدين ، أحدهما وهو القاضى الفاضل جاد صارم فى جده ، مخلص متفان فى إخلاصه ، مجاهد بقلمه ، مشاطر برأيه لصلاح الدين فى كفاحه ضد العدو الغاصب الصليبيين ، وهو إلى جانب جده وإخلاصه ذو عقل كبير وقلب كبير ، وقف وراء صلاح الدين ليسنده ويناصره بقلمه وجهده وتدبيره ، فهو إذاً رجل متهيئ فى نفسه أو تكوينه لتحمل جسيم الأمور وجليل المهام ، ليس لديه وقت للهو أو عمل لنفسه ، وكانت رسائله صورة لكفاحه ، ولعقله ولقلبه ولإيمانه ، عميقة فى قوة ، جميلة بإخلاصها وصدقها وهى إلى جانب هذا كله تدور فى القالب العام لفن الكتابة فى هذا العصر ، قالب السجع والجناس ، وضروب البديع الأخرى ، وقد وفق فى المزج بين القالب والمضمون فى صورة تدعو للإعجاب . أما صاحبه الثانى العماد فهو كاتب رشيق القلم ، لا يأخذ نفسه بالجد ولا بالصرامة التى أخذ بها القاضى الفاضل نفسه ، وهو ذكى لماح الذكاء يميل إلى اللهو وإلى أخذ قسطه من الحياة الرضية السهلة الهانئة فى أماكن النزهة والبساتين ، يشاطر أمثاله من الأدباء والشعراء مجالس الأنس والغناء ، يشرب الخمر وينادم عليها إذا وجد فى ذلك فرصة ، وهو إذا ما جد الجد ، وطلب إليه أن ينهض للجهاد كما ينهض غيره من المواطنين ، يعجز ويجد فى نفسه نفوراً عن

---

(١) للمؤلف دراسة واسعة عن ضياء الدين باسم « ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد » طبع مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٨ م .

وله كتاب « ضياء الدين بن الأثير » فى مجموعة نوابغ الفكر العربى طبع دار المعارف سنة ١٩٦٧ .

هذا الأمر الذى يكلفه من أمره مالا يطيق ، فيقعد ويخشى أن يقال فى قعوده ما يقال ، كما يخشى السلطان كى لا يقول إنه مخالف أو متقاعس ، فيوسط القاضى الفاضل ليريحه من عبء الجهاد ، فيعفى منه ويستريح لهذا كل الراحة ، ويعرف السلطان فيه هذا الطبع غريزة ، فيمازحه مرة أخرى ويدعوه لقتل بعض أسراه فيعجز ، ويكون موضع الفكاهة مرة أخرى. هذا هو العماد ثانى من تكلمنا عنهم من الكتاب ، وقد كانت كتابته كذلك صورة لهذه النفسية ، تهتم بالمظهر اللفظى أكثر من المضمون ، ليس فيها عمق الفاضل ولا جهده أو صدقه ، ولهذا جاءت وطابع الصنعة والتكلف عليها أظهر وأوضح ، وإن كان يقلل من ثقله على النفس خفة ظله أحياناً .

أما الكاتب الثالث ، وهو موضوع حديثنا فيختلف عن سابقيه ، فهو يصل إلى الكتابة والوزارة شاباً ، وهو طموح من بيت كبير يملأ الإعجاب والكبر نفسه ، ولا يرى فيمن حوله من يضارعه نسباً ، أو جاهاً ومجداً ، ولا علما وذكاء وفناً . ذلك هو ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم . قضى صباه بموطنه الأول جزيرة ابن عمر ، ولذلك ينسب إليها فيقال الجزرى ، وأمضى شبابه يتلقى العلم على جماعة من شيوخ العلم والأدب بالموصل ، وكان والده قد انتقل إليها والتحق بخدمة آل زنكى أمرائها ، وعاصر ضياء الدين أثناء تلقيه العلم بالموصل جماعة من الأدباء الكبار وعلماء اللغة مثل ابن الدهان يحيى بن سعيد (المتوفى سنة ٦١٦ هـ) ، وعلى بن خليفة النحوى (المتوفى سنة ٥٦٣هـ) والشاعر محمد بن دانيال المتوفى سنة ٦٠٨ هـ وشميم الحلى (المتوفى سنة ٦٠١ هـ) .

وبعد أن نصح ضياء الدين ، رحل إلى الشام حيث كان البطل صلاح الدين يكافح الصليبيين ، ويجمع حوله جيوش المسلمين من الجزيرة بالعراق ومن الشام ومن مصر . وحيث كانت دولة القلم والعلم مزدهرة فى ظله إلى جانب دولة السيف والجهاد ؛ وبهرت أعمال صلاح الدين فى الحرب والسلم هذا الشاب الطموح. فجاء إليه. وكان ذلك سنة ٥٨٧ هـ . وعمره إذ ذاك ينقص عن الثلاثين ربيعاً بعام واحد . ولقى القاضى الفاضل فرحب به وألحقه بخدمة السلطان كعهده بالأدباء النابهين ، وظل الكاتب الشاب فى خدمة صلاح الدين فترة وجيزة ، التحق

بعدها بخدمة ابنه الملك الأفضل ، وظل إلى جانبه يكتب له ويعاونه إلى أن مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ . وتولى الأمر في دمشق بعده ابنه الأفضل وكان فيما يبدو شاباً فيه شيء من النزق والغرور ، وكذلك كان صاحبه ضياء الدين وإن كان أكبر منه سناً ، واستطاع ضياء الدين أن يتمكن من نفس صاحبه ومن دولته ، حتى وضع كل شيء في يده ، وأصبح يتصرف في كل الأمور ، مما جعل المؤرخين يأخذون عليه هذا المسلك ، فيقول ابن كثير : « وكان الأفضل بعد وفاة أبيه قد أساء التدبير فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب ، وأقبل على اللعب وشرب الخمر واللهو ، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري ، وهو الذي كان يحدوه إلى ذلك فتلف وأتلفه وضل وأضله ، وزالت النعمة عنهما[1] » .

وقال العماد الأصبهاني « . . . ووزيره الجزري قد بلى الناس منه ببلايا ، وهو في غفلة عن تلك القضايا ، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه ، وأنهم يميلون لأخيه ، فيصدقه الأفضل فيما يدعى ، فصار يبلغ العادل منه أحوال ما تعجبه ، بل تغضبه ، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر وما منهم إلا من يشكو الوزير الجزري » .[2] وقال فيه أحد الشعراء من أهل دمشق[3] :

متى أرى وزيركم وما له من وزر
يقلعه الله فذا أوانُ قلع الجزر

وقال فيه العماد مرة أخرى : « وتفرد الوزير في توزره ، ومد الجزري في جزره »[4] .

ولم تعقب هذه السياسة من الأفضل ووزيره غير النتائج السيئة ، وغير ضياع الملك ، وتألب الأعوان ، وتمكن عمه العادل وأخيه العزيز عثمان من إخراجه من دمشق وفراق ابن الأثير ، وعاد ابن الأثير إلى الموصل حيث اتصل بخدمة أتابكتها ، وظل بها إلى سنة ٥٩٥ هـ حيث استدعاه الأفضل عقب وفاة أخيه العزيز وتوليه

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٩ .
(٢) الروضتين ٢ / ١٣٠ .
(٣) المصدر نفسه ٢ /٢٨٢ .
(٤) المختصر لأبي الفداء ٣ /٨٨

أمر مصر ، وذهب ضياء الدين إلى مصر، وهناك اتصل بأدبائها وظل بمصر عاماً وبعض عام . وقال فى الوشى المرقوم: « وكنت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة [١] ، وكان بها فى ذلك الوقت ابن نجية الحنبلى ، والبلطى النحوى (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ) ، وابن معطى ، والقاضى الفاضل وابن سناء الملك ، والأسعد بن مماتى ، وعلى بن ظافر وغيرهم .

وقد تركت إقامته بمصر آثارها على إنتاجه وأدبه ، فقد ذكر ابن خلكان أن له رسالة فى نيل مصر يقول فيها : «وعذب رضابه يضاهى جنى النحل ، واحمر صفيحه فعلمت أنه قتل المحل » [٢] ، وقال إنه معنى بديع غريب نهاية فى الحسن ، ولقى أدباءمصر وناظرهم . قال فى الوشى المرقوم : « ورأيت (فى مصر) الناس مكبين على شعر أبى الطيب المتنبى دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، وقلت : إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو متقدم عليه وهو أبو نواس الحسن بن هانئ فلم يذكروا لى فى هذا شيئاً ثم إنى فاوضت عبد الرحيم بن على البيسانى فى هذا فقال : إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ، ولقد صدق فيما قال [٣] »

وخرج من مصر مع صاحبه الأفضل متخفيا بعد مجىء العادل ، وقصد سميساط وبقى بها سنتين ، ثم انفصل عن الأفضل فغادر سميساط إلى حلب ثم الموصل فإربل . وسنجار ، وعاد إلى الموصل حيث ظل بها يكتب لعز الدين مسعود ، وبدر الدين لؤلؤ ، وقد أوفد من قبله إلى الخليفة ببغداد فى سفارة ومعه رسالة من إنشائه، وتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ هـ .

وظل ضياء الدين بالموصل من سنة ٦١٧ هـ إلى سنة ٦٣٧ هـ أى عشرين سنة كاملة ، وكانت هذه الفترة أخصب فترات حياته فقد كانت فترة استقرار وإنتاج ، فيها ألف أكثر كتبه وأهمها « المثل السائر» و « الاستدراك » و « الوشى المرقوم » كما كتب كذلك أكثر رسائله ، وكانت تغدو بقلمه الرسائل من الموصل على لسان صاحبها إلى بغداد وغيرها من عواصم المسلمين . قال ابن كثير فى حوادث

---

(١) الوشى المرقوم ١١ .

(٢) ابن خلكان ٥ — ٢٦ .

(٣) الوشى المرقوم ١١ .

سنة ٦٢٧ هـ بعد تولية المستنصر الخلافة : « وقدم رسول » من صاحب الموصل يوم غرة شعبان يحمل رسالة من الوزير ضياء الدين أبى الفتح نصرالله بن الأثير ، فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة »[١] .

وظل يدرس للناس اللغة والأدب ، ويعلم تلاميذه « المثل السائر » ومن تلاميذه الذين سمعوا عليه على بن أنجب المعروف بابن الساعى (المتوفى سنة ٦٧٤ هـ) صاحب كتاب المختصر فى التاريخ [٢]. وقد حدثه بكتب أخيه مجد الدين ابن المبارك المحدث أيضا ، وسمع به ابن خلكان وعرف فضله ، وتمنى أن يلقاه ليأخذ عنه قال : « وقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات ، وهومقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئًا لما كان بينه وبين الوالد من المودة الأكيدة، فلم يتفق ذلك »[٣] .

رسائله وكتبه :

لضياء الدين ديوان رسائل ، وتوجد منه أجزاء مخطوطة ، لكنه يورد كثيراً من رسائله فى كتابه المشهور « المثل السائر » ، ويعتمد فن ضياء الدين فى الكتابة على الأصول التى رأينا الفاضل والعماد قد اعتمدا عليها ؛ نعنى القرآن الكريم والحديث والمحفوظ الكثير من اللغة والشعر والخطابة والأخبار ، أما الصورة الفنية التى يمتاز بها أسلوبه ، فإنه يكتب بطريقتين : الطريقة الأولى هى التى يستخدمها فى الرسائل والإنشاء ، ويحذو فيها حذو كتاب عصره ، فيكثر من استخدام السجع والجناس والمحسنات البديعية بصفة عامة . والطريقة الثانية وهى طريقة النثر المرسل التى لا تعتمد على أصول البديع ، ولا تتمسك بقيوده . وفيها يتحرر ضياء الدين ويضيق بالبديع ، ولا يرى الإكثار منه ، إنما يفضل الأخذ بحذر وبقدرما يزين الكلام ،ويشبهه بالحلى، قليل منه يزين وإذا كثر ثقل وناء به الجيد. وهذه الطريقة الثانية يستعملها فى التأليف ، فكتبه كلها بالأسلوب المرسل غير

(١) البداية والنهاية ١٣ / ١١٤ .

(٢) راجع الجامع المختصر ٩ / ٢٩٩ .

(٣) وفيات الأعيان ٥ / ٢٦ .

المقيد بالسجع ، وهو بهذا يختلف عن العماد الذى كان أسلوبه فى الإنشاء وكتابة الرسائل هو نفس أسلوبه فى التأليف مما يجعل قارئ كتبه « كالخريدة » أو « الفتح القدسى » يمل ويستثقل الاستمرار .

وتأثر ضياء الدين كما تأثر غيره بطريقة القاضى الفاضل فى إنشائه ، وحاول تقليده ومعارضته [١] .

ويدلنا ضياء الدين على الأمثلة التى استخدم فيها القرآن وحديث النبى فى رسائله ، فلا يحوجنا إلى جهد كثير أو قليل . ومن هذا مما يناسب الموضوعات التى أوردنا منها أمثلة لسابقيه قوله فى وصف المنجنيق : « ونصب المنجيق فجثم بين يدى السور مناصباً ، وبسط كفه إليه مؤاتيا ، ثم تولى عقوبته بعصاه التى تفتك بأحجاره ، وإذا عصا عليها بلد أخذت فى تأديب أسواره ، فما كان إلا أن استمرت عقوبتها عليه حتى صار قائمه حصيداً ، وعاصيه مستفيداً ، وقال : ألم يكن نهى عن المد والتجريد ، فمالى لا أرى إلا مدًّا وتجريداً ، وعند ذلك أذعن لفتح الأبواب وتلا قوله تعالى : (لكل أجل كتاب) ، وكذلك لم نأت صعباً إلا استسهل ، ولا حثثنا مطيًّا إلا استعجل ، ولطالما وقف غيرنا على هذا البلد فشفه طول الانتظار ولم يحظ منه إلا بمساءلة المنصب أحجار الديار [٢] » . قال ابن الأثير : « فى هذا الفصل معنى خبر من الأخبار النبوية ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم فى النهى عن ضرب المحدود : (لا مد ولا تجريد) ، أى لا يمد على الأرض ولا يجرد عنه ثوبه » . واقتبس ضياء الدين الآية الكريمة فى قوله ، والصورة التى اعتمد عليها فى معانيه صورة المد والعقاب ، سواء كان ذلك فى الحد عند القاضى أو فى المكتب . وشبه عصا المنجنيق وهى ترتفع وتهبط بالحجارة تقذفها على الأسوار بعصا المعاقب تهوى على المعاقب تلهب جنبيه وقدميه .

ويدلنا فى موضع آخر على طريقته فى السجع ، التى تختلف عن طريقة غيره

---

(١) ضياء الدين بن الأثير ص ٤٣ وراجع ما سبق ذكره فى القاضى الفاضل .

(٢) المثل السائر طبع بولاق ص ٧٥ .

من الكتاب؛ فهي تختلف عن طريقة الصابي والحريري والخطيب ابن نباته ، وذلك أن هؤلاء إنما يعمدون إلى تكرار المعنى الواحد في الفقرتين ، وطريقته هو أن تستقل كل فقرة بمعنى بذاته . قال : ومنه ماكتبته في جواب كتاب يتضمن إباق غلام ، وهو « وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة ، فقد يفرّ المهر من عليقه ، ويطير الفراش إلى حريقه ، وغير بعيد أن ينبو به مضجعه أو يكبو به مطمعه فيرجع وقد حمد من رجوعه ماذمه من ذهابه ، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمه في إيابه ، فما كل شجرة تحلو لذائقها ، ولا كل دار ترحب بطارقها ، ومن أبق عن مولاه مغاضباً ، وجانب محل إحسانه الذى لم يكن له مجانباً ، فإنه يجد من مفارقة الإحسان ما يجده من مفارقة معاهد الأوطان ، وهل أضلُّ سعياً ممن دفع في صدر العافية وغدا يسأل عن الأسقام »[1] .

قال : فانظر أيها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها ، واعطها حق النظر حتّى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس في أختها التى تليها ، وكذلك فليكن السجع وإلا فلا .

والمتتبع لرسائل ضياء الدين التى أوردها في كتابه يجدها كما وصف هو رسائل غيره « كتباً باردة غثة لا تعرب عن الحادثة ، بل بينها وبينها بعد المشرقين »[2] .

وهو في نقده، وتأليفه، ودرايته بأسرار الأساليب ، ودقائق العربية ، يتعرف مواطن الحسن ومواطن القبح في الكلام ، يحسن وصف أدوار المقال ، ولكنه لايجيد بالرغم من حملته على غيره من المجيدين أمثال الفاضل وابن عباد .

وليس هنا مجال القول في جهوده في النقد والتأليف ، لكنه على أية حال كان ممن أثمرت جهودهم في البيان العربي ، وكان لهم أثر واضح في بناء علم النقد والبلاغة بحسن ذوقه وحسن تفهمه ، وبكثرة محفوظه ولماحيته وذكائه .

وله كتابان ، أحدهما « المثل السائر » المشهور ، والثاني وهو « الاستدراك »[3] في الأخذ على المآخذ الكندية من المعاني الطائية وهو في الكلام عن السرقات ،

---

(١) المثل السائر ص ١١٩ .

(٢) المثل السائر ٢٠٥ .

(٣) طبع أخيراً بمصر سنة ١٩٥٩ .

وهو كتاب قيم من وجهة النظر النقدية ، لأنه يتناول قضية السرقات تناولاً واعياً جامعًا ، ويتتبع بصفة خاصة سرقات أبى الطيب من أبى تمـــام [1] .

وحاول فى نقده ألا يأخذ بمقاييس البلاغيين السابقين دون مراعاة للذوق ، وصدق الإحساس ، وتناسق أصوات الكلمات ، وجرسها فى الآذان مع المعانى وتلاؤمها .

وكان جريئاً فى آرائه ، لم يخضع لنظريات سابقيه ولا للإجماع السائد فى ترتيب الشعراء . وكان المتنبي عنده يمثل قمة الإبداع الشعرى .

وأقر بفضل القرآن على البيان ، وعلى الحفاظ على اللغة ، ودعا إلى التمكن من العلوم الإسلامية والعربية ، والإقلال من خطورة آثار الفكر اليونانى على البيان الغربى خاصة .

---

(١) راجع « ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد » ص ١٢٤ .

الباب الرابع

الشعر والشعراء

١

حال الشعر ورجاله :

لعب الشعر دوراً هاماً فى أحداث هذا العصر ، وكان ترجماناً لما دار فيه ولم يقتصر الشعر على طبقة الشعراء المحترفين من مداحى الملوك والسلاطين والأمراء ، بل إن كثيراً من الناس قد تعلقوا به وصار لهم هواية محببة يلجأون إليه فيودعونه ما يريدون التعبير عنه من مكنونات نفوسهم ، أو يتبادلون به التهانى والرسائل ؛ أو يتخذونه وسيلة للتسلية والمتعة فى مجالسهم وأسمارهم . وكان من بين من قالوا الشعر فقهاء وعلماء وأطباء ومهندسون وتجار وجنود وقواد ، وأناس من عامة الشعب .

فمن علماء الشعراء الطغرائى صاحب لامية العجم ، كان خبيراً بصناعة الكيمياء ، وله فيها تصانيف [١] ، ومن الأطباء ابن الساعاتى (توفى سنة ٦١٨ هـ) ، وكان طبيباً فاضلا ، وأديباً شاعراً ، وله معرفة تامة بالمنطق والعلوم الحكمية ، وكان خبيراً فى علم الموسيقى ، ويحسن الضرب بالعود [٢] ، ومن التجار التورانى (توفى سنة ٥٨٠هـ) ، أخذ عنه الجواليقى ، وكان عارفاً بالنحو ، جيد النظم والنثر [٣] ، ومن الأطباء حكيم الزمان الجيانى (توفى سنة ٦٠١ هـ) وقد رحل من الأندلس إلى بغداد ومدح السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكان علامة زمانه فى صناعة الطب والكحل بارعاً فى الأدب وصناعة الشعر ، وعمر طويلا ، وكان له حانوت لصناعة الطب ، وكان صلاح الدين يجرى حقه له ويحترمه ، وللجيانى فيه مدائح

---

(١) إرشاد ٤ / ٥١ .

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٢١١ ,وهو أخو ابن الساعاتى المشهور أبى الحسن على بن رستم الشاعر .

(٣) المصدر نفسه ٤ / ٢٣٠ .

كثيرة . وصنف كتباً ، وله عشرة دواوين ، كما يقول ابن شاكر[١]. وكان حمدان بن عبد الرحيم الأثاربى طبيباً شاعراً (توفى سنة ٥٥٤ ﻫ) [٢] ، وكذلك كان الشاعر الأندلسى أبو الحكم بن غلندو الإشبيلى المتوفى سنة ٥٨٧ ﻫ متميزاً بصناعة الطب [٣] . ومن شعراء الجند الأسعردى (المتوفى سنة ٦٨٤ ﻫ) وكان من جند الملك المنصور صاحب حماة وهو متأخر عن عصرنا ، وكان بديع النظم رقيقه لطيف التخيل [٤] ، ويروى ابن شاكر له شعراً كثيراً .

إلا أن بعض هؤلاء لم يرق شعرهم إلى مرتبة الشعر الجيد ، ولم يبلغوا هم أنفسهم منزلة الشعراء المحترفين ، بل كان شعرهم غالباً كغيره من شعر العلماء الذى أشار إليه النقاد فى العصور المختلفة ، من مثل شعر سيبويه والخليل بن أحمد وأضرابهما ، وقد بلغ من سخف شعر بعض العلماء أن أصبح مادة للتسلية والتندر والسخرية به وبأصحابه ، ويروى ياقوت أن تاج الدين الكندى سمع مرة شعراً للحافظ بن عساكر ، فقال : « هذا شعر أضاع فيه صاحبه شيطانه »[٥] . وقال ياقوت نفسه فى شعر أحد العلماء : « ولهذا أشعار من هذا النمط ترك الكاغد أبيض خير من تسويده بها ! » [٦] .

وليس معنى هذا أن كل من جمع بين العلم والشعر جاء شعره كذلك غثاً بارداً رديئاً ، بل إننا نجد نماذج ممن جمعوا بين الاثنين ومع ذلك احتفظوا بمكانة رفيعة فى عالم الشعر كابن التعاويذى وابن الهبارية — وقد نظم كتاب كليلة ودمنه — والأبيوردى وكان شاعراً وعالماً بالأنساب واللغة .

وأدى الشعر دوراً هاماً كما قلنا فى معارك التحرير بين المسلمين والصليبيين وكانت له حظوة وأثرة عند السلاطين والوزراء والأمراء والقواد ، وكان الشعراء ألسنة الثناء والدعاية لانتصاراتهم وأعمالهم . وهكذا ظل الشعراء المحترفون مقربين

---

(١) فوات الوفيات ٢ / ٣٥ .
(٢) إرشاد ٤ / ١٤٣ .
(٣) إرشاد ٤ / ١٣١ .
(٤) فوات الوفيات ٢ / ٥٣٩ .
(٥) إرشاد ٥ / ١٤٥ .
(٦) إرشاد ٥ / ٤١٤ .

من أصحاب السلطة وكبار رجال الدولة ، وغالى بعضهم فقدم الشعراء على العظماء والرؤساء والقادة . وقد أشار الشاعر الفارسى أنورى إلى ما بلغه الشعراء من المنزلة الرفيعة فى بلاطات الملوك والسلاطين ووصفها فى شعره (١) .

وفى المشرق لم ينس سلاطين الدولة الخوارزمية أن يحيطوا أنفسهم بأنواع الأبهة والعظمة كما لم ينسوا أن يملأوا قصورهم بكل مباهج الحياة وميزاتها ، كما ملأوا قصورهم بالأدباء والشعراء من الفرس والعرب ، وكان لهؤلاء نصيب كبير من عنايتهم وتشجيعهم رغم أن السلاطين لم يعرفوا من اللغات إلا التركية وإن كان بعضهم يعرف من العربية والفارسية النزر اليسير (٢) . وفى دولة السلاجقة وفى عصر السلطان سنجر المتوفى سنة ٥٥٢ ه زاد عدد الشعراء زيادة عظيمة إلى درجة أنه يمكن تعداد اثنين وخمسين شاعراً غير الوزراء والأمراء والأطباء من الشعراء(٣) ، وكان بعض هؤلاء يقولون الشعر بالفارسية وآخرون يقولونه بالعربية ، ومن أشهر شعراء الفرس سنائى العظيم وهو أحد شعراء الصوفية العظام ، ومنهم كذلك العطار وجلال الدين الرومى (٤) .

وفى العراق كان ابن هبيرة الوزير العباسى يقرب الشعراء ويعطف عليهم ويصلهم بصلات سخية ويجرى لهم الرواتب ، فانقطع له كثير منهم (٥) ، وبينهم الشاعر المشهور حيص بيص وابن التعاويذى والأبله ، وغيرهم كثير ، وكانت تجرى فى مجلسه معارضات ومباريات بين الشعراء يظهرون فيها براعتهم ، وكان ذلك يحدث كثيراً بين الحيص بيص وابن الفضل فى مجلس الوزير الزينبى (٦) .

وكذلك كان الحال فى الشام ومصر فقد كان كل من نور الدين محمود وصلاح الدين يقرب الشعراء ويجلس لاستماع قصائدهم فى تسجيل الانتصارات أو تخليد المآثر التى يقومان بها ، وكانا لايبخلان على الشعراء بالمال والعطاء الجزيل .وكان

---

(١) Browne 376

(٢) الدولة الخوارزمية ٧٧ .

(٣) Browne 344

(٤) Borwne 317

(٥) وفيات الأعيان ٥ –٢٧٨ .

(٦) فوات الوفيات ٢ –٦٢٠ – ٦٢١ .

صلاح الدين يهوى الشعر ، ويحب أن يسمعه عندما يهجع إلى نفسه بعد المعارك ، أو بعد المتاعب التى يلقاها فى تصريف شئون الملك ، وكثيراً ماكان يستدعى بعض مقربيه ، ويطلب إليه أن يقرأ عليه فى ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان ابن منقذ الشاعر الشامى المعاصر من آثر الدواوين لديه. كذلك كان ابن منقذ نفسه ، فقد حظى بعطفه فى آخر أيامه وكان الشاعر قد بلغ من العمر مرحلة الشيخوخة .

واعتمد الشعراء المحترفون على الشعر للكسب ، وكثر المتكسبون به فى هذا العصر لما رأوا من السلاطين والرؤساء إقبالا عليه ، وانقطع جماعة من الشعراء للكسب من وراء نظمه، واتخذوا المديح والملق والزلفى مذاهب لهم لطلب المال والحصول عليه، وشاعت نغمة السؤال والاستجداء الصريح من مثل قول ابن التعاويذى [١] :

أترضون يا أهل بغداد لى ... وعنكم حديث الندى يسندُ
بأنّى أرحلُ عن أرضكم ... أجوبُ البلاد وأسترفدُ
ألا رجلٌ منكُمُ واحدٌ ... يحركه المجدُ والسؤدد
يقلّدنى مِنّةً يسترقُّ ... بها حُرٌّ شكرى ويسترفدُ
ويغضبُ لى غضبة مرةً ... يعود بها المصلح المفسدُ
لقد شاننى أدبى بينكم ... كما شين باللحية الأمردُ
أمالى فيكم سوى «شعره ... رقيقٌ وخاطرهُ جيدُ»
يسركم أن يُغَنَّى به ... ويُطْرِبكُمْ أنه ينشدُ
وأقسمُ أن رغيفًا لدىَّ ... من قولكم جيدًا أجودُ

وظهرت إلى جانب هاتين الطبقتين — طبقة العلماء والمتكسبين بالشعر — طبقة أخرى ، لاتقول الشعر تكلفًا ولا تكسبًا ، ولكن تقوله عن وجدان فياض بأفكار ومعان وعقائد خاصة ، تلك هى طبقة شعراء الصوفية ، وكان لهذه الطبقة دنياها

---

(١) ديوان ابن التعاويذى ١٣٩ .

وعالمها الواسع العريض ،وكان شعرهم زاخراً بألوان من الغزل على طريقتهم فى صياغة جميلة ومعان لطيفة ، وكان الشعر الذى ينظمونه ينشد فى حلقاتهم ، وتبرعرع وفاض وجاد وغزر إنتاجه إلى حد بعيد ، «وأصبح يتوسل بضروب البلاغة إلى إحداث ضرب من التواجد فى نفوس المستمعين إليه »(١) .

ويعد ابن الفارض أشهر شعراء الصوفية من العرب على الإطلاق ، يقول ابن خلكان (٢) : « له ديوان شعر لطيف ، وأسلوبه فيه رائق ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء ، وله قصيدة مقدار سمّائة بيت على اصطلاحهم ونهجهم ،وله دوبيت ومواليا وألغاز » . وقصيدته التى يشير إليها هى التائية المشهورة . وجعله نيكلسون لا يقل عظمة فى شعره عن شعراء الصف الأول من الصوفية الفرس(٣) وشعره عربى قديم الطابع فى صياغته ومعانيه . وكان رقيقاً فى غزله وخمرياته يكسو بهما تجاربه الصوفية .

وجعله ماسينيون أشهر شعراء هذا اللون فى العربية هو والتسترى مقابلين فى الفارسية الجلال الرومى والعطار .

جلال الرومى (المتوفى سنة ١٢٧٣) م من أعلام هذا الشعر فى الفارسية ، وتأثر به كثير ممن أخذ عنه أو احتذى حذوه فى الفارسية والعربية على السواء ، وقد ولد جلال الدين ببلخ سنة ١٢٠٧ م ونزحت عائلته من بلخ إلى نيسابور وفيها التقى بفريد الدين العطار ثم اتجه غرباً حيث استقر فى قونية بآسيا الصغرى (تركيا الآن) إلى أن مات ، ويعد جلال الدين أعظم شعراء الصوفية الفرس ، ومثنوياته تأخذ مكانها الرفيع بين أعظم أشعار الزمان (٤)

وتغلب على شعر الصوفية بصفة عامة آثار الفلسفة الهندية ، وأن كثيراً من الأفكار المميزة لهذا اللون من الشعر مشتقة من الأفلاطونية الحديثة وهى التى أخذ أفلوطين بعض أصولها من الفلسفات الشرقية (٥) . وإلى بعض آثار الرهبانية النسطورية .

وسبق قولنا إن شعر الصوفية كان ينشد فى حلقاتهم ، ونلاحظ أن هؤلاء

---

(١) ماسينيون فى مقال « تصوف » فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) وفيات الأعيان ٣ — ١٢٦ .

(٣) Nicholson 394 & Gibb : 92.

(٤) Browne : 515.

(٥) ماسينيون فى مقال « تصوف » فى دائرة المعارف الإسلامية .

الشعراء يمدحون فى لغة صوفية الخمر التى حرمها الإسلام فى هذه الدنيا وادخرت فى الجنة للأبرار ، ويتغنون بكأس المحبة التى يديرها الساقى عليهم مسترسلين فى أذكارهم ، وإنشادهم ملوحين بأيديهم يتملكهم هياج يخرج بهم أحياناً عن الطور [١] .

٢

الشعر والعصر :

وسجل الشعر أحداث العصر وكان صورة لها عكس مراحل الحروب الصليبية ، وما حصل عليه المسلمون من انتصارات ، أو ما نكبوا به من هزائم ، فوصف ما لا قاه المسلمون أول تلك الحروب على أيدى الفرنج الغاصبين من ضروب القتل والتخريب وخاصة فى القدس ، وتشرد آلاف المسلمين وخروجهم من ديارهم هائمين على وجوههم لاجئين إلى بلاد الشام ومصر والعراق . وقد جاء إلى بغداد آلاف من هؤلاء فى شهر رمضان شهر العبادات . يحملون معهم أنباء الرعب والخوف ويجرون أذيال الهزيمة التى لحقت بالمسلمين ، مما أفزع الناس وأقلقهم وحز فى نفوسهم . فهرع الناس فى مدينة السلام إلى المساجد يستغيثون ، ويدعون الله أن يرفع ذلك الكرب . وقد وصف الأبيورى الشاعر العراقى ذلك الحزن الشامل الذى انتاب بغداد فى مرثية حزينة باكية جيدة (سنة ٤٩٢ هـ) [٢] .

وخلد الشعر الفارسى حوادث التتار المروعة ، وما جروه على بلاد المسلمين من تخريب وإحراق وخاصة فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، ولأنورى الشاعر الفارسى قصيدة سماها « دموع خراسان » يبكى فيها خراسان بعد غارة التتار وتدميرهم إياها ، وقتلهم أهلها وإشعالهم النار فيها [٣] .

وسطر الشعر بأبياته مفاخر الأبطال الكبار وانتصاراتهم ، ممن تصدوا للتتار

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) راجع هذه القصيدة فى الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، وتاريخ أبو الفداء فى السنة نفسها ، وراجع كذلك : Ameer Ali : A Short History of Saracens وديوان الأبيوردى .

(٣) راجع Browne : 384

البرابرة، أو للصليبيين المغيرين . وعلى رأس هؤلاء الأبطال يقف نور الدين محمود، وصلاح الدين ، وقد حظى هذان البطلان أكثر من غيرهما بالشعر الغزير لما قاما به من أعمال جليلة . إذ كان عقب كل موقعة يتم فيها النصر لأحدهما، يجلس السلطان لسماع المدائح والإجازة عليها ، وكان لصلاح الدين النصيب الأوفر ، لشخصيته الفذة ، وانتصاراته الباهرة وكان بين من قام بمدحه من شعراء عصره من العراق ابن التعاويذى ، ومن شعراء الشام العرقلة والعماد الأصبهانى ، ومن شعراء مصر ابن سناء الملك وابن مماتى وغيرهم .

وكان لقواد صلاح الدين ورجاله المشهورين نصيب فى الشعر لما أبدوه من ضروب الفروسية والشجاعة ، مما ألهج ألسنة الشعراء بالإشادة بهم إعجاباً وتقديراً ، وقد ذكر الغزّى الشاعر أبياتاً فى جند صلاح الدين من الترك ، فقال[1] :

فى فتية من جيوش الترك ما تركت ... للرعد كَرَّاتهم صوتًا ولا صيتًا
قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة ... حسنًا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

ويعجب المتتبع لشعر العصر وشعرائه أن لا يجد بين أولئك الشعراء من يتناول شخصية أحد الأبطال ، فيحاول تخليدها بشعر يرسم معالمها كما فعل المتنبى مثلا بالنسبة لسيف الدولة ، حيث رسم خطوط شخصيته واضحة فى قصائده المعروفة بالسيفيات ، وهذه السيفيات تعتبر من أجمل وأخلد الشعر العربى ، وقد خلدت شخصية سيف الدولة كما لم تخلد شخصية من قبل فى الشعر العربى ، بل كما خلد هوميروس أخيل ، وكان أجدر بصلاح الدين أن يلقى متنبياً آخر فى القرن السادس ، إلا أننا لانجد سوى قصائد عادية فى مستواها الفنى ويبدو أن شعراء العصر كانوا مشغولين بالصنعة والمظهر اللفظى أكثر من العناية بروح الشعر مما جعل الشعر يخرج أحيانًا عن طريق الفن والإبداع إلى مجموعة من الألفاظ والصفات المكررة ، والتى تحمل أوصافاً تحشد حشداً تنفر السامع بطول القراءة وتكسبه الملل والسأم .

وهكذا خرج فن المديح إلى مظهر شكلى لفظى ، بعد أن كان المتنبى قد ارتقى به إلى لون آخر رفيع .

---

(١) الجامع المختصر ٣ — ٤ .

ولم يكن المديح مقصوراً على الأشخاص المعاصرين بل إن الشعراء تعرضوا فى مدائحهم لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوسلوا به إلى الله سبحانه لكشف الغمة عن أمته . ويجدر بالملاحظة حقًّا أن المدائح النبوية فى القرن السابع الهجرى كانت قد بدأت تأخذ طريقها إلى الشعر العربى بشكل واضح ، وتصبح فنًّا مستقلا بذاته . وحتى أصبح لا يخلو ديوان أى شاعر من شعراء هذا القرن والقرون التالية من قصائد ذوات عدد فى مدح النبى . بل إن بعضهم قد أفرد دواوين بتمامها لهذا الفن . ومن أشهر أصحاب المدائح فى القرن السادس البوصيرى ، وقصائده مشهورة معروفة ، وأشهرها البردة والهمزية اللتان ما زالتا تنشدان فى المحافل الدينية وليالى المولد النبوى بصفة خاصة .

ولم تكن شخصية النبى وحدها موضوعـًا لشعراء المديح ، بل إن بعض شعراء الصوفية قد نظموا مدائح فى الله سبحانه وتعالى ، وقد يبدو هذا غريبـًا حقـًّا ، ولكنه حدث فعلا ، ومن هؤلاء الشعراء نجم الدين بن إسرائيل . قال فى قصيدة سينية يمدح الله تعالى بدأها بقوله :

يا ناق ما دون الأثيل مُعَرّسُ   جدِّى فصُبْحُك قد بدا يتنفسُ
واستصحبى عزمًا يُبلغكِ الحمى   لتظل تغبطُك الجوارى الكُنَّس

وهى فى اثنين وستين بيتا[١] .

والهجاء من الموضوعات التى كثر فيها القول فى هذا العصر ، ولكنه هجاء يختلف فى طابعه وخصائصه ومادته ، عن الهجاء التقليدى القديم ، عن هجاء جرير والفرزدق والأخطل ، أو هجاء ابن الرومى . وقد تعرض الهجاء للأشخاص والبلاد والأشياء الأخرى كالحمامات والمساكن ، بل إن بعضهم هجا صحن حلاوة[٢] ، ومن أشهر الهجائين ابن الهبارية ، وابن عنين ، وكان الأخير مولعـًا بالهجاء وثلب أعراض الناس . وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقـًا كثيراً من رؤساء دمشق سماها

(١) يذكرها ابن شاكر فى فوات الوفيات ٢ / ٤٣٧ .
(٢) راجع فوات الوفيات ٢ / ١٦٧ .

« مقراض الأعراض » (١) . وقد طرده صلاح الدين من دمشق لخبث لسانه . أما ابن الهبارية فكان كما قال ابن خلكان : « كثير الهجاء والوقوع فى الناس ، لايكاد يسلم من لسانه أحد » . ويقول عنه العماد : غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسبك فى قالب ابن الحجاج، وسلك أسلوبه، وفاق فى الخلاعة (توفى بكرمان سنة ٥٢٤ ﻫ) .

ولعل اضطراب الحالة الاجتماعية وسوء أمور الناس وفقرهم مما دفع إلى تلك الألوان الهجائية ، فإن الظلم الاجتماعى ووصول جماعة من الناس إلى مراتب الجاه والسلطة ، وحصول آخرين على المال الوفير حتى بلغ بهم الغنى والثراء العريض مم جعل الناس يتحاسدون، ويتحاقدون ، وينظر بعضهم إلى بعض ، فيرى المتخلف فى المتقدم الثرى أنه لا يمتاز عنه فى شىء ، بل قد يرى نفسه متقدماً عليه علماً ومعرفة وذكاء ، لهذا فهم يرون أن من وصل من الناس إلى ما وصل إليه من جاه أو مال إنما كان فى غفلة الزمن ، لذلك نجد بعض الشعراء يترصد لبعض أولئك ويتعقبهم بلسانه الساخر يفضح معايبهم ، ويكشف للناس عوراتهم ونقائصهم ، وينشر مخازيهم ،وقد لايكون غرضه من ذلك إلا الحصول على المال . ومن هؤلاء الشعراء ابن عنين المذكور ، وشاعر بغدادى آخر هو ابن القطان الخليع (المتوفى سنة ٥٥٨ ﻫ) ، وكان هذا الأخير مولعاً بالمتعجرفين يتولاهم ويتعقبهم بلسانه الساخر العابث (٢) .

وتجاوز الشعر هجاء الأفراد إلى هجاء الناس جميعاً ، وهجاء الزمن والدهر لما يجده الشاعر من فساد عام يستشرى ولا يتبين له مخرجاً ،فليس لديه من حيلة سوى أن يطلق لسانه على الجميع ، لا يخلى من أحد ، فترى أحدهم يقول مثلا (وهو المسجف العسقلانى المتوفى سنة ٦٣٥ ﻫ)(٣) :

أنا فى جيلٍ خسيسٍ وقبيلٍ وزمانِ
أمدح السلطان كى يصبح مالى فى أمان

---

(١) وفيات الأعيان ٤ / ١٠٦ وراجع مرآة الجنان ٤ / ٧٠ .
(٢) راجع فوات الوفيات ٢ /٦١٧ .
(٣) فوات الوفيات ١ /٥٣٦ .

أَكذا كان أبو تمَّا م قبلى وابن هانى

بل نجد أن الفساد الاجتماعى يدفع بعض الشعراء إلى ما فشا فى الناس من الظلم فيقول(١) :

أَرى الناس مذ كانوا عبيدًا لغاشم وخصمًا لمغلوب وجندًا لغالب

وتأثر الغزل بروح العصر وقيمه ومثله ، كما تأثر فنا المديح والهجاء ؛ فشاع الغزل بالمذكر بصورة لم يسبق إليها حتّى أصبح هذا الفن عادة للشعراء يفتتحون به قصائدهم كما كانت تفتتح قصائد الشعر قديمًا بالنسيب وبكاء الأطلال وذكر الظعائن ، بل إن المجتمع كان يسمح للمتزمتين والمعروفين بالتقوى والورع بالخوض فى هذا الموضوع مجاراة لذوق العصر وتقاليده . فنجد شاعراً مثل عمر بن الوردى يعتذر عن افتتاح قصائده بالغزل باضطراره إلى ذلك خشية بوار أشعاره ، فيضطر إليه اضطراراً حتّى تروج وتذيع . يقول (٢) :

أستغفر الله من شعر تقدَّم لى فى الودِّ قصدى به ترويجُ أَشعارى

ويقول فى موضع آخر (٣) :

ما المردُ أكبرُ همىٍّ ولا نهايةُ علمى
ولست من قَوم لوطٍ حاشا تقاىَ وحلمى
وإنما خَرْجُ دهرى كذا ففتقت شعرى

وربما كان سبب انتشار هذا اللون من القول يرجع إلى سبى الحروب من غلمان الفرنج ،وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الأتراك من أصقاع آسيا وأصبح هؤلاء بملاحتهم موضع قربى من الناس حتّى إن الأمراء والسلاطين ، بل

(١) هو على بن مقرب الأحسائى الشاعر المتوفى بعد سنة ٦١٨ هـ .
(٢) ديوان ابن الوردى طبعة حجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤ .
(٣) الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى لسيد كيلانى ص ٢٥٥ .

الفقهاء والعلماء لم يزعهم الدين والتقية عن أن يصطحبوا الغلمان الصباح الوجوه فى مجالسهم ، ولم يروا عيبًا أو بأسًا فى أن يختص أحدهم بواحد أو اثنين منهم لمرافقته فى خلواته يستعملهم لطعامه ووضوئه .

وقد شاع فى المجتمع الإسلامى غزل المذكر وغزل المؤنث ، نتيجة العكوف على لذة النساء واللذات الجسدية لقلةَ ما كان يشغل مثل هذا المجتمع من مشاغل سياسية ، وخاصة فى العصور المتأخرة عصور الركود والانحدار والتدهور فلم يجد الناس شغلا يملأون به الفراغ الكبير الذى يحسون به سوى الخلوة للنساء والغلمان .

ومن معانى هذا القول المطروقة الشائعة على ألسن شعراء العصر وصف العارض وقد خط فيه الشعر ، فبدا سواده إلى جانب بياض الوجه . ومنه قول الشاعر [١] :

لقد أثرت صدغاه فى لون خده ... ولاح كفىء من وراء زجاج
ترى عسكراً للروم فى الزنج قد بدتْ ... طلائعه تسعى ليوم هياج
أم الصبح بالليل البهيم موشحًا ... حكى آبنوسًا فى صفيحة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خدِّه ... فسيَّجه من شَعره بسياج

ولما كان هؤلاء الأتراك ممن يتعلمون صنعة الحرب ويبرعون فيها ويتفوقون فى القتال ، ويخوضون المعارك فى شجاعة وشهامة ، فقد مزج الشعراء بين هذه المعانى ومعانى الغزل ، وشتان بين الاثنين ، فذكروا اهتزاز العود كاهتزاز السمهرى وفتك اللحظ كالصارم المشرفى ، وإصابة الجفون كالسهام المفوقة ، وانثناء الحواجب انثناء القسىّ أو الأقواس الموترة . . الخ .

وظلت بعض الموضوعات التقليدية التى اعتاد الشعراء القول فيها مجالا للشعر فى العصر كذلك ، ومن هذه الموضوعات وصف الخمر ومجالس الشراب ، وبرع فيها جماعة مثل ابن النبيه [٢] ، ولكنهم مع ذلك لم يبلغوا درجة السابقين أمثال أبى النواس ومسلم وغيرهما . ولكن جد موضوع آخر غير القول فى الخمر ومجالسها

---

(١) الجامع المختصر ٩ / ١٤٢ .
(٢) راجع قصيدته فى فوات الوفيات ٢ / ١٤٦ - ١٤٧ .

وهو قريب منها ، ذلك هو القول فى الحشيش ، وكانوا يسمونه حشيشة الفقراء ومن مفهوم الأبيات التى سنسوقها نستنتج أنه كان يشرب فى الربط والمساجد وكان يداوم عليه الصوفية ، ومن هنا اشتق اسمه « حشيشة الفقراء » . وقد أخذ الحشيش طريقه إلى المجتمع الإسلامى وأصبح بالتالى موضوعاً للشعر ، وصار الشعراء يقرنون ويوازنون بينه وبين الخمر ، فيفضله جماعة ويرى تفضيلها آخرون . وممن قال فى هذا الموضوع من شعراء العصر الإسعردى ، (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) قال :

لك الخيرُ لا تسمع كلام المفَنِّدِ ... ودونك فى فتياك غير مقَلَّدِ
سألتَ عن الخضراءِ والخمرِ فاستمعْ ... مقالة ذى رأْيٍ مصيب مسدَّدِ
وحقِّك ما بالخمر بعضُ صفاتِها ... أتشرب جهراً فى رباط ومسجدِ
عليك بها خضراء غير مبالغ ... بأَبيض ورق أو بأَحمر عسجدِ
ولكن على رغم المدام هدية ... تَنَزَّهُ عن بيع لغير التزهُّدِ
رياحينه يحكى الجنان اخضرارُها ... وخمرهم كالمارجِ المتوقِّدِ
مُدامُهم تُنسى المعانى وهذه ... تذكِّرُ أسرار الجمال الموحَّدِ
هى السرُّ تَرقى الروح فيها إلى ذرا الـ ... ـمعالم فى معراج فَهْم مجرَّدِ
بل الروح حقًّا لا تَحُلُّ بربعها ... هموم ولا يحظى بها غيرمُهتَدِ

ويقول فى قصيدة أخرى يفضل الخمر على الحشيش[1] :

أترضَى بأَنْ تمشى شبيه بهيمة ... بأَكْلِ حشيش يابس غير أَرْغد
فَدَع رأى قوم ٍ كالدَّواب ولا تُدِرْ ... سِوى دُرَّةٍ كالكوكب المتوقِّدِ
مدامٍ إذا مالاح للركب نُورها ... وقد حلَّ لَيلاً عاد بالنور يهتدِى
حشيشتهم تكسو المهيب مهانةَ ... فتلقاه مثل القاتل المتعمدِ

(١) فوات الوفيات ٢/٣٣٣ .

وتبدو على خديه مثل اخضرارها فيضحى بوجه مظلم اللَّونِ أرْبدِ
وتُفسدُ من ذهْنِ النديم خيالَه فينظر مُبْيضَّ الصباح كأسود
وخمرتنا تكسُو الذليلَ مهابةً وعزًّا وتلقَى دونَه كل سيِّدِ

ويتصل بالقول فى الغزل والخمر والحشيش وما إليها القول فى الأديرة ، ومطارح اللهو والمتنزهات من الرياض وشواطئ الأنهار والبحيرات وما إليها . وكثيراً ما يغشى تلك الأماكن جماعات من الشعراء والأدباء ممن عرفوا بخفة الظل وحلاوة النكتة وسرعة البديهة وتوقد الخاطر ، والميل إلى الخلاعة والمرح والمجون ، ليكونوا عنصر ترويح عن الجماعة ، وليخلعوا على جو المجالس أفانين من اللهو والخلاعة . وقد عاش فى هذا العصر جماعة من الخلعاء وأصحاب المجون من الشعراء ، ممن اتخذوا من خلعاء العصر العباسى فى القرنين الثانى والثالث أمثال أبى نواس وأبى دلامة والحسين بن الضحاك وأضرابهم أئمة يحتذون على منوالهم ، فكان منهم فى الموصل ابن الأردخل[١] ، وأبو القاسم الإسطرلابى « المتوفى سنة ٥٣٢ هـ » . يقول ابن خلكان : « وكان كثير الخلاعة يستعمل المجون فى أشعاره حتى يفضى به إلى الفحش فى اللفظ »[٢] . وابن جكينا الحسن بن أحمد بن محمد البغدادى (المتوفى سنة ٥١٨ هـ) ، يقول ابن العماد الكاتب : «أجمع أهل بغداد على أنه لم يرزق أحد من الشعراء لطافة شعره ، وكان من ظرفاء الشعراء الخلعاء وأكثر أشعاره مقطعات»[٣] .

وقريب من هذه الفنون ذكر الغناء ووصف المغنين والمغنيات مدحاً وهجاء ووصف آلة الطرب وصفاً يبلغ أحيانا حد الإبداع ، ويدعو إلى الإعجاب .

ومن أمثلة هذا وصف الحصكفى الشاعر الأديب لمغن قبيح فى صورة رسم فيها أحا سيسه ، تذكرنا بوصف ابن الرومى لشنطف المغنية[٤] .

وأجاد الشعراء وصف الرياض وأماكن النزهة الجميلة ، وبرع فى وصف الطبيعة

---

(١) فوات الوفيات ٢/٣٧٨ .
(٢) وفيات الأعيان ٣/١٠١ ، ١٠٣ ، وراجع فوات الوفيات ٢/٦١٦ .
(٣) فوات الوفيات ١/٢٢٩ .
(٤) وفيات الأعيان ٥/٢٥٢ .

بصفة خاصة شعراء الأندلس ، ونذكر منهم فى هذا العصر البلنسى [١] يروى له ابن شاكر أبياتًا جميلة فى وصف دولاب ماء وسط الرياض ، وأخرى فى وصف سحابة .

وقال ابن سعيد فى الروضيات [٢] :

إذا الغصون غدت خفاقة العَذبِ فاسجد هديت إلى الكاسات واقتربِ
وطارت الورقُ فى أَرواقها طربًا ومل إذا مالت الأَغصان من طرب
وانهض إلى أم دفْر بنت دسكرةٍ تجلى عليك بإكليلٍ من الذهبِ
وللأَزاهر أَحداقٌ محدِّقةٌ قد كحلتها يمين الشمس بالذهب

ووصف الشعراء أشياء لم يكن القدماء يعنون بوصفها أو الاهتمام بها فى شعرهم فنجد أحدهم يصف هرة أليفة وصفًا جميلا إنسانيًّا رقيقًا وهو الفضل بن إسماعيل الحرمانى [٣] ، ووصف آخر أشياء من آلات المنازل وأثاثه كإبرة فى لباد أحمر [٤] أو بعض ماتقع عليه العين فى الحقول فيصف حقل كتان به غربان [٥] ، أو يصف أحدهم جرادة فيقول محب الدين الشهرزورى :

لها فخذا بكرٍ وساقا نعامة وقادمتا نسر وجؤْجؤُ ضيغم
حبتها أَفاعى الرمل بطنًا وأَنعمت عليها جياد الخيل بالرأس والفمِ

وهو وصف يصور دقة الشاعر وأناته فى رسم الصورة .

ومن الموضوعات الطريفة لشعر العصر ما قاله الفضل بن إسماعيل فى وصف هرة [٦] .

(١) راجع ترجمته ، فوات الوفيات ٢/٨٢ – ٨٣ .
(٢) فوات الوفيات ٢/١٨٠ .
(٣) إرشاد ٦/١٣٣ .
(٤) هو البلنسى الشاعر – فوات الوفيات ٢/٨٢ .
(٥) البلنسى كذلك المصدر نفسه .
(٦) إرشاد الأريب ٦/١٣٣ .

إن لى هرةً خضبَتْ شعرها دون ولدانٍ منزلى بالزقون
ثم قلدتُها لخوفى عليها ودعاتٍ تَرُدُّ شَرَّ العُيون
كل يوم أعولها قبل أهلى بزلالٍ صافٍ ولحمٍ سَمِين
وهى تِلعابةٌ إذا ما رَأَتْنِى عابسَ الوجْهِ وارِمَ العِرنينِ
فتغنى طورًا وترقُصُ طورا وتَلَهى بكُلِّ ما يُلْهِينى
لا أريد الصلاةَ إن ضاجعتنى عند بردِ الشتاءِ فى كانُونِ
وإذا ما حككتُها لحسَنْتِى بلسانٍ كالمبردِ المسْنُونِ
وإذا ما جفوتُها استعطفَتْنى بأنين من صوتِها وحَنينِ
أَملحُ الخلقِ حينَ تلعب بالفأ رِ تلقيهِ فى العذاب المُهين
وإذا ماتَ حِسُّه أنْشَرتْهُ بشمالٍ مكروبةٍ أو يمينِ
وتُصاديه بالغفول فإن را مَ انجحارًا علته كالشاهِينِ
وإذا ما رَجَا السلامةَ منها عاجلتْهُ بنَشْطةِ التنينِ

ومن موضوعات الشعر الألغاز . وكان الشعراء يتراسلون بها ويقضون أوقاتهم فى عملها وحلها ، وهى تدل على مدى قدرة الشاعر وتمكنه ، وكانت مجالا ليتبارى فيها الأدباء ، ونبغ فى عملها جماعة ، وألف فيها آخرون كتباً جمعوا فيها ما وقعوا عليه منها مثل على بن عدلان الربعى (المتوفى سنة ٦٦٦ ﻫ) ، ألف كتاب : « عقلة المجتاز فى حل الألغاز » [١] .

ويتصل بالألغاز ضروب المداعبات الشعرية الأخرى التى تعتمد على النكتة أو اللمحة البادرة ، أو تضمين أبيات من الشعر المشهور لشعراء معروفين . ومن طريف ما يروى فى هذا أن ابن شيث كتب مرة للملك المعظم عيسى أنه لما فارقه ودخل منزله طالبه أهله بما حصل له مع السلطان ، فقال لهم : ما أعطانى شيئًا ،

---

(١) فوات الوفيات ٢/١٢٢ .

فقاموا إليه بالخفاف وصفعوه فكتب بعد ذلك شعراً يقول فيه [١] :

وتحالفت بعض الأكف كأنها الـ ... تصفيق عند مجامع الأعراس
وتطابقت سود الخفاف كأنها ... وقع المطارق من يد النحّاس

فرمى المعظم الرقعة إلى فخر القضاة ابن بصاقة وقال : أجبه عنها ، فكتب إليه نثراً وفى آخره :

فاصبر على أخلاقهن ولا تكن ... متخلقًا إلا بخلق الناس
واعلم إذا اختلفت عليك بأنه ... (ما فى وقوفك ساعة من باس)

والعجز صدر بيت مشهور لأبى تمام تمامه « نقضى ذمام الأربع الأدراس » .

واستخدم الشعر كذلك فى نظم المسائل المختلفة فى العلوم العقلية والطبيعية ، فنظموا فى الفلك ، وما يتعلق به من تنجيم . وقد كانت له مكانة معروفة فى هذا العصر ، وكثيراً ما كان الأمراء والسلاطين يستطلعون آراء المنجمين ليروا لهم الطالع قبل خوض المعارك أو لقاء الأعداء ، وإن كثيراً من تخرصات المتنبئين والمنجمين كانت تتكشف عن عكس ما أخبرت به ، وعندئذ يصبح المنجمون هـدفاً للسخرية من الشعراء [٢] .

وتركت أحوال المجتمع التى أشرنا إليها فى الفصل الثانى أصداءها فى الشعر وأول ما سجله منها الاضطراب والتحول فى أمور الناس والمعايش ، وكثرة الحوادث وتقلب الدول ، والارتفاع والانخفاض ، قال ابن زبارة [٣] :

باضطراب الزمان ترتفع الأنـ ... ـذال فيه حتى يعم البلاءُ
وكذا الماءُ ساكنًا فإذا حرّ ... ك ثارت من قعره الأقذاءُ

وصار الشعر متنفس المحروبين ، والمحرومين ، يعبرون به عن لواعجهم ومشاعرهم المكبوتة من ظلم القادة ، وعنف الحكام ، وغدر بعضهم ، فنرى فى

(١) فوات الوفيات ١/٥٦١ .
(٢) راجع الروضتين ٢/٧٣ .
(٣) وفيات الأعيان ٥/٢٨٩ .

هذا العصر ظاهرة أخذت مكانها فى الشعر ، هى كثْرة الحديث عن عدوان الدهر ، والشكوى المريرة من الزمن ، وظهر بشكل ملحوظ موضوع أصبح من موضوعات الشعر المطروقة هو القول فى السجن ، وشكوى عذابه وآلامه ، وقد نجد بعض الشعراء يكثر من هذا الحديث حتّى تصبح له دواوين بتمامها فيه ، أو قصائد طويلة متواترة مثل الشاعر الفارسى مسعود بن سعد بن سليمان فقد كتب مجموعة من القصائد فى حبسه سماها « حبسيات » [١] ، وللخاقانى (المتوفى سنة ٥٨٢ هـ) حبسية مشهورة[٢] .

ولم يكتف الشعر بترديد نغمات التوجع والأنين ، والتحسر على الزمان والوقوف أمام الأحداث موقفًا سلبيًّا، بل كان يلجأ أحياناً إلى نقد الأحوال الاجتماعية فى مرارة ، فيتبرم بالمكوس الباهظة المرهقة ، ويدعو أولى الأمر إلى رفعها أو تخفيفها أو الرفق فى تحصيلها ، ومن ذلك ماذكره الشاعر المغربى ذوبان ابن عتيق ، وأورده الحافظ السلفى فى معجمه — قال — وقد طولب بمكس كان يتولاه يهودى[٣] :

يا أهل دانية لقد خالفتمو حكم الشريعة والمروءة فينا
مالى أراكم تـأمرون بضد ما أَمَرتْ ، تُرى نسخ الإله الدينا
كنا نطالبُ لليهود بجزية وأرى اليهود بجزية طلبونا
ما إن سمعنا مالكاً أفتى بذ لك لا ولا سحنونا
هذا ولو أن الأَئمة كلهم حاشاهم بالمكس قد أمرونا

وجأر ابن جبير فى الرحلة بالشكوى من عمال المكوس بالإسكندرية . وتناول بعض الشعراء عمال الحكومة وموظفيها بالنقد والتجريح والتشهير ففضحوا أعمالهم وإهمالهم وسرقاتهم واستيلاءهم على أموال الشعب والإسراف فى اختلاسها

---

(١) Browne : 324.
(٢) المصدر نفسه .
(٣) معجم السلفى مصور ورقة ٤٨ .

أو الجور فى التحصيل ، وأخذ ماليس لهم حق فيه باطلا ، ونرى البوصيرى يصور أحوالهم الفاسدة فى قصيدة طويلة جيدة يقول فيها :

نقدت طوائف المستخدمينا   فلم أَر فيهم رجلا أَمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم   مع التجريب من عمرى سنينا
فكتَّابُ الشمال هم جميعًا   فلا صحبت شمالهم يمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا   بهمْ فكأَنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرًا   ولا شربوا خمور الأَندرينا
ولا ربوا من الولدان مردًا   كأَغصانٍ يملن وينحنينا
وقد طلعت لبعضهم ذقون   ولكن بعد أَن حلقوا الذقونا

* * *

أَمولاى العزيز غفلت عما   يتم من اللئام الكاتبينا

ونجد كذلك نماذج من الشعر الإنسانى الجياش بالعواطف الإنسانية العميقة إلى جانب الألوان التى أشرنا إليها من شعر المديح والهجاء واللهو والتسلية فكم تغنى الشعراء بالعاطفة الصادقة ، يلونونها أحيانًا بألوان تقليدية ، فنجدهم يشتاقون إلى نجد وصبا نجد ، متطلعين إلى الأرض المقدسة والروضة الشريفة حيث ينشدون الراحة النفسية والمتعة الروحية إلى جوار ربهم ونبيهم ، بعد أن حرموا لذة العيش ومتعته فى عصر اضطربت أموره ، وغامت سماؤه ، لهذا كثر ذكر الشعراء لنجد وصبا نجد وريم نجد ، وكلها رموز للمعانى الدينية ، وهى عاطفة إنسانية عميقة صادقة أصيلة ، يعبر الشاعر عن شوقه للنبى ، وحبه لجناب خالقه فيرمى ببصره وقلبه إلى الأرض التى اختارها البارئ موطناً لنبوته ورسالته ، الأرض التى جعلها الله تعالى منزلا للشريعة والقرآن ، منزلا للعدل والتسامح والتعاطف والمعانى الإنسانية الرفيعة . ويتغزل الشعراء فى حبيبات وهميات يبثونهن آلامهم ولواعجهم ، ويتأسون بشميم العرار والشيح ، ويسرحون وراء الظباء فى الفيافد ، ويطلقون الأعنة للخيال

فيسبح بهم فى عوالم بعيدة عن واقعهم الملىء بالأشجان والأحزان ، ولعل لشعراء الصوفية أثرًا كبيرًا فى إشاعة هذا اللون من الشعر .

وكم نرى من شعراء غلبت عليهم العاطفة الدينية، فصاروا يشدون بأبيات النسك والزهد بدلا من الغزل والصبابة ، يدعو الشاعر فيها نفسه إلى الإذعان والقناعة والانكسار عن التكالب فى طلب العيش ، والانكفاء عن المطامع وطريقها الملىء بالأشواك والأخطار والمهالك ، ويدعو غيره إلى طريقته ، وينصحه بترك السبل المعوجة والتزام الطريق السليم المستقيم مثل قول الشاعر (١) :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... وللمشترى دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أخيبُ

ونرى أصحاب هذا الاتجاه يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بشتى الأساليب بجدوى هذه السبيل التى يسلكون ، ويحتجون بعديد الحجج لذلك القعود عن الطموح والسعى ، ولنتدبر قول قائلهم وهو ينهى ويثبط المتطلع للوزارة فيقول (٢) :

لا تغبطن وزيرًا للملوك وإن ... أناله الدهر منهم فوق همته
واعلم بأن له يومًا تمور به الأر ... ض الوقور كما مارت لهيبته
هرون وهو أخو موسى الشقيق له ... لولا الوزارة لم يأخذ بلحيته

فيحتج بأن هارون أخا موسى لولا أنه تولى له الوزارة لم يغضب عليه موسى ولم يأخذ بلحيته . وترى أحدهم يدعو إلى الطريق السوى محتجًا بحجة طريفة ، فيقول : إن ألف الكتابة أكثر الحروف استقامة ، ولهذا تقدمت عليها جميعًا فى الأبجدية ، فينبغى إذاً الاستقامة فى طلب الحاجات . قال :

إن كنت تسعى للسعادة فاستقم ... تنل المراد ولو سموت إلى السما
ألف الكتابة وهو بعض حروفها ... لما استقام على الجميع تقدما

---

(١) وفيات الأعيان ٥/٢١٩ .
(٢) وفيات الأعيان ٥/٢٨٩ .

وخاض الشعر فى العقائد ، وأصبحنا نرى شعراء المذاهب والنحل يتجادلون فى عقائدهم ومذاهبهم ، ويرددون حجج المعارضين ويدلون بحججهم ، فشعراء أهل السنة يندددون بالمعتزلة والشيعة الباطنية ، وهؤلاء يردون على أولئك وينتصرون لعقائدهم ، واتخذوا من الشعر منبراً لنشر الآراء حتى تذيع بين الناس ويسهل تناقلها ، لسهولة حجة الشعر فى العلوق بأذهان العامة ، ويقتنعون عاطفياً إذا مادق عليهم أو شق الاقتناع عقلياً . ونمثل لهذا بشعر أحد أهل العدل من المعتزلة إذ يقول فى الجبرية (١) :

المجبرون يجادلون بباطل   بخلاف ما يتلون فى القرآن
كل مقالته : الإله أضلنى   وأراد ما قد كان عنه نهانى
أيقول ربك للبرية آمنوا   ويصدهم عن منهج الإيمانِ
إن صح ذا فتعوذوا من ربكم   ودعوا تعوذكم من الشيطانِ

ويرد عليه الجبرى فيقول :

ما أبعد القاصى عن المتدانى   وسنا الهداية من دجى الكفران
قل للمجهول بربه وبما أتى   من قوله فى محكم الفرقان
أنسيت ربك غرة وجهالة   للعجز والتقصير والنقصانِ
إن كان ليس يتم عدلٌ شاءه   ويتم ما تهوى من الطغيان
فكفى بذا عجزاً له ونقيصةً   واحكم فأنت إذاً إله ثان

تلك إذاً هى موضوعات الشعر ، ومعانيه .

---

(١) معجم السلفى مصور ق ١٣ .

٣

مذاهب الشعر وفنونه :

ولشعر العصر ملامحه الأسلوبية ، التى تلون الصورة والشكل الفنى أو الإطار الذى ظهرت فيه تلك الموضوعات . وقد تنوعت المذاهب الفنية فى شعر العصر ، فنرى بعض الشعراء قد انتحوا ناحية القديم ينهجون على نهجه ، ويصطنعون أساليبه ومعانيه ، والتزم آخرون مذهب الصنعة والبديع ، وجمع فريق ثالث بين المنهجين فأخذوا من القديم معانيه ، ومن الجديد أساليبه .

أما التقليديون ، أنصار المذهب القديم فقد كان منهم : بل من الرواد الأوائل فى العراق الطغرائى (قتله السلطان محمود السلجوقى سنة ٥١٤ هـ)[١] ، وله لامية العجم التى حاول فيها تقليد لامية الشنفرى ، ويقول عنه ياقوت إنه كان آية فى الكتابة والشعر خبيراً بصناعة الكيمياء ، وخدم السلطان ملكشاه ، وكان منشئ السلطان محمد بن ملكشاه ولازمه مدة ملكه فتولى ديوان الطغراء (وهى الطرة التى تكتب فى أعلا المناشير فوق البسملة بالقلم الجلى تتضمن اسم الملك وألقابه ، وهى أعجمية محرفة من الطرة) ، وله ديوان شعر . واشتهرت لاميته ، لبلاغتها ورصانة أسلوبها وتولى شرحها جماعة من علماء عصره والعصور التالية .

ومن التقليديين حيص بيص (المتوفى سنة ٥٧٤ هـ) [٢] ، وكان شاعراً فقيهاً شافعى المذهب . إلا أن الأدب ونظم الشعر غلبا عليه ، فصار من مشهورى الشعراء فى عصره ، وكان أعلم الناس بأخبار العرب ولغاتهم وأشعارهم ، وله ديوان شعر وديوان رسائل . وكان أميل إلى التقعر فى أسلوبه ، يميل إلى الإكثار من الغريب فى لغته . وفى حديثه كان لايكلم الناس إلا كلاماً معرباً .

---

(١) أتابكة الموصل ص ٤٢ ويذكر ياقوت أنه قتل فى الموقعة بين السلطان مسعود والسلطان محمود السلجوقيين سنة ٥١٠ هـ وقد جاوز الستين .

(٢) إرشاد ٤/٢٣٣ ، وفيات الأعيان ٢/١٠٦ .

ومنهم **ابن التعاويذى** (المتوفى سنة ٥٨٤ هـ) [١] أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله بن التعاويذى ، ويسمى سبط ابن التعاويذى ، وكان كاتباً بديوان المقاطعات ،وكان شاعر العراق فى وقته . اجتمع به العماد الأصبهانى وصحبه زمناً ، وانتقل إلى الشام ، والتحق بصحبة صلاح الدين ومدحه بثلاث قصائد أنفذها إليه من بغداد ، إحداها عارض بها قصيدة صرَّ درَّ التى أولها :

أَكذا يُجازى ودُّ كل قرين

فقال ابن التعاويذى وأحسن [٢] :

إن كان دينك فى الصبابة دينى . فقف المطى برملتى يبرين

واتصل بعون الدين بن هبيرة الوزير العباسى ومدحه ، وشعره من حيث موضوعاته متعدد الألوان يجمع بين المديح وغيره ، إلا أن المديح غالب . وديوانه يصور لك رجلا متعلقاً بالمال يطلبه من هنا وهناك ، يمدح أو يهجو ليحصل عليه ، وينزل أحياناً إلى مرتبة الاستجداء والتصريح بالطلب ، مما يخلع على شعره طابعاً ممجوجاً مملا ، إلا أنه حين كان يخلو إلى نفسه ويصرح بخباياها كان يجيد ، وتتكشف ملكته عن جوهرها ، وله قصيدة فى وصف فقره وعياله تذكر بقصائد ابن الرومى فى هذا الموضوع [٣] ، وله قصائد فى الغزل والنسيب مشهورة . وله فى موضوعات متفرقة ، فى حصار بغداد بواسطة جيوش السلطان محمد السلجوقى وحسن بلاء الخليفة العباسى وجنده وأهالى بغداد حتى جلى جيش السلجوقى . ومن شعره فى بغداد يصور أحوال الناس [٤] :

يا قاصداً بغداد جز عن بلدةٍ للجور فيها زخرة وعبابُ
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد سُدَّت على الراجى بها الأَبواب

---

(١) وفيات الأعيان ٤ / ٩٠ وما بعدها ويذكر أبو شامة فى الروضتين أنه توفى سنة ٥٨٣ هـ .
(٢) ديوانه مطبوع والقصيدة به ص ٤٢٠ .
(٣) يذكرها ياقوت معجباً إرشاد ٦ /٣٧ – ٣٨.
(٤) الديوان ص ٤٧ .

يقول فيها :

والناس قد قامت قيامتهم ولا أنساب بينهم ولا أسبابُ
والمرءُ يسلمه أَبوه وعرسه ويخونه القرباءُ والأَصحاب
لا شافع تغنى شفاعته ولا جان له مما جناه متابُ
شهدوا معادهم فعاد مصدقاً من كان قبلُ ببعثه يرتابُ
حشر وميزان وعرض جرائد وصحائف منشورة وحسابُ
وبها زبانية تبث على الورى وسلاسل ومقامعٌ وعذاب
ما فاتهم من كل ما وُعدوا به فى الحشر إلا راحمٌ وهاب

وله شعر خفيف الروح مثل قوله فى حمل أهدى إليه [1] :

وباخل جاد على بخله محتفلا فى عمره مرة
أَهدى إلينا حَمَلًا يابساً ما رويت من دمه الشَّفْرَه
فخلتُه حين تأمَّلتُه صباًّ مشوقاً من بنى عُذرَه

وله فى عماه أشعار كثيرة يرثى بها عينيه ويندب زمان شبابه وتصرمه [2] .

ومنهاقوله :

أَتُرى تعُودُ لنا كما سَلَفتْ ليالِى الأَبْرقينِ
فتكُرُّ عاطفةً بوصـ لٍ واجتماع بعد بَيْن

ويقول فيها :

وأُصبْت فى عينى التى كانت هى الدنيا بعين
عين جَنَيْتُ بنورها نور العلوم وأى عيْنِ
حالان مَسَّتْنِى الحواد ث فيهما بفَجيعتين
بظِلام عين فى ضيا ء مشيبِ رأس سرمدين

(١) الديوان ٢١٧ .
(٢) وفيات الأعيان ٤/٩٠ .

والقصيدة زاخرة بالحسرات والألم مع هذا الوزن الحزين الذى ينتهى بالنون المكسورة التى تسبقها الياء الساكنة فتعطى النغم الحزين الذى يهيء الجو للمعانى النابضة من نفس كسيرة .

وأسلوبه يغلب عليه الطابع القديم كما قلنا . يقول عنه ياقوت الحموى : وشعر أبى الفتح غررٌ ، وديوانه كبير يدخل فى مجلدين ، جمعه بنفسه قبل أن يضر ،وافتتحه بخطبة لطيفة ورتبه على أربعة أبواب [١]... وقال عنه ابن خلكان : «كان شاعر وقته ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعانى ودقتها ، وهو فى غاية الحسن والحلاوة ، وفى اعتقادى لم يكن قبله بمائتى سنة من يضاهيه ، ولا يؤاخذنى من يقف على هذا الفصل ، فإن ذلك يختلف بميل الطباع ، ولله در القائل :

وللناس فيما يعشقون مذاهب »[٢]

وكان ابن التعاويذى يقلد الشعراء القدماء المعروفين ، ويحاول أن يحتذى فى بعض قصائده على قصائدهم عن طريق المعارضة ، ومن معارضاته قصيدته التى يمدح بها صلاح الدين ويبدؤها بقوله [٣] :

سِرْبُ مها أم دمى محاريب أم فتيات الحىّ الأَعاريبِ

يعارض فيها قصيدة المتنبى البائية :

من الجآذر فى زى الأَعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

والأبيوردى الشاعر العربى . عاش بأصبهان وكان ينتسب إلى بنى أمية وعبد شمس ، وكان كثير الاعتزاز بنسبه هذا فى شعره ، كما كان دائم الفخر بعروبته . وكان ينهج منهج الشعر العربى القديم فى الصياغة والمعانى جميعًا . يبدأ قصائده بالغزل ، غزلا عربيًّا يتنقل بك فيه فى الصحراء ونجد وينتقل من منابت الشيح والعرار والقيصوم ؛ وهو مغرم بنجد ، يكثر من ذكرها فى شعره ، ويفرد جزءاً من الديوان لشعره فيه يسميه باب النجديات ، ولم يتسول فى شعره تسول ابن

---

(١) إرشاد ٣٧/٢ .
(٢) وفيات الأعيان ٤/٩٥ .
(٣) ديوان ابن التعاويذى ص ١ ط مرجليوث بمصر سنة ١٩٠٣ م ص ١٨ .

التعاويذي ، بل ظل عفًّا أبيًّا كريمًا فى حياته وشعره جميعًا .

وقد غلب حب البادية على نفسه ، فكان يتصل بأمراء العرب ، وبشيوخ القبائل الضاربة فى صحراء العراق والأحساء مثل قبائل بنى أسد ، واتصل بأميرها دبيس به صدقه ، وكان شاعراً ، واتصل بعرب بنى كنانة وبنى عقيل ولزم الأمير مفرح ، واتصل بعرب الأزد بصحراء السماوة .

وكان شاعراً طموحًا يذكرنا بالمتنبي فى روح قصائده ، ونستمع إليه يقول :

ولست كمن يعلى إلى الهون طرفُه ولا يركب الخطى دون ذماره
فقد ساس جسَّاسُ بنْ مرة وائلا بقتل كليب دون لقحة جاره

فنذكر على الفور أبيات المتنبي الكثيرة فى هذا الموضوع ومنها :

ذَلَّ من يغْبِطُ الذَّليلَ بعيشٍ رُبَّ عَيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
من يهنْ يَسهلْ الهَوانُ عليهِ ما لجــرحٍ بميت إيلام
ضاق ذرعاً بأَنْ أَضِيقَ به ذَرْ عاً زَمانى واستكرمْتِنى الكِرامُ
واقفاً تحت أَخمَصى قدَمىْ نفْسى واقفاً تَحتَ أَخمَصىَّ الأَنَامُ
أَقرارًا أَلَذُّ فوقَ شرابٍ ومَراماً أَبْغِى وظلمى يُرامُ
دونَ أَن يشْرَقَ الحِجَازُ ونجدٌ والعِراقانِ بالقَنَــا والشَّآمُ

وأبيات أخرى كثيرة فى ديوانه .

ويقول الأبيوردى مفتخراً (١) :

فَلِى صدى يَحرِقُنى أوراُهُ ولا تَؤُوبُ غُلَّتِى على صدى
والمجد مما أقتنى وأبتنى فإن عثرتُ دونَه فلالَعا
ولا أَحطُّ بالوهادِ أَرحُلى فالعبشميونَ يحلُّون الربا
ولى مدى لا بُدَّ من بلُوغِه وكلُّ ساعٍ ينتمى إلى مَدَى

(١) الديوان ط لبنان سنة ١٣١٧ ﻫ .

ابن مقرب الأحسائى :

وقريب من روح الأبيوردى وطريقته ابن مقرب الأحسائى ، وهو شاعر بدوى وطناً وروحاً ، وهو صاحب نفس طموح كصاحبه ، يسعى إلى المجد وبلوغ أمل بعيد يظل طول حياته يعمل لبلوغه ، وتعترضه الصعاب ولكنه يكافح ويغالب ولا يستسلم . وإذا كان الأمل البعيد للأبيوردى هو إعادة خلافة أجداده بنى أمية فإن ابن مقرب كان يأمل فى استرجاع السلطة للعرب ، بعد أن رأى غيرهم من الأعاجم والمولدين يسلبونها منهم ، ونرى ابن مقرب يجاهد ليخلص بلاده الأحساء من سلطان الدولة العباسية وحولها الأعاجم من الترك والفرس . وشعره يموج بهذا اللون القاتم الساخط الذى يحمل فيه على الدهر والناس ، ويذم الأصحاب ، كما يدعو إلى الرحلة ، وهو مغرم بها لا يحب القعود ، ويدعو إلى امتشاق الحسام والنضال ، وكل شعره دعوة للحرب وإلى حشد الجند ورفع السلاح .

ومن أمثلة شعره العربى الروح البدوى المظهر قصيدتُه التى يقول فيها (١) :

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركبُ ... لنسأل ذاك الحى ماصنع السِّربُ

ويفخر بنفسه وبنسبه وأرومته ربيعة ونزار (٢) :

وأنت من الفرع الذى فخرت به ... نزار وسارت فى معد مناقبه
سما بك بيت عبدلىٌّ أحلَّهُ ... ديارَ الأعادى سمرُهُ وقواضبُه
وعالى محلٍّ فى ربيعةَ أشرفَت ... عُلوًّا على كل المعالى مراتِبُه

وله فى ذم الدهر :

وقائلة هون عليك فإنها ... متاع قليل والسلامة فى الزهد
فإن علت الروس الذباب لسكرة ... من الدهر فاصبر فهو سكرٌ إلى حد
وقد تملك الأُنثى وقد يلثم الحصى ... ويُتَّبعُ الأغوى ويسجَدُ للقردِ

(١) ديوان ابن مقرب ص ١٩ ط حجرية بالهند .
(٢) الديوان ص ٣١ .

ويعلو على البحر الغثاءُ وتلتقى على الدرِّ أمواجٌ تزيدُ على العد

وهو مثل صاحبه الأبيوردى يتمثل بأبي الطيب المتنبي فى شعره وصوره ومعانيه ، فتجد ابن مقرب يقول مثلا :

وازمع وضع واعتزم وانفع وضُرَّ وصلْ واقطع وقُمْ وانتقِمْ واصفَحْ وجِدَّ وهب

مقلداً بيت المتنبي المشهور :

أَقل أَنل أَقطع أَحمل علِّ سلِّ أَعد زد هَشَّ بَشَّ تفضَّلْ أُدْنُ سُرَّ صِل

ابن منير الطرابلسى:

وكان يمثل هذا المذهب فى الشام ابن منير الطرابلسى إلى حد ما (توفى سنة ٥٤٨ هـ) [١] ولو أنه كان يعمد فى شعره أحيانًا إلى البديع ، وكان ابن منير أديبًا شاعراً، عارفًا بفنون وأوزان العروض لكنه مرهوب اللسان، وقد لزم أمراء شيزر من بنى منقذ ، والملك بوريِ بن طغتكين صاحب دمشق ، ثم السلطان نور الدين محمود . يقول ابن خلكان : « وله ديوان شعر ، وكان بينه وبين القيسرانى الشاعر الشامى مكاتبات وأجوبة ، وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين فى صناعتهما ».

ومن مدائحه لنور الدين ، والتى يظهر فيها مذهبه الذى يخلط به البديع :

أَيا نور دين خبـــا نورُهُ ومُذْ شاع عدلك فيه اتقدْ

رآك الصليب صليب القناة أَمين العثار متين العَمَدْ

ويقلد ابن منير أبا تمام فى قصائد كثيرة أوردها له أبو شامة فى الروضتين ، ويمثل مذهبه هذا قوله [٢] :

سفها لحلمك إن رضيت بمشرب رنق ورزق الله قد ملأَ الملا

ساهمْتَ عيسَك مُرَّ عيشك قاعدًا أَفلا فليت بهنَّ ناحية الفلا

(١) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ١/١٣٩ ، وأعلام النبلاء ٤/٢٣١ وابن القلانسى ٣٢٢ وأورد أبو شامة بعض أخباره وشعره فى مواضع متفرقة .

(٢) ابن خلكان ١/١٣٩ .

فارقْ تَرُقَ كالسيفِ سُلَّ فبان فى متنيه ما أَخفى القرابُ وأخملا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتَةً ما الموت إلا أن تعيش مذللا
للقفر لا المفَقْر هبها إنما مغناك ما أغناك أن تتوسلا

المهذب بن الزبير :

ومنهم كذلك فى مصر المهذب بن الزبير [1] (توفى سنة ٥٦١هـ) ، والملقب بالقاضى المهذب ، اتصل بالصالح بن رزيك الوزير الفاطمى واختص به . وله كتاب فى الأنساب فى عشرين مجلداً كل مجلد عشرون كراساً . قال عنه ياقوت : « هو غاية فى معناه، لامزيد عليه » [2]. ويقول ياقوت : « وشعره جميل رصين» ويروي له قصيدة جميلة . وقال عنه ابن خلكان : « ولم يكن فى زمانه أشعر منه » . وله شعر كثير منه قصيدة غراء فى مدح الصالح بن رزيك ذكر فيها نور الدين أولها [3] :

أَعلمت حين تجاورَ الحيَّان أَن القلوب مواقد النيران

ومن شعره الذى تلمس فيه روح القديم قوله :

أَقصر فديتك عن لومى وعن عذلى أولا فخذلى أماناً من ظبى المقل
من كل طرف مريض الجفن ينشدنى يا رُبَّ رام بنجد من بنى ثُعل
إن كان فيه لنا وهو السقيمُ شفاً فربمـــا صحت الأَجسام بالعلل

ومنه القصيدة التى بعث بها إلى الداعى لما قبض على أخيه باليمن يستعطفه على أخيه الرشيد فأطلقه وهى [4] :

ياربع أَين ترى الأَحبة أَمموا هل أَنجدوا من بعدنا أَو أَتهموا

ولابن الزبير فى ماء النيل بيت جميل ينم عن مدى حبه له هو [5] :

---

(١) ترجم له ياقوت ٩/٤٧، وابن العماد فى الشذرات ٤/١٩٧ والإدفوى فى الطالع السعيد ص١٠٠.
(٢) إرشاد ٣/١٥٨ . (٣) كتاب الروضتين ١/١٤٧ .
(٤) فوات الوفيات ١/٢٤٦ يذكرها ابن شاكر بتمامها .
(٥) معاهد التنصيص ١/٣٧٢ .

ومالى إلى ماءٍ سوى النيل غلةٌ ولو أنه – أستغفر الله – زمزم

ومن خصائص هذا المذهب غير قوة الألفاظ والرصانة والنزوع إلى الإغراب أحيانًا كثرة الصور البدوية ، وتعمد البدء بالنسيب على الطريقة البدوية واشتقاق الصور والتشبيهات والمعانى من الصحراء ومظاهرها ؛ جمادها وأحيائها مثلما نجدها فى الشعر القديم بل أكثر مغالاة فى التمسك . وكان شعراء هذا المذهب أو أكثرهم ينفرون من الاتجاه الجديد فى الشعر أو الأخذ بطريقة أصحاب البديع والرقة والسهولة ، ونرى الأبيوردى يحمل على أصحاب الاتجاه البديعى فى شعره .

ومن شعراء الشام ابن زكى الدين الدمشقى عارض بائية أبى تمام المشهورة فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب

فنظم بائية فى مدح صلاح الدين بمناسبة فتح حلب قال فيها فى فتح القلعة[1] :

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

وقلد بعض شعراء الشام المتنبى أيضاً ، مثل ما فعل ابن سعدان الحلبى فى قصيدته التى يهنئ بها السلطان صلاح الدين بفتح من الفتوح :

وما شك قوم حين قمت عليهم غداة التقى الجمعان أنك غالب

ولو لم نقل تلك المقانب لاغتدى لنفسك فى نفس العدو مقانب

ويمثل المذهب كذلك فى الشام الشاعر الأمير **أسامة بن منقذ** (توفى سنة ٥٨٤ هـ) وهو من شيرز ، وكان صلاح الدين يحب أن يقرأ كثيراً فى ديوانه . قال أبو شامة : « قال العماد . وكنت ليلة عند صلاح الدين وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك على بن منقذ وهو به شغوف وخاطره على تأمله موقوف ، وإلى استحسانه مصروف ، وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها ، وإن خواطر المبتكرين

(١) وفيات الأعيان ٣/٣٦٤ .

لتقصر عن مثلها، على أن الشعراء المحدثين ما فيهم إلا من نظم على رويها ووزنها واستمد خصب خاطره من مزنها ، فمنهم المعرى وابن أبى حصينة ، والأرجانى والصالح بن رزيك وقد أوردت جميعاً فى كتاب الخريدة، ومطلع قصيدة المعرى :

« لمن جيرة سيموا النوال فلم يعطوا » [١]

ولأسامة ديوان ما زال مخطوطاً ومنه نسخة بدار الكتب ، ومن يقرأه يجد هذا الاتجاه القديم واضحاً فيه ، وقد نظم قصيدة ميمية جميلة فى صاحب دمشق معين الدين إثر خروجه من شيرز بلده مغاضباً عمه يذكر ألمه لفراقه أهله ويعتمد على قصيدة المتنبى الميمية التى قالها عقب فراقه لسيف الدولة :

واحر قلباه ممن قلبه شبم

ومطلع قصيدة ابن منقذ :

ولوا فلما رجونا عدلَهُمْ ظلموا فليتهم حكموا فينا بما عَلموا [٢]

ويقول داعياً صلاح الدين إلى إصلاح أمر دمشق والشام جميعاً [٣] :

فسر إلى الشام فالملائكة الأبـ رار تلقـاك ملتقى حمَدا
فهو يفترّ إليك يأمل أن تصلح بالعدْل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النصْـ ر كما فى كتابه وعَدَا

وقد مدح طلائع بن زريك أسامة بالبيان والشعر إلى جانب الفروسية ؛ فقال فيه[٣] :

---

(١) كتاب الروضتين ص ١١٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٧ .
(٣) كتاب الروضتين ١/١١٨ .

ولك الرتبة العلية فى الأمرين مذ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك فى الطعن ولا الضراب يوماً ضريب
وإذا ما قرضت فالشاعر المفلق فيما تقوله والخطيب

ويمثل المذهب نفسه فى مصر **عمارة اليمنى** (توفى سنة ٥٧٠ هـ)[١] ، وكان فاطمى الهوى ، له قصائد فى رثاء الفاطميين تعتبر من أروع شعره [٢] ، وقد التحق بعد زوال دولتهم بخدمة تورانشاه شقيق صلاح الدين ومدحه وحرضه على غزو اليمن[٣] وشعره جيد رصين ، ومن قصائده الجيدة القصيدة التى يمدح بها الخليفة الفائز الفاطمى ومطلعها [٤] :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم .

وقال أبو شامة عن شعره : «وشعر عمارة كثير حسن» [٥] ، ويقول ابن خلكان : «شاعر مجيد رصين الشعر قوى الأسلوب» . وينتهج فى شعره طريقة أبى تمام والمتنبى كذلك . ومن جيد شعره قوله يمدح صلاح الدين لغزوه غزة ومهاجمته الفرنج بعسقلان :

وأخربت من أعمالهم كل عامر ... يمر به طيف الخيال فيفرق
أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ ... خليل فأبشر أنت غاز موفق
وهيجت للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه إليك التشوق
تنشق من ملقاك أعظم نفحة ... تطيب على قلب الهدى حين تنشق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه ... قريباً وإلا رائد ومطرق

(١) صلة صلاح الدين مع جماعة آخرين من المتمردين الذى تآمروا عليه وعلى دولته لإعادة الملك للفاطميين راجع ترجمته فى الروضتين ١/٢٢٤ – ٢٢٨ .
(٢) راجع مفرج الكروب جـ ٢١٢ ص ١ .
(٣) كتاب الروضتين ٢١٦–٢١٧ .
(٤) المصدر نفسه ١ – ٢٢٥ .
(٥) الروضتين ١ – ٢٢٨ .

وذهب هذا المذهب التقليدي فى الشعرمن المصريين فى هذا العصر الشاعر الصوفى **عمر بن الفارض** (ت ٦٣٢ هـ) .

ذلك هو الاتجاه التقليدى وأهم شعرائه — وقد حمل أصحابه على البديعيين فقال شاعرهم (وهو المهذب بن الزبير) :

لحقبت الماخضين الشعر قبلى   وإن أخلوا من الزبد الوطابا
فقل لمقعقع بشنان لفظ   نفى إثباتك القشر اللبابا
طلى كأس القريض من المعانى   وحسن اللفظ كان لها حبابا

فهو يعترف بسيره على الاتجاه القديم ، وإن لم يترك له القدماء فى المعانى رائعًا، ويتهم أصحاب البديع بأنهم طلاب لفظ ، وأن الشعر معنى لا لفظ ، فاللفظ قشور وشكل وإنما اللباب والجوهر هو المعنى . فالمحسنات اللفظية التى أغرقوا فيها لاتجدى كثيراً فى الشعر الجيد .

وقد كان هذا الاتجاه التقليدى فضلا عن ظهوره عند أولئك الشعراء وأشباههم يغلب فى الموضوعات الجليلة التى تحتاج إلى القوة فى التعبير لملاءمة قوة الموضوع ، كالفخر ومدح النبي صلى الله عليه وسلم أو وصف حدث جلل أو مدح ملك عظيم .

غير أن التأثر بالقدماء لم يقتصر على تقليدهم فى صياغتهم وأساليبهم بل تعداه إلى التأثر المباشر ، أى الاعتماد على صورهم وتشبيهاتهم ومعانيهم ، وكثيراً ما يحدث هذا فى معارضة الشعراء لنماذج قديمة مشهورة ، وأشهر من عارض شعراء العصر قصائدهم أبو تمام والبحترى والمتنبي ، ولم يقتصر التقليد والمعارضة لهؤلاء الشعراء على شعراء العرب ، بل إن بعض شعراء الفرس كانوا معجبين بشعراء العرب القدامى ، فأنورى الفارسى تأثر بالأخطل وجرير والأعشى وحسان بن ثابت والبحترى وأبى نواس وغيرهم [1] .

ومن بين من عارض أبا تمام من شعراء العصر العماد الأصبهانى فى كثير من

---

(١) رابع Browne 389

قصائده ، ومن أمثلتها قصيدته فى شيركوه حين غلب على الوزارة فى مصر ومطلعها :

بالجد أَدركت ماأَدركت لا اللعبِ   كم راحةٍ جُنيت من دوحة التعبِ

وهى معارضة لبائيته :

السيف أصدق أنباء من الكتب

وقد كانت هذه البائية نموذجاً هاماً احتذاه جماعة من شعراء العصر فى مناسبات شتى ، فى التهنئة بالفتوح ، أو بالمديح ، وقد سبق أن أشرنا إلى تقليد بعض الشعراء لها .

واحتذى المتنبي جماعة منهم الشاعر المؤيد الآلوسى ، حيث عارض قصيدته الميمية :

بليت بلى الأَطلال إن لم أَقف بها   وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

بقصيدة ميمية طويلة يقول فيها :

وقفت بحزوى وهى فيها مغانمهْ   فؤادى وجسمى قد تعفت معالمه

وقوف بنانى فى يمينى ولم أَقف   وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

قال ابن خلكان : « وهى قصيدة طويلة أجاد فيها ، وقد وازن فيها قصيدة المتنبي فى سيف الدولة بن حمدان . . واستعمل فى قصيدته أنصاف أبيات من قصيدة المتنبى على وجه التضمين [١] »

وقلد المتنبي كذلك أبو الفرج عبد الله بن سعد الموصلى فى قصيدة يمدح بها نور الدين محمود مطلعها :

ظُبى المواضى وأَطراف القنا الذُّبُل   ضوامن لك ما حازوه من نَفَلِ

قال أبو شامة : « قلت حاول ابن سعد فى هذه القصيدة ما حاول المتنبي فى قوله :

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٤٣٠ – ٤٣١ .

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع

فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون ، وقد أحسنا معًا » (١) .

وقد لا يقتصر التأثر بالقدماء على التقليد والمعارضة ، بل إن بعض الشعراء كابن سعد المذكور ضمنوا قصائدهم بشعر قديم ، وقد كثر هذا النوع حتى نجد قصائد طويلة مضمنة بشعر للنابغة وزهير وامرئ القيس وغيرهم من الجاهلية أو بشعر أبي تمام والبحترى والمتنبي من العباسيين ، واختلفت درجات التضمين والاقتباس من فنون الشعر فى هذا العصر الذى يحتفى به الشعراء والناس أشد الاحتفاء ، ويعجبون به أشد الإعجاب ، وكان لمحصولهم من الشعر القديم من حفظ الدواوين أو المختارات أثر واضح فى اقتباسهم ، وقد أشرنا فيما مضى إلى أن كثيراً من الناس والأدباء خاصة كانوا يحرصون على حفظ دواوين السابقين .

البديعيون

وهناك غير أصحاب القديم من الشعراء أتباع المذهب الثانى وهو أكثر شيوعاً من سابقه ،ونعنى به مذهب البديعيين أصحاب الصنعة ، فقد كانوا الكثرة الغالبة، وهم بدع العصر ، ومذهبهم المذهب المفضل المختار الذى يتلاءم مع أذواق الناس ويتفق وأهواءهم . وكان بعض الناس يرون أن من البديعيين من يذهب إلى المغالاة إلى حد التكلف والتعقيد . مما دعا بعض الشعراء ممن لا يذهبون هذا المذهب أن يحملوا على أصحابه وطريقتهم فى الشعر مثل الأبيوردى الذى أشرنا إليه ، وعمر بن الوردى الذى يقول (٢) :

إذا أحببت قول الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذى امتناع
ولا تقصد مجانسةً ومكّنْ قوافيه وكِلْهُ إلى الطباع

(١) الروضتين ١/١٢٩ .
(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٢١ .

وكان الشاعر الأسعد بن مماتى أيضا يكره الميل إلى البديع وإغراق شعراء عصره فى الجناس خاصة . قال الحموى : « وكان الأسعد بن مماتى أيضاً ممن لم يجعل الجناس له مذهبا فى نظمه وما أطرف ما قال [١] :

طبع المجانس فيه نوع قيادة   أو ما ترى تأليفه للأحرف

واتخذ البديعيون من الحريرى وطريقته فى المقامات نموذجًا يحتذى ، والحق أن الحريرى قد أتى فى مقاماته بضروب من عجيب الصنعة اللفظية واللعب بالألفاظ حتى شهد بمهارته وإعجازه فى هذا الفن العلماء واللغويون فى عصره والعصور التالية ، وحاول مقلدوه بدافع الإعجاب المفرط به أن يأتوا من ضروب البديع بما أتى به ، وأن يسلكوا الوادى الذى سلك .

ومن لعب الحريرى اللفظية التى ألَّفها وأشاعها التجنيس فى عباراته وفى شعره الذى نظمه ، وهو غير التجنيس المعروف فى البديع منذ أبى تمام ، بل هو زيادة عنه وإمعان فيه وإكثار ، ويسمونه أيضاً بالمجنس لأن قوافيه مجنسة مثل قول الشاعر شميم الحلى [٢] :

ليت طوَّل بالشام ثواه وثوى بِه
جعل العَوْدَ إلى الزَّو رَاء من بعْض ثوابهْ

ومن هذا المجنس ضربٌ آخر أكثر تعقيداً نظم منه الحريرى بيتين اثنين وصفهما بقوله : « اسكتا كل نافث ، وأمنا أن يعززا بثالث ، وهو قوله :

سم سمة تحمد آثارها   واشكر لمن أعطى ولو سمسمة

فقال مقلده — وهو عثمان البلطى :

محلمة العاقل عن ذى الخنا   يوقظـــه إن كان فى محلمه
مكلمة الخائض فى جهله   تصيب من يردعه مكلمه

---

(١) الروضتين ص ٢١ .

(٢) إرشاد ٥/١٣٠ .

ويذكر خمسين بيتًا من هذا القبيل [١] .

وشاع هذا اللون ؛ البسيط فيه والمعقد فى الشعر حتى صار فنًّا قائمًا ، ونظم الشعراء فيه القصائد الكاملة مثل الوجيه ابن الدهان (المتوفى سنة ٦٠٢ هـ) .

ومن ذلك اللعب اللفظى أن يحاول الشاعر الإتيان بقواف من وزن معين يحصر فيها الكلمات التى جاءت فى اللغة من ذلك الوزن ، ولا يمكن الزيادة عليها [٢] . ومن أمثلة التلاعب بالقافية أن تنظم أبيات يحسن فى قوافيها الرفع والنصب والخفض مثل قول شاعرهم :

إنى امرؤٌ لا يصيبنى الشادنُ الحسن القوام [٣]

فرفع القوام بالحسن مشبهة باسم الفاعل والتقدير « الحسن قوامه » ، ونصبُه الحسن القواما على التشبيه بالمفعول به ، وخفضه بالإضافة .

وهذه الأشكال النظمية أوضح دليل على مدى ما أوغل فيه أولئك النظامون من عبث بالشعر والألفاظ ، واستخدام خصائصه للتدليل على القدرة اللغوية والمعرفة بفنون الإعراب وقواعده [٤] .

ومما عرف من ضروب هذا العبث التلاعب بحروف الهجاء فى تركيب الألفاظ من مثل قول الشاعر [٥] :

وهنت فكنت فى عينى صبياً أخاطبـه بـألفـاظ الهجاء

فلو أصبحت ذا حاءٍ وسين لما عنفت فى شين وحاء

وقول الآخر فى نوع منه :

ما لم يغير عكسه لفظه مثاله « قد نبل البندق »

---

(١) إرشاد ٥ / ٥٠ .

(٢) يمكنك أن تراجع من هذا النوع قصيدة لابن البلطى أوردها ياقوت فى معجم الأدباء ٥ / ٥٥ ، وهى على مثال أخرى للحريرى فى مقاماته .

(٣) إرشاد ٥ / ٥٢ ومنه قصيدة لرشيد الدين النابلسى فى فوات الوفيات ١ / ٥٣٣ .

(٤) راجع لابن البلطى فى ياقوت ٥ / ٥٠ — ٥٤ ضروباً من هذه المقدرة .

(٥) مشرف الدين الحموى (٥٨٦ — ٦٦٢ هـ) .

وما إذا صُحِّفَ معكوسُه عاد إلى صنعته «فستق»

وشاع البديع حتى صار يحلو لبعض الناظمين أن ينظم قصيدة يجمع فيها كل بيت منها نوعاً منه [١] .

هذه ألوان يغلب عليها المغالاة والتكلف ، وهى أقصى ما وصل إليه هذا الفن من تطرف وإغراق ، إلا أن كثيراً من شعراء العصر الذين أعجبوا بالبديع لوناً فنياً لم يغرقوا هذا الإغراق إنما تناولوا بعض فنونه بحذر وحيطة ، ووشوا به أسفارهم ولم يثقلوها ، ومن الشعراء الذين أخذوا به على تفاوت فيما بينهم ابن منير الطرابلسى ، وقد أشرنا إليه ، وصنوه ومعاصره ابن القيسرانى أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ) ، وكان من الشعراء المجيدين والأدباء المتفننين . وكان هو وابن منير شاعرى الشام فى هذا العصر وجرت بينهما وقائع وملح ونوادر ، ولزما السلطان نور الدين محمود ولهما فيه القصائد الطنانة فى مدحه ، وكانا يشبهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع التى جرت بينهما ، وقد ورد ابن القيسرانى إلى دمشق من حلب وأنشد صاحب دمشق معين الدين أنر قصيدة بائية حسنة المعانى والمقاصد فاستحسنها السامعون واستجادوها ، وشفعها بغيرها فوصله أنر أحسن صلة . ويقول ابن القيسرانى : «إنه كان مليح المعانى كثير التطبيق والتجنيس» [٢] ويروى له أبو شامة فى الروضتين شعراً فى مدح نور الدين ومعين الدين أنر ، وهو شعر سهل الأسلوب لا يعمد فيه إلى التكلف ، ونفسه فيه طويل ، وكان ابن القيسرانى يحتذى أبا تمام ، ومن ذلك قوله فى نور الدين محمود [٣] :

هذى العزائم لا ما تدَّعى القُضب وذى المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتى متى خطبت تعثرت خلفها الأشعار والخطب

---

(١) راجع فوات الوفيات ٢/١١٨ .

(٢) ابن القيسرانى ٣٢٢ .

(٣) الروضتين ١/٥٨ .

وهى معارضة واضحة لبائية أبى تمام . وله ديوان شعر صغير مخطوط بدار الكتب المصرية .

ومن شعراء الشام المكثرين فى البديع مسعود بن الفضل النقاش الحلبى المتوفى سنة ٦١٣ هـ . ومن شعره :

أصل تلافى من تلافيكم فعلمونى كيف أرضيكم
قلبتم قلبى وما خلته يشقى وقد أصبح يأويكم
وأى خلق الله يرضى لكم بفت أكباد محبيكم
لأمتّعت عينى بكم إن رأت واستحسنت غير مغانيكم (١)

ومنهم فى الشام كذلك الضرير الحمصى ، قال يمدح صلاح الدين (٢) :

وزرت به الحصن الذى لو تحصنت فوارسه بالنجم أوردته الردى
قَصَمتَ به صُلْبَ الصليب ورعته وشهّدته لما غفا فتشهّدا
هببت إليه هبة يوسفيةً تعيد هباءً كل ما كان جلمدا
وفض بما قد فضّه من سهامه نواجذ ثَغْرِ الهنفراءِ وقدرا (٣)

ومنهم عماد الدين الأصبهانى ، قال من قصيدة يمدح بها صلاح الدين ويذكر مسيره من الشام إلى مصر سنة ٥٧٦ هـ (٤) .

وجبنا البويب والمصاقع قبله إلى بركة الجب التى قربت مصرا
إلى عزمة فى المجد غير قصيرة وكان قصارى أمرنا أن نرى القطرا
ولما نزلنا مصر فى شهر طوبة وردنا بكف العادل النيل فى مسرى
غدا قاصرا عن قصره قصر قيصر وإيوان كسرى عند إيوانه كسرا

(١) أعلام النبلاء ٤/١٣٩ .
(٢) كتاب الروضتين ٢/١٢ .
(٣) الهنفراء = « همفرى » الصليبى .
(٤) الروضتين ٢/٢٠ .

ومن شعراء العراق الذين أخذوا بهذا الفن الأرَّجانى أبو بكر بن أحمد بن محمد بن الحسين (ولد سنة ٤٦٠ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ) ويقال إنه أشعر الفقهاء وأفقه الشعراء . قال عن نفسه :

أنا أَشعر الفقهاءِ غير مدافع ... بالعصر أَو أَنا أَفقه الشعراءِ
شعرى إذا ما قلت دونه الورى ... بالطبع لا بتكلف الإلقاءِ
كالصوت فى ظلل الجبال إذا علا ... للسمع هاج تجاوب الأَصداءِ

وقد تفنن الأرجانى فى ضروب البديع ، وأعجب به شعراء العصر لذلك ، وراجَ خاصة عند البلاغيين بعده ، فقد جمعوا منتخباتٍ من نظمه فى أبواب كتبهم مقرونة بعبارات الإطراء والإعجاب ، كما فعل ابن حجة فى خزانة الأدب ، قال عنه : « والأرجانى أيضاً نظمه غريب فى هذه البلاد ، فلذلك أوردت منه هنا النبذة اللطيفة والله أعلم »[1] . وكان مما فعله الأرجانى غير الإكثار من البديع جناساً وتطبيقاً وتورية الإكثار أيضاً من التضمين بأنصاف أبيات للشعراء السابقين كما ذكر صاحب حسن التوسل [2] .

ومن أصحاب البديع فى مصر ابن سناء الملك وهو ابن القاضى الرشيد سناء الملك (توفى سنة ٦٠٨ هـ) وأخذ عن القاضى الفاضل طريقته فى النظم . قال ابن حجة : « وتلاعب فى التورية باختراعات يسكنها فى عامر أبياته » [3] ، وقال عنه أبو الفداء : « الشاعر المصرى المشهور أحد الفضلاء الرؤساء ، صاحب النظم الفائق »[4] ، وقال عنه ياقوت : « أحد أدباء العصر وشعرائه المجيدين ذاع صيته وسار ذكره » [5] ، وقال عنه ابن خلكان ، « صاحب الديوان ، له الشعر البديع والنظم الرائق ». وله ديوان موشحات سماه « دار الطراز » .

---

(١) خزانة الأدب ١٥٣ .

(٢) حسن الترسل ص ١٢ .

(٣) خزانة الأدب ٢٤٤ .

(٤) المختصر ١١٤/٣ .

(٥) إرشاد ٢٣٦/٧ .

ذكر ابن خلكان أنه قد « اتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها » .

مدح صلاح الدين وأخاه تورانشاه والقاضى الفاضل ، وكانت بينه وبين الفاضل مراسلات ، ومدحه بعدة قصائد . قال ابن خلكان : « وجمع شيئاً من الرسائل الدائرة بينه وبين القاضى الفاضل فى ديوان ، وفيه كل معنى مليح » [١] .

وكان بعض الكتاب يجمعون بين النظم والنثر ، وكانوا يتأنقون فى الشعر تأنقهم فى النثر ، ومنهم العماد الأصبهانى وابن شيث صاحب معالم الكتابة (المتوفى سنة ٦٢٥ هـ) [٢] . وضياء الدين بن الأثير .

نجد غير ما طرأ على الشعر من ضروب الصنعة اللفظية، والتلاعب بالحروف والأصوات ، أو بالكلمات نفسها ومقلوباتها أو مرادفاتها وما شابه ذلك ، كاللغز والتعمية مما أشرنا إليه، أنه طرأ شىء آخر جديد على لغة الشعر وأسلوبه، وهو الإكثار من استعمال الألفاظ العامية الدارجة فى كل بلد وإقليم من الأقاليم التى أشرنا إليها ففى العراق وفارس استعملت فى الشعر العربى كلمات فارسية ، إلى جانب استعمال بعض الكلمات العربية الدارجة فى العراق ، وكذلك الحال فى مصر والشام والمغرب. وقد أورد كثير ممن أرخ لهذه الفترة بعض ما شاع من تلك الألوان ، ونجد أمثلة لها فى كتب العماد الأصبهانى وابن خلكان وابن شاكر [٣] .

وقد كان لشيوع هذه العناصر ، وخاصة العامية أثر مخرب على الشعر العربى أو على الروح العربى فى الشعر ، وقد أدت به إلى الانحلال والركود ، مما أصاب الشعر الفصيح بنكسة طويلة استمرت ما يقرب من خمسة قرون بطولها . ازدهرت فيها ألوان من الأدب الشعبى على حساب الأدب الفصيح .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥/١١٢ .

(٢) فوات الوفيات ١/٥٦١ .

(٣) راجع فوات الوفيات ٢/٦١٦ تجد كثيراً من الأمثلة .

٤

أساليب الشعر

تلك كانت الفنون التى استجدت بصفة عامة ، أما أساليب الشعر : معانيه وصوره وأوزانه ، فقد اختلفت باختلاف المدارس الثلاثة ، أو المذاهب أو التيارات إذا شئت تسميتها ، وقد أشرنا إلى أن المعانى عند أصحاب المذهب القديم مستمدة من الشعر العربى القديم ، بل ومن الصحراء وحياة الصحراء ، ومثالها ما جاء فى شعر الأبيوردى[1] :

نزلنا بنعمان الأَراك وللنَّدى سقيطٌ به ابتلَّتْ علينا المطارف
فبت أعانى الوجد والركبُ نوَّمٌ وقد أَخذت منى السُّرى والتنائف
وأَذكر خودًا إن دعانى إلى النوى هواها أَجابته الدموع الذوارفُ

فهذه صور بدوية ، وألفاظ بدوية ، قريبة من ألفاظ جرير والفرزدق والراعى وأشباههما .

أما المحدثون فقد اشتقوا معانيهم مما بين أيديهم من معالم الحياة ، أو تناولوا المعانى القديمة ، وأجروا فيها التعديل والتبديل ، حتى أحالوها جديدة فى ظاهرها ، وإن كانت قديمة فى روحها . وقد شارك فى هذا المسلك أيضًا الفريق الثالث ، الذين وقفوا بين المحدثين والقدماء ، ومن أمثلة هذه المعانى المجددة قول الشاعر يصف خالاً على خد جميل :

لهيبُ الخدِّ حين بَدا لعينى هوى قلبى عليه كالفراش
فأَحرقه فصـــار عليه خالاً وها أَثر الدخان على الحواشى

فتشبيه الخد بالنار ليس بدعا ، وإنما البدع هو هذه الصورة التى تخيلها الشاعر

---

(١) هو الشاعر سليمان بن عبد المجيد الحلبى الكاتب (فوات الوفيات ١ /٣٥٨) .

للخال وكأنّ قلبه فراشة أحرقت بلهيب الخد فبقى أثرها رماداً هامداً ، أو قول الشاعر (ابن النطروني السكندري) [1] :

من لى برد غُديّات بذى سلم   حيث النسيم عليلٌ والثرى عَطِر
والنوْر يضحك فى وجه السحاب إذا   أَبْدى عُبوساً وأَبكى جفنه المطرُ

وهو معنى الشاعر القديم (الحسين بن مطير) :

كل يوم بأُقحوان جـديد   تضحك الأَرض من بكاء السماء

ومن المعانى الجديدة أو المجددة ، نجد مجموعة تنبع من نبع واحد هو الاستجداء والتطفل على موائد السلطان ، ومجالسه ، وهى أخلاط من الملق والرياء والمبالغة فى التعظيم والإجلال . والأمثلة كثيرة على هذه المعانى ، لايخلو منها ديوان من دواوين شعراء العصر وخاصة شعراء المديح المتكسبين . وانظر إلى قول ظافر الحداد يمدح قاضى الإسكندرية ويهنئه بشهر رمضان :

شهر الصيام بك المهنّا   إذا كان يشبه منك فنّا
ما سار حولاً كاملا   إلا ليسرق منك معنى
فرأى هلالك من محـ   ـلّ هلاله أعلا وأسنى
بهرت محاسنك الورى   فأَعادت الفصحاءَ لكنا
وإذا مدحناك احتقر   نا ما نقول وإن أَجدنا
والفضلُ أَجمع بعضُ وصـ   ـفِك فهو غاية ما وَجدْنا
إن الذى صـدح الحما   مُ به ثناؤك حين غنّى

وكثرت المعانى التى تدور حول الطرائف وتبادل النكات ، واللعب واللهو ، وحفلت بالكنايات والتورية ، والنظم المرتجل على الخاطر . من ذلك ما ذكره العماد

(١) ابن النطروني السكندرى المتوفى سنة ٦٠٣ هـ - جـ ٢ - ٣٤ فوات الوفيات .
(٢) خريدة القصر للعماد قسم شعراء مصر ٢ / ٥ .

الأصبهانى من أن ظافراً الحداد أحضره الأمير السعيد بن ظفر والى الإسكندرية ليبرد خاتمًا فى يده قد ضاق عن خنصره فقال :

قصر فى أوصافك العالَمُ فاعترفَ الناثر والناظمُ
من يكن البحرُ له راحة يضيق عن خِنصره الخاتمُ

فأمر له بعطاء ، فقيل له إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح فى هذا الغزال المستأنس ، يعنى غزالا كان فى حجر الأمير ، فقال :

عجبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخطّى له واعتمَدْ
وأعجبْ بهِ إذ بدا جاثماً فكيف اطمأن وأنت الأَسَدْ

فأمر له بعطاء آخر ، فقال له الرجل ممتحنًا : أنظم فى هذه الشبكة المسدولة على هذه الدار شيئًا . فقال [1] :

رأيت ببابك هذا المنيف شباكاً فأدركنى بعضُ شك
وفكرت فيما جرى لى فقلت مكان البحار يكون الشَّبَكْ

كذلك كانت الحالة الاجتماعية مصدراً من مصادر المعانى لشعراء العصر ، وقد اشتقوا من الحروب الصليبية كثيراً من المعانى ، واختلطوا بالنصارى من الفرنج وأخذوا عنهم بعض عاداتهم وأخلاقهم، وإن كان أثرهم فى الشام أقل من غيرها كصقلية وأسبانيا . وقد تأثرت اللغة ببعض الألفاظ اللاتينية الدخيلة [2] ، وظهر ذلك فى آثار بعض الشعراء مثل أسامة بن منقذ الذى اتصل بالصليبيين وعاملهم ونوه عن ذلك فى كتاب الاعتبار .

كما أن الحروب الصليبية أيضا أوحت إلى الشعراء بوصف المعارك والجيوش والحصون إيحاءها للكتاب ، ونجد ذلك واضحًا جليًّا فى مدائحهم الكثيرة للسلطانين نور الدين وصلاح الدين ، ومن خلفهما .

---

(١) خريدة القصر ٢ / ١٥ .

(٢) Arnold : Legacy of Islam 57

ونجد الاتجاه إلى نقد المجتمع فى كثير من شعر العصر ، وهو نقد يعمر بنغمة السخط والحقد أحياناً ، وقد أشرنا إلى قصيدة البوصيرى فى الموظفين ، ونورد أبياتاً هنا لشاعر مصرى آخر عاش قبل البوصيرى بمائتى سنة ، أى فى مطلع العصر الذى نتحدث عنه وهو ابن المقدام المحلى [١] . يقول فى وصف حاله وينتقد أحوال الكتّاب فى عصره :

وكتابٌ لهم أبداً حُماةٌ ... تُعدُّ لها الرُّقَى مثل الصِّلال
وكُلُّهُمُ يجرُّ إليه نفعاً ... فعادته احتجابى واعتزالى
بأيد تبتَدرن إلى الرشاوى ... كأيدى الخيل أبصرت المخالى

وقال فى أمير يصف أحوال الجند ، ومدى استبدادهم بالأمر ونهبهم وسلبهم فى آخر العصر الفاطمى وقبل عهد صلاح الدين :

فاتركونا مُعاشر الجند وأغنَوْا ... بدُرورِ الأرزاق كلَّ أوانِ
والولاياتِ والحماياتِ والغُرْ ... مِ وأخذ الأجعالِ من كل خانِ
والمعاصِير والسواقى وتسويـ ... غ الضياع المفرَّداتِ الحسانِ
وارتعوا فى جزور ذى الدولة الها ... مى نداها فى أطيب اللُّحْمانِ
واشغلونا بما به يُشغل الهـ ... رُّ لنفعٍ أو خيفة العُدْوانِ
بالطحَال المسدُودِ أو طرف الريّةِ ... أو بالمِعْلاق والمُصرانِ

كذلك استخدم الشعراء لغة الفلاسفة والمنطقيين والمشتغلين بالطب والطبيعة والنجوم والفلك والرياضيات وما إليها ، وأصبح شيئاً معهوداً أن يتظرف بعضهم فيضمن ما ينظم من أبيات مصطلحات لبعض تلك العلوم ، بل إنهم كانوا يستمدون بعض معانيهم وصورهم كذلك منها . ويقول شاعرهم مستخدماً بعض

---

(١) يقول العلماء إنه من المحلة بالديار المصرية ذكره العماد (خريدة القصر ٢/٤٧) وقال ياقوت « لا أدرى إن كان من المحلة الكبرى أم من محلة غيرها » . (معجم البلدان كلمة محلة) .

مصطلح الهندسة وألفاظها متغزلا [١] :

تقسم قلبى فى محبةِ معشر بكل فتى منهم هواىَ منوط
كأَن فوادى مركزٌ وهم له محيطٌ وأَهوائى إليه خطوطُ

وقال آخر بلغة الطب [٢] :

جوده كالطبيب فهو يداوى سوءَ أَحوالنا بحسن الصنيع
فهو كالمومياء إذا انكسر العظ م ومثلُ الترياق للملسوعِ

وقال ثالث بلغة الفلسفة :

حبى سعيدًا جوهرٌ ثابتٌ وحبه لى عرضٌ زائلُ
به جهاتى الست مشغولةٌ وهو إلى غيرى بها مائلُ

وقال آخر بلغة الفقه [٣] :

أَأُجيز قتلى فى « الوجيز » لقاتلى وأُحِلّ فى التهذيب أَو فى « الشامل »
أَم فى «المهذب» أَن يعذب عاشق ذو مقلة عبرى ودمع هاطل

والوجيز والتهذيب والشامل والمهذب كلها كتب فقهية .

وكذلك الحال فى مصطلح النحو ، فقد شغف بها جماعة من الناظمين أو متشاعرى العلماء ، فاشتقوا معانيهم من ميدانه ، وتفننوا فى ذلك وقد لاحظ هذه الظاهرة ابن خلكان نفسه فقال فى شعر أحدهم : «وكان كثيراً ما يستعمل العربية فى شعره » [٤] وأورد أمثلة لذلك ، منها قوله :

وكنا خمس عشرة فى التئام على رغم الحسود بغير آفه

---

(١) وفيات الأعيان ١٢٢/٥ .
(٢) وفيات الأعيان ١٢٢/٥ .
(٣) المصدر نفسه ١٧٥/٥ .
(٤) المصدر نفسه ٣٢٢/٦ .

فقد أصبحت تنويناً وأضحى حبيبي لا تفارقه الإضافه

وقال فى غلام أرسل أحد صدغيه وعقد الآخر :

أرسل صدغاً ولوى قاتلى صدغا فأعيي بها واصفه
فخلت ذا فى خده حية تسعى وذا عقربا واقفه
ذا ألف ليست لوصل وذا واو لكيد ليست العاطفه

وأما صور الشعر وخيالاته فظلت كما هى فى الشعر القديم صوراً قصيرة متتابعة لايطول فيها نفس الشاعر إلا قليلاً فى النادر الشاذ؛ ولا يعثر منها على صور كصور ابن الرومى مثلا، الذى يطول به فن التفتيق والتفصيل فى الصورة مستخدماً كل إمكانيات اللغة من ألفاظ ومعان ، وهذه الخاصية أعنى خاصية النفس القصير فى الصورة ، والتشبيهات المتتابعة المنفصلة الوحدات المتصلة الحلقات كالسلسلة ، خاصية بارزة فى شعراء مصر والشام ، إلى جانب خاصية أخرى هى خفة الشعر ورقته ، ولطافة روحه، وهذه الصفة الأخيرة أكثر وضوحاً عند شعراء مصر. أما شعراء الإقليم الشرقى ونعنى بلاد الفرس والإقليم الغربى من بلاد الأندلس والمغرب ، فلم يكن اعتماد الشاعر فى فنه على اللفظ الرشيق والصورة القصيرة ، أو التشبيه المقتضب ، بل كان يعتمد الشاعر فى بلاد الفرس على المعانى يصنفها و يتعمق فيها ولايلقى بالاً إلى اللفظ ، لذلك كان عمادهم فى فنون البلاغة فن المعانى لا البديع ، وكان أفقهم أكثر اتساعاً فيما تناولوه من موضوعات كما كان أثر العقل فيه واضحاً أكثر من الفن الشعرى؛ لهذا ظهر فى الشعر الفارسى القصص الشعرى (١) والأخلاقى (٢) .

أما شعراء المغرب والأندلس ، فقد غلب على شعرهم الوصف ، والمزج بين المعانى الجميلة الدقيقة واللفظ العذب الرشيق ، كذلك امتاز الأندلسيون بالتجديد فى شكل الشعر من الناحية الموسيقية و بناء القصيدة .

---

(١) ومن شعراء القصص فى هذا العصر النظامى (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) وقد نظم ضرباً من الشعر (الخمسة) يحتوى على خمسة قصص غرامية فى مثنوى من وزن الهزج .

(٢) من الشعراء الذين غلبت الأخلاق وتعاليمها فى شعرهم سنائى وسعدى الشيرازى من الفرس .

ونمثل لشعراء مصر والشام ، واتجاههم الذى أشرنا إليه بمثال من شعر ابن منير الطرابلسى حيث نلمس تخطف الصور والتشبيهات تخطفاً سريعاً ، مع الحشد والتتابع ، يقول (١) :

خلوتُ بمن أهواهُ بعد تَفَرُّقٍ بـأرض إلى صوب الندى أن يصوبهَا
فكان عويلى رعدَها وابتسامهُ وميضاً وأهواءُ القُلوب جنوبَهَا
وجادَ غمام من دموعى لروضها فضَوَّعَ أنفَاس الخزامى وطيبهَا
وقربَ منّى الدهرُ حبًّا رجوتَه وأبعدت الأيام عنّى رقيبَها

واستمد الشعر من القرآن زاداً غنيًّا فى معانيه ، وكثر تضمين الشعراء بآياته ومع أن فن تضمين الشعر بالقرآن كان موجوداً قبل هذا العصر ، لكنه شاع وذاع ، وعلى رأس من أذاعه ووضع أصوله القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فى فن الكتابة والنظم جميعا ، وتتلمذ عليه فيه جماعة من الشعراء والكتاب كابن سناء الملك وغيره . ويبدو التضمين بالقرآن فى صور عدة ، منها التضمين بالآية بذكرها مباشرة . كقول الشاعر (٢) :

رأيت فى خـده عذارا خلعت فى حبـه عذارى
قد كتب الحسن فيه سطرًا «ويولج الليـل فى النهار»

أو تضمين الآية بتصرف كقول الشاعر :

يَسقى الرحيقَ المختوم من يده ختامه من عذاره مِسْكُ
أَسبل دمعى من خده دررًا جسْمى من فرط أنصبابهُ مُسْكُ

أو قد يشير مجرد الإشارة إلى معنى آية قرآنية ، أو قصة كقول الشاعر يشير إلى قصتى موسى ونوح عليهما السلام (٣) :

(١) أعلام النبلاء ٤/٢٤٦ .
(٢) الصابونى فوات الوفيات ٢/٣٤٢ .
(٣) فوات الوفيات ٢/٤٠٧ .

يحكى لنا ليلاً فبدا نور وجهه ... أم القمرُ الوضّاحُ واتضح الشّكُّ
صُعقتُ له لما استنار جمالُه ... فطُورُ فؤادى مذْ تجلَّى له دكُّ
طما بحرُ أجفانى فيا نوح غفلتى ... تنبّهْ ، لهذا البحر تصطنع الفُلْكُ

وقال آخر مشيراً إلى قصة يونس عليه السلام مع الحوت[1] :

يقيسون يحيي فى الفعال بيونس ... وهذا على ضد القياس المؤسس
وكيف يصح الحكم والحوت بالع ... لذاك وهذا بالعٌ صوت يونس

وضمنوا بقصص العرب المعروف كقصص ليلى والمجنون ، ومثاله قول الشاعر ابن الصفا رالماردينى (المتوفى سنة ٦٥٨ هـ) : [2]

وتركِيٍّ نقيٍّ الخدِّ ألْمى ... بقدٍّ ماس كالغصن الرطيب
له شَعر حكى مجنون ليلى ... يخط إذا مشى فوق الكثيب

وضمنوا بالشعر العربى القديم ، وبمعانيه .

ومال الشعراء من الأوزان إلى الخفيف الرشيق ، واشتقوا أوزانًا جديدة أكثر ملاءمة للمعانى التى أكثروا من القول فيها ، وأطوع من حيث النظم لروح الشعر الجديد ومطالبه ومعانيه . وحاول بعض الشعراء التحرر من عمود الشعر العربى وابتدعوا لأنفسهم طريقة خاصة لم يلتزموا فيها الدقة اللغوية وحدود الإعراب ، ومن هؤلاء شاعر اسمه ابن جابر ، أورد ترجمته وأمثلة من شعره ابن شاكر فى كتاب فوات الوفيات [3] . يقول فى قصيدة له يصف فيها طريقته هذه :

أنا امرؤٌ أنكَرُ ما يعرفُ أهلُ الأدبِ
مولىً كلام نحوُه لا مثلَ نحو العربِ

---

(١) فوات الوفيات ١/٥٤١ .

(٢) المصدر نفسه ٢/١٩٧ .

(٣) فوات الوفيات ٢/١١٧ .

لكنـــه منفـــرد بلفظـــه المهـــذَّبِ
يصافع الفراءَ فى النحـ و بجلد ثعلبِ
ويقصد التثليث فى نتف سبال قُطربِ

واتخذ الشعراء أنماطاً جديدة لبناء شعرهم غير القصيدة التقليدية والمعروفة بأجزائها فأصبحنا نرى فى هذا العصر شعراء ينظمون فى الدوبيت والمزدوج ، ولعلها من آثار الشعر الفارسى الذى شاع فيه النظم بهذه الطريقة فى الرباعيات والمثنوى ، وأشهرها رباعيات الخيام ومثنويات سعد الشيرازى وجلال الدين الرومى .

وصارت الرباعية أو (الدوبيت) (١) فى الشعر العربى تنظم فى معان خاصة وموضوعات لاتصلح لسواها . أو هى أليق بها من غيرها كالحكمة ، والنادرة القصيرة ، والمثل ، وأما المثنوى والمزدوج فنجده أليق بالمنظومات المطولة التى تتطلب طول النفس ، وقد وجدنا منها قديماً أرجوزة ابن المعتز فى تاريخ عصره ، وكذلك نجد منها مثالا مطولا أيضاً يتناول موضوعاً تاريخياً فى هذا العصر هو أرجوزة حازم القرطاجنى ، ومنها كذلك ألفية ابن مالك فى النحو .

ولم يبرع شعراء العرب فى النظم فى هذين النمطين براعة شعراء الفرس ولم يحسنوا استخدامهما ، وكان منهم من يلجأ إليها ضربا من التنويع والتغيير .

وممن عرف بنظم الدوبيت من شعراء العرب كما ذكر ابن خلكان صلاح الدين الأربلى (المتوفى سنة ٦٣١ هـ) (٢) من إربل على نهر دجلة . قال : « وله نظم حسن ودوبيت رائق ، وبه تقدم عند الملوك » .

كذلك نظموا الموشحات على طريقة الأندلسيين ، وقد تأثروا فيه بفنهم على يد من وفد إلى المشرق من علماء الأندلس (٣) ، ومن شعراء الموشحات فى هذا العصر فى الأندلس :

ابن زهر الأندلسى : (المتوفى سنة ٥٥٩ هـ) (٤) . وابن سهل

---

(١) راجع فى الرباعية والدوبيت ما كتبه Browne فى كتاب :

A Literary History of Persia p. 34-35, 246

(٢) وفيات الأعيان ١/١٦٧ .

(٣) راجع تاريخ العرب مطول لفيليب حتى ص ٣/٦٦٧ و Gibb : p. 97

(٤) ياقوت إرشاد ٧/٢٢ وما بعدها .

الإسرائيلى[١] ويقال إن أول من مكن لها فى الشرق ابن عربى الشاعر الصوفى[٢].
وأشهر من عرف بنظم الموشح فى مصر ابن سناء الملك (المتوفى سنة ٦٠٨ هـ) ، وله ديوان موشحات سماه « دار الطراز ». ونظم فيها كذلك أبو محمد القاسم بن القاسم الواسطى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ)[٣] .

٥

الشعر الشعبى

وظهرت إلى جانب الشعر الفصيح ألوان شعبية من النظم ، لا تلتزم أوزان الشعر ولا لغته ، وتجرى بلغة العامة فى كل إقليم ، وتتخذ لها أوزاناً خاصة . وقد بدأت هذه الألوان الشعبية تأخذ مكانها فى آداب الناس فى القرن السادس الهجرى ، واهتم مؤلفو الأدب بها وباختيار بعضها وجمعه فى كتبهم ، وظهر منها فى مصر والشام والعراق ألوان متعددة ، كذلك ظهر من قبل فى الأندلس لون عرف باسم الزجل واشتهر على يد ابن قزمان (المتوفى سنة ٥٥٥ هـ)[٤] .

وأقبل الناس على هذه الألوان الشعبية من الأدب ، لأنهم رأوا فيها تعبيراً عن إحساساتهم فى صورة أقرب إلى نفوسهم وعقولهم من الأدب الفصيح الذى شغل أصحابه بالزخرف واللعب بالألفاظ والعبث بالبديع وضروب التسلية التى أشرنا إليها ، وابتعدوا عن المعانى الإنسانية ، كذلك كان لضعف بعض الشعراء وشيوع العامية نتيجة لقلة المتمسكين باللغة الفصحى من عامة الناس والمهتمين بالتخاطب بها منهم . وقد شاعت هذه الألوان ، وراجت ، وكثر محبوها بين المتعلمين أنفسهم والأدباء

---

(١) تاريخ العرب مطول ٣/٦٦٧ .

(٢) Gibb p. 91

(٣) فوات الوفيات ٢/٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٤) تاريخ العرب مطول ٣/٦٦٧ .

الفصحاء ، مما اضطر بعض الشعراء إلى النظم فيها[١] خضوعاً للرأى العام الأدبى .

ومن هذه الألوان الشعبية عرف « الزجل » و « الكان كان » و « المواليا » و « القوما » . أما الزجل فقد برع فيه كما قلنا ابن قزمان فى الأندلس[٢] ، وجرده — كما يقول ابن حجة — من الإعراب تجريد السيف من القراب[٣] ، ولم يطلب منه غير عذوبة ألفاظه وغرابة معانيه . أما فى مصر فقد برع شهاب الدين أحمد القمَّاح وأصبح إمام الديار المصرية فى فن الزجل[٤] ، وفى الشام علاء الدين بن مقاتل « مالك أزمة الزجل »[٥] ، وفى العراق عرف به جماعة منهم ابن جابر البغدادى الذى أشرنا إليه من قبل ، ومن أمثلته . يقول ابن جابر البغدادى[٦] :

الوقت يا نديمى قد طاب واعتدل
والشمس مذ ليالى قد حلت الحملْ

ومنه قوله[٧] :

لا بدّ تظْهَرْ بين الناسْ قَلَنْــدرى مَحْلوق الرَّاسْ
تَلبس عَوضْ دَا إلْكتَّانْ وحُلتك من صوف الخِرفَانْ
أَو دلقْ أَو تصبح عــريان
تغـــدو تدور مع أَجناس مُحلقين الروس أَكياس
ما يعـــرفوا إلا الخضرة والنبْك لا شرب الخمره
مثقالها بأَلفى جرّه

---

(١) Nicholson 45

(٢) راجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٢/١٧٤ — ١٧٥ .
وتاريخ العرب مطول لفيليب حتى ص ٦٦٧ .

(٣) خزانة الأدب ١٤٢ .

(٤) ويرجح أنه من رجال القرن السابع ويذكره ابن حجة فى الخزانة ص ١٧٦ .

(٥) خزانة الأدب ٦٨ .

(٦) فوات ٢/١١٢ .

(٧) فوات الوفيات ٢/١١٢ .

وعندهم منهـــا أكياس دافق يقاوم سبعين كاسْ
من قبل ما تغدو مَسْطُولْ تهتم فى أمر المأكولْ
وتطلع السوق بالكشكولْ
تطلب على الله رؤاس وباقــلانى مع هرّاسْ

وهى فى نظمها قريبة من بعض الألحان الشعبية المصرية التى لانزال نسمعها تردد على آذاننا مثل لحن الأدباتى .

ومن أزجال الزجال المصرى أحمد القمّاح قوله(١) :

وفى الأزاهير قم ترى شىء تذهّبْ وشىء تصبيبه قد زها وتفضّضْ
النرجس احداقو الشهل نعسانه إلا أنها من الندى ليس تغمض
وحين تُفتح عيونه فى وجهى شبهتِ أَصفر ولما بدا فى الأبيض
ما زعفران على نصاف مطبوع ولا فصوص كهرب فى خلال زبرجدْ

« **والكان وكان** » فن يقول عنه صاحب تاريخ الموصل إنه أحدثه البغداديون وسمى بهذا الاسم لأنهم كانوا ينظمون به الحكايات والخرافات حتى ظهر ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) وشمس الدين الكوفى فنظما فيه المواعظ والحكم (٢) وكان يسمى هذا الفن بمصر الزكالش . قال على بن ظافر : وأخبرنى بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التى يسميها المصريون « الزكالش » ويسميها العراقيون « كان وكان » (٣) وهما :

النّـــارْ بينْ ضُلوعى وَنَا غريقْ فى دمُوعى

---

(١) خزانة الأدب ١٧٦ .

(٢) تاريخ الموصل ٨٢ .

(٣) بدائع البدائه ١٣٣ .

كَنِّى فَتيلة قنديل أَموت غريقْ وحريقْ

ونظم فيه جماعة منهم الشاعر العراقى الحاجرى (المتوفى سنة ٦٣٢ ﻫ) [١] واشتهر به من البغداديين أبو منصور بن نقطة المسحر (المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ) وكان ينظم فيه أنغاماً يسحر بها الناس فى رمضان [٢]، وقال عنه صاحب الجامع المختصر « شيخ مجيد مشهور صنعته الغناء وعمل « الكان وكان » ، فيأتى فى ذلك بالمعانى اللطيفة . وكان أخوه زاهداً فقال أبو منصور هذا :

أنا مغنى وأَخى زاهد عمل مرَّة بيرين فى دار ذى حلوه وذى مُرّه

وكان عاميًّا يعمل خفاف النساء » [٣] .

ومما يرويه صاحب مرآة الزمان لأحد البغداديين أيضاً فى هذا العصر قوله [٤] :

لما تزَايدْ وجْدى فيكم وقَلْ تصبُّرى
وعرفتكم عداى وقلت النحركات
يا حاضرين بقلبى يا غايبين عن النظر
متى يحيينى مبشر من عندكم بقدومكم
ويفرحون أَصدقائى وأَكمد الشمَّات
حتى يدقوا بطَبول الهنا أَبواب الرجا
وأَقول للمعين افرحى قد رد ما قد فات
متى يقولوا قد جُوْ افرح بسرعة لِلِّقا
وأَقول يا أَحبابى أَطلتم الغيبات

---

(١) وفيات الأعيان ٣/١٦٩

(٢) مرآة الزمان ٨/٥٠٩ .

(٣) الجامع المختصر ٩/٦٨ .

(٤) مرآة الزمان ٣٣٩٨ .

وإن قَضَالى رَبِّى أَموت ولا انظر شخصكُم
وجا نَذِيرى إليكم يُقُلْ لُكمْ قد مَات
فحوشوا الناس عنّى على رءوس المـــلا
إنى على العهد باق حتّى يجىء الميقات

والمواليا ، كانت تجرى على ألسنة العامة خاصة فى شهر رمضان ، ويذكر صاحب تاريخ الموصل أن محدثها هم الواسطيون (أهل واسط) ، فقد نظموا فيها الغزل وتناقلها العبيد والغلمان لسهولتها ، فصاروا يتغنون بها فى بساتين النخل وعند سقى الأرض ، كانوا يقولون فى آخر كل كلمة « يامواليا » إشارة إلى أسيادهم ثم أخذها عنهم البغداديون ، وأدخلوا عليها بعض الإصلاح حتى عرفت بهم دون مخترعيها »[1] . وقال ابن خلكان ، وذكر موالا بغداديًّا : « وقد ألم بعض البغاددة فى مواليا على اصطلاحهم — فإنهم لايتقيدون بالإعراب فيه بل يأتون فيه كيفما اتفق »[2] . وذكر ابن خلكان المواليا التالى :

ظَفِرْت لِيلَهْ بليلى ظَفْرة المجنونْ وقلت وافى لحظّى طالع ميمون
تبسَّمِت فأَضاءَ اللؤلؤ المكنُونْ صَارالدجى كالضحى فاستيقظ الواشُونْ

ومن مواليا البغداديين ماذكره سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان[3] قال : قال الشاعر البغدادى :

مالى ومالى ومالى تغيرت أَحــوا لِى
لقيت ما لا يِكَيِّفْ ولا يدور ببالى
ما مثلهم يحسدنى ولا هم أَمثـــالى

---

(١) تاريخ الموصل ٨٢ .
(٢) وفيات الأعيان ١/٤٣ .
(٣) مرآة الزمان ٤٤٠ .

همُ همُ همٍّ نفسى وضيَّقوا فى حبْسى
ومزَّقوا كتب درسى عمدًا وهم راس مالى

وقال ابن الفارق فى غلام صنعته الجزارة :

قلتوا لجزار عشقتوكم تشرّحِنى
قتلتنى . قال : دا شُغْلى توبّخنى !
ومَالْ إلىْ وبَاس رجلى يرنّخْنى
يِريد دبحى لينفخنى ويسلخنى

« والقوما » ، يقول عنه صاحب تاريخ الموصل : « وأحسنه ماكان من أربعة أقفال ، ثلاثة متساوية فى الوزن والقافية والرابع أطول منها وزناً ، وهومهمل بغير قافية ؛ اخترعه البغداديون — كذلك — فى الدولة العباسية برسم السحورة فى شهر رمضان ، وسمى بهذا الاسم من قولهم : « قوما للسحر قوما » ونظموا فيه الزهدى والخمرى والعتاب ، وكان أول من اخترعه ابن نقطة للخليفة الناصر وكان يعجبه ويطرب له ، حتى جعل لابن نقطة وظيفة عليه فى كل سنة [1] » .

وذكره الأبشيهى فى المستطرف فقال : « قيل أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وكان الناصر يطرب له ، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما ، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه ، فتعذر عليه ذلك فصبر إلى دخول شهر رمضان ، ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ، ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة ، وغنى القوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة إليه وطرب له ، فكان أول ماقاله قوله [2] :

يا سيِّد السادات لك بالكرم عادات
أنا بنى ابن نقطه تعيش أَبويا مات

---

(١) تاريخ الموصل ٨٢ .
(٢) المستطرف ٢٤٢ .

ومنه قول الصفى الحلى[1] :

من كان يهوى البدورْ ووَصْل بيض الخدورْ
بالبيض والصُّفْر يسخو وقد حَلَى فى الصُّدورْ
من حب بيض الخدورْ ورام لزوم الصدورْ
يسمح وإلا فيبْقى من بينهم مهـــدورْ
كم بين سجف الخدور من عاشق مصدورْ
يرعى الكواكِبْ لَعَلَّو يرى جمال البدورْ
بين الحِلل والخدورْ وجــوه مثل البدورْ
إشراقهـــا فى المعاجِزْ وغروبهـــا فى الصدورْ
قد كنت فوق الصدورْ بين الظبـــا والبدورْ
فصرتْ أحسدْ من أَبصرْ خيامهم والخـــدورْ
نوائب المقــدورْ مثل الكواكب تدورْ
وبعد طيب الخواطرْ يقضى بضيق الصدور
غيرى يلازم الصدورْ وأَنا عليكم أَدورْ
وأَصطلى الصد وأَنا من بينهم مهدورْ

* * *

(١) المستطرف ص ٢٤٢ .

الشعراء النابهون

ونستعرض جماعة من الشعراء الذين كانت لهم بين معاصريهم شهرة ومكانة ، وكانت أشعارهم جارية على ألسنتهم ، ونذكر منهم فئات ثلاث فى الأقاليم الثلاثة التى كانت تظلها دولة الأيوبيين ، وهى الشام ومصر وشمال العراق . ونراعى فيمن نذكر أنه يمثل لوناً من الشعر يختلف عن غيره ، وتتمثل فيه عناصر بيئته وعصره وشخصيته . وأول ما نبدأ بهم شعراء الشام ، وسنتناول فى حديثنا ابن منير وابن القيسرانى والعرقلة وابن الساعاتى وابن عنين .

الشعر والشعراء فى الشام

ابن منير وابن القيسرانى[1] :

وهما شاعران مشهوران من شعراء المديح ، وطبقتهما واحدة ، وعاشا معاً فى الشام وتبادلا القصائد ، وكانت بينهما مناقضات . قال العماد : وهما كفرسى رهان .

وابن منير :

هو أحمد بن منير الطرابلسى ، ولد ونشأ بطرابلس الشام ، وتعلم القرآن واللغة والنحو وحفظ الشعر ، وكان شيعى المذهب رافضياً . قال ابن خلكان إن أباه كان ينشد الأشعار ويغنى فى أسواق طرابلس . وقد أخذ عنه ابنه صنعة الشعر ، وبرع فيه ، ولما تفوق فى الشعر غادر بلده إلى دمشق ، واتصل برجالها الكبار ، وتردد بين دمشق وحلب ، ولقى ابن القيسرانى بها وكانت بينهما مكاتبات وأجوبة ومهاجاة وظلا مقيمين زماناً بحلب .

وعاد ابن منير إلى دمشق ، ولكنه أساء إلى بعض أعيانها ، وتناولهم بالهجاء وكثر هجاؤه ، وكان هجوه خبيثاً فاحشاً كما يقول صاحب أعلام النبلاء وابن خلكان . فغضب عليه الناس بدمشق ، وحرضوا عليه أميرها بورى بن طغتكين ، فسجنه ثم أفرج عنه ونفاه عن دمشق ، فخرج منها إلى الشمال ، ولجأ إلى شيزر معقل

---

(١) مرت الإشارة إليهما فى الحديث عن مذاهب الشعر وفنونه ونفصل هنا الحديث فيما أوجزناه.

آل منقذ ، فتقبلوه قبولا حسناً ، وكانوا مقبلين عليه . قال العماد وروسل للعودة إلى دمشق فأبى ، وكتب رسائل فى ذم أهلها .

واتصل فى آخر حياته بنور الدين محمود ومدحه ؛ وكان نور الدين قليل الإقبال على الشعراء ، قليل الاحتفاء بهم ولكنه استمع لابن منير ، ونظم الشاعر فيه قصائد كثيرة ، طويلة النفس ، وقال أبو شامة إنه بعد موت القيسرانى وابن منير لم يبق فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغى إلا ابن سعد الموصلى (١) . وظل ابن منير مصاحباً للسلطان فى دمشق ، ثم عاد مع العسكر إلى حلب ، فتوفى بها سنة ٥٤٨ هـ ، قال ابن القلانسى : مات بعلة هجمت عليه ربا فيها لسانه .

وأهم ما اشتهر به ابن منير الهجاء ، وهو الطابع الذى يميزه ، والذى لاصقه ، ويكاد يجمع من ترجموا لحياته على ذلك ، وكان فى هجائه خبيث اللسان مفحشاً ، لذلك كان مرهوب الجانب ، ومع ذلك فلم يسلم — كقول ابن القلانسى من لسانه منعم عليه ولا مسىء إليه ، وكان طبعه فى الذم أخف منه فى المدح ، وكان يصل بهجائه لا بمدحه وثنائه (٢) . وكان ابن منير فيما يبدو فى حرب مع الناس ، والزمن كما يقول هو (٣) :

أنا حزْبٌ والدهر والناسُ حزبٌ ... فمتى أَغلبُ الفريقين وحدى

قال عنه العماد : وذكره مجد العرب العامرى بأصفهان ، لما سألته عن شعراء الشام فقال : « ابن منير ذو خاطر منير ، وله شعر جيد لطيف ، لولا أنه يمزجه بالهجو السخيف » .

مديحه :

مدح جماعة من الكبراء على رأسهم نور الدين محمود ، والوزير الموصلى جمال الدين وزير آل زنكى (٤) . ومدائحه لنور الدين قوية جيدة تختلف عن كثير من

---

(١) الروضتين ٩٤ .

(٢) ابن القلانسى ٣٢٢ .

(٣) العماد خريدة القصر قسم شعراء مصر ١/٧٦ .

(٤) الروضتين ١/١٣٦ .

شعره الذى يبدو أقل جودة ، وهو مع ذلك مسرف فى الجناس والصنعة ومنه قوله[١] :

أيا نـــور دين خبا نوره ومذ شاع عدلك فيه اتقد

ولابن منير مقطعات وقصائد فى موضوعات أخرى ، اختار منها العماد الأصبهانى أشعاراً فى غزل المذكر . قال العماد : وكان مولعاً بغلام يعرف بابن العفريت وفى خده خال ، وأكثر أشعاره فى الخال ، وقد ردد المعنى فيه .

وقال فى قصيدة له : « ومن قطعه الرقيقة ، الغريبة المعنى الحقيقة بالثناء عليها حقيقة لا مجازاً ، بل عن حقيقة هى :

أَترى يَثْنيه عن قسوتِه خدُّه الذائبُ من رقَّتِه
أَفأَستَنجدُه وهو الَّذى لوَّنَ الدمع على صِبغته
أَو ما حاجَبَه حاجِبُه إن تجافى عن مدى جفوته
فلهذا قوسه موترةٌ تستمدُّ النبْلَ من مقلته
قمرٌ لا فخْر للبدْر سِوَى أنه صيغ على صورته
صِدغه كرمة خمر قسِّمت بين خديه إلى نُكهته
فَتَّرت جفنَيه منها نشوةٌ توقظ العاذِلَ من سكرته
أَتخال الخال يعلو خدَّه نقطُ مِسْك ذاب من طرَّتِه
ذاكَ قلبِى سُلِبتْ حبتُه واستوت خالا على وجْنَتِه

وذكر العماد أنه سأل عنه الشاعر الناقد أسامة بن منقذ ، فذكر أنه أخذ بعض ما فى شعره من ابن مكنسة الشاعر المصرى ، وقال له العماد : فاحكم كيف كان فى الشعر ؟ ، وهل كان قادراً على المعنى البكر فقال : كان مغواراً على القصائد يأخذها ، ويعوّل فى الذبّ عنها على ذمّه للناقد أو للجاحد[٢] .

وقد ساعده على التفوق فى فن الهجاء سرعة خاطره وبلاغته . قال عنه ابن نجا الدمشقى : ما كان أسمح بديهته .

(١) سبق هذا الشعر مع مثال آخر لمدائح ابن منير فى نور الدين .

(٢) خريدة القصر شعراء الشام ١/ ٧٦ .

وابن القيسرانى :

هو أبو عبد الله محمد بن نصر العكاوى ، كان من الشعراء المجيدين والأدباء المتفننين ، قرأ الأدب على ابن الخياط الشاعر الأديب ، وجرت بينه وبين ابن منير كما ذكرنا مفاوضات ومعارضات ، حتى قال عنهما العماد إنهما كانا يشبهان جريراً والفرزدق فى زمانهما ، « فكأنهما جرير العصر وفرزدقه ، وهما مطلع النظم ومشرقه » ، وكانا أيضاً شاعرى الشام فى حياتهما ، وقد توفيا فى عام واحد سنة ٥٤٨ هـ . وفى وقت متقارب ، وكان مقيماً بحلب ، ثم جاء دمشق فى آخر حياته سنة ٥٤٨ هـ . بدعوة من مجير الدين أنر ومات بعد ذهابه بعشرة أيام . . . ومدح مجير الدين بقصيدة حسنة المعانى والمقاصد فاستحسنها السامعون واستجادوها وشفعها بغيرها فوصله بأحسن صلة ، وعاد إلى منزله فانتابته حمى توفى بعدها .

قال ابن القيسرانى المؤرخ : « وكان أديباً وشاعراً مترسلا فاضلا بليغ النظم مليح المعانى كثير التطبيق والتجنيس »[1]. وله ديوان شعر صغير مخطوط بدار الكتب المصرية .

مدائحه :

يروى له صاحب الروضتين شعراً كثيراً فى مدح نور الدين . وهو شعر سهل الأسلوب لا يعمد فيه إلى كثرة التجنيس والبديع مثل ابن منير ، وصوره كلها قصيرة متتابعة ، وعبارة عن صفات يصوغها شعراً ، ويغلب عليه قلة الرونق والروح الشعرى ، ويتمثل كثيراً شعر المبدعين من شعراء العرب السابقين أمثال أبى تمام والمتنبى .

وللقيسرانى غير المدائح قصائد فى موضوعات كالغزل ، والوصف ، وفى شعره آثار حياته الأولى أيام الشباب فى عكا بلده ، وكان قد احتلها الفرنج وبدأت الفرنجة تأخذ طريقها إليها ، فبنيت فيها الكنائس ، على الطرز الغربية وأقام بها الفرنج ، وظهرت نساؤهم فى الأسواق ، وجلبوا معهم مغنياتهم ومغنيهم وضروب

---

(١) ابن القيسرانى ٣٢٢ .

لهوهم وتسليتهم ، وشاهد ابن القيسرانى هذا كله وسجله فى شعره .

قال فى إفرنجية زرقاء العينين [١] :

لقـــد فتنتنى فرنجِيَّةٌ نسيمُ العبيرِ بها يعبقُ
ففى ثوبها غصنٌ ناعمٌ وفى تاجها قمرٌ مُشرقُ
وإن تلك فى عينها زُرقةٌ فإن سِنانَ القنَا أزرقُ

عرقلة الدمشقى (المتوفى سنة ٥٦٧) ، شاعر الفكاهة :

واسمه أبو الندى حسّان بن نمر ، شاعر مطبوع خليع خفيف الظل من حاضرة دمشق ، يختلف عن الشاعرين السابقين فى روحه وشعره ، فهو صاحب شعر رقيق لا تلمس فيه التعقيد والتكلف اللذين تجدهما كثيراً فى شعر العصر ، وهو ليس ميالا للمديح ، لا يكثر منه ، كما أنه لا يجيده ، ولا يطيل فى قصائده فكل شعره أو أكثره مقطعات صغيرة . قال العماد : « وقصائده قصار، وفى النادر أن تزيد قصيدته على خمسة وعشرين بيتاً ، ومقطعته على عشرة أبيات ، وكلها نوادر وكلام مضحك [٢] » .

وقد حببته خفة روحه إلى من اتصل بهم من الناس ؛ لقيه العماد الأصبهانى فى دمشق أثناء وجوده بها فوصفه بقوله : « لقيته بدمشق شيخاً خليعاً ربعة ماثلا إلى القصر ، أعور ، مطبوعاً ، حلو المنادمة ، لطيف النادرة ، معاشراً للأمراء [٣] ، شاعراً مستطرف الهجاء ، لم يزل خصيصاً بالأمراء السادة من آل أيوب ينادمهم ويداعبهم ويكاتبهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نتفه ، وله فيه مدائح ، ولديه منه منائح [٤] » .

اتصل بجمال الدين الوزير الموصلى ومدحه ، ومدح الوزير المصرى الصالح بن

(١) خريدة القصر قسم شعراء الشام ١/٩٩ .
(٢) خريدة القصر شعراء الشام ١/١٨٣ .
(٣) المصدر نفسه ١/١٧٩ .
(٤) الروضتين ١/١٣٦ .

رزيك ، ورثاهما وقد حدث أن توفيا فى عام واحد سنة ٥٥٩ هـ ، فقال[1] :

لا خير فى الدنيا ولا أهلها بعد جمال الدين والصالح
بحران لولا دمع باكيهما ما كان ماء البحر بالمالح

واتصل بأمراء آل أيوب ، والتقى بصلاح الدين ، وكان أميراً من أمراء نور الدين قبل أن يملك مصر . فألفه ، وأنس له ، ويقول العماد : وكان قد وعده صلاح الدين بدمشق أنه إن ملك مصر أعطاه ألف دينار ، فلما ملك مصر بعث إليه عرقلة يقول :

قل للصلاح معينى عند إعسارى يا ألف مولاى أين الألف دينار
أخشى من الأَمر إن وافيت أرضكم وما تقى جنة الفردوس من نَارِ
فجد بها عاضديات مسطرة من بعض ما خلف الطاغى أخو العار
حمرًا كأسيافكم غرًّا كخيلكم عتقاً ثقالا كأعدائى وأطمارى

فسيَّر له صلاح الدين ألفاً ، وأخذ له من إخوته مثلها [2]. ويروى أبوشامة فى الروضتين أن عرقلة جاء صلاح الدين بمصر فأعطاه عشرين ألف دينار ، وأخذ له من إخوته مثل ذلك ، وعاد من عنده إلى دمشق مسروراً محبوراً ، وكان ذلك فى ختام حياته [3] .

وتقمصت عرقلة روح أبى نواس ، فماثله وقلده فى منادمته لصلاح الدين ، وفى مجونه وخلاعته، وفى هجائه وخمرياته وروضيَّاته ، ومن تمثله لأبى نواس ، أكثر من ذكره فى شعره . قال فى قصيدة يمدح فيها الصالح بن رزيك :

وكأنى أبو نواس إذا ما جئت مصرًا وأنت فيها الخصيب
ولئن كنت مخطئاً فى قياس إن قدرى ما قال قدماً حبيب

---

(١) الروضتين ١/١٣٩ .

(٢) فوات الوفيات ١/٢٢٢ وراجع خريدة القصر قسم شعراء الشام ١/١٧٩ .

(٣) الروضتين ١/١٧٧ .

ويقصد قول حبيب بن أوس الطائى أبى تمام حين وصف ممدوحه بقوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقيل له إن الممدوح أرفع ممن ذكرت فرد قائلا :

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلا شرودًا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

وقال يمدح صلاح الدين : (ذاكراً أبا نواس والخصيب أيضاً) :

الحمـــد لله السميع المجيبْ   قد هَلَكَ الشرك وضلَّ الصليب
يا ساكنى أكناف مصر أنا   أبو نواسٍ والصلاحُ الخصيبْ

ومن خمرياته التى تحس فيها روح أبى نواس قوله :

أَدِرْ يا طلعةَ البـــدْرِ   علينـــا أَنجُمَ الخمْرِ
وقَطِّـــع ليلنـــا بالكأ   س حتّى مطلع الفجْرِ
عـــلى فتانة العيـ   ـين والخدَّين والثغرِ
بدا فى وجههـــا قمرٌ   ومن نغمـــاتها قُمرى
كذا فليشرب الصهبا   ءَ مثلى يا ذوى الشِّعْر
مع الفتيـــان فى الحانا   تِ بين الطبل والزَّمْر

وقال محاكياً قصيدته المشهورة :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراءُ   وداونى بالتى كانت هى الداء

قال عرقلة[1] :

نديمى داوِ بالخمر الخُمارا   أَدِرْ كأسى يميناً أَو يسارا

---

(١) خريدة القصر ١/٢٧٠ .

مشعشعة إذا ما صفّقوها ... بماء خلتُها نورًا ونارا
لها من مولدى موسى وعيسى ... شرابٌ لليهود وللنصارى
ومسمعةٍ إذا ما شئت غنّت ... «ألا حيي المنازل والديارا»
بدت بدرًا ومادت دعص رملٍ ... وماست بانةً وشدت هزارا
إذا غازلتها أو غازَلَتنى ... تأملت الفرزدق والنوارا

ومن روضياته ، يصف روضة قرب دمشق بقرية « نيرب » :

ولقد نعمتُ بوصله فى نيربٍ ... أَلفَ الربيع بروضهِ الغصن الندى
أَزهاره من جوهر ونسيمُه ... من عنبر وثماره من عسجدِ
وعلى الغصون من الحمائم قينةٌ ... تغنيكَ عن شدو الغريض ومعبَدِ
والماءُ فى برَدى كأَنَّ حبَابَه ... بردٌ حبته الريحُ غيرُ مُجمَّدِ
بينا تراه كالسجنجل ساكناً ... حتى تراه أَجعدًا كالمبردِ

وقال فى دمشق ورياضها :

دمشْقُ حييت من حيٍّ ومن نادِ ... وحبَّذا حبَّذا واديك من واد
ليس الندامى ندامى حين تنْزلُه ... يَعُلُّهمُ شادِنٌ كاساً على شادِ
حقًّا وللورق فى أَوراقه طربٌ ... كأَن فى كل عود أَلف عوّادِ
يا غادياً رائحاً عرِّج على بردى ... وخَلِّنى من حديث الرائح الغادى
كم قد شربت به فى ظلٍّ دانِيَة ... من ماء دالية تنبيك عن عادِ
فى جنْبِ ساقية من كفِّ ساقية ... قامت تثنّىً بقدٍّ غير منآدِ
سمراءَ كالصعدةِ السمراءِ واضحة ... يشفى لَمَى شفتيها غُلة الصادى
لها بعينى إذا ماست عواطِفُها ... جمالُ ميَّاسةٍ فى عين مقدادِ

ومن غزلياته الحلوة (١) :

لمن حلة ما بين بصُرى وصرخدِ تروح بها خيل الجلاح وتفتدى
ونارٌ بقلبى مثلها لأهيلها تُشبُّ لضيفٍ مُتهم ولمنْجدِ
وممشوقةٍ رفت ورقّتْ شمائلاً إلى أن تساوى جلدُها وتجلُّدى
من الخَفرات البيض تُغنى لحاظُها عن المرهفات البيض فى كل مشهد
حجازية الأجفان والخصر والحشا شآمية الأرداف والنهدِ واليدِ
إذا ابتسمت فالدرٌّ عقد منضّدٌ وإن حدّثتْ فالدرُّ غير منضّد
وألمَى كمثل البدر تبدو جيوبه على مثل خوط البانة المتأوِّدِ
له مقلة سكرى بغير مدامة ولى مقلةٌ شكوى بدمع مورَّد
رعى الله يوماً ظلٌّ فى ظلٍّ أيكةٍ نديمى على زهر الرياض ومنشدى
وكأساً سقانيها كقنديل بيعة بها وبهِ فى ظلمة الليل نهتدى
معتقة من قبل شيث وآدمٍ محلَّلة من قبل عيسى وأحمدِ
صفت كدموعى حين صدَّ مديرها ورقت كدينى حين أوفى بموعد
وفى الشيب لى عن لاعج الحبِّ شاغل وقد كنت لولا الشيب طلاع أنجد

ويهزل فيضع الصور المتباينة متلاحقة متقابلة ، فتبدو المفارقة مضحكة ، مثل قوله فى غلام أحول عشقه ، وهو أعور :

يالائمى هل رأيت أعجبَ من ذى عور هائم بذى حَوَلِ
أقِلٌّ فى عينه ويكثُر فى عينى بضدٍّ القياس والمثَلِ

ويعتمد هزله ، أو فنه فى الفكاهة والإضحاك على الصورة المنتزعة من الأشياء المضحكة ، ومن تلاعبه بالألفاظ ، فهو يطلب من بعض الناس شقَّة عراقية وهى

---

(١) خريدة القصر شعراء الشام ١٩٦/١ .

نوع من اللباس أشبه بالعباءة ، فيقول فى وصفها منتزعاً بعض الصفات المضحكة ومتصرفاً فى الألفاظ تصرفاً يخدم غرضه الفكه [١] :

حاجتى شقَّة تشقُّ على كُلْ　　ل بغيضٍ من الورى وحسودِ
ذات لونٍ كمثل عرضِك لاعِرْ　　ضى وحظِّى من القريب البعيد
فابعثنْها صفيقةً مثل وجهى　　جُلٌّ من صاغ جِلْدَه من حديد
واجعلنها طويلة مثل قرنى　　ولسانى لا مثل قدِّى وجيدى
كى أرى فى الشآم شيخاً خليعاً　　فى قميص من العراق جديد

ومن تلاعبه باللفظ فى الهجاء قوله يهجو شاعراً اسمه وحيش :

لا بارك الرحمن فى وُحَيْش　　فإنه مكدِّرٌ للعَيْشِ
كم قال لا قلقل غير نابه　　أبيات شعر كبيوت الخيشِ

وقال من أبيات وقد أعطاه بعضهم شعيراً :

يقولون لِمَ أرخصت شعرك فى الورى　　فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أُجازى على الشِّعرِ الشعيرَ وإنَّه　　كثيرٌ إذا اسْتخلَصتهُ من بهائم

ابن عنين ، المتمرد الساخر

اسمه محمد بن نصر الله بن الحسين ، كوفى الأصل ، وولد فى دمشق ونشأ ودرس على جماعة من علمائها ، كالحافظ ابن عساكر ، وقطب الدين النيسابورى وكمال الدين حسين الشهرزورى قاضى دمشق ، ثم ارتحل إلى بغداد فأتم علمه هناك . قال ابن خلكان : «وكان غزير المادة من الأدب مطلعاً ، على معظم أشعار العرب . كان يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد [٢] » .

---

(١) خريدة القصر شعراء الشام ١/٢٠١ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان .

ابتدأ ابن عنين قول الشعر سنة ٥٦٥ ، ولم يتجاوز السادسة عشر من عمره وكان ذلك على عهد نور الدين محمود بدمشق ، وكان نور الدين زاهداً فى الشعر والشعراء ، إذ كان يقدم عليهم الفقهاء والصوفية ، وكانت نفس الفتى تغتلى بالتمرد والتحرر ، وتضيق بالأوضاع ، وتثور على ماتراه من مظاهر النفاق فى الناس ، يتوق إلى الخروج على طاعة الأمراء والسلاطين ، وعاصر دولة صلاح الدين منذ نشأتها ، ورآه عند حضوره إلى دمشق بعد وفاة نور الدين ، ولقى جماعة من رجاله المقربين ، مثل القاضى الفاضل ، ولكنه لم يتقبلهم فى نفسه قبولا حسناً ، فبدأ يغمز ويلمز ، ويشنع ويسخر ، ولم ينج من لسانه أحد ، حتى إنه هجا القاضى الفاضل[1] وهجا السلطان نفسه وكاتبه قال :

سلطــاننا أَعرج وكاتبُهْ ذو عَمَشٍ والوزير منحدبُ

فضاق به السلطان ورجاله ، وأصدر أمره بنفيه عن دمشق إلى أى بلد يختاره ، ولم يختر بلداً بعينه ، بل صرف همه فى البلاد ، ونقم على الذين أخرجوه من بلده الذى يحبه فقال :

فعلامَ أَبعدتم أَخا ثقةٍ لم يقترف ذنباً ولا سرقا
أنفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا

وطاف بالبلاد ، بالشام والعراق والجزيرة وأذربيجان ، وخراسان ، والهند واليمن ومصر . وقد أوغل فى المشرق حتى قال :

أَشقِّقُ قلب الشرق حتى كأَننى أفتش فى سودائه عن سنا الفجْرِ

ولقى بالرى الفخر الرازى ، فصاحبه ، وأحسن صحبته ، وأعطاه من المال ما أرضاه ، ومدحه ابن عنين بمدائح جيدة . ولكن هذه الصحبة لم تنسه بلده ، وحنينه إلى وطنه ، فنظم فى المشرق قصائد كثيرة يتشوق فيها إلى دمشق ويتألم لاضطراره إلى البعد عنها . ويقول فى أبيات له :

---

(١) مرآة الزمان ٢/٤٧٣ .

أَحِنُّ ومن وراء النهر دارى حنين العود أوثقه الغراسُ
وكيف تبيت تطمع فى مديحى رجـاءَ نوالها العجم الخساسُ
ولو أنى مدحت ملوك قومى تراغت حولى النغم الدخاس
فإن الناس فى طرق المعالى لهم تبع وهم للناس راسُ

فيعز عليه أن يتجول فى بلاد غريبة العاطفة واللسان ، فى بلاد الهند وما وراء النهر ، ويعز عليه أن يقول الشعر فى ملوك أعاجم غير عرب ، بينما ملوك وطنه أحق بما يقول من الشعر . وهذه نزعة وطنية كامنة فى نفسه كانت تفصح عنها أبياته كلما وجدت مناسبة أو أتيحت لها فرصة سانحة . وبلغ تعصبه لعروبته مبلغاً جعل كل جنس سوى العرب أقل فى نظره، وغير حفى بالتكريم، هذا مع أن روح الإسلام فى هذا العصر كانت أغلب على العروبة ، ذلك لأن النضال ضد الصليبيين الذين جاءوا تحت راية الصليب ومتخفين فى ثياب الدين دفعت المسلمين أيضاً إلى الوحدة للوقوف يداً واحدة عرباً وكرداً وفرساً تحت راية الإسلام مما جعل بعض الشعراء يقول :

بدولة الترك عزت دولة العرب

وكذلك ابن النبيه المصرى :

الله أكبر ليس الحسن للعرب

لكن ابن عنين ، متعصب لعروبته ولا يقبل عنها بديلا فيقول فى إباء يشبه إباء المتنبى :

وكيف تبيت تطمع فى مديحى رجاء نوالها العجم الخساسُ

ويقول عائباً من استرضع فى غير العرب مزرياً به إن كان عربى الأب :

فألفيته يهوى الندى وترده عروقٌ إلى أخواله الزرقِ تنتمى
إذا أيقظته نخوةٌ عربيةٌ إلى المجد قالت أرمنيتهُ نمِ

وقال أيضاً :

وقلت فتى من دوحةٍ عربية تشابه منها الفرعُ فى الطيب والأَصلُ
ولم أدر أَن الأَرمنية ظئرهُ وفى الأَرمنيات النجاسةُ والبخلُ

وبعد أن بلغ ابن عنين فى رحلاته الهند ، لم يعجبه المقام بها ، ولا أعجبته أحوال أهلها ، ودفعه الحنين للعرب ولوطنه إلى العودة ، فقفل راجعاً إلى اليمن ، وهناك التقى بأميرها سيف الإسلام العزيز طغتكين بن أيوب أخى صلاح الدين ، فأكرم وفادته ، وأغدق عليه ، ورضى بصحبته ، وأكرمه أيما إكرام وأحب الشاعر الأمير وأجله ، ومدحه بقصائد تعد من خير شعره فى المديح ، وقال معبراً عن راحته واطمئنانه إلى جواره :

فلما استقرت فى ذراه بى النوى وألقت عصاها بين مزدحم الوَفدِ
تنصل دهرى واستراحت من الوجى قلوصى ونامت مقلتى وعلا جَدِّى

وبدأت الدنيا تغدق عليه وتفتح له صدرها ، فاشتغل بالتجارة ، وتردد بين اليمن والحجاز ومصر ، وحدث له مرة بمصر أن ضايقه رجال المكوس ، فسلط عليهم لسانه ، وتناول ملكها العزيز عثمان بن صلاح الدين قال :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها أهل ولا كل برق سُحْبُه غَدِقهْ
بين العزيزين بونٌ فى فعالهما هذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقَهْ

ويقصد بالعزيز الثانى هنا العزيز سيف الإسلام صاحب اليمن .

واتصل فى مصر بجماعة من شعرائها وأدبائها ، كذلك لقى بها ابن الساعاتى وله فى وداعه قصيدة نظمها سنة ٥٨٧ هـ – سنة ٥٨٨ هـ ، وكذلك نجد لابن الساعاتى أبيات مماثلة فى ديوانه .

وقد أقام فى مصر مدة طويلة بعد أن غادر اليمن لآخر مرة سنة ٥٩٤ هـ بعد وفاة صلاح الدين ، وطالت عشرته لشعراء مصر وأدبائها ، فأعجبوا به وبخفة روحه وظرفه ودعابته وفكاهته . قال ابن خلكان فى ترجمة ابن سناء الملك : « واتفق فى عصره

بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل فى ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين ، فاحتفلوا به ، وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام . وجرت لهم محافل سطرت عنهم » .

وقد تركت زيارته هذه لمصر أثراً فى نفسه ، لقد أحبها ، وتشوق إليها ، وبعد أن أتيحت له فرصة العودة إلى بلده دمشق بعد طول غيابه وغربته لم يتشوق إلى بلد من البلاد التى كان بها قدر تشوقه إلى مصر . قال فيها [1] :

تحيةَ مشتاقٍ بعيدٍ مزارُه ... أَبى شوقه أَن يستقر قرارُه
إذا نَفْحَةٌ مرتْ به قاهريَّةٌ ... ذكتْ فى الحشا بين الجرانح نارُه
وما شام من أعلا المقطم جفنُه ... سنا بارقٍ إلا توالت قطارُهُ

* * *

أَحنُّ إلى مصرٍ وياليتَ أَنَّ لى ... إذا ذكرتْ مصرٌ جناحاً أعارُهُ
فآوى إلى ظلٍّ ظليل ونائل ... جزيل وملك حالف العزَّ جارُه

وانتهت غربته بالعودة إلى دمشق ، لقى بها الملك المعظم عيسى بن العادل ابن أيوب فرحب به المعظم وأكرمه ، واستشاره فى أموره ، وولاه فى آخر عمره الوزارة ، فأحسن السياسة وأحبه الناس ، وقد دخل دمشق متحدياً لأهلها تغمر قلبه الشماتة فيهم لأنهم أخرجوه ، وشردوه هذا الزمن الطويل ، فقال فى عودته :

هجوت الأكابر فى جلَّقٍ ... ورعت الرضيع بسبب رفيع
وأُخْرِجتُ منها ولكننى ... رجعت على رغم أنف الجميع

وظل فى دمشق ، زمناً طويلا إلى آخر حياته من سنة ٥٩٧ هـ إلى سنة ٦٣٠ هـ أو سنة ٦٣٣ هـ سنة وفاته ، وعمر عمراً طويلا إذ بلغ الثمانين ، ولم يخرج من دمشق إلا فى سفارات للمعظم إلى بغداد أو غيرها .

---

(١) ديوان ابن عنين نشر خليل مردم ص ٩١ .

وخلف لنا ابن عنين ديوان شعر لم يجمعه هو ، لأنه لم يكن يعنى بجمع شعره إنما جمعه أحد الدمشقيين ، وليس كله ما جمعه ، بل إن ما جمعه جزء من كثير ، قال ابن خلكان : « لا يبلغ عشر ماله من النظم » . كذلك خلف لنا كتابين أحدهما اختصار لجمهرة ابن دريد ، والثانى تاريخ العزيزى برسم سيف الإسلام العزيز ، ولكنهما فقدا .

شعره وفنونه :

قال ابن خلكان عنه : « وكان من أظرف الناس وأخفهم روحاً ، وأحسنهم مجوناً . وبالجملة فمحاسن شعره كثيرة »[1] .

وقال ياقوت : « كان يقال إنه يخل بالصلاة ويشرب الخمر . ورمى بالزندقة[2] » ، فأول صفة تطبع شعره الهجاء قال ابن خلكان : « كان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس » وقال ياقوت : « وله قصيدة اسمها مقراض الأعراض تناول فيها جماعة من أعيان دمشق — وأورد مطلعها — ثم قال : ومن ثم أخذ فى الهجو بنفس طويل ، وتفنن بأساليب السب والثلب ، فأورد ما لا يحسن إيراده ، وقال : وهجا آباءه ، ثم قال : وشعره غرر كله » .

فالصورة التى يرسمها المؤرخون له صورة الظريف خفيف الروح ، الماجن الخليع المخل بالصلاة ، شارب الخمر ، الزنديق ، المولع بالهجاء والسليط اللسان الموكل بثلب الأعراض والفحش ، كل هذا فى شعر حسن غزير ، ذى نفس طويل وتفنن فى أساليبه ، ولطيف فى موارده حتى إنه غرر كله .

وإذاً فشعر الهجاء عنده هو عماد شاعريته ، وهو أيضاً الصورة الأدبية لشخصيته ، والهجاء يتشعب عنده إلى شعبتين : الأولى ، هجاء مقذع أقرب إلى السباب والفحش ، والثانية سخرية لاذعة ، فى تهكم مرير .

وعجيب أن تجتمع هذه الصفات فى شخص إلى جانب صفات أخرى هى الإباء والشمم والعفاف عن المال ، وحسن التدبير ، وعدم الخضوع والتملق للسلطان .

---

(١) وفيات الأعيان .

(٢) معجم الأدباء ١٢١/٧ .

لكنها الحقيقة مختلفة متباينة فى الظاهر ، وتجتمع فى الخفاء لتصدر عن نبع واحد هو الشخصية المتمردة الساخرة ، فهو رجل طبع على التمرد ، وعدم الرضا بكل معوج خاطئ ، لايصبر عليه ، يبادر إلى تناوله بلسانه ، وساعده على ذلك طبيعة ساخرة ، نافذة ، وقد يشبهه من يقرأ شعره بالمتنبى فى تمرده على الزمن والناس ، وفى طلبه للمعالى دائماً ، أو ليس هو القائل :

ولا بد أن أسعى لأفضل رتبة   وأحميَ عن عينى لذيذ منامى

أوليس هذا من معانى المتنبى التى أكثر من ترددها فى شعره ، ثم أليس قلقه فى البلاد وارتحاله من بلد إلى بلد سعياً وراء هذا المجد ، أوهذا الأمل الذى ينشده ، هوما كان يفعله المتنبى ، ويقلق له ، ويضنى نفسه وراحلته طوال حياته بسببه ؟ ، أو ليس صرف عصبيته للعرب ، يماثله كذلك ، ثم هما أخيراً وليس آخراً يجمعهما موطن أصلى واحد فكلاهما من الكوفة أصلا ، وإن كان مولد ابن عنين بدمشق .

وساعةً تقرأ لابن عنين فتذكر أبا نواس فى خلاعته ، ومجونه ، وتهتكه وسخريته برجال الدين ، تقرأ له قوله فى محدِّث كان يجلس فى المسجد الأموى ويحدث الناس واسمه يعقوب :

رأيتُ النبى عليه السلام   فقمت إليه وقبلته
فقال أيعقوب يروى الحديث   فقلت : نعم ، قال : مَا قلتُه

وقال فى رجل جاء من بغداد ينبز بالجدى ، ويدّعى الخطابة :

حوى قصبَ السبْقِ أهلُ العراقِ   وعطــر ذكرهم الأَندية
وأىُّ خطيبٍ يحاربُهم   وقد خطبت فيهم الأَجدَيهْ

ويقول فى رثاء حماره :

لقد كان إن سابقتهُ الريح غادرها   كأَنَّ أخمصَها بالشَّوْكِ ينتعِلُ

لا عاجزًا عند حمل المثقلات ولا يمشي الهوينى كما يمشي الوجى الوحل

* * *

يرجّع النّهْقَ مقرونًا ويطربُنى لحناً كما يطربُ المزموم والرَّمَلُ

وتقرأ أنه كان مغرى بالقضاة والفقهاء والمحدثين والواعظين ورجال الدين ، فتذكر ما قاله أبو نواس فى أهل الحديث مثل :

ولقـــد كنـــا روينا عن سعيد عن قتاده
أَن من مـــات محبًّا فله أَجـــر الشهادَه

أو قوله حين تصنع التنسك :

لو تراني ذكرت للحسن البصرى فى حسن سمته وقتاده
المسابيح فى ذراعي والمصحف فى لبتّى مكان القلاده

وساعةً تقرأ له فيتمثل لك ابن الرومى فى هجائه المر النفاذ، المفحش أحياناً مثل قوله فى أحد القضاة ، وكان ميالا إلى النساء وكتب بها إلى المعظم عيسى [١] :

أَقولها لو بلغت ما عنى فالطبل لا يضرب تحت الكُسَى
قاضيك إن لم تُقْصه فاخْصِه أَو لا فلا يحكم بين النِّسا

ونقرأ له فى خروف هزيل أهدى إليه [٢] :

أَتانى خروف ما شككت بأَنه حلفُ هوى قد شفَّه الهجر والعذلُ
إذا قام فى شمس الظهيرة خلته خيالا سرى فى ظلمة ما له ظلُّ
فناشدته ما تشتهى ؟ قال قتَّة وقاسمته ما شفَّه؟ قال لى الأَكلُ
فأَحضرتها خضراءَ مجاجة الثرى مسلمةً ما حصَّ أَوراقها الفَتْلُ

(١) ديوان ابن عنين .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ .

فظلَّ يراعيها بعينٍ ضعيفةٍ ويَنشدها والدمع في الخد منهل
دَنَت وحياضُ الموت بيني وبينها وجادت بوصْلٍ حين لا ينفع الوصلُ »

وهكذا كان ابن عنين شاعراً متدفق الشاعرية وقاد الذكاء لماح الخاطر ، يحسن الأداء في لفظ رصين ، ونظم غير مختل ، وكانت معرفته باللغة خير معين له على ذلك ، وهو يستعمل المحسنات البديعية ، لكنه لا يسرف فيها إسراف غيره من الشعراء ممن تعرضنا لهم ، وهو ينتقى ألفاظه بدقة ، فيأتى فى المديح بما يلائم موضوعه قوة ورصانة ، ويأتى فى الهجاء باللفظ الحصيف السهل ، بل قد يعمد أحياناً إلى العامى الدارج ، وكثيراً ما نجد الألفاظ العامة مما يستعمله أهل دمشق تُفْلتُ على لسانه مثل « العوانى ، والعلق ، والنصب ، ودق الحنك . . .إلخ »[1] مما قد يبدو فى أعين المتزمتين ضعفاً أو إسفافاً ، إلا أنه رواية أو حكاية لأقوال الناس ، وهو أوقع فى معرض السخرية والهجاء .

ابن الساعاتى (ت سنة ٦٠٤ هـ) الوصاف المصور :

هو أبو الحسن على بن رستم بن هردوز ، قال ابن خلكان : « شاعر مبرز فى حلبة المتأخرين ، له ديوان شعر أجاد فيه كل الإجادة[2] » .

وأصله من خراسان ، جاء منها والده محمد بن رستم بن هردوز وكان مشتغلا بعلم النجوم وصنع الساعات ، وإليها نسب ، وبقى والده فى دمشق ، وولد هو بها وتنشأ ، ولذلك يسميه ياقوت الشاعر الدمشقى ، أخذ فى دمشق على جماعة من علمائها فى القرن السادس ، وقرأ كثيراً من دواوين شعراء العرب القدماء جاهليين وعباسيين ، واستوعب كثيراً من قصائدهم حفظاً ، وحاول تقليدهم والاستعانة بهم فى أدبه ، وبقى الشاعر فى دمشق طوال حياته وشطراً من شبابه إلى سن الثلاثين أو الثانية والثلاثين ، وفى سنة ٥٨٥ هـ . غادر دمشق إلى مصر حيث قضى بقية عمره .

---

(١) راجع مقدمة الديوان لخليل مردم ص ٢٦ .

(٢) وفيات الأعيان ٣/٧٣ .

وراجع المقدمة القيمة التى كتبها الأستاذ أنيس المقدسى لديوانه الذى نشره ببيروت .

فالشاعر إذاً قسم حياته بين دمشق ومصر ، وقضى فى الأولى طفولته وصباه وصدر شبابه ، وقضى فى الثانية بقية شبابه وصدر كهولته حيث مات كهلا فى الخامسة والخمسين .

وكانت حياة الشاعر فى دمشق حياة غير رضية ، يغلب عليها العوز وشكوى الحاجة وقد ردد الشاعر هذه المعانى كثيراً فى شعره ، وكان لذلك كثيراً ما يسأل من يمدحه أو يعرض بالسؤال ، وكان ذلك شديداً على نفسه، والشباب دائماً يعز عليه أن يحتاج وأن يسأل ، وانقلب الحال عندما جاء إلى مصر إذ تيسرت له سبل العيش ، وصار له بعض الثراء والغنى مما جعله يرضى ويكف عن الشكوى .

وشعره يصور لنا هذا كله ، فهو يقول فى قصيدة له إنه ماترك دمشق وهى وطنه ومسقط رأسه إلا ليسعى وراء العيش العزيز :

ماسرت عن جلق أبغى البديل بها ... لولا طلابى محلا للعلا قذفا
طول المقام لأهل الفضل منقصة ... والمسك لولا النوى ماأدرك الشرفا
لو لم تجرد سُيوف الهند ما رهبت ... والدُّر ما جلَّ حتى فارق الصدفا

ويقول فى أبيات أخرى :

فإنْ بلدٌ لم أغدُ فيه مكرماً ... نهضت فأعملت الجدَيْليَّةَ البُدْنا
فإنى كعود الهنْد هِينَ بدَوْحِه ... وقد عبَّقتْ أنفاسُه السهلَ والحزْنا

ولعل روح المتنبى تبدو ظاهرة فى هذه الأبيات ، الروح الطامحة المتطلعة للمجد والمال ، المتبرمة بالاستقرار ، الساعية دائماً إلى هدف بعيد ، ولكن روح ابن الساعاتى وآماله كانتا أقل وأهون من روح المتنبى وآماله ، لهذا لم يكن شعره فى هذا الموضوع ، فى معانى السعى والتنقل والطموح تنهض بإزاء شعر أبى الطيب ، فأبو الطيب لم يكن يسعى إلى المال وحسب ، ولا إلى المكانة المرموقة فى الحياة وبين الشعراء فحسب ، فإنه قد بلغ هذا كله ، كان له من المال ما كفاه وأغناه ، وكانت له من المكانة والدالّة عند سيف الدولة ما جعله أثيراً يخاطبه خطاب الناس، ولم يكن ليحجب عنه حاجة يطلبها ، لكنه مع ذلك كله كان قلقاً إلى جواره يطمع

فى شيء كبير ، فغادره إلى كافور وهناك لم يرض بأن يكون شاعر الحاكم وحسب ، وإن أغرقه بالذهب وإن تقرب إليه بالخلع . . . وظل كذلك متنقلا من مكان إلى مكان ، لايستقر ولا يرضى . . إلى أن جاءته الراحة الكبرى فأنهت هذا القلق ووضعت خاتمة حزينة لنفس لم ترح ولم تسترح . أما ابن الساعاتى ، فكان ظلا خفيفاً باهتاً لطموح المتنبى ، بدأ ثورته فى شبابه وهو يشعر أنه مغبون بين مواطنيه ، وأن أدبه جدير بأن يقدر ، وأن يرفعه بحيث يحيى حياة رغدة ، يستطيع فيها أن يقضى أوطار نفسه ، فيشرب ، ويلهو ويسمع الغناء . وبعد أن يتم له ذلك يستقر ويرضى ويذهب عنه التبرم والسخط .

وقد أمكنه باتصاله بجماعة من العظماء وكبار الرجال أن يثرى ، مدح صلاح الدين والخليفة العباسى فى بغداد ، وأبناء صلاح الدين : المعز والمؤيد ، والأفضل وأخاه العادل ، والملك المعظم عيسى . ومدح إلى جانب هؤلاء القاضى الفاضل والعماد الأصبهانى . ويدل قول ابن الساعاتى فى مصر :

وتبرَّجتْ غيدُ المنى وتأرَّجت ريحُ الغِنى وافترَّ ثغرُ مآربى

يدل هذا القول على مدى ما لقيه بمصر من غنى . ويقول فى قصيدة أخرى يرثى بها أحد أبنائه :

ومن لى لو أستطيع الشفاء بما حُزْتُ من ثروة أو صفد

وكانت إقامته بمصر بمدينة المحلة الكبرى ، وكان معه عائلته ، وقد مات منه ثلاثة أبناء ، وخرج ابن الساعاتى من المحلة إلى القاهرة ، وعاش بالقاهرة مع جماعة من الشعراء والأدباء المذكورين فى ذلك العصر وكان فيما يبدو يتردد عليها أثناء إقامته بالمحلة ، ليجتمع بهم وليقضى من دهره ساعات صفوه ولهوه ، فيخرج إلى رياضها وبساتينها ، ويذهب فى النيل على ظهر زورق متنزها .

ويسافر ابن الساعاتى كذلك إلى أسيوط بالصعيد ، ويصف زيارته لها بثلاثة أبيات مصوراً بساتينها ونيلها ورياضها ، وهى أبيات مشهورة ترويها كثير من كتب الأدب لجمالها ، ولا ندرى فيم كانت زيارة ابن الساعاتى لأسيوط ، أفى

تجارة كانت، أم لمجرد الزيارة والرحلة . أم تراه ذهب إلى هناك للقاء بعض علمائها وأدبائها . كل هذا جائز ، ولكنه لم يذكر فى شعره شيئاً عن تجارة كان يقوم بها، كذلك لم يبين لنا من كان يتصل به من العلماء بأسيوط .

والمتتبع لشعر ابن الساعاتى ، حسب أطوار حياته يجد أنه ينقسم كما أشرت إلى قسمين من حيث معانيه ، فهو فى أول شبابه ساخط متشائم ، كثير التبرم والهجوم على حساده ، والكائدين له من الأعداء ، وتلوح لنا إلى جانب هذا لمحات أخرى لشخصيته ، فهو فى شبابه وعنفوان رجولته رجل ميال إلى اللهو ، يحب مجالسة الظرفاء . ومشاركتهم فى لهوهم وسماعهم ، وهو ظريف تبدو فيه خفة روح وخلاعة وهو لا يبدو متبرماً فى مطلع شبابه إلا لأنه لا يملك المال الذى يمكنه من بلوغ مآربه والتمتع بحياته وشبابه . يقول :

عجباً تخاف الفقر أو ترجو الغنى ويداك تأخذ ما تشاء وتترك
فاهجر معاتبة الليالى واصلا دم كرمة فى عُرس لهو يُسفك

ولكنه يعود فى آخر حياته، وبعد موت أبنائه الثلاثة إلى ترك هذا كله، يقول:

ذرى بعدها ذكرى الغوانى فإننى لطمت بكف الجد سالفة الدهْرِ

وقال فى المعنى أيضاً :

ومن لم يمانع غفلةً دون نفسِهِ فليس بذى نفس يُعَدُّ ولا عَقْل

ونجد ابن الساعاتى دائم الافتخار بنفسه ، وبأصله الخراسانى . قال :

وإنا لمن قوم مواقع جودهم مواقع جودِ الغيث فى البلد القفر
ورثت الخراسانىّ حلماً ونائلاً فلا قلق البقيا ولا حرج الصدْر
إذا انتدى منا امرو قالت العلا لنخْلِ مكان الصدْر للفارس الحبْر
وما كان نظْمُ الشعر عادةَ مثلنا لمسألة لولا الإرادةُ للفخْر
ولولا بقايا صبوةٍ عربية لبعض الظباء السمر لا البيض والسُّمرِ

ونعود مرة أخرى فنلتقى فى هذا الشعر بروح أبى الطيب ، ولكنها هنا كما كانت من قبل ظلال روح ، فأين هذا الفخر من فخر المتنبى بنفسه قبل آبائه وأجداده ، وبعنصره العربى ،الأبى الكريم. وبشعره وبيانه .

ويفخر ابن الساعاتى بشعره فيلم ببعض ماقاله أبو الطيب . يقول :

لا تحفلن بنظم قوم أصله ... نظمى فلجُّ البحر غيرُ الساحلِ
طلبُوا ففاتهم الذى أنا قائلٌ ... كالنجم يَبْعُدُ عن مدى المتطاولِ
فهم البغاث متى سَموا لمنيفةٍ ... بَسقَتْ مُنُوا من منطقى بجنادلِ

فيرى هنا أن كل شعر يقال إنما هو أصلا شعره أخذوه وحرفوه ، ونزلوا به ، ولن يستطيع أولئك الشعراء المعاصرون أن يسموا إلى درجته ، ولا أن يقولوا شعراً كشعره الذى يبدو لهم وكأنه النجم بعيد المنال ، ويبلغ تيهه بقوله درجة تفضيل نفسه على من سبقه من شعراء العرب ، فيقول :

وقافيةٍ عذراءَ فى كل مطلب ... زهيدٍ من الأيام ظاهرةِ الزهدِ
تقيد لبيدًا تعتريه بــلادةٌ ... وقلَّ عبيدٌ أن يكون بها عبْدِى

ويدعو نفسه أمير النظم :

ولستُ أَمير النظم والنثر إن جرتْ ... إلى غيرك الوجناءُ أَو وصل الحبْلُ
كفاها جلالا أَن فكرى وليُّها ... وأَنك يا نجل الملوك لها بعلُ
فما كان مثلى ابن الوليد وإنما ... تقادمَ ميلادٌ ولا مثلك الفضْلُ(١)

ويقول محتسباً لنفسه الفضل على الرغم من تأخر زمانه :

ما شابنى قربُ الولاد فقد ... جاوزتُ فى الإحسان من قبْلى
هــذا أَخير الأَنبياء غدا ... وهو الشفيع وسيِّدُ الرّسْل

---

(١) يقصد مسلم بن الوليد والفضل الوزير البرمكى .

شعره :

ويعتبر شعر ابن الساعاتى ، مثلا آخر من شعر العصر الذى يحفل بالبديع ، إلا أنه يميل فى أسلوبه وألفاظه إلى السهولة والسلاسة ، مبتعداً عن التعقيد . وتراه يفاخر بهذا فيقول :

طائية صعبت وأسهل لفظها ... فانظر إلى الصعب المنيع المسهل
نزعتُ عن المعنى البعيد وهُجنة الو ... صف المردَّد والكلام المقفل

ويمتاز بالخيال الواسع والقدرة على انتزاع الصور الغريبة ، وتركيب التشبيهات العجيبة . وهو قدير على هذا ، مفتن فيه ، بارع لا يضارعه فى عصره شاعر مثله . يقول فى أبيات يصف فيها يوماً له بأسيوط وليلة مقمرة قد بدا بدرها مكتملا ، وأحاطت الرياض بأشجارها المتدلية الأغصان على صفحة النيل ، والطير يشدو بعذب اللحن ورقيق النغم . يقول :

لله يومٌ فى سيوط وليلةٌ ... عمر الزمان بمثلها لا يغلط
بتنا بها والبدر فى غلوائه ... وله بجنح الليل فرعٌ أشمط
والطلُّ فى سلك الغصون كلؤلؤ ... نظم يصافحه النسيمُ فيسقطُ
والطير يقرأ والغدير صحيفةٌ ... والريح تكتب والغمامةُ تنقط

ويقول فى أبيات أخرى يصف زورقاً خرج فيه فى النيل ، ومشبهاً له بإنسان العين ، والنيل حوله بالمقلة ، والمجاديف بالرموش :

ولما توسطنا مدى النيل غدوةً ... ظننتُ وقلبُ اليوم باللهو جذلان
عُشارِيه إنساناً له الماء مقلة ... وليس لها إلا المجاديف أجفان

وقد يسرت له هذه القدرة على انتزاع التشبيهات إحسان الوصف ، وخاصة وصف الروض بأشجاره وزهوره ، والغدران والمياه ، والغمام ومظاهر الطبيعة الشمس والقمر والليل ، وقد وصف النيل كثيراً وأغرم به حتى إن ابن خلكان يذكر أنه

أفرد ديواناً لما قاله فيه وسماه « مقطعات النيل »(١) فمن جملة ما قاله فيه :

متنقِّلٌ مثل الهلال فدهره أبدًا يزيدُ كما يزيد ويرجعُ
يلقى الثرى فى العام وهو مسلِّمٌ حتى إذا ما ملَّ عاد يودِّع
وكأنما هو والنجوم موائلٌ فيه ونور البدر إذ يتشعشعُ
بيضٌ تُسلُّ على متون سوابغٍ خُضْرٍ بأمثال العقودِ ترصَّعُ

وقال فى وصف روضة :

وتأمَّــلْ صنع الإله وما بثَّ ت قطار السماء فى الأقطار
كل مخطوبة الخميلة تجلى فى ثياب الأنوار والنُّوار
جعَّدت ماءها الصَّبَا حين حاكت ثوب أزهــارها يدا آذار
فكأن الشقيق خدٌّ حبيب أخجلتــه لواحظ النظار
وكأنَّ النمَّامَ صبٌّ أباح السـ قم منه ذخائر الأسرار

ولابن الساعاتى الغزل الرقيق العذب ، وإن كان الوصف عنده أبدع وأجمل ، وقد غلب ميله للوصف على غزله ، ممزوجاً بتلك الروح ، فهو يصف أحوال الحب من الجوى والسهر والبعد ، وفعل هذا كله فى المحبين ، ويصف الطيف الزائر ، ويصف الخدود والقدود ، والثغور والشعر والعيون ، ولا يزخر غزله مع ذلك بالعاطفة الحارة الصادقة ، ولا بالتجربة الملوعة المحرقة فى الحب ، ولا يصور لوعة المحبين التى تجدها فى شعر الغزلين الصادقين ، إنما هو غزل تغلب عليه الصنعة ، والظرف ، والرقة ، وهو بهذا قريب من غزل شعراء العباسيين الغزلين ، غزل أبى نواس ومسلم ابن الوليد والبحترى وابن الرومى . يقول :

أنا أهوى ذا عذارٍ وجهُهُ قمرٌ من خجَلٍ فى شفق
رقمت ديباجة الصبح يد الحـ سن منه بخيوط الغسق
وسقى وجنتـــه ماء الصِّبى فبدا الورد خلال الورق

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٧٣ .

وقال فى قصيدة أخرى :

بأبى أحــور كالظبى لدن القـ ـدّ فرد الحسن كالبــدر
يهز سكر الدل من قـــده وهو بعيد العهد بالسكر
غصناً من الفضة من لى به فى يده غصن من التبر

ونجد فى شعره إلى جانب هذه النماذج التى تبدو جميلة لصنعتها وجمال تشبيهاتها شعراً تثقله الصنعة ، ويسمجه الزخرف والإسراف فيما أسرف فيه معاصروه من سخف .

الشعر والشعراء فى مصر

كانت هذه الفترة فى القرن السادس من أخصب الفترات الأدبية فى تاريخ مصر، وقد امتازت بكثرة من أنجبتهم مصر من الشعراء ، ويكفى أن نقرأ ما كتبه ابن أبى الصلت فى « الرسالة المصرية » ، وابن ظافر فى « بدائع البدائه » ، وابن سعيد فى المغرب ، والعماد الأصبهانى فى الخريدة قسم شعراء مصر لنعرف مدى ما كانت تتمتع به مصر من سمعة أدبية ، ومدى ما كان لشعرائها من صيت إلى جانب ما يتميزون به من خفة روح ورشاقة أسلوب .

وللشعر المصرى والشعراء المصريين طابع مميز ، طابع مستمد من البيئة ، ومن الإقليم ، وما فرضته خصائصه الجغرافية والكونية على سكانه ، ومن التاريخ وكثرة ما تقلب على مصر من الدول ، وكثرة من ذابوا فى كيانها من الأجناس فاندمجوا فى المصريين وانطبعوا بطابع مصر ، ولم يطبعوا مصر بطابعهم ، ثم هذه العقائد الراسخة المستمدة من الأجيال البعيدة ، والراسخة فى أعماق المصريين وتكاد تجرى منهم مجرى الدم .

وأول ما يميز المصريين بطابع عام صفة الإيمان الراسخ بالوطن والحب لمصر حبًّا يبلغ درجة التقديس ، والعبادة . ولأمر ما اعتقدوا منذ قديم الأزل أن أرضهم

هذه هى أرض الخلود ، وأن إله الآلهة سيبعثهم مرة أخرى على ضفاف النيل فى غرب الوادى ، فابتنوا لأنفسهم البناء الخالد على الزمن ليحيوا حياتهم الثانية فى أرضهم الحبيبة . وإنا لنلمس هذا الحب فى الأساطير المصرية القديمة ، فى أسطورة أوزوريس وإيزيس ، وفى أسطورة « سنوحى » وفى أسطورة « الملاح الغريق » .

كذلك يتصف المصريون بحبهم العميق الراسخ للسلام ، لأن أرضهم أرض سلام ، فالطبيعة فيها مسالمة ، رتيبة يأتى خيرها للناس رخاء كل عام بنظام ، لا عنف فيها ولا قسوة ، ونيلها العتيد يجرى فى رفق ، لا انحدار ولا شلالات تعترض طريقه ، بل انبساط وتدفق وبر . كل هذا جعل أهلها يميلون للاستقرار .

وفى المصريين رقة فى الطبع وإخلاص ، وهما ميزتان فى خصالهم ، وأكثر ما تظهر هاتان الخلتان فى الشعر فى الغزل ، وفى الإخوانيات ، والغزل رقيق فى معانيه ، رقيق فى ألفاظه يكاد يذوب رقة وعذوبة ، كذلك الإخوانيات يطبعها الوفاء العميق المكين ، وكثيراً ما تبادل الشعراء رسائل الشعر التى تفيض رقة وإخلاصاً وحباً .

وربما بدا للناس هذا الخلق ضعفاً أو ليناً ، أو هواناً ، وربما رآه بعض النقاد والمطلعين على شعر المصريين فلم يعجبهم تهالكه هذا « وذوبانه » ، لكنها طبيعة خالصة صادقة إذا ما صدقت العاطفة ، فالمصريون يحبون من يخلص لهم إلى درجة ليس بعدها من مزيد ، ويكرهون من يكرههم أو يعاديهم إلى درجة الجنون والهوس فى الكراهية .

وكذلك يطبع المصريين ميلهم الغريزى للفكاهة والتندر ، « والتريقة » أو السخرية اللاذعة ، وليست سخريتهم من النوع الحاد المرير الذى قد نجده عند غيرهم من الشعوب ، إنما سخريتهم كما قلت لاذعة ، لاتحمل طابع الحقد ، بل تحمل التبكيت ، والمصريون يصبون فكاهتهم ، ودعابتهم على كل شىء . ويتخذونها سلاحاً ضد الطغاة من الحكام والشاذين من أفراد المجتمع ، يقومون بها من اعوجاجهم ، كذلك يتخذونها مادة للتسلية والمرح فى أوقات أنسهم وسرورهم .

وقد جاء إلى مصر جماعة من الأدباء فى القرن السادس ، ومارسوا أخلاق المصريين وطبائعهم ، فأعجبوا ببعضها ولم يعجبهم بعضها الآخر ، وقد حمل ابن أبى الصلت على بعض ما لم يعجبه من طبائع المصريين ، فقال : وجلهم أهل

رعانة ، ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه ، وتلطف فيه ، وهواية إليه ، لما فى أخلاقهم من الملق والسياسة التى أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم حتى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً والمثل بهم مضروباً ، وفى خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس :

محضتكم يا أهل مصر نصحيتى ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمــير المؤمنين بحية أكول لحيات البلاد شروب
فإن يك باقٍ إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

وبعد أبى نواس ، وقبل ابن أبى الصلت جاء مصر أبو الطيب وقال فى المصريين ما حكمت به نفسه الغاضبة من وصف لهم بالذلة والخنوع وسائر الأوصاف التى يطالعها الناس فى كافوريات أبى الطيب .

والواقع أن ما اتهم به المصريون من خبث ودهاء ، أو من ضعف وذلة إنما هو انحراف كما قلت من ميلهم إلى السلم فى مقاومة الحاكمين ، فلم تؤثر فى مصر حركات عنيفة دامية كما يؤثر فى غير مصر من الأمم ، وإنما كان يلجأ المصريون إلى حل مشكلاتهم السياسية عن طريق سلمى بهذا اللون من المكر والدهاء . وهم مع ذلك قادرون على مجابهة العدو الخارجى بكل قواهم . فهم إذاً يجنبون بلدهم الدمار والكوارث فى الداخل ، بينما يصدمون العدو بكامل ثقلهم على الحدود ليجنبوا كذلك بلدهم الحبيب عبث العابثين .

وإن كان الزمن قد طبع الناس جميعاً فى القرون المظلمة وفى عصور الطغيان بطبائع العبيد ، فإن نصيب مصر من خلق العصر كان قليلا ، فلم يشتهروا بالدناءة والدس والنميمة والخيانة كما كان الحال فى بغداد فى القرن السادس مثلا . وجل ما كان يدور على أرض مصر من دسائس وخيانات إنما كان فى معظمها من صنع الوافدين من الأتراك والمماليك فى سبيل نزاعهم على الملك ، كذلك كانت الأحداث الدامية والثورات من صنع الجند المجتلب أو من صنع الأعراب البدو فى الجنوب وفى صحراوات مصر .

والمصريون يعشقون الحرية لأنفسهم ولبلدهم ، ويكتمون وهم يعملون فى صمت

ودأب، وطبعهم فى الصبر والدأب لايماثل، ليس فيهم الملل والإنفعال الثائر الذى يطبع الأعراب مثلا ، وغيرهم من قبائل الرعاة كالمغول والترك ، وأساطيرهم حول الصبر كثيرة متداولة ، فعن طريق الصبر والعمل الدائم يصلون إلى ما يريدون .

وهكذا تلك خصائص تطبع الشخصية المصرية ، إيمان راسخ بالأرض التى يعيش المصرى عليها ، وإيمان راسخ فى الله ، وحب يملأ النفوس ويأخذ بمجامع القلوب ، وعاطفة تملى عليهم الإخلاص أو الكراهية ، ومرح يقتلون به الوقت ويسلطونه على العدو ، فينفس عما يحملون له من كره ، وحسن مواجهة الأمور وتدبير يوصف بالدهاء وبالخبث وصبر طويل ودأب متواصل فى سبيل الغرض بلا ملل ولا ضجر .

كل تلك الخصائص تبرز أحياناً ، وتختفى فى الأدب القومى فى مصر ، تبرز عندما تقوى الشخصية المصرية وتعمل على إظهار كيانها فى فترات القوة ، عندما تتمتع بحرية واستقلال ، ظهرت فى عصر الإخشيديين، ثم فى عصر الفاطميين وقويت فى عصر صلاح الدين والأيوبيين والمماليك .

ونعرض لشعراء مصر الأعلام فى عصر صلاح الدين وخلفائه ، فنلمح فى شعرهم ملامح تلك الشخصية ، نجدها عند ابن سناء الملك ؛ والأسعد بن مماتى ، وابن الزبير ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، وابن الجزار ، وابن الفارض . فقد كانت هذه الفترة من تاريخها عامرة بجماعة من الشعراء تجمعهم رابطة واحدة ، وتضمهم مدرسة القاضى الفاضل ، ويكاد أن يكون هو أستاذ مدرسة الأدب والشعر فى تلك المرحلة .

قال ابن خلكان فى حديثه عن ابن سناء الملك : « واتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها . . . وكانوا يجتمعون على أرغد عيش . . وجرت لهم محافل سطرت عنهم »[1] .

وأول ما يبرز فى شعر مصر فى هذه الفترة بصفة عامة — قبل أن ندخل فى

---

(١) وفيات الأعيان ١١٢/٥ .

خصائص كل شاعر – صفة أرضها وطبيعتها . ويختص نيلها بأوفر نصيب، والعجيب أن النيل فى مصر كان موضوعاً حيًّا فى الأدب شعراً ونثراً ، لم يكد يخلو من الحديث عنه كاتب أو شاعر جاء إلى مصر وظل بها زمناً . وفى أوائل القرن السادس تحدث ابن أبى الصلت فى رسالته المصرية عن النيل فقال : « ثم يأخذ عائداً فى مصبه إلى حجرى النيل وسربه ، فينتصب أولا عما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها متطامنا ، فينزل كل قرارة كالدرهم ويغادر كل تلعة كالبُرد المسهَّم ، وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شىء منظراً ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة، ودياراتها المطروقة كالجزيرة، وبركة الحبش، وما جرى مجراها، من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة ، وينتابها ذوو الأدب والطرب ، واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش،فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من روحها بأوفى رواق وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس فى خلع البدور، ونجوم بالصفاء تنور، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء، فقال فى ذلك بعضنا :

لله يومى ببركة الحبش والأفق بين الضياء والغَبَشِ
والنيل تحت الرياح مضطربٌ كصارم فى يمين مرتعِشِ ..[1]

وذكر ابن أبى الصلت وصف بعض الشعراء المعاصرين للنيل فقال :

ولله مجرى النيل منها إذا الصبا أَرتْنَا به فى مرها عسكرًا مُجْرَا
فشطٌّ يهزُّ السمهرية ذبَّلاً وموجٌ يهز البيض هندية بترا

ووصفوا آثار مصر الخالدة ، أهرامها وأبا الهول ، ومعابدها ، وما أقامه الرومان واليونان بالإسكندرية وغيرها من آثار ونصب . وصف الهرمين ابن أبى الصلت فقال[2] :

(١) الرسالة المصرية ٢٠ .
(٢) الرسالة المصرية ٢٧ .

بعينك هل أبصرت أعجب منظرا على طول ما أبصرت من هرمَىْ مصر
أنافا عنانا للسماء وأشرفا على الجوّ إشراف السماك أو النسر
وقد وافيا نشزًا من الأرض عالياً كأنهما نهدان قاما على صدر

وتفنن الشعراء فى تطويع فن الشعر لروح النكتة والفكاهة ، فاستخدموا من ألوان البديع ما يلائم هذه الروح ، فكثر استخدامهم للجناس والتورية . وقد ذكر ابن حجة الحموى أن هذين النوعين غلبا على صنعة شعراء مصر منذ عهد القاضى الفاضل ، من أمثال ابن سناء الملك والحسين الجزار ، والسراج الوراق وغيرهم ، وكان للتورية مكانة خاصة فى الشعر المصرى فى ذلك العصر ، مما يتفق وطبع المصريين وميلهم الفطرى للنكتة ، والتورية تؤديهم إلى ما يريدون ، فأصبح فيها وفى الجناس يفرخ ميلهم إلى الدعابة والفكاهة[1] .

وتبدو الروح المرحة فى أبيات للشاعر المصرى ابن الذروى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وقد ذكر فيها صاحباً له أحدب الظهر :

زعموا أننى أتيت بهجو فيك نمَّقته بسمٍّ صِلالِ
كذبوا إنما وصفت الذى حُزْت من النبل والسنا والكمالِ
لا تظُنَّنَّ حُدْبَة الظهر عيباً فهى للحسن من صفات الهلالِ
وكذاك القسىُّ محدَوْدباتٌ وهى أنكى من الظُّبا والعوالى
ودنانى القضاة وهى كما تعـ لم كانت موسومةً بالجمالِ
وإذا ماعلا السنام ففيه لقروم الجمال أىُّ جَمَالِ
وأرى الانحناءَ فى مِنْسَرِ الكا سِر يُلفى وفى مخلبِ الرئبالِ
وأبو الغصن أنت لاشك فيه وهو ربّ القوام والاعتدالِ
قد تحليت بانحناء فأنت الرا كع المستمر فى كل حالِ
وتعجلت حمل وزرك فى الظهـ ر قائماً فى موقف الأهوال
. . . إلخ .

(١) راجع على سبيل المثال خزانة الأدب للحموى ص ٣٤٤ / ٣٥٠ .

وهى قصيدة ظريفة تجرى على هذا النسق خفيف الروح[١] .

وقد وصف ابن سعيد شعر المصريين بالحلاوة ، فقال ونسب هذه الحلاوة للنيل أكسبها إياهم[٢] :

أسكانَ مصر جاور النيلُ أرضَكم ... فأكسبكم تلك الحلاوةَ فى الشعرِ
وكان بتلك الأرض سحر وما بقى ... سوى أثر يبدو على النظم والنثر

المدرسة المصرية الأولى :

وتأثرت جماعة الكتاب والشعراء المصريين الذين عاشوا فى ظل الدولة الأيوبية بفن القاضى الفاضل فى الكتابة ، وتأثروا بطريقته التى عرف بها وظلت سمة لفن تلك الجماعة كما ذكر ابن حجة وغيره ممن تحدثوا عنها ، وأظهر شعراء هذه المدرسة ابن سناء الملك .

ابن سناء الملك ، الشاعر الرقيق المفتن :

هبة الله بن الرشيد جعفر بن المعتمد سناء الملك السعدى الشاعر المصرى . ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفى سنة ٦٠٨ هـ ، وكان أبوه يعمل كاتباً فى ديوان القاضى الفاضل ، وعندما ولد هبة الله وكبر ألحقه بالديوان ، وكان له فضل ذكاء وحب للأدب وطبع فى الشعر ، نظم الشعر قبل العشرين من عمره ، وكان قد التحق بالخدمة لدى الفاضل قبل هذا السن . أخذ الحديث عن الحافظ السلفى . وتأدب على الفاضل ، وكان كثيراً ما يرشده ويوجهه فى شعره ، يعرضه عليه بعد نظمه ، فيشير عليه الفاضل بأن يعدل فيه بما يراه حتى يقوم معوجه ، وكان الفاضل يحبه ، ويقربه ، ويؤثره على غيره من خاصته . ولعل هذه القربى جاءته عن طريق ثقة الفاضل بأبيه الذى كان يقوم على شئون الفاضل نائباً عنه فى غيبته مع السلطان صلاح الدين فى الشام ، فيؤدى ما يراد منه على أتم وجه .

---

(١) الروضتين ٢/٢٧ .

(٢) فوات الوفيات ٢/١٨٠ .

قال عماد الدين الأصبهانى إن القاضل كان يكرم ابن سناء الملك جدًّا ويوقره، ويرى فيه مخايل شاعر عظيم . وقد ذكر ابن سعيد أن أباه كان غالياً فى التشيُّع ، ويدل لقب جده سناء الملك على أنه كان أحد كبار الموظفين فى الدولة الفاطمية .

رآه العماد الأصبهانى أول مرة فى دمشق سنة ٥٧١ هـ عندما جاء بناء على دعوة الفاضل له ، قال : فوجدته فى الذكاء آية ، أحرز فى صناعة النثر والنظم غاية ، يتلقى عرابة العربية له باليمين راية ،ألحقه الإقبال الفاضلى فى الفضل قبولا ، وجعل طين خاطره على الفطنة مجبولا ، وأنا أرجو أن ترقى فى الصناعة رتبته » .

ولابن سناء الملك ديوان شعر رقيق ما يزال محفوظاً بدار الكتب ، وله كذلك ديوان موشحات سماه « دار الطراز »،جمع فيه بعض الموشحات لشعراء المغاربة والأندلسيين ، وحاكى هو نفسه صناعة الموشحات ولكنه لم يكثر .

شعره :

وشعره رقيق تغلب عليه الصنعة ، لكنها صنعة قد تروق أحياناً فتكون خفيفة مقبولة حسنة الوقع فى النفوس . وقد تثقل بعض الأحيان فتبدو سمجة متكلفة . وأكثر ما يجيد ابن سناء الملك فى الغزل والوصف ، وله قصائد لا بأس بها فى مدح القاضى الفاضل ، ومدح السلطان صلاح الدين ، لكن مدائحه فيه ليست فى قوة مدائح غيره من شعراء الشام والعراق ، وتفوق مدائحه للفاضل مدائحه للسلطان ، ومرجع هذه ، الصلة الروحية التى تربطه بالفاضل ، فيقول ما يقول من شعره فيه صادقا معبراً عن إخلاص وعاطفة صادقة تتملك نفسه ، وتحس هذه العاطفة فى قوله :

أصبحت فى مدح الأَجل موحدًا ... ولكم أَتتنى من أياديه ثُنَى
وغدوت فى حبى له متشيعاً ... من ذا رأَى متشيعاً متسننا
ورأَيت صحبته نعيماً عاجلا ... فرأَيت بذل النفس فيه هينا
وأَرادنى وظننت غيرى قصده ... فوجدت دهرى مذ عنانى مذعنا

وقد مزج هذه الأبيات بالجناس الذى كان غرام الشعراء به لايحد ، وله الغزل

الرقيق الجميل الذى يكاد أن يذوب فيه رقة وعذوبة ، يقول :

وبات يسمعنى من لفظ منطقه | أرق من كلمى فيه ومن غزلى
ووددت أعضائى أسماعاً لتسمعه | ولو تحملت فيه وطأة العزل
ودمعة الدل يجريها على جسدى | فهل رأيت سقوط الطل فى الطلل
ونلت ما نلت مما لاأهم به | ولا ترقَّت إليه همة الأَمل
ومر والليل قد غارت كواكبه | لما نوى الصبح تطفيلا على طفل
لم أسحب الذيل كى أمحو مواطئه | لكننى قمت أمحو الخطْوَ بالقبل
ياليلةً قد تولتْ وهى قائلةٌ | لا تظلمنِّى معْ أيامىَ الأولِ

ويقول فى أبيات أخرى حلوة :

كم لنا من خُلَسٍ فى الغلَسِ | خُلس نمَّتْ برغم الحرسِ
نلتُ فيه عسلا من لعسٍ | آهِ وأشواقى لذاك اللَّعَسِ
قد تنفستُ فهل عندكمُ | أَنَّ نفْسى خرجَت من نفَسى

فهذه الرقة التى يذوب فيها الشاعر فى خطاب محبوبته إذ يقول : لكننى قمت أمحو الخطو بالقبل ، تمثل كثيراً من المعانى التى يرددها الناس فى مصر فى أغانيهم ، والتى تنم عن رقة أصيلة . ثم انظر كيف يتلاعب الشاعر فى تلطف بالألفاظ فى الأبيات الثلاثة التالية .

ويأتى بعد الغزل القول فى الوصف وشرب الخمر ، وله فى الخمر أبيات جميلة يأخذ فيها أحياناً بعض ماقيل فى الخمر من معان قديمة فيكسوها ألفاظاً وصوراً جديدة ، ويتلاعب فى صنعة وافتنان ، ويقول :

وأعجب من كلٍّ ما قد جرى | عجوزٌ أتتنى بها معْصِرُ
وَهذى القضيَّةُ معكوسةٌ | أرى العقل من مثلها ينفِرُ
فواصلتها فى كُئوس ظننت | بها أَن حارسنا يبْصرُ

وأحرقت منها ظلام الدجى لما صحّ من أنه يكفرُ
وبات نديمى لا ليـــله يطولُ ولا شربُه يقصُرُ
وقام الموذن ينعى الظـــلام فهذاك ينعى وذا ينعُرُ

فهذه الخمر المعتقة الموصوفة بالقدم ، من معانى الشعراء الذين سبقوه فى هذا الموضوع كذلك وصفها بالنور ، وبأنها تنير فى الظلام ، ووصف مجالس الشراب ، وأن شاربيها يعكفون عليها إلى طاوع الفجر ، كل هذا معروف قديم إنما جدد ابن سناء الملك فجعل الخمر عجوزاً جاءت على يد فتاة معصر صغيرة تسقيه ، وقد قابل بين الصورتين ، كما قابل وورّى فى إنارة الكئوس بما فيها من الخمر ويكفر الليل وظلامه ويكرر هذه المعانى فيقول فى قصيدة أخرى :

تذكَّرت دهرًا ليس ينسيه لذةٌ ولم يسلُ قلبى عن هواه شرابُ
وحجّى إلى حانوتِ راحٍ وحانةٍ وكعبةُ لهوى أغيدٌ وكعابُ
وإفراط حبِّى المعجوز التى غدت عروساً تهادى والعقودُ حبابُ
تعيد شباب العقل ضعفاً وكبرة ويرجع منها للكبير شبابُ
إذا قتلوها بالمزاج تبسمت كشاربها يرتاح وهو مصابُ
ومن عجب أنا نصيرُ بشربها شياطين تردى الناس وهى شهابُ

فهذه العجوز التى غدت عروساً ، وعقودها هذا الحباب الثائر على سطحها وشرب الخمر فى حانوتها بين فتى أغيد مليح الوجه ، وكعاب صغيرة السن حلوة ثم هذا المعنى القديم الآخر الذى يجعل الخمر مقتولة بالماء ، وهو معنى مشهور لحسان بن ثابت ولمن تبعه من الشعراء فى الخمر ، وكل قد تفنن فيه بقدرته . ثم هذه الصورة التى تقتبس فيها المعنى القرآنى فى مقابلة بين الشياطين والشهب فى قوله تعالى : (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا) . وترد المعانى الدينية كثيراً فى شعره ، وألفاظ الفقه ، والحديث ، ومثالها قوله :

وغانية لم تعدُ عشرين حجة أقول لها قولا لديه ثواب

عليك زكاة فاجعليها وصالنا لأنك فى العشرين وهى نصابُ
وما طلبى إلا قبولٌ وقبلةٌ وما أربى إلا رضاً ورضابُ

وكذلك قوله :

ويا من بفيــه لنا سُكَّرٌ ولكنــه سُكَّرٌ مُسْكرُ
يُحلل جهرًا عقول الرجَال فمن أجله حــرِّم المسكرُ
أصوم عن الوصل دهرى وقد رأيت الهلال ولا أفطر

وحب مصر وأرضها يجري فى عروقه مجرى الدم ، فهو لايكاد يخرج من مصر . ويغترب مع القاضى عبد الرحيم والسلطان فى الشام زمناً حتى يحن لمصر ، وطنه فيبدو هذا الحنين فى منظوماته . يقول :

لقد ضَرَّنى البين المشتُّ وحزَّنى فيالك بيناً ما أَضرَّ وما أضرى
أأهبط من مصر وقدماً قد اشتهى على الله أقوامٌ فقال اهبطوا مصرا
وكم لى بها دينار وجه تركتُه ورائى فعينى بعده تشتكى القطرا
فوالله ما أشرى الشآم وملكه وغوطته الخضرا بشبرين من شبرا
فإن عدتُ والأيام عوجٌ رواجعٌ لقد أنشأتْنا قبلها النشأةَ الأُخرى

المهذب بن الزبير ، الرصين المبدع :

أبوعلى الحسن بن على بن الزبير الغسانى الأسوانى الأصل ، وهو وأخوه أحمد ابن على القاضى الرشيد من الشعراء المشهورين إلا أن صاحبنا أحسن شعراً وألزم بفنون الصنعة الشعرية وأكثر إتقاناً ، جاء المهذب إلى القاهرة هو وأخوه فازم هو الصالح بن رزيك الوزير الفاطمى الشاعر ، فقربه لأدبه وأغدق عليه من ماله ، وأبدع الشاعر فى مدحه ووصف مواقعه فى الصليبيين بالشام وعلى الحدود المصرية الشرقية ، وأما أخوه القاضى الرشيد ، فقد تولى القضاء بثغر الإسكندرية ، واتصل

هناك بالسلفى وأنشده من شعره ، وقرأ عليه كثيراً [١] .

وكان لكثرة ملازمة المهذب لابن رزيك يتهم بأنه يصنع للوزير شعره ، إلا أن الشاعر كان يثنى على شعر الوزير ، ويصفه بالبلاغة ، وكان إلى جانب إجادته للشعر كاتباً مليح الخط جيد العبارة ، وله كتاب فى الأنساب فى عشرين مجلداً قال عنه ياقوت : وهو غاية فى معناه ، لامزيد عليه [٢] ، وله تفسير فى خمسين مجلدة ، ولكن كتبه لم تكن فى الشهرة بدرجة شعره ، فقد كان الرشيد أكثر منه علماً وأنفع كتباً .

وسافر المهذب من مصر إلى اليمن ، وله فى رحلته هذه شعر كثير وهو يفخر بكثرة رحلاته وأسفاره (توفى سنة ٥٦١ هـ) .

شعره :

قال العماد : «لم يكن فى زمانه أشعر منه أحد ، وله شعر كثير » [٣]

والمتأمل لشعره ، يحس بخاصية تميزه عن شعر غيره من شعراء عصره ، تلك أنه شاعر رصين اللفظ ، قوى الأسلوب . متماسك السبك ، وهو فى مدائحه يحاول أن يسمو إلى نمط مدائح أبى تمام والمتنبى ، ونعرض نماذج من تلك المدائح القوية الرصينة ، وأول مثال لها قصيدته اللامية التى مطلعها :

أَقْصِرْ فدَيْتُكَ عَن لومى وعن عذلى　　　أو لا فخذ لى أماناً من يدِ المقَل

وقد أعجب بها العماد ، وياقوت ، وهى جميلة فى سبكها جميلة فى معانيها ، لا تحس بها تهافتاً و لا تخلخلا ، وتعود بك إلى عصر قوة الشعر ، وطلاوته فى القرنين الثالث والرابع ، يقول فيها :

وقد وقفت على الأَطلال أَحسبُها　　　جسمى الذى بَعد بُعْد الظاعنين بلى
أَبكى على الرَّسْم فى رسم الديار فهل　　　عجبْتَ من طلَل يبكى على طلَل

---

(١) معجم السلفى ورقة ٧٢ مصورة .
(٢) إرشاد ١٥٨/٣ .
(٣) خريدة القصر ٢٠٦/١ .

وكل بيضاءَ لو مسَّتْ أَنَامِلُها قميصَ يوسفَ يوماً قُدَّ من قُبلِ
يغنى عن الدر والياقوت مبسمها لحسنها فلها حلْىٌ من العَطلِ

فهذا الطلل الذى يبكى على الطلل ، وهذه المزاوجة الجميلة ، والجناس الذى جاء فى موضعه ، يعيدان لك ذكرى أبيات لأبى تمام ، وأخرى للمتنبى ، ويمثلان فى ذهنك صنعة كل منهما .

فأما أبو الطيب فيقول :

بليت بلى الأَطلال إن لم أَقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

وقوله :

بنا منكَ فوقَ الرمْلِ ما بكَ فى الرمْلِ وهذا الذى يُضنى كذاكَ الذى يبْلِى

وقول أبى تمام :

وركب كأَطرافِ الأَسنةِ عرَّسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه
. . . .
رعته الفيافى بعد ما كان حقبة رعاها وماءُ الروض ينهلُ ساكبه
فأَضحى الفلا قد جَدَّ فى برى نحضه وكان زماناً قبل ذاك يلاعبُه

وفى قصيدة المهذب أبيات قوية جيدة فى ابن رزيك ، تحس بقوتها بالنسبة لما سبق أن عرضناه من أبيات فى المديح للشعراء المعاصرين ، ومنها يقول :

هو الحسامُ الذى يسمُو بحامِلِه زهْوًا فيفتِكُ بالأَسيافِ والدوَلِ
إذا بدا عارياً من غمده خلعتْ غمد الدماء عليه هامة البطَلِ
وإن تقلد بحرًا من أَنامِله رأَيت كيفَ اقترانُ الرزق بالأَجَل
من السيوف التى لاحتْ بوارقُها فى أَمل هى سُحْبُ العارض الهطل
فجاءَنا لبنى رزِّيْكَ معجزها بآية لم تكُنْ فى الأَعصر الأوَل

ويقول فيها يصف الخيل وهى تجول فى المعركة :

والخيلُ قد أطربتْها مثلما طربُوا أفعالُهم فهى تمشى مشْيَةَ الثَّمِلِ
من كلِّ أجردَ مختالٍ بفارسهِ إلى الطِّعان جريح الصدر والكفَلِ
وكلِّ سلْهبة للريح نسبتُها لكنَّها لو بَغتْها الريحُ لم تَنَلِ

وله كذلك قصيدة قوية أخرى نونية ، يمدح فيها ابن رزياك ، ويصف وقائعه فى الصليبيين ، فى العريش ، على حدود مصر الشرقية ، ووقائع الأسطول المصرى بأساطيل الفرنج ، وتراه ينفث من صدره غيظاً مكبوتاً على أولئك المعتدين الذين هددوا وطنه ؛ وطن السلام بالحرب والدمار . وهذه القصيدة النونية من مختار شعره ، أوردها أبو شامة فى الروضتين (١) وأثنى عليها ، وقد مدح فيها المهذب نور الدين كذلك ، وذكر وقعته بالبرنس صاحب طرابلس . وقتله إياه وحمله لرأسه على الرمح . فالقصيدة إذاً ملحمة عامرة بذكر الوقائع والانتصارات مليئة بصور الكر والفر ، فى البر والبحر ، فى مصر والشام ، والعدو واحد وإن تعددت أجناده . قال ابن الزبير فى مطلعها :

أعلمتَ حين تجاورَ الحيَّان أن القلوب مواقِد النيران

ويقول فيها ذاكراً ابن رزيك :

يا كاسرَ الأصنام قمْ فانهضْ بنا حتى تصير مُكَسَّر الصُّلْبان
فالشام ملكك قد ورثت تراثهُ عن قومِك الماضينَ من غسّان

وقد حدث أن زلزلت الأرض فى فلسطين ، فهدمت كثيراً من دور الفرنج وحصونهم وقد أشار إلى ذلك فقال :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونها سجدت لما أوتيتَ من ملك ومن سُلطان

---

(١) الروضتين ١/١٤٧ .

والناسُ أَجدرُ بالسجود إذا غدا لعلاك يسجُدُ شامخُ البنيان
ولقد بعثت إلى الفرنج كتائباً كالأُسْد حين تصُول فى خفَّان
لبسُوا الدروع ولم يخل من قبلهم أن البحارَ تحُلُّ فى الغدران

ويشير إلى وقعة العريش :

وثللت فى يوم العريش عروشَهم بشبا ضراب صادق وطعَان
ألجأتهم للبحر لمَّا أن جَرى منه ومن دمهم معاً بحران
مُدح الورَى بالبأس إذخضبوا الظُّـــبا فى يوم حربهم من الأَقران
ولأَنت تخضُبُ كلَّ بحر زاخر ممن تحارب بالنجيع القانى
حتى ترى دمَهم وخضرة مائِه كشقائق نثرتْ على ريحان
وكأَن بحرَ الروم خُلِّقَ وجْهُه وطغت عليه منابتُ المرجان

ويذكر أسطول مصر فى كره ووقعته بأساطيل الفرنج :

ولقد أتى الأسطولُ حين غزا بما لم يأت فى حين من الأَحْيانِ
أَحيت إلى بها شوانى أَصبحت من فتكها ولها العداة شوانى
شبِّهن بالغربان فى أَلوانها وفعلن فعل كواسِر العقبانِ
أَوقَرْتَها عُدَد القتال فقد غدت فيها القنا عوضاً عن الأَشطانِ
فاتتك مــوقرة بسبىٍ بينه أَسراهمُ مغــلولة الأَذقانِ

ومن أبياته الرصينة فى مدحه كذلك :

طلعت والبدر نصف الشهر فى قرن فأَشرقت بكما الأَرضون والفلَكُ
وأَسفر الجو حتى ظن مبصرهُ بأَن لمع السنا فى أفقه ضحكُ
يقود كلَّ مجنٍّ ضغن ذى ترة يكاد من حره الماذىُّ ينسبكُ

ولا يستغرق المديح كل ديوانه بطبيعة الحال لكنه الغالب عليه ، ونجد له قصائد فى الوصف وفى مجالس السمر والخمر والغناء ، فى رياض مصر النزهة ، وتتجلى ، فيها روح ابن الزبير المصرية الخفيفة المرحة . يقول فى مجلس أنس بين الرياض، فيه الخمر وفيه الصحبة ، وفيه الغناء ، وفيه الرقص :

حججنا بها كعبة للسرور ترانا نُمسِّحُ أَركانها
فطورًا أعانق أَغصانها وطــورًا أنادم غُزلانها
على عاتق إِن خفتْ شمسُنَا فضضنَا عن الشمس أَدْنَانَها
وإن ظهرت لك محجوبة قرأت بأَنفك عنوانها
كميت من الراح لكنَّما جعلنا من الروح فرسانها
إذا وجدَتْ حلبةٌ للسرور وكان مدى السكر ميدانَها
يطوف بها بابلىٌّ الجفون فيفضحُ خــداهُ أَلوانَها
إذا ما ادعت سقَماً مقلتاه أَقمتُ بجسمى برهانَها
بكأسٍ إذا ما علاها المزاجُ أَحالَ إلى التِّبْر مُرجَانَها
كأَنَّ الحبابَ وقد قلَّدتـ ـهُ درٌّ يفصِّلُ عقيانَها
ومسمعة مثل شمس الضُّحى أَضافت إلى الحسْنِ إحسانَها
وراقصة رقْصُها للُّحون عروضٌ تقيِّدُ أَوزانَها
ولما طوى الليل ثوب النهار وجرَّت دياجيــه أَردانَها
جلونا عرائس مثل اللجين صنعنا من الغار تيجانَها

كذلك نجد له أبياتاً مرقصة فى وصف بردى ومغانى الشام يقول :

بالله يا ريــح الشما ل إذا اشتملت الليلَ برْدًا
وحملت من نشر الخــزا مَى ما اغتدى للنَّد ندًّا
ونسجت فى الأَشجار بين غصـ ونهن هــوى وودا

هُبى على بردى عسا ةُ يزيدُ من مسراك بردا
أَحبـــابنا ما بالكم فينـــا من الأعداء أعدى
وحيـــاة ودكم وتر بَة وصلكم ما خُنْتُ عَهْدا

ومن وصفه الرائق ، الطريف قوله فى شمعة :

ومصفَرَّة لا عن هوى غير أنها تحوزُ صفات المستهام المعذب
شجونًا وسقمًا واصطبارًا وأَدمعاً وخفقاً وتسهيدًا وفرطَ تلهُّب
إذا جمَّشتهاالريح كانت كمعصم يردُّ سلاماً بالبنان المخضَّب

وهذا الشعر الذى ذكرناه لا يمثل لنا شخصية ابن الزبير ، ولا يرسم لنا صورة قريبة لنفسه ، ولكنا نعثر على أبيات يحدثنا فيها عن نفسه ، فنراه مثلا يمثل لنا نفسه ضئيل الجسم ، ولكنه مع ذلك صاحب همة بعيدة ، وأمل عريض ، وهو مع ذلك الشاعر البعيد الصيت القوى القول :

إن لم أَكن ملءَ العيون فإننى فى القول يا ابن الصيد ملءُ المسمَع

ويحدثنا أحياناً عن هموم نفسه ، وعن حساده ، وعن الناس فى عصره وما جلبوا عليه من سوء الخلق ، وخبث الطباع ؛ ثم عن همه البعيد وسعيه فى سبيل إدراك ما تسمو إليه نفسه ، غير عابئ بما قد يفترضه من صعاب ، ويدور فيه حول معانى المتنبي الكثيرة والتى يلخصها قوله :

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت فى مرادها الأَجسام

يقول ابن الزبير :

تشابَه الخَلْقُ فى خَلْقٍ وفى خُلُق تَشَابُه الناس والأَصْنام فى الصُّوَرِ
ولم أَبت قطُّ من خلْق على ثِقة إلا وأَصبحتُ من عقلى عَلى غُرَرِ
لا تخدعَنِّى بمرئى ومُستَمع فما أَصدِّقُ لا سمْعى ولا بَصرى

وكيفَ آمنُ غيرى عند نائبةٍ يوماً إذا كُنْتُ من نفسى على حَذرِ
إنى لأشهر فى أهل الفصاحة من شمس وأسيرُ فى الآفاق من قمر
وسوفَ أرمى بنفسى كلَّ مهلكة تَسرى بها الشهبُ إن سارت على خطرِ
إما العُلا وإليها منتهى أملى أو الردَّى ، وإليه منتَهى البشَرِ

فالشاعر لا يرضيه هذا السلوك من الناس فى زمنه . وهو شاعر بقدره وبفصاحة شعره ، مدل عليهم ، ثم هو بعد هذا بعيد الأمل ناصب الهم لا وسط عنده فإما الصدر أو القبر .

وتحس بحبه للنيل فى بيت رواه له صاحب معاهد التنصيص يقول :

وما لى إلى ماء سوى النيل غُلةٌ ولو أنه — أستغفر الله — زمزَمُ

وبعد فهذا شاعر مصرى جدير بأن يقدر ، وديوانه لم ينشر وعسى أن يقيض الله له من يعثر عليه وينشره ، ليضيف إلى تراث مصر فى الشعر ذخراً جديداً .

ابن قلاقس ، السكندرى الرحالة

ولد أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف الشاعر المعروف بابن قلاقس بالإسكندرية سنة ٥٣٢ هـ ، ونشأ بها وأخذ العلم عن شيوخها وعلمائها الأجلاء ، واتصل بالحافظ السلفى ، ومدحه بكثير من شعره ، كما أثنى عليه الحافظ فى معجمه ، وأورد مختاراً من قوله فيه . ومما قال فيه ابن قلاقس[١] :

وامدح الحافظ المُمدَّحَ تلْبَسْ حُلَلَ النُّسْكِ عنده والعفافِ
أى حَبْرٍ لآلِ فارِسَ أضحى كثَبِيٌّ الهدى لعبد مَنَافِ
سلفىٌّ مخايل الفضْل دَلَّتْ أنه من بقيَّةِ الأسلافِ

وأخذ الأدب عن أفاضل المتأدبين بالثغر ، ويثبت من ديوانه أنه اتصل من

---

(١) ديوانه ص ٦٧ .

بينهم بالقاضى الفاضل ، ومدحه بكثير من قصائده ، كذلك اتصل بالقاضى الرشيد بن الزبير الأديب الشاعر العالم (١) ، وشقيق المهذب ، وبعث إليه بشعر عند وجوده بالإسكندرية كذلك .

وظل بالإسكندرية إلى أن بلغ الشباب ، وقال الشعر ، ونبغ فيه وسمع به كل من حل بها ، فحمل ذكره معه وشعره . وقد سمع بفضله جماعة من فضلاء صقلية وأعيانها فبعثوا إليه يستقدمونه إليهم ، وسار ابن قلاقس إلى صقلية سنة ٥٥٣ هـ ، واتصل هناك بأبى القاسم بن حجر ودبج فيه قصائد تعتبر من خير ماقاله من شعر ، وعاد إلى الإسكندرية مرة أخرى وظل بها ثم غادرها فى رحلة ثانية إلى اليمن ، حيث لقى هناك بعض حكامها قبيل حكم صلاح الدين لها . ومن أشهر ممدوحيه بها ياسر بن بلال . وقد تردد بين اليمن ومصر ، وغرقت به المركب مرة بالبحر الأحمر ، فنجا هو وحده وغرق جميع من كانوا معه ، وعاد إلى اليمن فأعطاه من اتصل بهم من الأعيان وأثرى من العطاء ، فعاد ثانية يركب البحر ولكنه غرق هذه المرة تجاه عيذاب سنة ٥٦٥ هـ . وسنه إذ ذاك لم تعد الخامسة والثلاثين .

شعره :

وشعر ابن قلاقس يغلب عليه المديح ، وهذه طبيعة شعراء العصر لتكسبهم بالشعر أغلب الأحيان ، ومدح غير الأمراء والأعيان بصقلية واليمن والإسكندرية جماعة من العلماء والأدباء ، وقد ذكرنا منهم القاضى الفاضل والقاضى ابن الرشيد وكذلك مدح القاضى ابن خليف ، ونجم الدين بن مصال ، والقاضى ابن الحباب .

ونذكر مثالا لمدائحه أبياتاً يمدح فيها أبا القاسم بن حجر الصقلى . يذكر فيها صقلية وركوبه البحر فيقول :

ما امتطينا أخت السحائب إلا لتوافى بنا أخا الأمطار
كلُّ نون من المراكب فيها ألف مستقيمةٌ للصوارِى
تَقْسمُ الماءَ والهواءَ بساقٍ وجناحٍ من عائمٍ طيَّارِ

---

(١) ديوانه ص ٦٥ .

عوضتنَا الأَوطانَ عندك والأَو طارَ بعد الأَوطان والأَوطارِ
إنما أَنت يا أَبا القاسم القا سم للجودِ لا على مقدارِ
صُقِلتْ صفحتَا صقليةٍ منـ ـك فجاءت كالصارم البَتارِ

وشعر ابن قلاقس مشهور عند شعراء عصره وأدبائه ، فابن ظافر يذكر منه منتخبات فى كتاب « البدائع والبدائه » ويعجب به [١] . كذلك يذكره ضياء الدين بن الأثير فى (المثل السائر) ويقول عنه إنه ممن أكثر من التشبيه كابن المعتز ، كذلك يورد أمثلة من شعره ويقول فيها إنها من المعانى الدقيقة [٢] ويختار له ابن نباته مجموعاً من شعره ويقول عنه فى مقدمة مختاره ذاك : « طالعت ديوان الأديب البارع أبى الفتوح نصر الله بن قلاقس ، فطالعت الفن الغريب ، وفتح على بتأمل ألفاظه فتلوت : (نصرٌ من الله وفتح قريب) ، بيد أنى وجدت له حسنات تبهر العقول فضلا » [٣] .

كذلك أعجب به البديعيون فى مصر والشام وأوردوا فى كتبهم ومختاراتهم كثيراً من الأمثلة من شعره ، وأكثروا فى شواهدهم منه ، وأورد ابن حجة فى الخزانة بعض شعره وروى أخباره [٤] .

وفى شعر ابن قلاقس خاصيتان ظاهرتان ، هما فى الأصل من وحى بيئته . فشعره يمثله شاعراً سكندرياً رحالة كثير الركوب للبحار ؛ أما كونه سكندرياً فهذا واضح ، من ذكره لرجالات الإسكندرية وعلمائها فى ذلك العصر ، وذكره كذلك لمعالم الإسكندرية كالمنارة المشهورة ، وذكره للبحر والمطر . وجدير بالتسجيل كثرة ذكر ابن قلاقس للمطر والبرق والرعد والسحاب فى شعره ، وهذا طبيعى أملته عليه بيئته فى الثغر ، بيئة المطر والسحاب والماء المتدفق من السماء والماء الممتد أمام بصره فى البحر الواسع العريض . وغرام الشاعر بذكر هذه الأشياء لعله عن وعى؛ فهو يصور تجاربه الشعرية فيصور ما يراه ويقع تحت عينيه ، من

(١) راجع صفحات ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٢) المثل السائر ١/٣٣٠ .
(٣) خزانة الأدب لابن حجة الحموى ص ٦ .
(٤) راجع خزانة الأدب ص ١٥٤ .

ظواهر طبيعية بارزة فى بيئته ، أو هى صور ترد على لسانه لا إرادية مما تختزنه مخيلته من هذه الظواهر الطبيعية الملازمة للإسكندرية وأهلها فى الشتاء خاصة . ونستطيع أن نتتبع هذه الظاهرة فى موضوعات شعره المختلفة ، فهو يستخدم التشبيه بالمطر والسحاب فى المديح . يقول :

فخراً لراحتك الكريمة إنها ... نال المقل نوالها والمكثر
كالغيث فوق البرِّ برٌّ إذا هما ... فيه ووسط البحر در يزهر

ويصف ممدوحه بصقلية فيقول :

وقمنـــا فى سماء العز نرعى ... جبين الشمس فى الغيث المطير

ويمدح ياسر بن بلال فيقول :

ما ترى الأُفق بين برد سحاب ... ذى انسحاب وعارض ذى اعتراض
أَنهضته الصبا فأَعيا عليها ... ثقل فى جناحه المنهاض
ورعت بالرعود فيه عشار ... نحرتها خناجر الإيماض
كلما انحل منه بالوبل سلك ... كان عقداً على نحور الرياض

ويقول مادحاً وكأنه يصف يوماً ممطراً يحتمى من وبله تحت سقف مشقوق :

ولما بدا ركب السحاب تسوقه ... حداة الرياح الهوج وهى تزمجر
ركنت لبيت أَستجن من الحيا ... به إذا غيث من السقف يقطر
فلا فرق ما بين السحاب وبينه ... سوى أَن ذا صاف وذاك مكدر

ويتغزل فلا يتخلى عن ذكر المطر والسحاب والبرق والرعد يقول :

مر بنـــا كالظَّبى لكنه ... يذعرنا والظَّبْىُ مذعورُ
واهتزَّ كالغُصْنِ ولكنـــه ... بأَدمع العُشَّاقِ ممطورُ

ويصف مغنِّياً يدق طاراً :

تثنَّى فلا ميسُ الغصون ولينُها ورجَّعَ أَصواتاً فلا تذْكرُ الوُرْقا
وأَعجبُ إذ تحتَثُّ يُمنَاهُ طارةً فتسمعها رعدًا وتبصُرها بَرْقا

فصوت دقاته على الرقّ كالرعد وحركة اليد عليه كالبرق لماحة سريعة .

ويصف طرساً مكتوباً فيشبهه بالسحاب السود ، ومعانيه تبرق وتتألق بين السطور كالبرق المتألق :

إلا أَنه طرسٌ تبسَّم عن نهى جرى فى حواشيه فشقَّ وشوَّقا
دجا عارض الأَقلام منه وأَومضت بروقُ المعانى بينه فتألقا

وابن قلاقس يركب البحر ، ويرى الموج فيه كالجبال ، والسفينة تعاو وتهبط والريح تدمدم ، فيصف هذا كله وصفاً طريفاً فيقول :

وما أَسير إلى روم ولا عرب لكن لريح وإبراق وإرعاد
أَقلعت والبحر قد لانت شكائمه جدًّا وأَقلع عن موج وإزباد
فعاد لا عاد ذا ريح مدمرة كأَنها أخت تلك الريح فى عاد
ولقد رأَيت بها الأَشراط قائمة لأَن أَمواجه تجرى بميعاد
تعلو فلولا كتاب الله صح لنا أَن السماوات منها ذات أعماد
ونحن فى منزل يسرى بساكنه فاسمع حديث مقيم بيته غادى
لا يستقر لنا جنب بمضجعه كأَن حالاتنا حالات عباد
فكم يعفر جنب غير منعفر وكم يخر جبين غير سجاد
حتى كأَنا وكف النوء تقلقنا دراهم قلبتها كف نقاد

ويرجو أن تلوح له من بعيد أنوار المنارة بالإسكندرية ، ويلمح على الأفق البعيد بيوتها البيضاء فيمنى النفس بالشاطئ ، وبالعودة إلى وطنه الحبيب حيث مسارح صباه ومهد طفولته :

متى تنور آفاق المنارة لى بكوكب فى ظلام الليل وقاد
وألحظ المشرفات البيض مشرقة كالبيض مشرفة فى هام أنجاد
متى أروح وأغدو فى معاهدها كما عهدت سماها الرائح الغادى
متى تقر ديار الظاعنين بها والبين يطلبهم بالماء والزاد

وكان طبيعياً أن يكثر من ذكر السفن ووصفها لكثرة رحلاته، فهو يصفها بالطائر وسط الماء، وهى مفرودة الشراع ، وتارة يصفها بالحوت الكبير (النون) وهى تشق الماء فى قوة ، ويصفها مرة ثالثة بأنها الخال على خد أملس يقول :

بكل سوداء مثل الخال يحملها بوجنة منه فيها للضحى خفر

ويردد فى شعره عشقه لكثرة الأسفار فى البحر ، والقفز على السفن تمخر العباب وفوق النوق تخترق النجود والوهاد :

لو لم يحرم على الأيام إنجادى ما وصّلت بين إتهامى وإنجادى
طوراً أسير مع الحيتان فى لجج وتارة فى الفيافى بين آساد
إما بطـائرة فى ذا ورازمة أو فى قتاد على هذا وأقتاد
والناس كثرٌ ولكن لا يقدر لى إلا مرافقة الملاح والحادى

ويقول فى أبيات أخري :

سافر إذا حاولت قدرا سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى طيباً ويخبث ما استقرا
وبنقله الدرر النفيسـ ـة بدلت بالبحر نحرا

ولابن قلاقس غير ذكر البحار والرحلات قصائد وأبيات وصفية أخرى فى موضوعات متعددة ، وهو لا يفتأ يذكر علم مصر الخالد النيل فى كثير من شعره ، ولا يصفه إلا فى ساعات صفوه وسروره ، فى أوقات الأصيل ، ومن حوله الرياض والبساتين . يقول :

وللنيل تحت ثياب الأَصيل لجين توشح بالعسجد
يحاكى إذا درجته الصبا برادة تبر على مبرد

ويقول :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأَبدت شعاعاً منه يخلفها كأَنما احترقت فى الماء بالغرق
وللهلال وقد وافى لينقذها فى إثرها زورق قد صيغ من ورق

وله فى وصف الخمر معان جميلة ، وإن كانت معانيه فى معظمها من معهود معانى سابقيه ، وخاصة معانى أبى نواس ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك . ونلاحظ أنه يبدأ قصائده فى المديح بذكر مجالس الشراب ، ووصف الخمر إلى جانب الموضوع التقليدى وهو النسيب . يقول من قصيدة يمدح بها ابن خليف القاضى :

وهتكت جيب الدن عن مشمولة تلقى على الساق رداء أَحمرا
ريعت بسيف المزج فاتخذت له درعاً من الحبب المحوك ومعفرا
لو لم يصبها الماء حين توقدت بيد النديم لخفت أَن يتسعرا
وبنيتها قصرًا سقيت براحتى كسرى أَنوشروان فيه وقيصرا
وغمست ثوب الريح فى كاساتها حتى ترى أَرج الشمائل أَعطرا

ويقول فى وصف ضارب رق :

مر بنا ناه على طـاره يلمسه أَحسن مـا لمس
وواصل النقر على أَصبع تغنيه لو شاءَ عن الخمس
فحدثوا عن قمر مشرق يلعب بالبرق على الشمس

ويصف عوادة قبيحة :

عوادة غنت لنا صوتاً يشبه نزع الروح والموتا

شبهتها فوق أوتارها بعنكبوت نسجت بيتا

* * *

الأسعد بن مماتى ، الشاعر العالم

أسعد بن المهذب بن مماتى من أسرة صعيدية الأصل من أسيوط ، وكانت هذه الأسرة قبطية من أقباط أسيوط ، نزحت إلى القاهرة فى عهد الفاطميين وتولى جده أبو مليح ووالده المهذب بعض الوظائف الكبرى فى الدولة الفاطمية وكان والده قبيل قيام الدولة الأيوبية متولياً على ديوان الجيش ، فلما ولى أسد الدين شيركوه أبعده عن الديوان لأنه قبطى ، ولم يكن آل أيوب يميلون وهم السنيون المتحمسون إلى تولية أمور دولتهم لرجال من الأقباط أو النصارى .

وأسلم المهذب ، وأبناؤه ومن بينهم أسعد أيام شيركوه ، وبهذا ظل المهذب على الديوان ، وتسلمه من بعده ابنه أسعد .

وهكذا نرى أن أسعد قد ولد ونشأ فى أسرة من سراة القوم ،لم ينقصها الثراء ولا الجاه ، ولا العلم والأدب . وقد عرف أسعد كثيراً من علوم عصره ، تعلم اللغة والأدب والتاريخ وعلوم الأوائل :الطب والفلسفة والمنطق والفلك والهندسة والحساب ، وبرع فيها . وكان ذكاؤه عوناً له على التحصيل والنبوغ ، وقد ظهرت موهبته الشعرية فى شبابه ، وساعد على نمو هذه الموهبة وازدهارها ما كان يشهده من مجالس الأدب والشعر التى كانت تعقد فى دار جده أبى مليح وأبيه مهذب ، ويقصدها أعلام الشعر والأدب فى عصره .

وحفظ كثيراً من روائع الأدب القديم ، وبعض دواوين الشعراء المشهورين كما أخذ يدرب نفسه على كتابة الإنشاء . فالتحق بديوانه وأخذ يعد نفسه مع جماعة من كتابه . ولم يلبث غير قليل حتى برع كذلك فى الكتابة إلى جانب براعته فى الشعر . وبعد إسلامه تمكن أن يجلس إلى الفقهاء والعلماء المسلمين ، فأخذ عن جملتهم علوم القرآن والفقه والحديث ، واستوعب كثيراً منها حتى إنه ألف فيها .

وتولى أسعد ديوان الجيش للسلطان صلاح الدين . ووثق فيه السلطان ، وقربه وزيره القاضى الفاضل ، وأخلص أسعد لهما وبذل ما فى وسعه لخدمتهما ، فارتفعت

مكانته فى نفسيهما ، وكان له دور كبير فى الأعمال الإدارية التى مكنت لصلاح الدين تعبئة القوى فى مصر لصالح حملاته بالشام .

وتوفى صلاح الدين بدمشق سنة ٥٨٩هـ ، وخلفه على مصر ولده العزيز عثمان ثانى أبنائه ، ودارت بين العزيز عثمان وأخويه الأفضل صاحب دمشق ، والظاهر صاحب حلب منازعات انتهت باستيلاء العادل أبى بكر على مصر ودمشق . وتوفى العزيز وخلفه ابنه الصغير الذى لم يدم طويلا وأصبح الأمر للعادل فى النهاية .

وتولى الوزارة فى مصر بعد موت صلاح الدين الوزير صفى الدين بن شكر وكان يكره القاضى الفاضل ويحقد عليه ، وقد مات الفاضل قبل توليه الوزارة ، فاضطهد ابن شكر تلاميذه ومقربيه ومن بينهم أسعد بن مماتى ، ومما زاد فى عداوة ابن شكر له أنه كان موظفاً صغيراً فى الديوان أيام رئاسة أسعد . وقد زاد ابن شكر فى اضطهاده حتى طالبه بكثير من المال لم يقدر على سداده فهرب واختفى فى بيت أحد أصدقائه ، ثم بالقرافة والجند يطلبونه ، وتمكن من الخروج خفية من مصر إلى الشام ، واتجه من توه إلى حلب فتلقاه الملك الظاهر بالترحاب والقبول . وكان الظاهر محبًّا للعلماء ،آوى إليه كثيرون ممن كانوا حول والده من الأفاضل كابن شداد ، وجمال الدين القفطى المصرى ، وأجرى الظاهر على أسعد راتباً شهريًّا مناسباً يكفل له العيش الكريم ، غير ما كان يعطيه له كلما ألف له كتاباً ، وما كان يتناوله كذلك أجراً لتدريسه بمدارس حلب .

وله من المؤلفات نظم السيرة الصلاحية ، وكان خير هدية يفتتح بها عهده مع ابنه الظاهر ، وله من المصنفات الدينية كتابان : « تلقين اليقين » تحدث فيه عن حديث : بُنِيَ الإسلام على خمس ، ثم كتاب « حجة الحق على الخلق » ، فى الأصول والوعظ والتحذير من سوء عاقبة الظلم ، وهو كبير الحجم ، وكان السلطان صلاح الدين يكثر النظر فيه ، وكان القاضى الفاضل معجباً به ويقول عنه : وقفت من الكتب على مالا تحصى عدته ، فما رأيت والله كتاباً أحسن منه ، وإنه والله من أهم ما طالعه الملوك .

وله كذلك كتابه الضخم الذى خلد اسمه ، ودل على مدى قدرته وفهمه لأمور الإدارة وإلمامه الواسع بأحوال البلاد المصرية الإدارية والمالية ، وهو كتاب « قوانين

الدواوين » ويقول من عنى ببحثه إنه كتاب ضخم اختصره فى مجلد صغير ، طبع بمصر المختصر ، ثم تولى طبع الأصل الدكتور عزيز سوريال طبعة علمية محققة .

وقد ألفه أسعد للعزيز عثمان ، ويدور موضوعه عن دواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها ، وما يجرى فيها ، ثم إحصاء لقرى مصر وكورها ودساكرها وعددها أربعة آلاف قرية ، ثم مساحة كل قرية ، وقانون ريها ونظمها ومتحصلها عيناً وغلة . ويعد بحق مرجعاً تاريخياً وإدارياً هاماً لمصر فى ذلك العصر .

وقد توفى أسعد بعد حياة حافلة سنة ٦٠٦ هـ بحلب ودفن هناك .

ومن كتبه الأدبية « نظم كليلة ودمنة » ، وينسب له كتاب « حكم قراقوش » .

أدبه وشعره :

كان القاضى الفاضل يقول عنه : إنه بلبل المجلس ؛ لما كان يرى من حسن خطابه وقال عنه العماد : « أحدُ الكتاب فى الديوان الفاضلى ، ذو الفضل الجلى والشعر العلى ، والنظم السوى ، والسحر المانوى والروى الروى ، والقافية القافية أثر الحسن . شاب للأدب راب ، وعن الفضل ذاب ، وهو من شملته العناية الفاضلية ، وحسنت منه البديهة والروية .

وقد اجتمع به العماد بالقاهرة ، وسايره فى عسكر صلاح الدين واستمع لكثير من شعره وأعجب به .

وفى شعره يمدح صلاح الدين بقصائد كثيرة ، كما يمدح القاضى الفاضل . ومدائحه لا تتميز بشىء عن سواها من مدائح الشعراء فى عصره ، وأكثر شعره سوى ذلك من أبيات ومقطوعات كان يتراسل بها مع معاصريه من الأدباء . أو كان يقولها فى مجالس تجمعه مع الفاضل أو غيره من الشعراء ؛ مثل قوله فى أترجة كانت بين يدي الفاضل :

لله بل للحسن أترجةٌ تذكِّر الناس بأمر النعيم
كأنها قد جمعت نفسَها من هيبة الفاضل عبد الرحيم

وقال متغزلا :

وحياءِ ذاك الوجه بل وحياتِه قسماً يُريكَ الحسْن فى قَسَماته

لأُرابطن على الغرام بشغره   لأَفوز بالمرْجوِّ من جنّاتِه
وأُجاهرَنَّ عوازلى فى حبِّه   بالمرهفاتِ علىَّ من لحظاتِه
قد صيغ من ذهب وُقلِّد جوهرًا   فلذاك ليسَ يجوزُ أَخذ زكاتِه

وقال يصف بقة ، وتبدو فيها خفة روحه :

تكادُ بقرْص البق تتلف مهجتى   إذا لم أَجدْ من ثوب جلدى تخلصا
ومن أَعجب الأَشياء فى البق أَنها   على الجسم سُمَّاقٌ وتنبت حمصا[1]

ابن النبيه

وهومن شعراء العصر ، وإن تأخر به الزمن قليلا عن جماعة القاضى الفاضل ، واسمه على ابن محمد بن الحسن المعروف بابن النبيه المصرى . ومدح ابن النبيه جماعة من الفضلاء من بينهم الشاعر الأديب أسعد بن مماتى ،والقاضى الفاضل ، ثم اتصل ببنى أيوب فمدح منهم العادل أبا بكر ،ولزم ابنه الأشرف موسى صاحب البلاد الشمالية وإقليم الجزيرة ، وظل بصحبته زمناً ، وله فيه مدائح رائقة ، وتوفى عنده بنصيبين سنة ٦١٩ ه . ومدح كذلك الخليفة العباسى الناصر أحمد .

وديوان شعره المنشور صغير ، نشره عبد الله باشا فكرى ، ويبدو أنه مختار من ديوانه وليس هذا كل ماقاله من شعر .

وشعره رقيق اللفظ بديع التشبيه ، ومنه ما ذكره ابن شاكر فى الوفيات يصف الليل والنجوم . يقول[2] :

باكر صبوحك ،أهنى العيش باكره   فقد ترنم فوق الأَيك طائره
والليل تجرى الدرارى فى مجرته   كالروض تطفو على نهر أَزاهِرُه
وكوكب الصبح نجّابٌ على يده   مخلق تملأُ الدنيا بشائرهُ
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حببٌ   ينوب عن ثغر من تهوى جواهرهُ

---

(١) سماق « ثمر » أحمر اللون .
(٢) فوات الوفيات ١٤٦/٢ .

وأعجب ابن حجة الحموى بقصيدة له مطلعها :

ياساكنى السفح كم عين بكم سفحت نزحتم فهى بعد البعد ما نزحت

وذكر أن جماعة من الشعراء عارضوها ؛ مثل ابن نباته المصرى ، والصلاح الصفدى ولكنهم — كما يقول — لم يبلغوا مبلغه [١].

ومن قصائده الرائعة المعروفة فى مصر لغناء أم كلثوم إياها أبياته التى يقول فيها :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه حلواً فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الصبر الجميل تدارك الصب ر الجميل فقد عفا وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم ضمت جوانحه فؤاداً موجعا
هل من سبيل أن أبث صبابتى أو أشتكى بلواى أو أتوجعا
إنى كما عودتنى لا أرتضى بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

وهذا شعر يمثل رقة المصريين فى حبهم ، ويمثل لوعتهم التى فى الهوى أمام المرأة والتى سبق أن أشرنا إليها فى الحديث عن شعر ابن سناء الملك .

(١) خزانة الأدب .

عمر بن الفارض الشاعر الصوفى

توفى سنة ٦٣٢

ويمكن أن نعد عمر بن الفارض من جماعة المصريين الذين عاصروا القاضى الفاضل ومدرسته من الشعراء ،ولكنه لم يختلط بهم ولم يتأثر بطريقتهم الفنية فى الشعر إلا أنه مع ذلك احتفظ بروح العصر عامة،وإن لم يتجه للبديع اتجاهاً مسرفاً ولم يفرّط فى عمود الشعر التقليدى ، بل حافظ بقدر الإمكان على الطابع القديم، وروح الشعر الحجازى خاصة فى عصر الأمويين .

وإذا كان عمر بن الفارض قد نهج هذا النهج فى شعره من حيث الشكل إلا أن موضوعه اختلف،فقد غلب عليه التصوف وإن أُلبست معانيه أثواباً من المعانى التقليدية فى الغزل والنسيب والوصف والخمريات وما شابهها .

ولد ابن الفارض سنة ٥٧٦ هـ وكانت تظله دولة صلاح الدين ، وعاش فى مصر وتفقه على والده وجماعة من علمائها ، واتخذ مذهب الشافعية طريقاً فى علمه وألمّ بكثير من علوم الدين واللغة والأدب ، وتبغ فى عمل الشعروصبغه بلونه الصوفى بعد أن اتجه للتصوف . قال ابن خلكان: « له ديوان شعر لطيف ، وأسلوبه فيه رائق ظريف ، ينحو منحى طريقة الفقراء[1] » .

وانتصر له المناوى صاحب «الكواكب الدرية» وفضله على شعراء عصره،قال : « المعروف بين أهل الخلاف والوفاق بأنه سيد شعراء عصره على الإطلاق ، له النظم الذى يستخف أهل العلوم ، والنثر الذى تغار منه النثرة ، بل سائر النجوم » .

وأشار المناوى فى أكثر من موضع من كتاب الكواكب إلى أن ابن الفارض كان كثير التأمل فى مشاهد الطبيعة ، والوقوف أمامها صامتاً يُجيل نظره ويسرح بفكره فى محاسنها . قال : « وكان أمام النيل يتردد إلى المسجد المعروف بالمشتهى فى الروضة ويحب مشاهدة البحر مساء » . ويقول: « وكان عشاقاً يعشق مطلق الجمال

---

(١) وفيات الأعيان ١/١٣٦ طبع محيى الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٨ .

وكان عشقه للجمال ، وحبه للفن مغروساً فى نفسه حتى إنه كان فناناً بطبعه حساساً لنغمات الموسيقى والرقص وكل ما يوحى بروح الفن حتى إنه، كما قيل عنه، كان يذهب إلى جوارٍ له بالبهنسا يغنين له بالدف والشبّابة وهو يرقص ويتواجد » .

والرقص والغناء والإيقاع الموسيقى ليس غريباً على المتصوفة والواجدين وربما مثلت لنا قصيدته اليائية لوناً من هذا الإيقاع الصوفى الراقص إلى جانب ما تحمل من المعانى الصوفية فى الصور التقليدية :

سائق الأظعان يطوى البيد طى   منعماً عرّج على كثبان طَىْ
وبذات الشيح عنى إن مررت بحىٍّ   من عَريب الجزع حَىّ
وتلطفْ واجْر ذكرى عِنْدهُم   عَلَّهُمْ أن ينظروا عطفاً إلىّ
قُلْ تركتُ الصَبَّ فيكم شَبحاً   ما لهُ مما براهُ الشوقُ فَىّ

وشعر عمر بن الفارض على النسق نفسه الذى جرى عليه شعر عمارة اليمنى وبعض شعراء الشام والعراق ممن عرضنا لهم بين التقليديين . وقد اهتم علماء التصوف بشعر عمر ابن الفارض من وجهة نظر الصوفية وتعاليمهم وما تردد فى هذا الشعر من المعانى الصوفية كالوجد ووحدة الوجود والعشق الإلهى وما إلى ذلك .

وليس مجال هذا البحث التعرض لمثل هذه القضايا فى موضوعات الشعر وتكفى الإشارة ، ويمكن للمستزيد أن يطلب ما يريد فى مصادره المتعددة .

ولكن المهم فى هذا العرض أن نتبين ما فى شعره من السمات الأدبية التى كانت تطبع شعره بطابع العصر ، أو التى كانت تميزه دون غيره من شعر الآخرين وعلى ما بدا فى شعره من اتجاه إلى الأسلوب التقليدى ، والاعتماد على الصور القديمة وخاصة فى التعبير عن مواجده كقوله :

أرج النسيم سرى من الزوراء   سحرًا فأحيا ميت الأحياء
أهدى لنا أرواح نجد عَرْفُه   فالجوُّ منه معنبرُ الأرجاء

ويقول فيها :

ياساكنى البطحاء هل من عودةٍ   أحيا بها يا ساكنى البطحاء

إن ينقضى صبرى فليس بمنقضٍ　　وجدى القديمُ بكم ولا برحائى
ولئن جفَا الوسمىّ ماحِلَ تُربكم　　فمدامعى تُربى على الأنواءِ
واحسرتى ضاع الزمان ولم أفز　　منكم أُهيل مودتى بلقاء

وقد عبر عن هذا الحب والوجد الإلهى بصور شتى من التعبيرات التى استعارها من شعراء الحب العذرى أحياناً . وتمثله وقد ملك عليه الحب كل قلبه ، وغيبه عن كل شىء إلا عن محبوبه الذى لاقى فى سبيل الاتصال به والاتحاد معه مايحتمل ومالا يحتمل من أهوال وتباريح . وقد لقب بسلطان العاشقين لقوله :

يحشر العاشقون تحت لوائى　　وجميع الملاح تحت لواكا

وقوله :

نسخت بحبى آية العشق من قبلى　　فأهل الهوى ضدى وحكمى على الكلِّ
وكل فتى يهوى فإنى إمامُه　　وإنى برىءٌ من فتًى سامع العذلِ
ولى فى الهوى علمٌ تجلُّ صفاتُه　　ومن لم يُفَقِّهه الهوى فهو فى جهلِ

وحب الشاعر حبٌّ يتخطى دائرة الحسّ ، فهو حب صافٍ من قيود المادة ، قد خلص نفسه من كل شوائبها وأقبل على حبيبه الذى يحليه الجمال المطلق ، فى أسمى صوره المعنوية . ومن أخص خصائص هذا الحبيب كل مافى الكون من آيات الحق والخير والجمال. ونختار له هذه الأبيات فى وصف حبيبه ، وإن صاغها فى تعبيرات حسِّية اختارها من أوصاف الخمر وكؤوسها ومجالسها ، لكنه يخرج بها إلى المعانى المطلقة فيقول :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة　　سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرْمُ
لها البدر كأْسٌ وهى شمس يديرها　　هلالٌ وكم يبدو إذا مزجت نجمُ
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها　　ولولا سناها ما تصورها الوهمُ
ولم يُبق منها الدهر غير حُشَاشةٍ　　كأَنَّ قَدْ خفاهَا فى صدور النُّهى كتْمُ

فإن ذكرت فى الحىّ أصبحَ أهله نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ
وإن خطرت يوماً على خاطر امرئٍ أقامت به الأفراح وارتحل الهمُّ
ولو نظر الندمان ختم إنائها لأسكرهم من دونها ذلك الختمُ
ولو عبقت فى الشرق أنفاس طيبها وفى الغرب مزكومٌ لعادَ لهُ الشمُّ
ولو خضبت من كأسها كفُّ لامس لما ضلَّ فى ميل وفى يده النجمُ
تهذب أخلاق النواحى فيهتدى بها لطريق العزم من لا له عزمُ
يقولون لى صفها فأنت بوصفها خبيرٌ أجلْ عندى بأوصافها علمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولطف ولا هوًا ونورٌ ولا نارٌ وروح ولا جسمُ
تقدمَ كلَّ الكائنات حديثُها قديماً ولا شكلٌ هناك ولا رسْمُ
وقامت بها الأشياء ثمَّ لحكمةٍ بها احتجبت عن كل من لا له فهم

وفى هذه الوجدانيات تردد كثير من معانى الصوفية السابقين ، ففيه عشق رابعة العدوية ، ومعانى الحلاج وغيره ممن آمنوا بالحلول ، ومن نادى بوحدة الوجود ، ومن قال بالإشراق وشبه الحقيقة الأزلية بالأنوار التى تتكشف له بعد رياضة روحية وتخلص من ظلم المادة والحسّ .

كذلك نرى فى بعض معانيه الوجدانية صوراً قريبة من صور الخيام وإن اختلفت فى منحاها ومعانيها ، وقد عاش الخيام فى القرن الخامس الهجرى فى نيسابور ولا شك وقف ابن الفارض على كثير من كتب من سبقوه من الصوفية الكبار أو آراء من عاصروه كابن عربى والسهروردي القتيل ، فتسربت بعض أفكارهم إلى شعره .

ونحسب أننا أبعدنا بعض الشىء عن مقصدنا ، ونعود مرة أخرى للحديث عن أسلوب ابن الفارض فى شعره فنراه يستخدم كثيراً من المحسنات البديعية على طريقة أهل العصر كقوله :

نعَمْ بالصَّبا قلبى صَبَا لأَحبتى فيا حبذا ذاك الشَّذا حين هبَّت

سَرتْ فأَسرَت للفؤاد غُدَيَّةً أَحاديث جيران العذيبِ فسرتِ

وكقوله فى القصيدة نفسها :

أَيا زاجرًا حُمْرَ الأَوارِكِ تارك الـ ـموارك من أَكوارها كالأُريكةِ

لك الخير إن أَوضحتَ تَوضحُ مُضحياً وجُبتَ فيافى خَبتَ آرام وجْرَةِ

ونكبت عن كثْبِ العُرَيض مُعارضاً حُزُوناً لحُزْوى سائقاً لِسُويقَةِ

وفيه من الجناسِ المتكلف حظٌ غير قليل . وقد كثُر هذا اللون من الصنعة فى هذه القصيدة وغيرها من شعره ، وقد مال إليه شعراء القرن السادس كثيراً وخاصة أهل الشام فأسرفوا فيه إسرافاً .

واستخدم ألوانه فجاء به تامًّا ومشابهاً ومخالفاً ، ومذيلا ، ومركباً ومصحفاً . كما جاء بأنواع أخرى من الصنعة اللفظية كالطباق . كقوله :

خير الأُصَيْحاب الذى هو آمرى بالغىٍّ فيه وإن رشدى زاجرى

وقوله :

غلب الهوى فأَطعت أَمر صبابتى من حيث فيه عصيت نهى معنِّفِى

والمقابلة فى قوله :

منِّى له ذلُّ الخضوعِ ومنه لى عِزُّ المنُوع وقوةُ المسْتضْعِفِ

والترصيع فى قوله :

أَربت لطافته على نشْر الصَّبَا وأَبتْ طرافته التقمص لاذا

ورد العجز على الصدر كقوله :

ياساكنى البطحاء هل من عودةٍ أَحْيا بها يا ساكنى البطحاءِ

أما صنعته المعنوية ، فإنها تدور حول التشبيهات والاستعارات التى عرفت فى شعر الغزل وشعر الخمر فى الأدب العربى القديم ، وخاصة فى غزل العذريين أمثال جميل والمجنون وغيرهما من شعراء الحجاز فى عصر الأمويين .

وقد كان للحجاز فى هذا العصر ، ونجد ، وبعض بقاع الجزيرة العربية صدى خاص فى أشعار عرب هذا العصر ، فهم يجدون من الحنين إليها ، والتشوق لها ولمواقعها ما يصفونه فى صور مختلفة بأشعارهم تعبيراً عما يكنونه بين الجوانح من تعلق بالأرض المقدسة ، ومحبة للنبى فى ذلك المكان الكريم بالحجاز ، وهوى دائم لمنزل الوحى فى مكة وجنباتها الطاهرة .

وقد عاش ابن الفارض فى مكة وجاور زمناً ، ولاقى هناك بعض الصحاب وكانت بينهما صحبة ومحبة فى الله ، كذلك تعبد ، وتأمل ، وتفرد ، وأخلص روحه لذكر ربه ، وحب نبيه . ولهذا كان فى أشعاره يكثر من ترديد هذه المعانى ومن التشوق للحجاز وأرضه ، لأنها مكان أحبته سواء كانوا رمزاً لحبه لله ونبيه أم كانوا صحاباً حقيقيين .

ولما كان غالب ديوانه الذى وصلنا فى موضوع واحد هو الحب الإلهى ، أو الغزل الصوفى ، لذلك اختلف الباحثون فيما جاء فى شعره من تشبيهات واستعارات وأسماء محبوبات كمىّ وليلى وغيرهما . أهى تشبيهات يراد بها معان كلية عامة أم تشبيهات لاتعدو معانيها العادية الجارية فى الشعر العربى ؟ ، وإذا صح أن هذه المعانى الكلية فى قصائده التى يظهر فيها الوجد الصوفى كالتائية الكبرى ، أفيصح هذا بالقدر نفسه على كل قصائد الديوان ؟ ، ألا يجوز أن يكون ابن الفارض قد تغزل غزلا عادياً ، واضطرب المفسرون فى تأويله على مذهبه فى الحب الإلهى ؟ !

ومهما يكن من شىء فإنه قد استخدم مااستخدم الشعراء فى هذا الموضوع من الحديث عن حال المحب من ضنى ، ومحول ، ونُحول ، وتشبيه هذا الضنى فى صور مختلفة ، فالعيون باكية ساهرة نادرة الرقاد تبكى الدمع مخضباً بالدم . كقوله :

يا مانعى طيب المنامِ ومانحى   ثوب السقام به ووجدى المتلفِ

. . . .

واسأل نجوم الليل هل زار الكرى   جفنى ؟ وكيف يزور من لم يعرفِ

لا غروَ أن شحّت بغمضِ جفونها   عينى وسحت بالدموع الذُّرَّفِ

أو يقول :

لله أَجفانٌ عينٍ فيك ساهرةٍ شوقاً إليكَ وقلب بالغرام شجِ
وأَضلع نحلت كادت تقوِّمُها من الجوى كبدى الحَرَّى من العَوج
وأَدمعٌ هملت لولا التنفس من نار الهوى لم أَكدْ أَنجو من اللُّجَجِ

وقال :

نأَيتم فَغَيْرَ الدمع لم أَر وافيًا سِوى زفرةٍ من حرِّ نار الجوى تغلو
فسهدى حىٌّ فى جفونى مخلَّدٌ ونومى بها ميتٌ ودمعى له غُسْلُ
هوًى طلٌّ ما بين الطلول دمى وملْ ء جفونى جرى بالسفح من سفحه وبْلُ

وقد أخذ الهوى من هذا المحب مأخذه ، كذلك فعل طول البعد ، والشوق وكثرة ماذرف من الدمع ، وما عاش من ليالى السهاد يرقب النجوم فعاد جسم المحب نحيلا يصوره الشاعر صوراً شتى ، فهو قد خفى لضآلة شأن جسمه نحولا :

خفِيتُ ضنًى حتى لقد ضَلَّ عائِدى وكيف ترى العوَّادُ من لا له ظلُّ
وما عثرتْ عينٌ على أَثرى ولم تدع لىَ رسماً فى الهوى الأَعين النُّجْل

ومنها الوفاء ، والمحافظة على الوداد من خصال العاشق المتيم ، ويعبر عنها فى صور مختلفة :

جرى حبُّها مجرى دمى فى مفاصلى فأَصبح لى عن كل شغل بها شغل
فنافسْ ببذل النفس فيها أَخا الهوى فإِن قبلتها منك ياحبذا البذل
فمن لم يجد فى حبِّ نُعْم بنفسه ولو جاد بالدنيا إليه انتهى البخْل

ويقول :

وحرمةِ الوصْل والودِّ العتيق وبالعهْ دِ الوثيق وما قد كان فى القدم
ما حلتُ عنهم بسلوان ولا بدل ليسَ التبدلُ والسلوان من شِيَمى

ثم يتحدث عن الرسل والعذال ، وأنه قد يسمع أقوال العاذلين أو أنه إذا سمع فإنما يصغى ليطرب لترداد اسم الحبيب ولا يأخذ بما فيها من العذل والملامة لأن قلبه مغلق دونهما .

ويتصل بذكر هذا الوفاء على العهد كثرة التذكر لأيام اللقاء الأول والسعادة الغامرة التى لقيها فيه ، ولقاؤه هنا فى أماكن بعينها كما ذكرنا، هى الحجاز وأماكنه المقدسة ، مكة والمدينة (الزوراء) ونجد وروابى نجد وشعاب البلاد المقدسة ، وحين يتذكر هذه الأماكن ، فهو يتشوق لرؤية محبوبته نعم أو ليلى أو مىّ ، أو يتشوق لخالقه ، ولرسوله الكريم صراحة أو يتشوق لصحابته وأحبابه دون ذكر أحد ، أو يتشوق لمحبوب مُبْهم يرمز له بغزال أو ظبي أو ما شابهه . .

وتعود له الذكرى على جناح نسيم الصباح الرقيق ، أو ريح الصبا الناعمة .

أَرجُ النسيم سرى من الزوراء   سحرًا فأَحيا ميت الأَحشاء
أَهْدَى لنا أَرواحَ نجد عَرْفهُ   فالجوُّ منه معنبر الأَرجاء

أو بقوله :

ياساكنى البطحاء هل من عودةٍ   أَحيا بها ياساكنى البطحاء

ويقول :

أَسْعِدْ أخىَّ وغننى بحديث من   حلَّ الأَباطح إن رعيت إخائى
وأَعده عند مسَامعى فالروح إنْ   بعُدَ المدى ترتاح للأَنْبَاء
وإذا أَذى أَلمٍ أَلمَّ بمهجتى   فشذا أُعيشاب الحجاز دوائِى

ويقول :

سُقياً لأَيام مضت مع جيرةٍ   كانت ليالينا بهم أَفراحا
حيث الحمى وَطنى وسكان الغضا   سكنى ، ووردى الماء فيه مُباحَا
وأهيلهُ أَربى وظلٌّ نخيله   طربى ورملةُ واديَيْه مَراحا

واهاً على ذاك الزمان وطيبه   أيام كنتُ من اللُّغوب مُراحَا
قسماً بمكةَ والمقامِ ومنْ أتَى الـ   بيتَ الحرامَ ملبياً سياحا
ما رنَّحتْ ريحُ الصبا شِيحَ الرُّبا   إلا وأَهدتْ منكم أَرواحا

ويقول :

يا سميرى روِّح بمكةَ روحى   شادِياً إن رغبتَ فى إسعادِى

وأما الحبيبة فقد صورها كما قلت فى صورة الجمال الكامل والكمال المطلق ؛ وإن عبر عنها كما اعتاد شعراء الغزل التعبير فى قوالب التشبيهات والاستعارات والمعانى المطروقة للنساء . .

فهى فى جمال نور يشع فيملأ الدنيا ضياء كالقمر ، وهى كالظبية جمال تلفت ، وهى لينة القد كقضيب النقا . . فيقول :

لِيَهْنَ ركبٌ سروا ليلاً وأَنت بهم   بسَيْرهم فى صباح منك مُنْبلج

ويقول :

آه واشوْقى لضاحى وجهها   وظما قلبى لذيَّاك اللَّمَسْ

. . . .

انحَلتْ جسمى نحولاً خصرها   منه حالٍ فهو أَبهى حُلَّتَىْ
إن تثنت فقضيبٌ فى نَقَا   مثمرٌ بدرَ دجًى فرعُ ظُمَىْ

. . . .

خرت الأَقمارُ طوعًا يقظةً   أَن تراءت لا كرؤيا فى كُرَىْ

ويقول :

وبطرفه سحرٌ لو ابصر فعله   هاروتُ كان له به أُستَاذا
تهذى بهذا البدر فى جو السما   خلٍّ افتراكَ فذاك خِلِّى لاَذَا

عنت الغزالة والغزالُ لوجهه مُتلفتاً وبهِ عياذًا لاذا

ويشبه محاسن هذه المحبوبة فى نظرتها بنظرة الغزالة ، وفى قوة فعلها بالسهام والرماح والسيوف المشحوذة :

احفظ فُؤادكَ إن مررت بحاجر فظباؤه منها الظُّبَى بمحاجر
فالقلب فيه واجبٌ من جائزٍ إن ينجُ كان مخاطرًا بالخاطر
وعلى الكثيب الفرد حىٌّ دونه الـ آسادُ صرعى من عيون جآذر

ووجهها جميل يضىء بمفاتن الجمال كلها التى يراها البشر فى جمال الابتسامة وطيب الرائحة أو تورد الخدود ، وتحليها بالخال :

كعرس جُليت فى حِبَر صُنع صَنْعَاء وديباج خُوَىْ

وهى :

أَرْبَتْ لطافته على نشر الصَّبا وأبتْ ترافتُه التقمُّصَ لاذا
وشكت بضاضَةُ خده من وَرْدِهِ وحكتْ نظافَةُ قلبه الفولاذا
عَمَّ اشتعالاً خالُ وجنته أَخًا شُغَل به وجدًا أَبَى استنقاذا
خَضِرُ اللمى عَذْبُ المُقبَّل بُكرةً قبل السواك المسكُ سادَ وشاذا
من فيه والألحاظِ سكرى بل أرى فى كل جارحةٍ به نَبَّاذا
نطقت مناطِقُ خصْره ختماً إذا صَمَتُ الخواتِم للخناصِر آذَى
كالغُصْن قدًّا والصَباحِ صباحةً والليل فرعاً منه حاذى الحاذا(١)

وبناء القصيدة عند ابن الفارض يشبه البناء التقليدى للشعر العربى ولكنه يكتفى منه بالمطلع أى الجزء الخاص بالنسيب ، ومع ذلك فهو لا يتبعه تماماً ، فلا يقفو أثر التقليديين باستيقافِ الصاحب أو الصاحبين والوقوف على الأطلال أو التَّعريج عليها ، ثم التذكر

(١) أى حاذى الظهر والحاذ الظهر . وحاذاه وازاه .

والتشوق ، والدعاء بالسقيا للديار وما إلى ذلك ، بل هو يعرج على هذه المعانى دون ترتيب ، ولا يكاد يذكر استيقاف الصاحب إلا قليلا ، وهو يطلب إلى الحادى إلى بلاد الحبيب أن يقف :

سائِقَ الأظعان يطوى البيد طَىْ مُنْعِماً عرِّج على كثبان طَىْ
وبذات الشيح عنى إن مَرَرْ تَ بحىٍّ من عريب الجزع حَىّ

أويقول وقد رأى نار ليلاه وهو مع الركب ، أوليس معهم :

أَوميض برقٍ بالأُبيرق لاحا أم فى رُبى نجدٍ أرى مصباحَا
أَم تلك ليلى العامريةُ أَسفرتْ ليلاً فصيرت المساءَ صباحا
يا راكب الوجناء وُقِّيت الردى إن جبت حَزْناً أَو طويت بطاحا
وسلكت نعمانَ الأَراك فعُجْ إلى وادٍ هناك عهدته فياحَاَ

وكثيراً ما يبدأُ قصائده بدءًا لا يتقيد فيه بذكر الركب أو الظعائن وما شابهها ، بل قد يعمد إلى تذكر حبيبه بالنسيم أوريح الصبا .

لم تكَدْ أَمناً من حكم لا تقصُص الرؤيا عليهم يا بُنَىْ

ومن قوله :

فليَصْنع الركبُ ما شاءُوا بأَنفسهم هم أَهل بدر فلا يخشون من حَرج

ومن الأقوال المأثورة :

وقل لقتيل الحب وفيتَ حقَّه وللمدعى هيهاتَ ما الكَحَلُ الكُحلُ

وقد جارى ابن الفارض من سبقه من كبار شعراء العربية فى نهج القصيدة ووزنها ورويها أحياناً . وله القصيدة الدالية،جارى فيها المتنبي ، واستخدم كل قوافيها . قال المتنبى :

أمساورٌ أَم قرنُ شمس هذا أَم ليث غاب يقدم الأَستاذا

وقال ابن الفارض :

صدَّ حمًى ظمئى لمَاك لماذا   وهواك قلبي صارَ منه جُذَاذَا

ويعتمد على قصيدة المتنبي فى مساور بن محمد، فيضمن بعض معانى أبياته كقوله :

فتكا بنا يزدادُ منه مُصورًا   قَتْلى مساورَ فى بنى يزداذا

قال المتنبي :

هبك ابن يزداذٍ حطمت وصحبه   أترى الورَى أضحوا بنى يزداذَا

واختلف موضوعا القصيدتين، فالمتنبي يمدح وابن الفارض مستغرق فى مواجده .

ويعارض البحترى فى قصيدة أخرى ، كما يتعقب أبا نواس .

ومن هنا يتضح لنا فى هذا العرض لشعر ابن الفارض مكانته الشعرية بين أقرانه فهو شاعر ذو طابع خاص فى موهبته الشعرية ، التزم لوناً معيناً ، هو الوجد الروحى والتصوف على طريقة « وحدة الشهود » ، ينظم تجاربه الصوفية فى شعر رقيق غامر بالعاطفة ، فتحس بالتكامل بين بنائه الشعرى ومعانيه ، تكاملا يرقى به فى ميدان التصوف إلى شعراء الصوفية الفرس الكبار أمثال جلال الدين الرومى ، وفى ميدان الشعر الوجدانى إلى مراتب العاشقين أمثال مجنون ليلى وجميل بثينة والعباس بن الأحنف، والشريف الرضى ، وفى نصوع البيان وتحكمه فى الصنعة درجة البحترى والمتنبي .

أرج النسيم سرى من الزوراء   سحرًا فأحيا ميت الأحياء
أهدى لنا أرواح نجدٍ عرفُه   فالجوُّ منه معنبر الأرجاء

أو يقول :

نعَمْ بالصَّبَا قلبى صَبَا لأَحبّتى   فيا حبذا ذاك الشذا حين هبَّت

وقد يصطنع مطالع شعراء الخمر كأبى نواس وغيره فيبدأ بذكر الخمر، كما بدأوا ، مستعيضين بها عن ذكر الرحلة والراحلة كقوله فى الثانية :

سقتنى حُمَيًّا الحبِّ راحة مقلتى   وكأسى مُحَيًّا مَن عن الحسْن جلَّت
فأوهمت صحبى أَن شُربَ شرابهم   به سُرَّ سِرِّى فى انتشائى بنظرة

أو قوله :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرمُ
لها البدر كأسٌ وهى شمس يديرها   هلالٌ وكم يبدو إذا مُزجتْ نجْمُ
ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانِها   ولولا سناها ما تصورها الوَهْمُ

وقد يبدأ فى الحديث عن الحب دون مقدمة كقوله :

هو الحبُّ فاسلَمْ بالحشا ، ما الهوى سهلُ   فما اختارَهُ مُضْنًى به وله عَقْلُ

ويكثر ابن الفارض الاقتباس من القرآن ، والحديث والأثر ، والأخبار والمأثور من أقوال العرب والشعر القديم .

كقوله مقتبساً الآية الكريمة :

ياسائق الأظعْان يطوى البيد معتسفاً   طىَّ السجل بذات الشيح من إضمِ

ومن سورة يوسف :

وإذا ولَّتْ تولت مُهجتى   أو تجلَّتْ صارت الأَلبَابُ فَىْ
وأبى يتلُوَ إلا يوسفاً   حسنها كالذكر يُتْلَى عن أُبَىْ
خرَّتْ الأَقمارُ طوعاً يقظةً   أن تراءتْ لا كروْيا فى كُرَىْ

شعراء الطبقة المصرية الثانية

وجاء بعد مدرسة القاضى الفاضل جماعة من شعراء المصريين ممن نبغوا فى المائة السابعة واتبعوا أصول المدرسة الأولى وخصائصها الفنية ، وإن بدت فى هذه المدرسة الثانية خصائص جديدة تميل بالشعر إلى السهولة ، واستخدام اللغة السهلة والتعبيرات الدارجة المستقاة أحياناً من لغة المصريين العامية وتعبيراتهم الشعبية اليومية . هذا مع الميل إلى الظرف وروح الدعابة ، والاهتمام باللغز واللعب أحياناً بالمعانى العقلية ، والقضايا العلمية ، وتضمينها فى أسلوب سهل ممتع كأسلوب البهاء زهير علم هذه المدرسة ، وزميله جمال الدين بن مطروح .

البهاء زهير : الشاعر المصرى شعبى الروح خفيف الظل

ويعد البهاء زهير كما قلت علم هذه المدرسة الثانية التى ظهرت فى النصف الأول من القرن السابع . وقد ولد البهاء زهير خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ ﻫ وتوفى رابع ذى القعدة سنة ٦٥٦ ﻫ ، وكانت ولادته بمكة ولكنه انتقل مع والديه صبياً إلى قوص حيث نشأ وتعلم على خيرة علمائها ، والتقى بأدبائها المرموقين فنضجت موهبته واستقى من نبع الثقافة المصرية الزاهرة فى قوص وقتئذ . كما تلقى الروح المصرية وتشربها فجرت فى عروقه مجرى الدم حتى صار كما قال عنه مصطفى عبد الرازق « مصرى المنشأ ، مصرى الروح ، مصرى العاطفة »[١] .

وقد أحب مصر حباً كبيراً ، أحب طبيعتها وأرضها وشرب من نيلها فتيم به ، ولهج لسانه بهذا الحب الكبير ، وترددت أصداؤه فى ديوانه الكبير ، ومما قاله متذكراً مصر فى إحدى رحلاته خارجها :

رعى الله عهد مصر وحيا ما مضى لى بمصر من أوقات

---

(١) البهاء زهير بحث بقلم مصطفى عبد الرازق طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٠ .

حبذا النيل والمراكب فيه مصعدات بنا ومنحــدرات
هات زدنى من الحديث عن النيـ ـل ودعنى من دجلة والفرات
وليالى فى الجزيرة والجيـ ـزة فيما اشتهيت من لذات
بين روض حكى ظهور الطواويـ ـس وجوٍّ حكى بطون البزاة
حيث مجرى الخيلج كالحية الرقطـ ـاء بين الرياض والجنات

وكقوله فى حب مصر وفضيلها على غيرها من الأوطان :

ولم أر مصراً مثل مصر تروقنى ولا مثل ما فيها من العيش والخفض
وبعد بلادى فالبلاد جميعها سواء فلا أختار بعضاً على بعض

وقوله :

سقى واديًا بين العريش وبرقة من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيَّا النسيمُ الرطب عنى إذا سرى هنالك أوطاناً إذا قيل أوطان
بلاد متى ما جئتها جئت جنة لعينك منها كلّ ما شئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فياساكنى مصرًا تراكم علمتم بأنى ما لى عنكم الدهر سلوان
وما فى فؤادى موضعٌ لسواكم ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا فتهدأ أحشاءٌ وترقأ أجفانُ
علىَّ بذاك اليوم صوم نذرته وعندى على رأى التصوف شكران

وبعد أن اكتملت أداة البهاء فى الشعر والكتابة وعرف فى قوص بين خاصتها ، وكبار رجالها وأعيانها تردد على مجالس العلماء والتقى بأعلام الشعراء ، وكان بين من التقى بهم الشاعر السيوطى المصرى جمال الدين بن مطروح ، وظلت الصلة بينهما طوال حياتهما لم تفتر ، وقد التقيا فى مجلس الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللمطى

الذى تولى سنة ٦٠٧ هـ أعمال القوصية أيام الملك الكامل أيوب .

وقد اتصلت أسباب الشاعر بالأمير فى قوص ونظم فيه المدائح ، مع صاحبه ابن مطروح ، ويبدو أن ابن اللمطى كان مقرباً لهما لا يبخل عليهما بمال ، ولا يمتنع عليهما فى شىء . وقد قال فيه البهاء زهير :

به أَصبحت قوص إذا هى فاخرت   أعزَّ قبيل فى الأَنام وأَنفسا

ويقول فى قصيدة أخرى :

مولى بدا من غير مسأَلة بما   جاز المدى كرما وعاد كما بدا
وأَنال جوداً لا السحاب ينيله   يوماً وإن كان السحاب الأَجودا

وقد اشتغل الشاعر كاتباً لابن اللمطى فترة من الزمن قد تربو على خمسة عشر عاماً ، عن له بعدها وقد طمحَ به الأمل إلى آفاق أوسع وأرحب أن يؤم السلطان ويطرق بابه بالقاهرة ، لعله أن يفتح له أبواب المجد والشهرة ، ومن ثم الغنى والعيش الرغد ، ولم تكن هجرة الشاعر من جناب الأمير القوصى إلى القاهرة سهلة على الشاعر أو أميره ، بل لقد تركت هذه الفرقة آثارها فى الديوان قصائد من العتاب الرقيق ، والتعلل بالآمال والاعتذار عن هذا البعاد الذى فرضته الظروف وفرضه السعى فى سبيل السؤدد دون تنكر لسابق الأيادى ، وحسن الرعاية . يقول :

مولاى مجد الدين عطفاً إن لى   لَمحبــةً فى مثلها لا يمترى
يا من عرفتُ الناس حين عرفته   وجهلتهم لما نبا وتنكرا
خلق كماءِ المزن منك عهدته   ويعز عندى أَن يقال تغيرا
مولاى لم أَهجر جنابَك عن قلى   حاشاى من هذا الحديث المفترى
وكفرت بالرحمن إن كنت امرأً   يرضى لما أَوليته أَن يكفرا

ولا ينسى البهاء زهير وهو بعيد عن قوص وأميرها أن يشير إلى فضلهما عليه وعلى أدبه .

أسفى على زمن لديك قطعته وكأننى للفرقدين نزيل
واذا انتسبت بخدمتى لك سابقاً فكأنها لى معشر وقبيل
هذا هو الأدب الذى أنشأته فاهتز منه روضه المطلول

وهكذا تبع البهاء نجمه ، والتحق فى القاهرة بخدمة الملك المسعود بن الكامل ، ثم بالصالح نجم الدين قبل توليه السلطنة ، ومدحهما ، ولكنه اختص بالصالح وظل معه إلى أن تولى الملك بعد أبيه الكامل ، وتولى ديوان الإنشاء وظل عليه فلقب بالصاحب ، وكانت مرتبته تقرب من الوزارة ، وظل كذلك يحظى بتقدير الصالح ورعايته إلى قبيل وفاته حيث غضب عليه فعزله وولى ابن لقمان خلفاً له .

وللبهاء زهير مدائح كثيرة فى الصالح وفى مناسبات شتى ، فى الأعياد والمناسبات السعيدة وغيرها ، وفى غزواته ورحلاته خارج مصر للجهاد وعودته إليها سالماً منصوراً .

ونعود إلى شعره وخصائصه التى أسلفناها فنعرض لما امتازت به من السهولة واعتماده الروح الشعبية فى التعبير واستعارة اللفظ والصور ، ونورد هذه المقطوعة خفيفة الوزن التى تحوى كثيراً من تعبيرات الناس الدارجة والتى لاتزال تتناقلها ألسنتهم . يقول :

أرى قوماً بليت بهم نصيبى منهم نصبى
فمنهم من ينافقنى فيكذب لى ويحلف بى
ويلزمنى بتصديق الـ ذى قد قال من كذب
وذو عجب إذا حدثـ ت عنه جئت بالعجب
وما يدرى بحمد اللـ ـه ما شعبان من رجب
وما أبصرت أحمق منـ ـه فى عجم ولا عرب
وأحمق قد شقيت به بلا عقل ولا أدب
فلا ينفك يتبعنى وإن أمعنت فى الهرب
كأنى قد قتلت له قتيلا فهو فى طلبى
لأمـــر ما صحبتهم فلا تسأل عن السبب

. . . .

وكنـــا قد ظننا الصفـ ـر عند النقد كالذهب
فلم نظفـــر بحاجتنا وأشفينا على العطب
رجعنـــا مثلما رحنا ولم نربح سوى التعب

فتعبيرات : ما يدرى ما شعبان من رجب ، وكأنى قد قتلت له قتيلا ، ورجعنا مثلما رحنا ، تعبيرات شعبية نقلها بلفظها شعراً . وقوله :

وعائد هو سقم لكل جسم صحيح
لا بالإشارة يدرى ولا الكلام الصريح
وليس يخرج حتى تكاد تخرج روحى

وأما ظرفه وخفة روحه فتبدو سمة غالبة فى شعره ؛ فهى فى صوره البيانية ، كما أنها فى تعبيراته وألفاظه ، وهى مع هذا وذاك لاتخرج عن شعبيتها . يقول :

وليلة ما مثلها قط عُهِدْ مثل حشا العاشق باتت تتقد
طلبت فيها مؤنساً فلم أجد بت أقاسيها وحيداً منفرد
طالت فأما صبحها فقد فقِد فتحبل المرأة فيها وتلد

ويقول فى صاحب لحية :

وأحمق ذى لحية كبيرة منتشرهْ
طلبت فيها وجهه بشـــدة فلم أره
تبًّا لها من لحية كبيرة محتقـــره
مضحكة ما كان قـ ـط مثلها لمسخره
فلو مضى السوق بهـ ـا وزفهـــا بالمزمـــره
لحصلت له مغـ ـل ضيعة موفره

وقد تثبتُ إلى الذهن صفة ابن الرومى للذقن ، وصورته المعروفة لها كالمخلاة ، ولكن ابن الرومى ربما أجاد البناء الفنى ورسم حدود الصورة وإعطائها ملامحها الحادة من السخرية المرة ، أما زهير فإنه يريد أن يضحك من الرجل ، ويقفش له؛ فيورد كل ماقد يخطر على ذهنه من الصور المرتبطة بالذقن مما يثير الضحك ، من مبالغة ومفارقة وغرابة صورة ، وشعبية تعبير .

ويقول فى شيخ إمام كان يستثقل مجلسه كلما حضر :

كلما قلت استرحنا ... جاءنا الشيخ الإمام
فاعترانا كلنا منـ ... ـه انقباض واحتشام
فهو فى المجلس فدم ... ولنا فهو فدام
وعلى الجملة فالشيخ ... ثقيل والسـلام

ومنها أبياته المشهورة فى بغلة صاحبه :

لك يا صديقى بغلة ... ليست تساوى خردله
تمشى فتحسبها العيو ... ن على الطريق مشكّله
وتخال مدبرة إذا ... ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطو ... يلة حين تسرع أُنمله
تهتز وهى مكانهـا ... فكأنمـا هى زلزله
أشبهتها بل اشبهتـ ... ـك كأن بينكما صله
تحكى صفاتك فى الثقا ... لة والمهانة والبلـه

وقد يحلو له من حين لآخر أن يبارى جماعة الخلعاء من شعراء العصر العباسى فى القرن الثانى أمثال أبى نواس والحسين بن الضحاك فى ضروب الشعر الذى يرتجلونه بين يدى حاجاتهم وفى مجالس لهوهم وشرابهم . فيقول :

سيدى يومك هذا ... ليس يخفى عنك رسمه

قم بنا قد طلع الفجـ ـر وقد أشرق نجمه
عندنا ورد جـ ـنى ينعش الميت شَمّه
ولدينا ذلك الضيف الذى عندك علمه
ولنا ساق رشيق أحور الطرف أَحمّه
وخوان يعبق المسـ ـك بريّاهُ وطعمه
وأَخ يرضيك منه فضله الجم وفهمه
كامل الظرف أديب شامخ الأُنف أَشمه
حسن العشرة لا يأ تيك منه ما تذمه
ومغن زيره أطر ب مسموع وبَمُّه
وسرور ليس شيءٌ غير رؤياك يتمه
فأَجب دعوة داعٍ أَنت من دنياه سهمه
فإذا جئت وغاب النا س طرًّا لا يهمه

ويقول :

مولاى ياقلبى العز يز وياحياتى الغاليه
إنى لأَطلب حاجة ليست عليك بخافيه
أنعم على بقبلـــة هبة وإلا عاريه
وأَعيدها لك — لاعدمـ ـت — بعينها وكما هيه
وإذا أَردت زيادة خذها ونفسى راضيه
فعسى يجود لنا الزما ن بخلوة فى زاويه
أو ليتنى أَلقاك وحـ ـدك فى طريق خاليه

وهذا اللون من الشعر هو الذى يفترق فيه عن غيره من الشعراء ويعطى لشعره

مذاقاً خاصاً عذباً مستحباً ، وليس كما اصطنعه من الشعر التقليدى الذى يجارى فيه سائر الشعراء القدامى من اصطناع ديباجة غير ما يمليها عليه طبعه . ولعلنا حين نجعل هذا الشعر هو المعبر عن شخصية البهاء زهير وعن حقيقة تجديده نذهب إلى ما ذهب إليه طه حسين حين اعتبر شعر أبى نواس وأصحابه مما ذهبوا فيه على طبيعتهم ولم يتكلفوا من شعر السوانح والمعانى التى ينطقون فيها على حرياتهم ، حين اعتبر ذلك الشعر الذى عرف بالمحدث هو الصورة الحقيقية للقرن الثانى العباسى ، وللحياة العباسية فى ذلك العصر ، لا الشعر المتكلف فى المديح والرثاء والعتاب وغيره من شعر المناسبات والموضوعات التقليدية .

ونذهب كذلك إلى ماذهب إليه الأستاذ مصطفى عبد الرازق من أن هذه الألوان فى شعر البهاء زهير إنما تدل على عبقرية « ولا بد من عبقرية كعبقرية البهاء زهير لتوفق هذا التوفيق فى إنشاء أشعار من الطراز الأول ، يطرب لها الخاصة ، ولاتكون العامة أقل بها طرباً ، بلسان هو لسان التحاور ، ولسان البيوت والأسواق »[1] .

والحق أن كل ما يوصف به شعر البهاء زهير ، من تعبير عن الروح المصرية ، وخفة الظل ، وميل إلى السهولة فى اللفظ والموسيقى إن هى فى الحقيقة إلا سمات ظاهرية ، لاتعطى الصورة الحقيقية لما جاء به ، وكان فى الوقت نفسه ظاهرة فنية أتت على الشعر ، بل ما زجته وخالطته ، ونقصد بها الروح الشعبية ، فقد اقترب الشعر المصرى ، فى هذه المرحلة من روح الشعب ، وصار أدبا شعبياً فى روحه ودمه وإن اتخذ مظهراً رسمياً فى لغته وأساليبه أحياناً . أصبح الشعر منذ هذا العصر يقترب شيئا فشيئاً من وجدان الناس بعد أن كان ردحا من الزمان يعيش على أبواب الملوك والخاصة ، وربما ساعد على ذلك وشد من أزره ابتعاد الملوك والسلاطين ، وخاصة الأعيان وذوى الجاه وأولى الأمر شيئاً فشيئاً عن الروح العربية ومن ثم عن الأدب الفصيح ، فلم يعد لهذا الأدب الفصيح مجال يفرخ فيه ، أو أن الوسط الذى أصبح يبذر فيه سبخاً لاينبت نباتاً طيباً ، وهكذا تألبت عليه الظروف فلم يعد أدباً مناسباً للخاصة بعد أن صاروا عجماً ، أكراداً أوتركاً ، أوسلاجقة أوشراكسة ، ومن إليهم ممن لايفهمون الشعر العربى الفصيح وإن فهموه لايتذوقونه ، ولم يعد كذلك

---

(١) البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق ص ٦٣ .

مناسباً للعامة ممن لم يُتح لهم من الثقافة ما أتيح للخاصة، فاضطر الشعر لذلك أن يقترب شيئاً فشيئاً من الروح العامية. وهكذا كان شعر البهاء زهير ممثلا لهذه الظاهرة فى القرن السابع الهجرى.

فهو شعبى فى صورته. ومضمونه وبعض لفظه وإن لبس ثوباً من تقليد مطرزاً بالوزن والقافية. وليس أدل على تغلغل الروح الشعبية فيه من تلك الصور والتعبيرات التى مثلنا لها، ومن عدم اهتمامه باتباع قواعد الإعراب وأصول اللغة، واستخدام الروابط المعهودة فى الأسلوب الفصيح، بل يعمد إلى استعمال الدارج دون الفصيح مما لا يرضى رجال النحو واللغة. وقد ظهرت هذه الظاهرة فى شعره غير الرسمى كثيراً، ونستطيع أن نطلق على اللغة التى كتب بها ذلك الشعر تعبير «العامية المفصحة».

وقد وقف النقاد والعلماء مواقف متباينة من شعر البهاء زهير فبينما يرى بعض الأقدمين فيه ضعفاً، فإن بعض المستشرقين مثل بالمر ناشر ديوانه يرى فيه اقتراباً من روح الشعر الأوربى.

وبعد أن تعرضنا لهذا الجانب التجديدى فى شعر البهاء زهير ينبغى ألا نعبر دون التمثيل للون الطابع العصرى، وإن لم يسرف فيه إسراف غيره من شعراء الصنعة المتكلفين، ونعنى من حيث المضمون؛ الغرام الشديد بالجوانب العقلية وقضايا العلم من منطق وفلسفة وطب وعلوم ونحو، وحشد قضاياها أو اصطلاحاتها حشداً فى الشعر واستخدامها فى فنون التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية والاقتباس والتضمين والإشارة والألغاز وما إلى ذلك.

ومنه قوله وقد تلاعب بمصطلح النحو:

ويحك يا قلب أما قلت لك ... إياك أن تهلك فيمن هلك
حركت من نار الهوى ساكناً ... ما كان أغناك وما أشغلك

وكقوله:

وجاهل يجهل ما يقول ... أقواله ليس لها تأويل
لها فصول كلها فضول ... كثير ما يقوله قليل

فهى فروع ما لها أصول كلامه تمجه العقول
أتعبنى حديثه الطويل فليته كان له محصول
وجملة الأمر ولا أطيل هو الرصاص بارد ثقيل

ومنه استخدام بعض خصائص الصوفية ، كاقتباسه استخدام الرفاعية لبعض الحيل كقوله :

لعلكم قد صدكم عن زيارتى مخافة أمواه لدمعى وأنواء
فلو صدق الحب الذى تدعونه وأخلصتم فيه مشيتم على الماء
وإن يك أنفاسى خشيتم لهيبها وهالتكم نيران وجد بأحشائى
فكونوا رفاعيين فى الحب مرة وخوضوا لظى نارٍ لشوقى حراء

ولم يختلف مضمون شعره عن مضامين الشعراء غيره ممن يرون الشعر متعة وتسلية ، وتذكية للروح والفكر وتعبيراً عن الاقتدار والفطنة وسعة العلم والدراية ، إلى جانب التظرف وحسن المسامرة والمؤانسة . وليس غريباً بعد هذا أن يتخذ لهذه المضمونات شكلا مناسباً يتضح فى تلك الألوان الشائعة من الصنعة اللفظية والمعنوية ولكنه كما قلت لايسرف فيها إسراف غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه فى مصر وغيرها . ولا يثقل فيمل ويبغض ، بل هو يلجأ إلى الصنعة الرقيقة الخفيفة التى تروق وتستظرف ، وتقبل ولا تنفر .

فمن استخدامه للتورية على طريقة المصريين قوله :

لما التحى وتبدلت تلك السعود له نحوسا
أبديت لما راح يحـ لق خده معنى نفيسا
وأذعت عنه أنه لم يقصد القصد الخسيسا
لكن غدا وعذاره خضر فساق إليه موسى

فالتورية واضحة فى خضر وموسى .

ومن تجنيسه الخفيف اللطيف قوله :

فلكم فيَّ مِنْ مكارم خُلْقِي ... ولكم فِيَّ من حميد صفات
لَسْتُ أرضي سوى الوفَاء لذِي الوُدْ ... دِ ولوْ كانَ فى وفائِى وفاتِى
وألوف فلو أفارق بؤسا ... لتوالت لفقده حسراتِى

وقوله :

وما هنت إلا للصبابة والهوى ... وما خفت إلا سطوة الهجر والقلى
أروح وأخلاقى تذوب صبابة ... وأغدو وأعطافى تسيل تغزلا
أحب من الظبي الغرير تلفتا ... وأهوى من الغصن النضير تفتلا
فما فاتنى حظى من اللهو والصبا ... وما فاتنى حظى من المجد والعلا

ويعمد البهاء فى شعره إلى الاقتباس من الشعر القديم ، أو التضمين ، ومثالهما قوله :

تعلمت خط الرمل لما هجرتكم ... لعلى أرى شَكْلاً يدل على الوصل
ورغبنى فيه بياض وحمرة ... عَهِدْتُهما فى وجنة سلبت عقلى
وقالوا طريق قلت يا رب للرضا ... وقالوا اجتماع قلت يارب للشمل
فأصبحت فيكم مثل مجنون عامر ... فلا تنكروا أنى أخط على الرمل

وقد جمع فى هذه الأبيات ضروباً من التضمين والاقتباس ، والتورية ، إذ أنه يشير إلى استخباره الرمل (ضرب الرمل) كى يدله على أسرار هواه ومستقبل حبه ، ويتخذ الرمل رابطاً بين خطه فيه مستخبراً سائلا ، وخط مجنون ليلى متسليا ساهماً فى البادية وحيداً إلا من ذكر ليلاه . كما يذكر شعره .

وربما كان مناسباً ونحن فى صدد حديثنا عن الشكل فى شعره أن نشير إلى ماذكره المؤرخون له من محاولة تجديده فى الأوزان الشعرية ، بإدخاله بعضاً مما لايوافق العروض التقليدى كقوله :

يا من لعبت به شمول ما ألطف هذه الشمائل
نشوان يهـــزه دلال كالغصن مع النسيم مائل
لا يمكنه الكلام لكن قد حمل طرفه رسائل
ما أطيب وقتنا وأهنــــا والعاذل غائب وغافل
عشق ومسرة وسكر والعقل ببعض ذاك ذاهل
والبدر يلوح فى قناع والغصن يميل فى غلائل
والورد على الخدود غض والنرجس فى العيون ذابل
والعيش كما تحب صاف والأنس بما نحب كامل

وإذا كان هذا الشعر قد ابتعد عن موسيقى الشعر التقليدى ، وخالف عروضه فإنه اقترب من موسيقى الشعر الشعبي وتأثر بأوزان الزجل ، وليس غريباً أن ينظم شاعر كالبهاء زهير فى أوزان شعبية ، وقد اقترب فن الشعر فى روحه كما أشرنا من الشعب ، ولم يكن هو أول من اتجه هذا الاتجاه من شعراء القرنين السادس والسابع ، بل سبقه غيره من شعراء مصر والشام والعراق، فنظموا فى ضروب الشعر الشعبي كالزجل ، والدوبيت ، والقوما ، والكان كان . . . وما إليها .

وننتقل من الحديث عن شعر البهاء إلى لون آخر من أدبه ، إلى كتابته ورسائله وإن لم تشتهر اشتهار شعره ، إلا أنه مع ذلك كان صاحب ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وكتب له . ومما تتناقله كتب التاريخ رسالته المشهورة فى الرد على ملك فرنسا لويس التاسع إذ بعث برسالة للصالح فيها تهديد ووعيد بالغزو وطلب التسليم ، فكتب البهاء زهير على لسان الصالح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، ونحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه؛ فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد

أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسىء الظنون (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) فإذا قرأت كتابي هذا فتكون منه على أول سورة النحل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ، وتكون أيضاً على آخر سورة ص (ولتعلمن نبأه بعد حين) ، ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين) .وقول الحكماء : إن الباغى له مصرع . وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يسلمك . والسلام » .

وهكذا كان البهاء زهير علماً من أعلام الشعر المصرى فى النصف الأول من القرن السابع ، وكان شعره الذاتى صورة حية لنفسه وشخصه ، منه نستطيع أن نتبين ملامح شخصيته ، شخصية الإنسان العف الكريم ، المرح المتفائل ، الذى يحب الحياة ويبتسم لها ويحافظ على الود والعشرة ، ولا يحقد على الحياة والناس ، ولا يعلو عليهما بل يعيش إنساناً يألف ويؤلف ويحب ويمرح ، ويأسى أسى رقيقاً ؛ أما أدبه الرسمى فصورة للحياة الرسمية فى القصور ، والحياة السياسية فى العصر ، كما يقفنا على أسرار من طبائع الناس وظروف الحياة والعيش ، والتقاليد والأقوال المأثورة ، فهو وثيقة أدبية فنية اجتماعية .

ابن مطروح ، الشاعر السياسى

هو جمال الدين بن مطروح صديق العمر للبهاء زهير ، وهما وإن اقتربا فى الروح وتلازما فى الود إلا أنهما اختلفا فى الشعر ، فشعر ابن مطروح يختلف عن شعر صاحبه فى موضوعاته ومضموناته ، وفى شكله وبنائه الفنى .

ولد ابن مطروح بمدينة سيوط سنة ٥٩٢ هـ وتعلم القرآن والحديث وجملة من المعارف الإسلامية والعربية مما كان يدرس فى عصره . وأتم علومه بالأزهر ، والتقى فى صباه بزميله وصديقه الشاعر البهاء زهير بمدينة قوص عاصمة الصعيد وقتذاك . وضمهما بلاط أميرها ردحاً من الزمن ثم انتقلا إلى القاهرة حيث اتصلا بكبار رجال الدولة الأيوبية أيام سلطنة الملك الكامل أيوب وابنه الملك الصالح نجم الدين .

وظهر نجم ابن مطروح رجلا من رجال الدولة ، لا من رجال القلم فحسب ، بل من رجال السياسة والسيف أيضاً ، وإن كان فيما قام به من أعمال السيف قد أخطأ فأوخذ بشدة ، إلا أنه مع ذلك قام بأدوار هامة فى تاريخ هذه الحقبة المليئة

بالمؤامرات والدسائس بين أبناء البيت الأيوبى فى مصر وكبار رجال الدولة والقادة .

وقد أشرنا إلى صلته بابن اللمطى أمير قوص ، وغريب أن يحدث بينه وبين الأمير ما حدث بينه وبين صاحبه من جفوة وفراق وتأويل للفراق من جانب الأمير على أنه قلى وتنكر للجميل واعتذار من الشاعرين بأنهما لم ينسيا الود الذى أولاهما ولكنهما سعيا وراء حظهما واتبعا نجمهما. وها هو ابن مطروح يكرر ماقاله البهاء زهير:

لك الله إن العفو أقرب للتقوى ومثلك أولى مثلى الصفح والعفوا
أقلنى ما قد كان منى جهالة أقالك رب يعلم السر والنجوى
وها أنا من ذنبى الذى كان تائب ومن تاب يمحو الذنب توبته محوا
وقد نالنى من سخطك المر ماكفى وإنى لأرجو الآن منك الرضى الحلوا

وأحسب أن هذا الذنب هو هجرانه بلاط الأمير ابن اللمطى إلى أمراء آخرين أوسع جاهاً وسلطاناً لعل أحدهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، أو الأمير مسعود ابن الكامل أو الصالح نجم الدين نفسه قبل توليه الملك ، فقد كانت له بكل هؤلاء صلات متينة استمرت طويلا ودل عليها كثرة مدائحه لهم وما تنم عليه تلك المدائح من الصلات.

ومهما يكن من أمر فإن ابن اللمطى لم يصف للشاعرين تماماً ، وإن لم ينس الشاعر فضله عليهما ، فما زالا يبعثان إليه بالمدائح والتهانى من القاهرة أو غيرها فى كل مناسبة .

وأما صلته بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فلعلها أن تكون أجدر صلاته بكبار رجال الدولة دون الصالح نجم الدين أيوب بالذكر. وقصائده فيه كثيرة عديدة جميلة يبدو عليها طابع الشعر التقليدى ، تجرى فى أعطافه الروح المصرية بقدر ، فتكسبه حلاوة خفية وعذوبة . ومن قصائده فيه تلك القصيدة الجميلة التى أثارت إعجاب أكثر من واحد ممن تعرضوا لترجمته :

هى رامةٌ فخذوا يمين الوادى ودعوا السيوف تقر فى الأغماد

يقول فى غزلها الرقيق :

وحذار من لحظات أعين عينها فلكم صرعن بها من الأَغْمَادِ

من كان منكم واثقاً بفؤاده فهناك ما أنا واثق بفؤادى
ياصاحبى ولى بجرعاء الحمى قلب أسير ما له من فادى
سلبته منى يوم بانوا مقلة مكحولة أجفانها بسواد
. . . .
قالت لنا ألف العذار بخدّه فى ميم مبسمه شفاءُ الصادى

إلى آخر هذا الغزل الذى وإن كانت معانيه غير جديدة إلا أنه يحاول أن يصوغها على طريقة غيره فى صور من التركيبات والتشبيهات الجديدة، وأن يدخل عليها بعض الصنعة اللفظية والمعنوية .

ومن مديحها فى فخر الدين يقول :

أصبحت ما لى فى الصبابة مشبه وكذاك فخر الدين فى الأجواد
ملك تملك بالشجاعة والندى قلب الخميس معاً وصدر النادِى
شرفاً بنى شيخ الشيوخ ومن بهم مصر غدت تزهو على بغداد
يلقى الكماة فمن نجا من سيفه غلطا فما ينجو من الأصفاد
وتراه أثبت ما يرى فى معرك والخيل تعثر فى القنا المنآد
حيث النفوس عن الجسوم بمعزل فكأنها غضبى على الأجساد

وصور فى هذه القصيدة كعادته فى كثير من شعره جهاد فخر الدين والمسلمين فى مصر والشام للصليبيين فى الشام أو فى مصر وخاصة فى حملة لويس التاسع التى أصيب فيها فخر الدين بضربة قاتلة ، فى عديد من قصائده .

وجدير بالذكر إشارته إلى ما أولاه من المكرمات . يقول :

يممته فوجدت بحرًا زاخرًا فغنيت عن وشل وورد ثماد
وشهدت فيه فى الحقيقة يوسفًا حسنًا وحُسنى فى عُلاً وسداد
أبدت لى الأيام سود مكاره فلقيت فى نعماهُ بيضَ أيَادى

وقد صحبه فى بعض حربه بالشام ، ودخل معه دمشق سنة ٦٤٥ هـ بعد قتاله الصليبيين .

وتأتى بعد ذلك صلة الشاعر بالملك الصالح نجم الدين ، وكانت كما قلنا قبل توليه الملك ، ثم قويت بعد توليه ، وخاصة بعد ما أداه جمال الدين بن مطروح للصالح من خدمات وما رأى منه من وفاء .

وتولى جمال الدين نظارة الجيوش كما يقول صاحب السلوك (١) . واشترك فى حصار آمد، وصرخد، وبعض المعارك الأخرى خارج مصر. يقول فى حصار آمد (٢)

ولقد ذكرتك والصوارم لمع من حولنا والسمهرية شرع

وقال فى وقعة أخرى :

أصدرتها والعوالى فى الطلى ترد فى موقف يُنَسِّى فيه الوالدَ الولد
وما نسيتك والأرواح سائلة على السيوف ونار الحرب تتقد(٣)

واشترك اشتراكاً سياسياً فيما قام بين الصالح وأخيه العادل بن الكامل ، والملك الناصر داود صاحب الكرك من صراع ، وقع فيه الصالح أسيراً فى يد الناصر ، وبعث إليه العادل يطلب إرساله إليه فى قفص من حديد فلم يقبل الناصر ، وذلك عندما عزم الصالح على قصد مصر وعليها أخوه العادل سنة ٦٣٦ هـ فلم يوفق وانفض عنه رجاله فى الطريق ، وقبضه الناصر عند الكرك (٤) .

وكان جمال الدين بن مطروح فى هذا الوقت قد وصل إلى مصر من الشام ، فلما أسر الصالح واتصلت الرسائل بين العادل والناصر لتسليمه أجابه الناصر بأنه لايرسله إلا بعد أن يبعث إلى دمشق جيشاً لأخذها . قال المقريزى (٥) : «فلما ورد هذا الجواب على الملك العادل أمر بتجهيز العساكر لتخرج إلى الشام ، وخرج محيى الدين بن الجوزى من القاهرة ومعه جمال الدين بن مطروح رسول الصالح

(١) راجع السلوك ص ٢٨٤ .
(٢) ديوان ابن مطروح ١٩٥ .
(٣) الديوان ص ١٩٦ .
(٤) السلوك للمقريزى ٢ - ١/٢٨٤ .
(٥) السلوك ٢ - ١/٢٩٠ .

نجم الدين وكان قد استجار به بعد ما قبض على الصالح نجم الدين وسجن بالكرك » .

وقد تم عند وصول الوفد الذى يضم ابن الجوزى وابن مطروح فتح بيت المقدس مرة ثانية على يد الملك الناصر داود ، فهنأه ابن مطروح ، ومدحه بأبيات يذكر فيها مضاهاته لعمه الملك الناصر صلاح الدين يوسف فى فتح بيت المقدس أولا . قال :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا وناصر طهره آخرا

وما زال ابن مطروح بالشام يسعى لنصرة صاحبه الملك الصالح ، فنزل على صاحب حماة الملك المظفر ، فبعثه فى الرسالة إلى الخوارزمية بالشرق يستحثهم على القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين ، واستصحب معه أيضاً رسالة الناصر داود ومنها « إنى لم أنزل الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لحياته ومهجته خوفاً عليه من أخيه الملك العادل ومن عمه الملك الصالح عماد الدين ، وسأخرجه وأملكه البلاد ، فتحركوا على بلاد حلب وبلاد حمص » .

وأدى الرسالة ، وما زال متردداً بين أنصار الصالح نجم الدين من أمراء البيت الأيوبى فى الشام والعراق حتى عاد الصالح إلى سلطانه . قال المقريزى إن ابن مطروح نزل بحماة عند الملك المظفر ، فصارت حماة ملجأ لكل من انتمى إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين ومنها يرد إليه بمصر كل ما يتجدد بالشام والشرق » .

ولما تولى الملك الصالح نجم الدين السلطنة عاد ابن مطروح إلى مصر من حماة ، وفى سنة ٦٤٢ هـ وجهه الصالح مرة أخرى فى رسالة إلى الخوارزمية بغزة(١) . وفى سنة ٦٤٣ هـ سيره إلى دمشق وزيراً وأميراً ، وأنعم عليه بسبعين فارساً . ثم جاءه الملك الصالح بدمشق فتصدق وأغدق على الناس (٢) . وفى سنة ٦٤٤ جهزه إلى صلخد ، وبها الأمير عز الدين أيبك فما زال به حتى سلم صلخد ، وسار إلى مصر .

وفى سنة ٦٤٥ هـ دخل مع الأمير فخر الدين يوسف دمشق بعد قتال الصليبيين ولقب ابن مطروح بالأمير بعد توليه أعمالا من أعمال الإمارة والملك ، ولبس لباس

---

(١) السلوك ٢ — ٣١٦/١ وراجع ديوانه ص ٢٠٩ .

(٢) السلوك .

أصحاب السيف . وكتب ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة يقول : « وكان ابن مطروح قد دخل بين الخوارزمية والصالح أيوب ، واستنابه أيوب بالشام ولبس ثياب الجند وما كانت تليق به »[١] .

وظلت هذه العلاقة القوية قائمة بين الصالح أيوب وابن مطروح إلى أخريات حياته وقبيل وفاته ، حيث يقول المؤرخون إنه حدثت بينهما جفوة ، كما حدثت الجفوة أيضاً بين السلطان والبهاء زهير ، وعجيب أن يغضب السلطان على الصاحبين معاً فى أخريات حياته .

ولكن هذه الصلات التى ربطت بين ابن مطروح والسلطان ترددت أصداؤها فى شعره كثيراً . ومما قاله ، شكره على إنعامه عليه بدار جميلة . قال[٢] :

دار عمرناها بإنعام من ... لم تخل دار قط من رفده
الملك الصالح رب العلا ... أيوب زاد الله فى مجده
اليمن والتوفيق من حظه ... والنصر والتأييدُ من جنده
أغنى وأقنى فالذى عندنا ... من نعم الله ومن عنده
فقل لحسادى ألا هكذا ... فليصنع الملك مع عبده

وحدثت الجفوة بين السلطان والشاعر فكتب قصائد الاسترضاء والاعتذار ومنها قصيدة يقول فيها :

من مبلغ عنى المليك الأروعا ... عن عبده يحيى مقالا مقنعا
يا ابن الملوك الأكرمين ومن لهم ... همم بها سدوا الفضاء الأوسعا
وإذا النجوم سعت لتدرك مجدهم ... رجعت ولم تبلغ نداهم ظلعا
أيجوز أن أبقى ببابك ظامئاً ... ونداك قد وسع الخلائق أجمعا

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٢٧ .

(٢) ديوان ابن مطروح ١٨١ .

ولو ادعيت بأن مالك ناصح مثلى شهدت بصدق ذاك المدعى
ومع النصيحة فالتخلق بالوفا خلق خلقت عليه لامتطبعا
ومحبـة لدمى ولحمى مازجت وهوى حنيت عليه منى الأضلعا
ولطالما جربتنى فوجدتنى أجدى من المَلإ الكثير وأنفعا
وأسد آراء ، وأثقب فكرة وأشد عارضة وألطف موقعا
ولكم ليال بت فى ديجورهـا لله أدعو خاشعًا متضرعا
حتى رأيتك فوق كسرى رفعة ورأيت دونك فى الجلالة تبعا
فعلام بعد الإصطفاء نبذتنى نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت فى حتى كلام معاشر أقصى مناهم أن أبيت مضيعا
حق العذول بأن يقول فيفترى لكن أُجلك أن يَقول فتسمعا
إن كنْت خنتك ظاهرًا أو باطنا فخسرت دنيائى وآخرتى معا
أأود كُم فى عنفوان شبيبتى وأحول إذ عهد الشبيبة ودعا

وقد أودع فى هذه القصيدة قصته مع نجم الدين ، قصة طالت وكان فيها من الوفاء والحب وتحمل الصعاب والمشاق ، والمخاطرة فى حياة مليئة بالتآمر ، حتى لكأنه كما يقول كان يحيى فى ليال ذات ديجور يدعو الله أن يفرجها ويخرج صبحها ،ولكن الحاسدين والوشاة، وساعدهم تسرع وحمق كانا فى خلق نجم الدين أدتْ به إلى جفوة رجله والصاحب الذى أعانه فى الملمات ، ونُحس فى هذه الأبيات صدق الشاعر وعتابه المروحسْرَته على تصرف سلطانه ذاك التصرف بسماعه الواشين الناقمين الحاقدين وتذكره لكل ما كان منه من وفاء وإخلاص وتضحية بالنفس .

ويبدو أن هذا الاستعطاف من الشاعر لم ينتج نتيجة ، فعاش بقية حياته بعيداً عن البلاط ، وكان قد ألف حياة البلاط بعيداً عن السياسة وكان قد قضى حياته يعمل بالسياسة وشئون الدولة ، حتى إنه قضى بقية عمره كما يقول ابن تغرى بردى خاملا . إلى أن مات .

ولكنه إذا كان قد فقد ثقة السلطان ، فإنه ظلّ على صلة ببعض كبار رجال الدولة أمثال الأمير الخطير فخر الدين الذى لعب دوراً كبيراً فى حملة لويس التاسع على مصر ، والتى شاهدها ابن مطروح وشارك فيها غالباً ، وقتل فخر الدين بطعنة فى المعركة . وبعد النصر وأسر لويس التاسع ثم دفع الدية العظيمة والإفراج عنه ، عاد الملك إلى بلاده وتردد فى مصر أن لويس يهدد بالعودة فلم يكن من شاعرنا إلا أن بادر بنظم هذه الأبيات :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق من قئول نصوح
آجرك الله على ما مضى ... من قتل عباد يسوع المسيح
مذ جئت مصراً تبتغى أخذها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
رحت بأصحابك أودعتهم ... بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً ... فرب غبن قد أتى من نصيح
فاتخذوه ناصحاً إنه ... أنصح من شِق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدها ... والقيد باق والطواشى صبيح

ويسخر فى هذه القصيدة من تشدق الفرنسيين وتهديدهم بالعودة بعد هزيمتهم المنكرة من المصريين ، وبعد بلاء الشعب فى تلك المعركة الخالدة بلاء عظيما ، ويهزأ من دعاية الصليبيين المضللة بأنهم إنما يغزون الشرق وبلاد الإسلام إنقاذاً لقبر المسيح فيقول إن المسيح نفسه عليه السلام لا يرضى عن تلك الحروب الوحشية التى ترتكب باسمه ، ولعلكم إن فكرتم فى عودة تكون آخرتكم ونهايتكم فيستريح منكم المسيح ومن دعاواكم الباطلة ، كذلك يحمل على البابا رجل الدين الذى يحرض على

القتال ، ولا يرى فيه سوى كاهن من كُهّانِ الشؤم الذين لا يعيشون إلا على خراب الناس ، ويقرنه بكاهنى الجاهلية شق وسطيح . ثم يهددهم بعد هذا كله بقوة المصريين ، وبأن المصير سيكون كما كان ، فدار ابن لقمان التى أسر بها الملك باقية ، وكذلك القيد والطواشى صبيح بالدار.

ولم يعش ابن مطروح بعد وقعة المنصورة ، سنة ٦٤٧ هـ ، وانقضاء الدولة الأيوبية بموت المعظم توران شاه وشجرة الدر سوى سنتين وبضعة أشهر إذ توفى فى أخريات سنة ٦٤٩ هـ أوسنة ٦٥٠ هـ على قول بعض المؤرخين ، ولم يبلغ الستين من عمره (١) .

وكانت شخصية ابن مطروح فيما يبدو شخصية الرجل الجاد الصريح الذى يمتاز بالصدق والوفاء وإن كانت تعيبه العصبية للرأى والتشدد وعدم اللين أحياناً قال ابن تغرى بردى : « وكان جواداً ذا مروءة ، متعصباً سمحا حليماً ، حسن الظن بالفقراء ، عارفاً فاضلا » (٢) .

وكان مخلصاً فى صداقاته وفيًّا لمن تعلق بهم ، ويذكر لنا التاريخ وديوان شعره نماذج من هذا الإخلاص والوفاء فى صداقته للبهاء زهير ، وللصالح نجم الدين أيوب : وقد تبادل وصديقه البهاء زهير كثيراً من الشعر يدل على المحبة بينهما ، منه وقد كتب إليه متشوقاً :

رحلتم وطلقت المسرات بعدكم ... ثلاثاً وراجعت الهموم على رغمى
وقد كان همى وحده فيه مقنعى ... فجاء الذى أربى وزاد على همى
سلام على اللذات بعد فراقكم ... إلى أن تعودوا بالسلامة والغنم (٣)

وكان البهاء زهير راسله وهو مريض يسأل عنه فكتب إليه :

أيا من راح عن حالى ... يسائل مشفقاً حدبا

---

(١) راجع وفيات الأعيان ، وشذرات الذهب ٢٤٧/٥ ، والنجوم الزاهرة ٢٤/٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢٧/٧ .
(٣) ديوان ابن مطروح ١٩٤ .

ومن أضحى أخًا لى فى الْ　　وداد ، وفى الحنو أبا
وحقك لو نظرت إلىّ　　كنت تشاهد العجبا
جفونًا تشتكى غرقا　　وقلبــاً يشتكى لهبا
وجسمًا جالت الأسقا　　م فيه فصار منتهبا
تسائل أنفس الوا　　شين عنى أعين الرقبا
فتذكر أنهـــا لمحت　　خيالا فى خلال صبا
فواحربا وهل يشفى الـ　　متيم قول واحربا
فبالود الذى أمسى　　وأضحى بيننا نسبا
إذا أنا مت فاندبنى　　فرب أخ أخا ندبا
وقل مات الغريب فأيـ　　ن من يبكى على الغربا
قضى أسفا كما شاء الغـ　　رام وما قضى أربا

وتحدث فى شعره بخصاله وفيها يفخر بأنفته وعزة نفسه . يقول :

قالت سل الأيام قلت أنا امرو　　تـأبى السؤال خلائقى وتخلقى
وإذا سألت سألت ربـاً راحمًا　　قطعت يد مدت إلى مسترزق
لأكلفن الجرْد ما لم تستطع　　صبرًا عليه يعملات الأينق

واختلفت موضوعات شعره ، ولكن غلب عليها الموضوعات السياسية التى تتناول بعض مشكلات عصره بين أمراء بنى أيوب وملوكهم أو بين قادة الجند وفئاتهم ، أو فى مديح من اتصل بهم وانتصرلهم ، أو فى وصف معارك المسلمين والمصريين مع االصليبيين .

وليس لابن مطروح كما للبهاء زهير شعر كثير فى اللهو والدعابة ، وربما كان ذلك لعزوف منه عن هذه الجوانب ، وهو القائل :

إليك عنى فليس اللهو من شيمى　　فما خلقت لغير المجد والكرم

إذا مددتُ يداً لِلْكأْس مترعة　　　فإن كفى للقرطاس والقلم

ومع هذا فإن له الغزل الرقيق الذى يطرزه بضروب الصنعة المعنوية واللفظية ، ويجرى فيه على طريقة شعراء العصر ، ومنه قوله :

سمعتها تشتكى لدايتها　　　شكوى تذيب القلوب والمهجا
تقول يا دايتى بليت به　　　وما أرى من هواه لى فرجا
ومثل ما بى به ولا عجب　　　هوى بقلبى وقلبه امتزجا
فهل سبيل إلى زيارته　　　ولو ركبت البحار واللججا
وإن درى والدى بقصتنا　　　أراق يا دايتى دمى حرجا
فرحت مما سمعت مبتهجاً　　　كشارب الراح راح مبتهجا

وربما يحس القارئ لهذه المقطوعة بعباراته لبشار بن برد فى بعض غزله الصريح ، ولكنه يتخذ أسلوبه ولا يذهب مذهبه فى التصريح الفاضح ، وربما لمسنا مثل هذه المجاراة فى شعره فى الفخر . وقد مر بنا مثال له لكبار الشعراء الذين اشتهروا بالفخر كالمتنبى ، وأبى فراس والشريف الرضى .

ومن غزله الذى تكسوه الصنعة قوله :

وبيضاءَ كالسمراءِ ليناً وقامة　　　ولم أر غيرى شبه البيض بالسمر
ثنى حسنها طرفى عن البدر إذ بدا　　　وقبلت فاها فاغتبقت من الخمر
ولم ألتفت للظبى لما تلفتت　　　وملت وقد مالت عن الغصن النضر
على أنَّ فى الأغصان منها مشابهاً　　　إذا ما تثنت فى غلائلها الخضر
وقد نسخت لى آية السخط بالرضا　　　ولم أر مثل اليُسْرِ يأْتى على العسر
فبت ويهنينى لذيذ عناقها　　　وقد قيدتنى فى قيود من الشعر
وتكسر لى أجفانها عندضمها　　　فتجبرنى فى ذلك الضم بالكسر

فما شئت من ضم ولثم وغير ذا وقالوا درى الواشى فقلت لهم يدرى

وله مقطوعات فى الهجاء منها فى هجاء الوزير الصاحب شريف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، وكان وزيراً للملك العادل أبى بكر بن أيوب :

لعن الله صاعدا وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلا واحدا ثم واحدا

ويُنسب البيتان للبهاء زهير كذلك(١)

ومن شعره يهجو بعض المخنثين :

يأتيك كالقينة مكحولة عيناه مخضوب بنان اليد
يسخر بالسمر وما فعله من فعلهم عندى بمستبعد
ياذا الذى أعنيه من سره يومك فالويل له فى غد

وقال يهجو أهل دمشق — وقد أقام بها زمناً — :

تخذتم السبت يوم عيد وهذه سنة اليهود
وكان يكفيكم ضلالا شربكم الماء من يزيد

وله شعر فى الخوف من الموت ، والتوبة والضراعة إلى الله، قاله أثناء مرضه الأخير منه :

تجزع للموت هذا الجزع ورحمة ربك فيها الطمع
ولو بذنوب الورى جئته فرحمته كلَّ شىءٍ تسع

ويقول :

يا من إذا دعاه عبده وجده ولا يخيب لديه قصد من قصده

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٥٨ .

امدد يديك بإحسان ومغفرة لمذنب مد مضطراً إليك يده

وقال متضرعاً إلى ربه :

يا أيها الشامخ فى قربه يا أيها الظاهر فى حجبه
بالباب كلب وجل خائف من طول ماأسلف من ذنبه
جاءك يستغفر ما قد جنى ملقى من الذل على جنبه
وهو مع الخوف شديد الرجا فأنت يا مولاى أولى به
منكس من خجل رأسه باسط خديه على تربه
فهل له غيرك من راحم هل يرحم الكلب سوى ربه
وهل له منك طمأنينة تدخل بالأمن على قلبه

ولا يزال كذلك فى هذا اللون من الشعر الذى قاله فى مرضه وضعفه ، ويذكرنا بشعر أبى نواس كذلك الذى قاله فى مرضه .

وعود لنعرض ونلخص فنه الشعرى فنقول إنه كان فى موضوعاته يجرى على ما جرى عليه الشعراء، ولكنه شغل بمشكلات عصره وحياته وحياة ممدوحيه من الرؤساء ، كما قال الشعر الرقيق فى الغزل وتبادله مع بعض معاصريه من الشعراء كما جرى بينه وبين الشاعر ابن الجزار المصرى ، وبين صديقه البهاء زهير [1] .

وكان شعره سهلا ، وإن عمد أحياناً إلى اللون التقليدى ، وإلى ضروب من الصياغة الرصينة يحاكى بها الشعراء القدامى إلا أن غالبية شعره سهلة اللفظ قريبة المعانى ، ولكن تنقصه خفة الروح التى امتاز بها صديقه البهاء زهير ، وقد عللنا هذا بأنه كان رجل دولة وسياسة ، وجد ، ولم يكن كثير الميل للهو كغيره من شعراء العصر ، لهذا بدت على شعره جهامة .

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٢٩ .

زكى الدين بن أبي الأصبع ، الشاعر الناقد

عاش زكى الدين فى هذه المرحلة التى عاشها البهاء زهير وابن مطروح ، أى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، فقد ولد سنة تسع وثمانين ، أو خمس وتسعين بمصر[1] وتوفى سنة ٦٥٤ هـ .

تلقى علومه على شيوخ عصره ونبغ فى علوم العربية ، وخاصة فى الأدب واللغة والنحو وتفسير القرآن ، وصف بأنه « الشاعر المشهور » ، « الإمام فى الأدب » ، ووصف شعره بأنه رائق . كذلك عرف بأنه فقيه شافعى[2] .

واتصل بجماعة من ملوك وأمراء عصره ، ورافق الملك المعظم عيسى بن العادل ابن أيوب صاحب دمشق . قال صاحب معاهد التنصيص « ومدح الأشرف موسى »[3] ، وكان الأشرف نائباً على الإمارات الشرقية من الدولة الأيوبية . وقد لزمه زماناً .

وأكثر ابن أبي الأصبع من الرحلات فى الشام والعراق ثم عاد إلى مصر . وله شعر فى مديح هؤلاء الملوك ، أشار إلى بعضه فى «تحرير التحبير» واقتبس منه . ومن بين من ذكر من ممدوحيه الملك المعظم عيسى ، والملك الأشرف موسى ، والملك الظاهر الخضر بن صلاح الدين ، والملك محمد بن العادل أبي بكر ، كما مدح كبار الدولة الأيوبية يذكر منهم فخر الدين عثمان بن قزل .

والتقى بجماعة من علماء عصره فأخذ عنهم كالعلامة زكى الدين محمد بن عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المحدث ، وبالقاضى السعيد بن سناء الملك الشاعر المشهور ، وجماعة من شعراء المصريين كالسراج الوراق ، وعفيف الدين التلمسانى ، وأبي الحسين الجزار .

وينقسم شعره قسمين : شعر فى المديح والمناسبات والمطارحات بينه وبين شعراء عصره وفى موضوعات الشعر التقليدية الأخرى كالوصف والهجاء والرثاء وما إليها ،

---

(١) راجع مقدمة تحرير التحبير نسخة الآستانة الخطية ترجمت بقلم أحمد زين عبد القادر بن مكتوم .

(٢) السلوك للمقريزى ١/١/٤٠١ .

(٣) معاهد التنصيص ٤/١٨٠ ، وتحرير التحبير .

والقسم الثانى فى المديح النبوى سماه « صحائح المدائح »[1] فى مدح النبىِ والخلفاء الأربعة ، ومدائح أهل بيته عليهم السلام .

ومن مديحه الذى استغل فيه فنون البديع قوله يمدح الملك الأشرف موسى :

فضحت الحَيا والبحر جوداً فقد بكى الـ ... حيا من حياءٍ منك والتطم البحر

ويقول من هذه القصيدة :

عيون معانيها صحاح وأعين الـ ... ـملاح مراض فى لواحظها كسر

هى السحر فاعجب لامرئٍ جاءَ يبتغى ... عواطف من موسى وصنعته السحر

ويكثر العلماء من الاستشهاد بشعره فى الغزل والمجون ، وغزله متوسط يكثر فيه من الصنعة ومثاله قوله :

أعر مقلتى إن كنت خير موافق ... دموعــاً لتبكى فقد حب مفارق

فقد نضبت يوم الوادع مدامعى ... وشابت لتشتيت الفراق مفارقى

ومنه قوله :

تصدق بوصل إن دمعى سائل ... وزود فؤادى نظرة فهو راحل

إذا جل ليلى أحيت الوجد أدمع ... همت فهى للصبر الجميل قواتل

وقوله :

فديت التى إذ ودعتنى أودعت ... من اللفظ سمعى ساعة البين جوهرا

فلما التقينا رد دمعى لنحرها ... وديعتها فهى اللآلى التى ترى

بكت ورنت نحوى فجرد لحظها ... من الجفن سيفاً بالدُّموعِ مجوهرا

ومنه من التصنع البين على سبيل إبداء البراعة فى استخدام البديع فى النظم :

---

(١) بديع القرآن .

تبسّم لما أن بكيت من الهجر فقلت ترى دمعى فقال أرى ثغرى
فديتك لما أن بكيت تنظمت بفيك لآلى الدمع عقداً من الدرّ
فلا تدعى يا شاعر الثغر صنعة فكاتب دمعى قال ذا النظم من ثغرى

ومن خمرياته ومجونه قوله على طريقته نفسها فى استخدام البديع :

وساق إذا ما ضاحك الكأس قابلت وقائعها من ثغره اللولؤ الرطبا
خشيت وقد أغضى ضجيعى على الدجا فأسبل دون الصبح من ثغره حجبا
وقسمت شمس الطاس بالكأس أنجما وياطول ليل شمسه قسمت شهبا

وفى بعض هجائه فحش كالذى قاله فى قواد ادعى الفقه :

إن فلانا أكرم الناس لا يمنع ذا الحاجة من فلسه
وهو فقيه ذو اجتهاد وقد نص على التقليد فى درسه
فيحسن البحث على وجهه ويوجب الدخل على نفسه

ومنه هجاؤه فى يهودى طبيب :

رأيت أبا الخَيْرِ اليهودىَّ ماسكاً بقارورة كالورس راق حليبها
وقد رش منها فوق صفحة خده وقال لقد أحيا فؤادى طيبها
فقلت له ما هذه قال بولة لأسود يشفى الداء منى قضيبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كل نفس أين حل حبيبها

ومنه قوله فى قيم حمام :

وقيم كلمت جسمى أنامله بغير ألسنة تكليم خرصان
إن أمسك اليد منى كاد يَكسرها أو سرَّح الشعر من فودىَّ أدمانى
فليس يمسك إمساكاً بمعرفة ولا يسرح تسريحاً بإحسان

وله فى موضوعات أخرى كالحكمة والوعظ مثل أبياته :

من يذمم الدنيا بظلم فإنى ... بطريق الإنصاف أثنى عليها
وعظتنـــا بكل شىء لو انَّا ... حين جادت بالوعظ من مصطفيها
نصحتنا فلم نر النصح نصحا ... حين أبدت لأهلها ما لديها
أعلمتنـــا أن المآل يقينـــا ... للبلى حين حددت عصريها
كم أرتنا مصارع الأهل والأحبا ... ب لو نفيق بين يديهـــا
يوم بؤس لها ويوم رخاء ... فتزود ما شئت من يوميها
وتيقن زوال ذاك وهـــذا ... تسل عما تراه من حالتيها
دار زاد لمن تزود منها ... وغرور لمن يميل إليهـــا

هذا وشعره فى المديح النبوى يجرى على سنن المدائح المعروفة فى عصره والعصور التالية . وقد ذكر فى بديع القرآن[1] أن له شعراً فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، منها قصيدة طويلة نظم فيها ما فى الشفا للقاضى عياض من دلائل نبوة رسول الله وخصائصه وعدتها ٣١٥ بيتاً أولها :

بسكر الصبا أعطافها تتأود ... فألحاظها سكرا علينا تعربد

ثم يقول : « والقصيدة مشهورة ، من أراد الوقوف عليها بجملتها وجدها فى جزء وحده أفردته من شعرى » .

ابن أبى الأصبع المؤلف الناقد

قال ابن تغرى بردى « وهو صاحب التصانيف المفيدة فى الأدب وغيره » [2] . وقال ابن شاكر « الإمام فى الأدب ، له تصانيف حسنة فى الأدب » [3] . وتذكر المراجع له مجموعة مؤلفات فى القرآن والأدب والنقد ، بديع القرآن ، وبيان البرهان فى إعجاز القرآن ، والجواهر السوانح فى أسرار الفواتح . ويذكر بعض المؤلفين له

---

(١) بديع القرآن .
(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧ .
(٣) فوات الوفيات ١/ ٢٩٤ .

كتابين فى الإعجاز دون الإشارة إليهما باسمهما أحياناً ويقصد بهما كتابا البديع والبرهان، ولم يصلنا شيء عن البرهان، فإن معظم من نقلوا عنه أخذوا عن كتابى « بديع القرآن» و«تحرير التحبير»، وأكثر من نقلوا عنه تقى الدين السبكى فى عروس الأفراح، وابن حجة الحموى فى الخزانة، والبغدادى فى الخزانة أيضاً.

وقد أشار إلى بيان البرهان فى كتاب البديع. وأما كتاب الجواهر السوانح [١] فقد ذكر فيه ابتداء ات السور، جملتها وتفصيلها، ومفرداتها ومركباتها ومعجماتها ومعرباتها، ونظر فى أعداد حروفها وما يوافق أعدادها من العدد الحسابى، وما نسب إليه من المعانى . . إلخ.

وله كتاب فى الأمثال جمع فيه الأمثال من شعر أبى تمام والمتنبى، وما توارد فيه المتنبى مع أبى تمام، وقدم لذلك بالأمثال من القرآن، والأمثال من الأشعار السبعة، والحماسة، وختم الجميع بأمثال العامة[٢].

وأجل كتبه بعد البديع «تحرير التحبير» فى البديع عامة، وقد ذكر فيه أبواب البديع التى عرفت إلى عصره وزاد عليها هو نفسه جملة أبواب.

وقد اهتم العلماء بهذا الكتاب وقرظوه. قال ابن العماد فى « شذرات الذهب»: صنف كتاب " تحرير التحبير " فى البديع، لم يصنف مثله ».

وله كتاب فى الانتصار لقدامة بن جعفر يرد فيه على من انتقده فى كتاب « نقد الشعر » أمثال الآمدى، وابن رشيق القيروانى، وضياء الدين بن الأثير. وسمى هذا الكتاب « الميزان فى الترجيح بين كلام قدامة وخصومه ». وقد أشار إلى هذا الكتاب فى تحرير التحبير فى أكثر من موضع.

---

(١) وربما كان اسمه الخواطر السوانح، وقد ذكر معه كتاباً آخر فى بديع القرآن سماه «الكافلة بتأويل تلك عشرة كاملة».

(٢) شذرات الذهب ٥/٢٦٥.

المراجع

أتابكة الموصل لعز الدين بن الأثير — ضمن مجموعة Receilles des Historiens des Crossades; Historiens orientaux Vol. II

أحسن التقاسيم — للقدسى

أخبار الدولة السلجوقية

أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة — دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٤٩ م .

إرشاد الأريب لمعرفة الأديب « معجم الأدباء » لياقوت ط الدكتور فريد الرفاعى وطبعة Gibb Memorial ؛

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء

بدائع البدائه لابن ظافر

البداية والنهاية لابن كثير — طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢ ه

تاريخ الشعوب الإسلامية — مترجم — لكارل بروكلمان

تاريخ العرب — مطول — للدكتور فيليب حتى

تاريخ الموصل لسليمان صائغ ط بيروت سنة ١٩٢٨ م

تراجم رجال القرنين السادس والسابع « ذيل الروضتين » -- لأبى شامة

ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى — طبع مصر سنة ١٣٠٠ ه

الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير لعلى بن أنجب بن الساعى

الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى للدكتور عبد اللطيف حمزة طبع مصر سنة ١٩٤٧

حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبى — ط هندية بمصر سنة ١٢١٥ ه

الحروب الصليبية للدكتور حسن حبشى

الحياة العقلية فى مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك للدكتور أحمد أحمد بدوى مصر سنة ١٩٥٤ م

خطط الشام ودمشق لمحمد كرد على طبع دمشق سنة ١٩٤٥
خطط دمشق لصلاح المنجد
خطط الموصل – لأحمد الصوفى طبع الموصل سنة ١٩٥٣
خريدة القصر لعماد الدين الأصبهانى – قسم شعراء مصر ، وقسم شعراء الشام
خزانة الأدب – لابن حجة الحموى – طبع مصر ١٣٩٤ هـ
دائرة المعارف الإسلامية
درر الحبب فى تاريخ حلب
الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم جمع ابن عبد الظاهر – مخطوط مصور
الدر الثمين فى سيرة نور الدين – مخطوط بالبلدية بإسكندرية
دمشق الشام لجان سوفاجيه (مترجم)
دمشق فى العصر الأيوبى لمحمد ياسين الحموى ط دمشق سنة ١٩٤٦
الدولة الخوارزمية
ديوان ابن التعاويذى
ديوان البهاء زهير
ديوان ابن مطروح
ديوان على بن مقرب الأحسائى – ط حجرية بالهند
ديوان عمر بن الوردى ط حجرية سنة ١٣٠٠ هـ
ديوان عمر بن الفارض
ديوان الأبيوردى
« الروضتين » لأبى شامة – طبع مصر سنة ١٢٨٨ هـ
سيرة القاهرة – ستانلى لانبول وترجمة دكتور حسن إبراهيم حسن
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد
الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى – حافظ حمدى
شرح مقامات الحريرى للشريشى
شرح مقامات الحريرى للمطرازى – مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية
الشعر الأندلسى لجارسيا جوميز (مترجم)

رحلة ابن جبير — ط Gibb Memorial
الرسالة المصرية لابن أبي الصلت — مجموعة نوادر المخطوطات نشر عبدالسلام هارون
عروس الأفراح لتاج الدين السبكي — طبع بولاق بمصر سنة ١٣١٧ هـ
العمدة — لابن رشيق طبع التجارية سنة ١٩٥٥
الفاضل من إنشاء الفاضل — اختيار ابن نباتة المصرى — مخطوط بدار الكتب المصرية
الفن ومذاهبه فى النثر العربى — للدكتور شوقى ضيف لجنة التأليف بمصر سنة ١٩٤٦ م
فوات الوفيات — لابن شاكر ط محيى الدين طبع بمصر سنة ١٩٥٢
الفنون الإسلامية — م . س . ديماند (ترجمة أحمد محمد عيسى) طبع المعارف بمصر سنة ١٩٥٤
فنون الإسلام . زكى محمد حسن طبع مصر سنة ١٩٤٧ م
الكامل فى التاريخ لعز الدين بن الأثير .
الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة
مأمون بنى أيوب — للدكتور أحمد أحمد بدوى
المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء طبع القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ
مرآة الجنان — لليافعى ط حيدر آباد بالهند سنة ١٣٤٠ هـ
مرآة الزمان — ليوسف قزاوغلى — حـ ٨ ط الهند
المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ط بولاق ، طبع محيى الدين بالتجارية
المسالك والممالك لابن خرداذبة
المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهى
مصر فى العصور الوسطى — للدكتور حسن إبراهيم حسن
معجم البلدان . لياقوت
معجم السفر — للسلفى أبو طاهر — مخطوط مصور
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب بتحقيق الدكتور الشيال
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى طبع مصر سنة ١٣٢٦ هـ

النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى
نهاية الأرب للنويرى
النوادر السلطانية — لابن شداد طبع مصر سنة ١٩٠٣ م
نزهة الألباء — لابن الإنبارى — ط مصر سنة ١٢٩٤ هـ
وفيات الأعيان لابن خلكان ط محي الدين عبد الحميد — مصر سنة ١٩٥٢م
الوافى بالوفيات للصفدى جزء واحد
الوشى المرقوم فى حل المنظوم ونظم المنثور لضياء الدين بن الأثير

المراجع الأجنبية

Ameer Ali : A Short History of Saracens.

Arnold : The Legacy of Islam.

Arnold : Painting in Islam.

Browne : A Literary History of Persia.

Gibb H.A.R. : Arabic Literature - An Introduction London 1926.

Encyclopaedia Biitannica.

Lanepoole : Saladin.

,, : The Mohammedan Dynasties. London 1895.

Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphates. Cambridge 1905.

Nicholson : A Literary History of Arabs. London 1907.

Receilles des Historiens des Crossades; Historiens Orientaux Vol. II.

الفهارس

فهرس الأعلام

ب

ت

ث

ج

ح

ش

ص

ض

ط

ظ

غ

ف

ن

هـ

فهرس بأسماء الكتب

الواردة بالكتاب

فهرس الموضوعات

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨

الأدب فى العصر الأيوبى

يتعرض هذا الكتاب بالتأريخ الأدبى لعصر من عصور اليقظة العربية الإسلامية والمقاومة المستبسلة ضد أطماع الزحف الأوربى فى صورة موجات من الحملات الصليبية، فهو عصر يقظة سياسية وعلمية وأدبية لعب فيه الشعب العربى فى مصر والشام أدواراً خالدة. ويصور دور الأدب فى المقاومة، والحفاظ على التراث العربى الإسلامى. ويؤرخ للاتجاهات الثقافية والفكرية، ويربط فيها بين أجزاء العالم العربى والإسلامى من مشرقه إلى مغربه. ويبرز دور الحواضر الإسلامية الكبرى وخاصة حواضر الشام ومصر كدمشق وحلب والقاهرة والإسكندرية وقوص فى إخراج العلماء والمفكرين والأدباء ممن كان لهم ذكر وجهد فى الأدب والعلم طوال قرن من الزمان، كما يهتم بإبراز الخصائص الفنية لأدب ذلك العصر، ويدرس زعماء الكتابة والشعر فيه.

ص
٩٠



دار المعارف بمصر

٥٢٧٤